
وبه نستعین

جامعة أم القرى
بمكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

في عصر الأسرة الزنكية

٤٩١ - ٥٦٩ هـ / ١٠٩٧ - ١١٧٣ م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد المعيد
مسفر سالم الغامدي

بإشراف الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع



١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ
١٩٨٢ - ١٩٨٣ م

قال تعالى :-

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »

سورة التوبة آية "٤٠"

المحتويـــــات

الموضــــــوع	الصفحــــة


المقدمة

المقدمـــة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحـث

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، سيدنا محمد وعلـى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . وبعد . فان الامة الاسلاميـة قد ابتليت بكثير من الاعداء منذ ظهور الدعوة الاسلامية الى يومنا هذا ، ففـى أوائل القرن الخامس الهجرى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تيسر لجحافل الصليبيين الذين خرجوا من اوروبا غزو بلاد الشام والجزيرة ، وتأسيس أربـــع امارات صليبية فى قلب العالم الاسلامى فى غمرة الضعف والتفكك الذى أصـاب المسلمين نتيجة انصرافهم عن واجب الجهاد الاسلامى ، ودخولهم فى منازعات طائفية ومذهبية . وعلى الرغم من هذا فقد رفع المسلمون - بعد فوات الاوان - راية الجهاد عالية لتطهير البلاد الاسلامية من دنس هؤلاء الصليبيين .

ولما كانت البلاد الاسلامية قد انقسمت وقتذاك الى عدد من الامارات والدويلات الصغيرة ، والتى كانت تستظل بظل الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطميـة فى القاهرة ، فقد مرت الدعوة الى الجهاد الاسلامى بعدة مراحل ، بدأت سنـة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م بمحاولة كربوقا صاحب الموصل منع سقوط أنطاكية بيـد الصليبيين ثم تلتها محاولات من زعماء منطقة الجزيرة وبلاد الشام ، حتى تمكـن عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م من استرداد الرها أولى الامـارات الصليبية فى المشرق الاسلامى ، بعد مرور أكثر من تسعة وأربعين عاما على استيلاء الصليبيين عليها .

وقد جاءت أهمية موضوع الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر الأسـرة الزنكية من ناحيتين : الاولى انها تلقى الاضواء على الجهود الجبارة التى بذلها مؤسس الاسرة الزنكية عماد الدين فى سبيل توحيد قوى الشام والجزيرة للوقـوف فى وجه الصليبيين ، تلك الجهود التى أثمرت عن استرداد الرها من الصليبيين ،

وكذلك اجهود ابنه نور الدين محمود الذى نجح فى تضييق الخناق على الصليبيين وحصرهم فى المنطقة الجبلية الواقعة الى الغرب من الاردن بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، ثم ماصاحب ذلك من اثارة الحماس فى نفوس المسلمين لقتال الصليبيين والتمكن منهم . ومن ناحية ثانية جاءت أهمية موضوع الرسالة من أن العالم الاسلامى يمر فى الوقت الحاضر بما يشبه الفترة التى أعقبت دخول الصليبيين الى بلاد الشام والجزيرة من تعدد للقوى واختلاف فى الاراء والاهداف. فما أحوج الامة الاسلامية الى احياء فكرة الجهاد الاسلامى ضد صليبيى القرن العشرين الذين طردوا العرب من فلسطين وسيطروا على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

وقد اعتمدت الرسالة على مصادر أصلية منها كتاب ذيل تاريخ دمشق لمؤلفه أبى يعلى حمزة بن على بن أسد التميمى المعروف بابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٠ هـ / ١١٦٠ م . وينتمى ابن القلانسى الى احدى الاسر العريقة فى دمشق وكمعظم معاصريه تلقى ابن القلانسى تعليما جيدا فى الأدب والفقه والشريعة (١). وشغل ابن القلانسى العديد من الاعمال الادارية فى دولة ظهير الدين طغتكين وخلفائه بدمشق ، حتى أصبح مسئولا بديوان الرسائل . وقد أتاح له هذا المنصب الاطلاع على كثير من أسرار السياسة عن طريق الوثائق المحفوظة بهذا الديوان .(٢)

جعل ابن القلانسى كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ذيلا على كتاب المؤرخ المشهور

---

(١) Gibb, Damascus Chronicle of the Crusades, p.p. 7-8.

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

هلال الصابى الذى ينتهى بحوادث سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦م ، ومن الملاحظ أن تاريخ ابن القلانسى لم يقتصر على تاريخ مدينة دمشق بل عالج فيه كثيرا من الحوادث السياسية التى وقعت فى الشام والعراق والجزيرة ومصر ، ولكنه عالجها بصورة مقتضبة(١) . هذا فضلا عن اهتمامه بأحوال الامارات الصليبية فى بلاد الشام وماكان بينها وبين القوى الاسلامية فى الموصل وحلب من نزاع مستمر(٢) . وقد أفاد البحث من كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى عند دراسة تفكك وحدة السلاجقة فى الشام عقب وفاة تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م ، وقيام النزاع بين ولديه رضوان فى حلب ودقاق فى دمشق ذلك النزاع الذى لم يقف عند حد الخصومة الشخصية بينهما ، وانما تعداها الى أن هذا النزاع اصبح نزاعا بين حلب ودمشق وما سببه هذا النزاع من أثر فى نجاح الحملة الصليبية الاولى (٣) . واستفاد البحث من تاريخ ابن القلانسى ايضا عند الحديث عن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين والجهود التى بذلها طغتكين فى الانضمام الى زعماء منطقة الجزيرة كمودود سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣م ، ونجم الدين ايلغازى سنة ٥١٣ هـ/١١١٩م(٤) .

ولم تقف فائدة ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات قيمة عن الجهود التى بذلها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس فى الدفاع عنها ومنعها من السقوط بيد الصليبيين ، وما قام به من

---

(١) انظر ابن القلانسى ، ص ٨٦ ، ٢٦٣ .
(٢) Gibb, op.cit, p.p. 10-11.
(٣) انظر ابن القلانسى ، ص ١٣٠-١٣٢ .
(٤) انظر طيلى ، ص

محاولة الاستعانة بالقوى الاسلامية كطلب المساعدة من ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وذهابه الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية لطلب المساعدة منها (١) . كما أمدنا ابن القلانسى بمعلومات قيمة ونادرة عن فرقة الاسماعيلية والدور الذى قامت به فى بلاد الشام وما أحدثته من فرقة بين صفوف المسلمين ، والعلاقات الوطيدة التى كانت بين زعماء هذه الفرقة والصليبيين (٢) .
وعند دراسة موضوع الجهاد الاسلامى فى عصر عماد الدين زنكى أمدنا ابن القلانسى بمعلومات قيمة عن الدور الكبير الذى قام به عماد الدين زنكى فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام ، وما بذله من جهود جبارة فى سبيل ضم دمشق الى حكمه (٣) . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد أمدنا ابن القلانسى بمعلومات قيمة عن جهود عماد الدين ونائبه فى حلب سوارين ايتكين ضد الصليبيين تلك الجهود التى أثمرت عن استرداد الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م وقد أفاض ابن القلانسى فى الحديث عن هذا الحدث الهام ، وما ترتب عليه من نتائج هامة كان لها الاثر الكبير على الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وكذلك عن الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م وفشلها فى استرجاع الرها .
وأمد ابن القلانسى البحث ايضا بمعلومات وافية عن جهود نور الدين محمود فى سبيل توحيد بلاد الشام وضمها تحت لوائه مثل استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م(٤).

---

(١) انظر ابن القلانسى ، ص ١٥٦ ، ١٦٠-١٦١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ - ٢٢٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٠-٢٧٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٩-٢٩٩ .

ومن المصادر الاصلية التى أفاد منها البحث تاريخ العظيمى لمؤلفه أبوعبدالله محمد الرئيس أبى الحسن على بن محمد بن أحمد التنوخى المعروف بابن العظيمى الحلبي ، ولد سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠م ومات بعد سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م[١] . وينتمى العظيمى الى أسرة تنوخيه شارك معظم أفرادها فى حوادث حلب السياسية ، بينما تولى هو التدريس فى احدى المدارس بحلب ، فى الوقت الذى لم يشغله ذلك عن طلب العلم . ولما أنس العظيمى فى نفسه القدرة على قرض الشعر سافر الى دمشق وتعرف بها على ابن عساكر صاحب كتاب تاريخ مدينة دمشق ، ثم سافر الى بغداد وتعرف على السمعاني . وكان العظيمى من شعراء الاراتقة اذ أعجب بجهود بعض زعماء هذه الاسرة وما بذلوه فى جهاد الصليبيين ، كما مدح آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب . ولم يقف العظيمى عند هذا الحد بل اتصل بعماد الدين زنكى ومدحه بأشعار كثيرة[٢] .

وتاريخ العظيمى تاريخ عام مختصر سار فيه مؤلفه على طريقة الحوليات[٣] .

---

(١) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٢) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣ هـ وسنة ٥٢٧ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٨٠ .

(٣) نشر المستشرق كلود كاهن C. Cahen ، القسم الاخير من كتاب العظيمى وهو يشمل حوادث السنوات ٤٥٥ - ٥٣٨ هـ فى المجلة الاسيوية
Journal Asiatique Tome, cc XXX(1738)
p.p. 353-448.
، العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٤ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

ورغم الاختصار الذى سلكه مؤلفه فقد احتوى على معلومات قيمة أفادت البحث فى بعض فصوله كالدور الذى قام به كل من جكرمش وسقمان بن أرتق سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣م وهزيمتها للصليبيين فى حران ، وما قام به نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٣ هـ/١١١٩م من هزيمة للصليبيين فى دانيث بالقرب من حلب(١) . كما أمد تاريخ العظيمى البحث بمعلومات قيمة عند دراسة الدور الذى قام به عماد الدين زنكى فى بعث حركة الجهاد الاسلامى وقيامه بتوحيد الجبهة الاسلامية ، وعند دراسة العلاقات البيزنطية الصليبية زمن عماد الدين زنكى وما قام به عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار بن ايتكين من جهود جبارة فى صد الصليبيين عن شيزر سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧م(٢) .

ولم تقتصر فائدة كتاب العظيمى عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات طيبة عند الحديث عن جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين واستيلائه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م(٣) . وعلى الرغم من فائدة تاريخ العظيمى للبحث ، الا أن الاختصار الشديد فى المعلومات التى أوردها لاتفى أحيانا بما يحتاجه البحث من التفصيل مما يضطر الباحث معه الى الرجوع الى مصادر اخرى قد يكون أصحابها قد اعتمدوا على تاريخ العظيمى كابن العديم وابن الاثير . واذا كان الحال هكذا فلا يستبعد ان يكون العظيمى قد اختصر كتابه الذى بين أيدينا عن كتاب آخر مفقود هو اكبر حجما وأغزر مادة(٤).

---

(١) انظر مايلى ص

(٢) انظر مايلى ص

(٣) انظر مايلى ص

(٤) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث السنوات ٥٣٣-٥٣٤ ، وعن اعتماد ابن العديم وابن الاثير على تاريخ العظيمى ، انظر: ابن العديم ، بغية الطلب ج ٣ ، ورقة ٢٧١ ب ، ٢٩٠ أ ، وابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٥ .

ومن أهم المصادر التي أفاد منها البحث كتاب الاعتبار لمؤلفه ابوالمظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الشيزرى . ولد سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م وتوفى سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨م . وكانت لاسامه اليد الطولى فى الادب والكتابة والشعر والفروسية . جمع اسامه الى الفروسيه حب المغامرة والصيد بالاضافة الى حبه فى العمل بالسياسة(١) .

عاش أسامة فى كنف اسرته العربية التى استطاعت الحفاظ على شيزر من السقوط بيد الصليبيين ، وصرف اسامه معظم ايام شبابه بشيزر خلال امارة عمه ابوالعساكر سلطان حيث جرت معظم الحوادث التى دونها اسامة بن منقذ فى مذكراته وهوشا هد عيان(٢) . وفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨م استوحش اسامة من عمه ابوالعساكر سلطان فغادر شيزر الى دمشق ومكث بها عدة سنوات فى كنف اسرة طغتكين والقائم على امر هذه الاسرة - وقتذاك - معين الدين أنر . ولما اشتهر به اسامة بن منقذ من البراعة فقد استطاع خلال اقامته بدمشق الاشتراك فى كثير من حوادث دمشق ، الا أن اقامته بدمشق لم تطل فقد غادرها فى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م الى مصر حيث مكث بها فترة من الزمن

---

(١) ابن ايبك الدوادارى ، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، ورقة ١٦٥ب ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ص ١٩٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص١٠٧ ، ياقوت ، معجم الادباء ، جـ٢ ص١٨٧-١٩٦ ، الاصفهانى ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٤٩٧ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص ر-ز .

(٢) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٠٠ ، ١٢٦ .

استطاع خلالها أن يكسب عطف حكام القاهرة الفاطميين ، الا أنه لم يلبث أن حامت حوله الشبهات فغادر مصر الى الشام خوفا من القتل (١) .

وكتاب الاعتبار قل ان تجد مايشبهه من كتب التاريخ فى العصور الوسطى اذ يتضمن خلاصة تجارب اسامة ، وكل ماصادفه فى حياته من حوادث سواء منها ماكان فى الصيد او السياسة أو النكتة مع تصوير رائع للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وهى معلومات قل ان توجد فى كتب التاريخ (٢) . وترجع أهمية كتاب الاعتبار لموضوع الرسالة ان مؤلفه كان شاهد عيان لكثير من حوادث بلاد الشام فى الفترة التى تضمنها موضوع البحث بالاضافة الى أن مؤلفه كان قد اشترك فى صنع كثير من الحوادث السياسية سواء منها ماحدث فى بلاد الشام او الجزيرة او مصر (٣) .

وقد أفاد البحث من كتاب الاعتبار عند دراسة علاقة امارة شيزر ببقية القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة . وأمدنا اسامة بن منقذ ايضا بمعلومات كان لها الفائدة فى معرفة ماكان بين أمراء شيزر وبين الصليبيين من علاقات حطت زعماء بنى منقذ على القيام بدور الوساطة بشأن اطلاق سراح بلد وين الثانى ملك بيت المقدس من أسر زعماء حلب سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م (٤) .

---

(١) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤ ، ٦ ، ٣٥ ، العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ .
(٢) انظر العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ ، شاركر مصطفى التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠-٣٠ .
(٤) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٢٢٢ ، انظر مايلى ص

وعند الحديث عن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى فقد زودنا اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار بمعلومات فى غاية الاهمية عن دور عمه ابوالعساكر سلطان بن منقذ فى الوقوف الى جانب شرف الدولة مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة (٥٠٦-٥٠٧هـ /١١١٢-١١١٣م)(١) . ولم تقتصر فائدة كتاب اسامة بن منقذ عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات عن محاولات عماد الدين فى الاستيلاء على دمشق وضمها الى حوزته ، ولم يقف أسامة عند حد ذكر ذلك بل كان له دور بارز فى الوقوف الى جانب حكام دمشق لمنع عماد الدين من الاستيلاء على دمشق(٢) .

وعند دراسة موضوع الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود وما صاحب تلك الفترة من تقلب للاوضاع السياسية فى مصر ، أمدنا أسامة ابن منقذ بمعلومات ذات أهمية فى معرفة ضعف الخلافة الفاطمية ، وبصورة عفوية أوضح أسامة دوره فى تلك الحوادث التى أدت الى خروج عسقلان آخر المعاقل الفاطمية فى بلاد الشام الى الصليبيين سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م(٣) .

أما أوجه القصور فى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ فهو عدم مراعاة مؤلفه للترتيب الزمنى وعدم اخضاع معلوماته لاى ضابط او سلطان ، بالاضافة الى أنه من الصعب على الباحث استخراج المادة التاريخية دون عناء ومشقة ، وهذا راجع الى أن أسامة لم يدون هذه المذكرات للتأريخ فى حد ذاته(٤) .

---

(١) انظر مايلى ص
(٢) انظر مايلى ص
(٣) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠-١٦ ، وانظر مايلى ص
(٤) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ ، ٩٣ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ .

ومن المصادر الهامة لموضوع الرسالة كتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والامم لابى الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن على بن محمد المشهور بابن الجوزى . ولد ببغداد سنة ٥١٠ هـ/١١١٦م وتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ويعتبر ابن الجوزى من كبار العلماء المسلمين ، صنف تصانيف كثيرة فى شتى انواع العلوم كالتفسير والحديث والفقه والوعظ والزهد ، والطب ، والفلك ، والتاريخ وغير ذلك ، وتصانيفه فى التاريخ تعد بالعشرات من المؤلفات (١) .

وكتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والامم كتاب تاريخ اسلامى عام على نظام الحوليات ، يقع فى عشرة مجلدات النصف الاول منها لا يزال مخطوط ، بينما طبع النصف الاخير الذى يتناول التاريخ العباسى . ولا تظهر فى كتاب ابن الجوزى علامات الشمولية لتاريخ البلاد الاسلامية ، بل تظهر جهوده واضحة فى تاريخ بغداد وكل ماله صلة بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية (٢) .

ولما كانت عناية ابن الجوزى قد تركزت على تاريخ بغداد ، فقد أمدنا بمعلومات قيمة عند الحديث عن الخلافة العباسية ودورها فى جهاد الصليبيين حيث أفاد البحث مما ذكره ابن الجوزى عن السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية ، وانشغال الخلافة العباسية بفتنة دبيس بن صدقة سنتى ٥١٤ - ٥١٧ هـ / ١١٢٠ - ١١٢٣ م مما أدى الى اضعاف الخلافة العباسية والحيلولة دون قيام الخلافة بواجبها فى جهاد الصليبيين (٣) . واستفاد البحث أيضا

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٣ ص ١٤٠-١٤٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٧٤-١٧٥ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ٢ ص ١٠٨-١٠٩ .

(٣) انظر مايلى ص

من كتاب المنتظم عند دراسة دور الخليفة المسترشد بالله فى النهوض بأمر الخلافة العباسية ومحاولة التخلص من سيطرة السلاجقة الى أن راح ضحية طموحاته سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٥ م(١) . وعند دراسة موضوع بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى أمدنا ابن الجوزى بمعلومات هامة عن علاقة بعض زعماء منطقة الجزيرة بالسلطنة السلجوقية وما كان لها من أثر كبير فى تشجيع هؤلاء الزعماء كشرف الدولة مودود وآقسنقر البرسقى(٢) . وأفاد البحث أيضا من كتاب المنتظم لابن الجوزى عند تتبع خطوات عماد الدين زنكى قبل وصوله الى ولاية الموصل(٣) .

ومن المصادر الهامة التى أفادت البحث مؤلفات العماد الاصفهانى وهو أبوعبدالله محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله الاصفهانى المعروف بالعماد الكاتب ، ولد العماد الكاتب سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م بأصبهان ونشأ بها فى أسرة عريقة ، ولى أكثر أفرادها وظائف هامة فى الدولة السلجوقية والخلافة العباسية . قدم الى بغداد سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م ودرس فى المدرسة النظامية على أساتذتها حتى بدع فى نظم الشعر والادب وصناعة الكتابة ، ثم عمل فى بعض وظائف الخلافة العباسية كالنظر فى واسط والبصرة سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧م(٤). ثم مالبث العماد أن انتقل الى دمشق زمن نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، وهناك تعرف على صلاح الدين الايوبى ومكث بدمشق حتى وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م ، عاد بعدها الى بغداد .

---

(١) انظر مايلى ص

(٢) انظر مايلى ،ص

(٣) انظر مايلى ،ص

(٤) ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،جـ٥ ،ص ١٤٨ ، السبكى ،طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٧٨ ، ابوالمحاسن ،النجوم الزاهرة ،جـ ٦ ص ١٧٨ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ،ص ٢٣٧ .

ولكنه لم يطل المقام بها حيث عاد الى الشام حين سمع بقدوم صلاح الدين اليها من مصر سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م . وفى دمشق التقى بالقاضى الفاضل ، فقدمه لصلاح الدين وظل ملازما له فى سفره وحضره حتى توفى صلاح الدين الايوبى ، ثم استقر بدمشق حتى وفاته سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠م(١) .

وللعماد مؤلفات تاريخية منها البرق الشامى وقد اختصره الفتح بن على البندارى من مؤرخى القرن السابع الهجرى وسماه سنا البرق الشامى ، استهل العماد حديثه فى هذا الكتاب بالحديث عن نفسه وتاريخ حياته ونشأته وشىء من سيرة نور الدين محمود بن زنكى واتصاله به(٢) . ومن مؤلفات العماد الاصفهانى تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح بن على البندارى ، وهو المصدر الذى استفاد منه البحث رغم اعتماد الاصفهانى فيه على الكثير من المحسنات البديعية واللفظية . وهذا الكتاب عن تاريخ دولة آل سلجوق ووزرائها ابتدأه العماد بالحديث عن أصل السلاجقة ، ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ثم تعرض للكثير من تواريخ السلاجقة وعلاقتهم بالخلافة العباسية ، بالاضافة الى الحديث عن وزراء دولة السلاجقة(٣) . وتتركز اهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه عاصر جزءًا من الفترة التاريخية التى يشملها البحث مع التركيز على تاريخ السلاجقة

---

(١) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ٧ ، ورقة ٣٧٢ أ ب ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ٣٢٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٣٧-٢٤٠ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ٢ ص ٢٤٦-٢٤٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٥ ، ص ١٥٠ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٤٣ .

(٣) انظر العماد الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ٨٢ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٤٦-٢٤٧ .

الذين لعبوا دورا بارزا فى عصر الحروب الصليبية . وأمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة عند الحديث عن الخلافة العباسية والدولة السلجوقية ، اذ أوضح العماد مدى سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية ودور امارة بنى مزيد فى الحلة فى تحكير صفوالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية (١) . ومن أوجه القصور فى هذا الكتاب أن العماد ركز اهتمامه على تاريخ السلاجقة ، ولم يسهب فيه بمزيد من التفصيل عن الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين مثلما فعل فى كتابيه الفتح القسى فى الفتح القدسى ، والبرق الشامى .

ويأتى كتاب الكامل فى التاريخ ، وكتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية لابن الاثير الجزرى (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ/ ١١٦٠ - ١٢٣٢ م) فى مقدمة المصادر الاصلية من حيث أهميتها لموضوع الرسالة . وابن الاثير هو عز الدين ابوالحسن على بن ابى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى نسبة الى جزيرة ابن عمر الواقعة فى شمال العراق . نشأ ابن الاثير فى كنف الزنكيين حيث كان يعمل والده فى خدمة عماد الدين زنكى ، حظى بمكانة سامية بالموصل طرف الزنكيين . وقد تتلمذ ابن الاثير على أشهر علماء عصره ورحل كثيرا فى طلب العلم . وقد شغف بحب التاريخ وكتب فيه كتبا عديدة جعلته يقف فى مصاف كبار المؤرخين المسلمين (٢) .

---

(١) انظر مايلى ، ص

(٢) انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ ، السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ص ٢٩٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، سعيد عاشور ، دراسة حول الكامل لابن الاثير فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

وكتاب الكامل فى التاريخ يعتبر بحق من أهم كتب التاريخ الاسلامى العام ألفه ابن الاثير على طريقة الحوليات . ابتدأ فيه بأول الزمان وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م . وقد اوضح ابن الاثير فى مقدمة كتابه الكامل الحافز الذى دفعه الى تأليفه ، وهو أنه تفحص معظم مؤلفات المؤرخين المسلمين فوجدها غير متناسقة فهى اما ان تكون تاريخا محليا مع اهمال اخبار البلاد الاخرى ، واما ان تكون تاريخا عاما ، بيد ان اصحابها شغلوا بتوافه الامور عن كثير من الحوادث الهامة ، او قيام المؤرخ اذا كان شرقيا بالتركيز على اخبار الشرق والاختصار المخل عند الحديث عن اخبار الغرب والعكس بالعكس(١) .

تحرى ابن الاثير فى كتابه الكامل الدقة والحقيقة فيما كتب فضلا عن التزامه بتماسك المعلومات وسلامة الاسلوب ، وقد تجنب الاسهاب وكثرة الروايات والاسانيد . كما راعى فى كتابه الكامل التوازن فى اخبار اقاليم العالم الاسلامى فلم يدع اخبار اقليم تطغى على اقليم آخر . ولم تقف اهمية كتاب الكامل لابن الاثير عند هذا الحد بل تتضح اهمية الكتاب فى ان مؤلفه قد اعتمد فى جمع مادة كتابه على اصدق المصادر وأوثق الكتب كالطبرى وابن القلانسى والعظيمى والعماد الكاتب وغيرهم من المؤرخين ، بالاضافة الى انه قد توافر لابن الاثير كثيرا من المادة التاريخية التى أفاد منها فى كتابيه الكامل والباهر ، بفضل صلته الوثيقة بالادارة فى الموصل ، وبفضل اسفاره العديدة فى طلب العلم والاضطلاع بمهام سياسية رسمية من قبل الزنكيين فى الموصل ، يضاف الى ذلك ما كان لاخويه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١، ص ٢-٥ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون، جـ ٢، ص ١١٢ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٦ .

مجد الدين وضياء الدين من مكانة فى الموصل ودمشق (١) .

وقد استفاد البحث من كتاب الكامل لابن الاثير فى دراسة القوى الاسلامية فى بلاد الشرق الاسلامى قبل قيام الاسرة الزنكية ، اذ أمدنا ابن الاثير بمعلومات فى غاية الاهمية وبخاصة فيما يتعلق بتفكك وحدة السلاجقة والخلاف الذى دب بين افراد البيت السلجوقى فى اعقاب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، ثم فى دراسة النزاع الذى قام بين ابناء تاج الدولة تتش عقب وفاته سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م واثر ذلك النزاع على نجاح الحملة الصليبية الاولى (٢) . وعند الحديث عن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبيل قيام الاسرة الزنكية أمدنا ابن الاثير بكثير من المعلومات عن ضعف الخلافة العباسية الامر الذى جعلها غير قادرة على الاستجابة لصرخات الاستغاثة التى انطلقت تباعا من حكام بلاد الشام خصوصا بعد سقوط بيت المقدس فى ايدى الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨م ، واثناء حصار الصليبيين لطرابلس سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م ومضايقتهم لحلب سنة ٥٠٤ هـ/١١١٠ م وسنة ٥١٣هـ/١١١٩ م (٣) . كما أمدنا ابن الاثير بمعلومات هامة عن الجهود التى بذلها زعماء اقليم الجزيرة امثال كربوقا وجكرمش وسقمان بن ارتق وما بذلوه فى سبيل صد الصليبيين ومنعهم من التوسع على حساب المسلمين سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ، وسنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م والمحاولات التى قام بها شرف الدولة مودود صاحب الموصل للاستيلاء على الرها ومقارعة الصليبيين فى وسط بلاد الشام ، والتحالف الذى تم بينه وبين ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . وانفرد ابن الاثير

---

(١) العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، سعيد عاشور ، دراسة حول كتاب الكامل لابن الاثير ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢) انظر مايلى ، ص

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، حوادث السنوات ٤٩٢ هـ ، ٥٠١ هـ ، ٥٠٤ هـ ، ٥١٣ هـ . وانظر مايلى ص

بمعلومات وافية أفادت البحث عند دراسة جهود نجم الدين ايلغازى فى ماردين وحلب وآقسنقر البرسقى فى الموصل وحلب ، وبلك بن بهرام فى الجهاد ضد الصليبيين قبيل قيام الاسرة الزنكية (١) .

أما عن عماد الدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين فيعتبر كتاب الكامل لابن الاثير المصدر الاساسى الذى اعتمد عليه معظم المؤرخين المسلمين عند الحديث عن عماد الدين نظرا لان ابن الاثير اعتمد على والده الذى كان مرافقا لعماد الدين زنكى . وقد استفاد البحث من معلومات ابن الاثير عند دراسة عماد الدين زنكى وعلاقته بزعماء اقليم الجزيرة قبل تاسيس امارته فى الموصل سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م ، وجهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية سواء فى بلاد الشام او الجزيرة ، وما قام به من جهود فى جهاد الصليبيين وتتويج تلك الجهود والاعمال البطولية باسترداد اول امارة صليبية تأسست فى المشرق الاسلامى ، ألا وهى امارة الرها سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م (٢) . واورد ابن الاثير فى كتابه الكامل معلومات هامة افادت البحث عند دراسة جهود نور الدين محمود فى سبيل استكمال توحيد الجبهة الاسلامية وحمل راية الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة وفى المحاولات التى انتهت باستيلائه على مصر من الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م ووضع الصليبيين بين شقى الرحى (٣) .

اما كتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية لابن الاثير فلا يقل أهمية عن تاريخ الكامل ، غير أن مؤلفه قد خصصه لتاريخ الاسرة الزنكية ، وذكر ابن الاثير انه استقى معظم مادة هذا الكتاب عن والده حيث يقول " ونقلت

---

(١) انظر مايلى ، ص

(٢) انظر مايلى ، ص

(٣) انظر مايلى ، ص

أكثره عن والدى رحمه الله تعالى ، فانه كان راوية حسناتهم وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم "(١). وقد قدم ابن الاثير كتابه الباهر بمقدمة اوضح فيها علاقة اسرته الوثيقة بالاسرة الزنكية ، ثم ذكر سبب تاليفه الكتاب ، وسرد أخبار قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين حتى مقتله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . وانتقل بعد ذلك الى شرح دور عماد الدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين حتى وفاته سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م ، والانقسام الذى حدث بين ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود ، واستيلاء الاخير على حلب وجهاده ضد الصليبيين ، ثم تناول بعد ذلك بعض أخبار بقية الاسرة الزنكية فى الموصل (٢).

ومما يؤخذ على ابن الاثير فى كتابه التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية انه لم يلتزم بالموضوعية فى تناوله لاخبار الزنكيين ، مثلما فعله فى كتابه الكامل فهو يحابى امراء الزنكيين ويجاملهم بالكثير من المدح والاطراء ، ولا يلزم جانب الحياد . وقد أفاد البحث من كتاب التاريخ الباهر لابن الاثير عند دراسة تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م ، والنزاع الذى قام بين تاج الدولة تتش واقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى ذلك النزاع الذى انتهى باستشهاد آقسنقر سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م (٣) . كما أفاد البحث من كتاب التاريخ الباهر عند دراسة جهاد عماد الدين زنكى ضد الصليبيين ، وتربيته العسكرية فى كنف زعماء بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى اقليم الجزيرة ، وعلاقته بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وفى جهوده لتوحيد الجبهة الاسلامية (٤) . وأمد التاريخ الباهر

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣.
(٢) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، مقدمة المحقق ، ص ١٥-١٦.
(٣) انظر مايلى ، ص
(٤) انظر مايلى ، ص

البحث بمعلومات تاريخية قيمة عند دراسة جهود نور الدين محمود زنكي في استكمال توحيد الجبهة الاسلامية واستيلائه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م وما بذله من جهود في محاولة منع الصليبيين من الاستيلاء على مصر تلك الجهود التي اثمرت عن دخول مصر في طاعة نورالدين محمود سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م، فقطع بذلك الامل على الصليبيين في الوصول اليها بعد القضاء على خلافة الفاطميين بها (١) .

ومن المصادر التاريخية الاساسية لموضوع الرسالة كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب لمؤلفه المؤرخ المشهور ابوالقاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله المعروف باسم ابن العديم من بني ابي جرادة العقيليين . ولد سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢م وتوفي سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١م ، وابن العديم من اسرة مشهورة في حلب اشتغل اكثر افرادها بالعلم والفقه والقضاء ، وكان قد نشأ وتعلم في حلب على يد والده وكثير من علماء حلب ، وصحب والده الى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز وغيرها من البلاد الاسلامية ، التقى خلال رحلاته بالعديد من علماء عصره ، مثل ياقوت الحموي ، وابن خلكان ، والقفطي ، وابن شداد (٢) .

كتب ابن العديم العديد من المؤلفات التاريخية يأتي في مقدمتها كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب ، ترجم فيه للعديد من الاشخاص الذين كانت لهم

---

(١) انظر مايلي ، ص

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ١ ،مقدمة المحقق ،سامي دهان ،ص ١- ٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـ ٧ ،ص ٣٠٨-٣٠٩ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ،جـ ٢ ،ص ٢٦٣ .

علاقة بحلب من الساسة والعلماء والقادة وغيرهم(١) . اما كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب فيقع في ثلاثة أجزاء ، اختصره ابن العديم عن كتابه بغية الطلب ورتبه على حوادث السنين ، وجعله ابن العديم خاصا بالتاريخ السياسي لحلب ، حيث بدأه بالحديث عن تسمية حلب وتاريخ بنائها منذ زمن الرومان حتى ظهور الاسلام ودخولها في طاعة المسلمين ، وتتبع تاريخ حلب منذ ذلك الحين حتى سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣م(٢) .

وكتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم مصدر أساسي لموضوع الرسالة خصوصا عند دراسة الحوادث ذات الصلة بتاريخ حلب وشمال الشام كالنزاع الذي قام بين رضوان ودقاق ابني تتش ، وما نتج عنه من تنازع بين قادة الاتراك السلاجقة وظهور فرقة الاسماعيلية واستيطانهم بحلب في زمن رضوان(٣) . كما أمدنا ابن العديم بمعلومات قيمة عن دور كل من نجم الدين ايلغازي وآقسنقر البرسقي وبلك بن بهرام في جهاد الصليبيين(٤) .

كما استفاد البحث فائدة كبيرة من المعلومات التاريخية التي ذكرها ابن العديم في كتابه زبدة الحلب عن سياسة عماد الدين زنكي في بلاد الشام والجزيرة منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨(٥) .

---

(١) لا يزال كتابه بغية الطلب مخطوطا ، يوجد منه عشرة مجلدات محفوظة في مكتبات استامبول ثماني مجلدات منه في مكتبة احمد الثالث تحت الرقم ٢٩٢٥ .

(٢) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ج٢ ص ٢٦٦ .

(٣) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٢٧ ، انظر ما يلي ص

(٤) انظر ما يلي ، ص

(٥) انظر على سبيل المثال ما يلي ، ص

وهناك مجموعة من المؤلفات التاريخية المتأخرة ، أفاد منها البحث في بعض جوانبه مثل كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين لمؤلفه شهاب الدين عبدالرحمن بن ابراهيم المقدسى الدمشقى المعروف بابى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م • ويعتبر ابوشامة من كبار الفقهاء والمحدثين ، له باع طويل فى علم القراءة والنحو واللغة والخط بالاضافة الى التاريخ (١) ، وخصص أبوشامة كتابه لدراسة اخبار الدولتين ، دولة نورالدين محمود ، وصلاح الدين الايوبى • وقد جمع ابوشامة فى كتابه هذا مجموعة كبيرة من النصوص التى أخذها من مصادر موثوق بها بعضها فقد مثل مؤلفات ابن ابى طى وابن شداد والعماد الاصفهانى وابن الاثير وغيرهم (٢) •

وقد أمدنا كتاب الروضتين لابى شامة بمعلومات قيمة عند دراسة دور عماد الدين زنكى فى الجهاد ضد الصليبيين ومحاولة توحيد قوى الشام والجزيرة بالاضافة الى معلومات غاية فى الاهمية عن استيلاء نورالدين محمود على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م ، وقضائه على الخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م (٣) •

ومن المصادر المتأخرة التى افاد منها البحث كتاب مرآة الزمان لابى المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلو بن عبدالله البغدادى المعروف بسبط ابن الجوزى ، ولد سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م وتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧م ، وهو سبط الحافظ ابن الجوزى صاحب المنتظم • نشأ سبط ابن الجوزى فى

---

(١) انظر السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ٨، ص ١٦٧-١٦٨ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٢٢٤ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٦٦-٢٦٧ ، احمد احمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص ٢٧٥-٢٧٦ •

(٢) انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ ، ٤٧١ ، ٤٨٨ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢، ص ٢٦٧ •

(٣) انظر مايلى ، ص

بغداد وتنقل فى العديد من البلاد بعد وفاة جده الحافظ سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م حيث رحل الى الموصل ثم الى دمشق حيث استقر بها مع القيام بزيارات قصيرة لبعض البلدان كمصر والحجاز . وفى دمشق اشتغل بالوعظ والارشاد فتبحر فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ (١) .

وكتاب مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان لسبط ابن الجوزى تاريخ عام رتبه مؤلفه على نظام الحوليات (٢) . وقد أفاد البحث من كتاب مرآة الزمان عند دراسة نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والجزيرة ، وفى معرفة العلاقات بين امارة بنى مزيد فى الحلة والخلافة العباسية (٣) . كما أمدنا سبط ابن الجوزى بمعلومات طيبة عند دراسة النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش، وعن فرقة الاسماعيلية ودورها فى اضعاف الجبهة الاسلامية التى قامت لمواجهة الصليبيين فى اقليم الجزيرة وبلاد الشام . ولم تتوقف فائدة كتاب مرآة الزمان عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات هامة عن عماد الدين زنكى وعلاقته بالاراتقة فى ماردين وحصن كيفا (٤) .

أما كتاب مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب لمؤلفه جمال الدين أبوعبدالله محمد بن سالم بن واصل الحموى الشافعى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م فقد بدأه ابن واصل بالحديث عن نسب بنى أيوب ثم دولة عماد الدين

---

(١) انظر ابوالمحاسن ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، جـ ٨ ، ورقة ٤٤٢ أ .

(٢) توجد نسخة كاملة من كتاب سبط ابن الجوزى فى مكتبة احمد الثالث باستانبول تحت رقم ٢٩٠٧ . وقد طبع الجزء الثامن من هذا الكتاب فى قسمين ، بحيدر اباد بالهند سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

(٣) انظر مايلى ، ص

(٤) انظر مايلى ، ص

زنكى وابنه نورالدين محمود ، وجهودهما فى توحيد الجبهة الاسلامية وجهادهما ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة ومصر(١) . وتتضح أهمية كتاب مفرج الكروب فى تاريخ بنى ايوب لموضوع الرسالة فى ان ابن واصل أفرد معظم الجزء الاول من كتابه للحديث عن الاسرة الزنكية ، حيث مهد للدولة الاتابكية بالحديث عن قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى واقطاعه فى بلاد الشام زمن السلطان ملكشاه . ثم سرد الحديث مفصلا عن عماد الدين زنكى وابنيه نورالدين محمود فى حلب وبلاد الشام وسيف الدين غازى فى الموصل واقليم الجزيرة .

وقد استفاد البحث من كتاب مفرج الكروب عند الحديث عن تفكك وحدة السلاجقة ودور عماد الدين زنكى فى النزاع الذى قام بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية قبل ولاية عماد الدين زنكى للموصل سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م(٢) واستمد البحث من هذا الكتاب معلومات طيبة وغزيرة عن عماد الدين زنكى وجهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية وجهاده ضد الصليبيين . وعند الحديث عن نورالدين محمود ودوره فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية وجهاده ضد الصليبيين امدنا كتاب مفرج الكروب بمعلومات مستفيضة عن التسابق بين نورالدين محمود والصليبيين للاستيلاء على مصر والذى انتهى بنجاح نورالدين محمود فى الاستيلاء على مصر والقضاء على خلافة الفاطميين بالقاهرة .

---

(١) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١، ص ١ ، ١١٢ ، واحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ص ٢٨١ .

(٢) انظر مايلى ، ص

ومن المصادر المتأخرة التي اعتمد عليها البحث مؤلفات المؤرخ الكبير احمد بن على المقريزى (٧٦٦-٨٤٥ هـ/ ١٣٦٤-١٤٤٢ م) . ولد المقريزى بحارة برجوان بالقاهرة ولقب بالمقريزى لانه ينتمى الى أسرة بعلبكية كانت تعيش فى حارة المقارزة بمدينة بعلبك . وانصرف المقريزى منذ نعومة اظفاره الى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن والنحو والفقه والتفسير والحديث والتاريخ وتتلمذ لبضع سنوات على يد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذى وصل الى القاهرة سنة ٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م . اشتغل المقريزى بالتدريس وتدرج فى الوظائف حتى عينه السلطان برقوق سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٨ م محتسبا للقاهرة(١). وأهم كتب المقريزى التى أفاد منها البحث كتاب اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطمية الخلفا ، وقد خصص المؤلف هذا الكتاب لتاريخ الدولة الفاطمية. وتتضح أهمية هذا الكتاب فى كون المقريزى أتى بخلاصة ما أورده المؤرخون الذين أرخوا للفاطميين ، ومعظم هذه الكتب ضاع مع الزمن ، ولم يصلنا منها شيئا الا بعض الاقتباسات التى أثبتها المقريزى فى كتابه هذا او فى كتبه الاخرى مثل الخطط ، ولم يكن المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا ناقلا للنصوص بل كان يعمد الى المقارنة والتحليل والنقد لاظهار الحقيقة(٢) .

وقد استفاد البحث من كتاب اتعاظ الحنفا عند معالجة موضوع ضعف النفوذ الفاطمى فى مصر وبلاد الشام ، وانحسار نفوذهم فى بلاد الشام عامة وجنوب فلسطين خاصة ، وجهود الافضل بن بدر الجمالى فى صد خطر

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، جـ٢ ، ص ٢١-٢٢ .
(٢) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، الجزء الاول ، مقدمة المحقق جمال الدين الشيال ، ص ٢٥-٣٠ .

الصليبيين عن معاقل الدولة الفاطمية فى موانى سواحل بلاد الشام وجنوب فلسطين (١) . كما أمدنا الكتاب بمعلومات قيمة عن انهيار النفوذ الفاطمى فى مصر بسبب اشتداد النزاع بين الوزراء الفاطميين ، الامر الذى مكن نور الدين محمود بن زنكى من استغلال هذا النزاع ، وبسط نفوذه على مصر وازالة الخلافة الفاطمية من مصر على يد قائده صلاح الدين الايوبى . كما استفاد البحث من كتب المقريزى الاخرى كالخطط والسلوك فى معرفة دول الملوك ، واغاثة الامة بكشف الغمة ، والبيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

وتحتوى الرسالة على مقدمة وأربعة فصول ، وخاتمة . واقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لاهم مصادر البحث . اما الفصل الاول وعنوانه القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية ، فقد ناقش فى البداية تفكك وحدة السلاجقة ،عقب وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، عندما نشب النزاع بين امراء البيت السلجوقى ، مثل النزاع الذى نشب بين تاج الدولة تتش وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه ، والذى كان من نتائجه تمزق وحدة السلاجقة فى بلاد الشام وتفككها ، ودخول قادة السلاجقة فى بلاد الشام فى منازعات أدت الى ظهور قوى جديدة كان لها الاثر الكبير فى نجاح الحملة الصليبية الاولى بما أحدثته من اشعال نار الفتنة بين سكان بلاد الشام . كما تحدث الفصل عن فرقة الاسماعيلية ودورها السياسى فى عرقلة زعماء المسلمين ، الذين اخذوا على عاتقهم مسئولية بعث فكرة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

---

(١) انظر مايلى ، ص

كما عالج الفصل الاول موضوع نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والجزيرة والعراق . وبرهنت الدراسة على ان بعض هذه الامارات كانت على وشك السقوط على يد السلاجقة ، ان لم يكن بعضها قد سقط قبل وصول الصليبيين الى بلاد الشام كالمرداسيين فى حلب ، وبنى عقيل فى الموصل ، الامر الذى أدى الى احتدام الصراع بين امارة بنى مزيد فى الحلة والسلاجقة ، بسبب السيطرة السلجوقية التى فرضت على العنصر العربى فى ذلك الوقت. والقى هذا الفصل اضواء جديدة على هذه الامارة وخاصة المحاولات التى قام بها زعماء بنى مزيد للتخلص من السيطرة السلجوقية . ولما فشل السلاجقة فى التخلص من قوة بنى مزيد فى الحلة بذروا بذور الشك والريبة بين الخلافة العباسية وهذه الامارة مستغلين فى ذلك اختلاف المذهب بينهما . ونتيجة لذلك فقد دخل الطرفان فى نزاع شديد حال -على مايبدو- دون قيام الخلافة العباسية بدورها المطلوب فى جهاد الصليبيين .

كما درس الفصل الاول ايضا احوال امارة بنى عمار فى طرابلس والدور الذى لعبته هذه الامارة فى تاريخ بلاد الشام السياسى والاجتماعى ، وخاصة وقوفها بمفردها فى وجه هجمات الصليبيين لمدة سبع سنوات حتى خرجت طرابلس الشام من حكم فخر الملك بن عمار سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م الى الفاطميين ، الامر الذى سهل سقوطها بيد الصليبيين سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م . وشرح الفصل الاول دور امارة بنى منقذ فى شيزر ، تلك الامارة التى استطاعت المحافظة على كيانها زمنا طويلا لا بسبب قوتها العسكرية فحسب ، وانما بسبب موقعها المنيع واتباع زعماء هذه الامارة المداهنة مع الصليبيين والقوى الاسلامية الاخرى ، وعلى اية حال فقد قامت هذه الامارة بدور بارز فى حماية شيزر من الوقوع فى يد الصليبيين بالاضافة الى مد يد العون لبقية القوى الاسلامية التى تزعمت حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، كشرف الدولة مودود صاحب الموصل ، ونجم الدين

ايلغازى صاحب حلب وماردين .

أما الفصل الثانى وعنوانه الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين حتى قيام الاسرة الزنكية فى الموصل من (٤٩١ - ٥٢١ هـ/١٠٩٧-١١٢٧م) فتناول اولا الحديث عن موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وألقى الفصل الاضواء على ضعف الخلافة العباسية ووقوعها تحت سيطرة السلاجقة ودخولها فى نزاع حاد مع بنى مزيد فى الحلة ، الامر الذى انعكس على موقفها من سقوط بيت المقدس وعجزها عن الاستجابة لاستغاثات المسلمين الذين كانوا يأملون منها مد يد العون لهم فى بلاد الشام . ودرس الفصل أيضا محاولة الخليفة العباسى المسترشد بالله (٥١٢هـ - ٥٢٩ هـ/١١١٨-١١٣٤م) النهوض بأمر الخلافة العباسية وبعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . وناقش الفصل الثانى ايضا موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام وكيف ان الفاطميين لم يدركوا حقيقة نوايا الصليبيين ، الامر الذى دفع الوزير الافضل بن بدر الجمالى الى الاتصال بالصليبيين . ثم الدور الكبير والمشرف الذى بذله الافضل والمصريين للوقوف فى وجه الصليبيين ، عندما ارسل عدة حملات عسكرية حاول بها انقاذ مايمكن انقاذه من معاقل الفاطميين فى بلاد الشام ، تلك المعاقل التى سقطت بيد الصليبيين . وبرهنت الدراسة فى النهاية على عجز الافضل عن كبح جماح الصليبيين الذين جردوا الخلافة الفاطمية من معظم معاقلها فى بلاد الشام ، وعجز الخلافة الفاطمية عن مواجهة الصليبيين وحماية ماتبقى من معاقلها بالشام ، الامر الذى أدى الى سقوط صور بيد الصليبيين سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤م ، وعسقلان سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣م .

وعالج الفصل الثانى أيضا موضوع بعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية ، تلك الحركة التى انبعثت من منطقة الجزيرة ، وشرح

الفصل العوامل التى أدت الى انبعاث فكرة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين من منطقة الجزيرة ، كما أسهب فى دراسة الادوار التى قام بها بعض زعماء منطقة الجزيرة فى بعث حركة الجهاد . وكان على رأس أولئك الزعماء قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل الذى حاول سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م نجدة ياغى سيان فى أنطاكية لمنع سقوطها بيد الصليبيين . غيران الخلافات بين زعماء المسلمين وعدم وعيهم بحقيقة الحركة الصليبية أدت الى فشلهم فى انقاذ أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين .

وناقش الفصل الثانى أيضا الخطورة التى شكلتها امارة الرها الصليبية ومحاولة من بها من الصليبيين الاستعانة باخوانهم فى بيت المقدس وانطاكية والاستيلاء على حران ، للانطلاق منها الى بقية منطقة الجزيرة والسيطرة على وادى الفرات . وقد شعر بهذا الخطر جكرمش صاحب الموصل ، وسقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، فحشد الزعيمان التركيان قواتهما وانزلا بالصليبيين هزيمة ساحقة عند حران سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣ م . وتطرق الحديث فى هذا الفصل عن شرف الدولة مودود بن التونتكين الذى خلف جكرمش فى حكم الموصل ومحاولاته الطيبة فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة فيما بين سنة ٥٠٣ - ٥٠٧ هـ ، حيث قام مودود بثلاث حملات الى بلاد الشام ، ألحق فى احداها الهزيمة بالصليبيين فى طبرية سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م . وحمل راية الجهاد من بعد مودود اثنان من زعماء منطقة الجزيرة ، هما نجم الدين ايلغازى ، وآقسنقر البرسقى . اما نجم الدين ايلغازى فقد استعان بظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وانزل بالصليبيين هزيمة كبيرة قرب حلب سنة ٥١٣ هـ/١١١٩ م . وشرح الفصل الثانى أيضا دور آقسنقر البرسقى فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، وأوضح الفصل انه على الرغم من انشغاله

بالنزاع الذى نشب بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من جهة ، وامارة بنى مزيد فى الحلة من جهة اخرى فانه قام بدور لا ينكر فى جهاد الصليبيين عندما حاصروا مدينة حلب حصارا شديدا سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، وكادت أن تسقط فى ايديهم لولا خروج آقسنقر البرسقى على رأس قواته من الموصل لنجدة حلب ، مما جعل الصليبيين يتخلون عن حصارها وسهل لاقسنقر دخولها والاستيلاء عليها . فوحد بذلك قوات الجزيرة بالموصل مع قوات حلب وشمال الشام.

كما ألقى الفصل الثانى الضوء على الدور الذى لعبه بلك بن بهرام بن أرتق فى جهاد الصليبيين اذ حاصر الرها وانزل بالصليبيين هزيمة عند سروج بالاضافة الى أسر ثلاثة من زعماء الصليبيين ، وما احدثه ذلك من خيبة أمل فى صفوف الصليبيين . وتعرض هذا الفصل ايضا لدور ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ودوره فى انقاذ دمشق من السقوط بيد الصليبيين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م والمساعدات التى قدمها للقوى الاسلامية فى بلاد الشام لمواجهة هجمات الصليبيين العنيفة ، ومد يد العون لزعماء منطقة الجزيرة بالاضافة الى وقوفه بجانب الفاطميين فى محاولة منع الصليبيين من الاستيلاء على مزيد من المعاقل الفاطمية على ساحل بلاد الشام وجنوب فلسطين .

أما الفصل الثالث وعنوانه الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر عماد الدين زنكى ، فقد ألقى اولا الضوء على تربية عماد الدين زنكى العسكرية وملازمته لزعماء منطقة الجزيرة ابتداء بكربوقا ، وجكرمش ، ومودود ، وآقسنقر البرسقى صاحب الموصل . ثم ناقش الفصل موضوع علاقة عماد الدين زنكى بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية واشتراكه فى النزاع الذى قام بين الخليفة العباسى المسترشد

بالله والسلطان السلجوقى محمود بن محمد . وأوضحت الدراسة فى هذا الفصل وقوف عماد الدين زنكى الى جانب السلطان السلجوقى محمود بن محمد ضد دبيس بن صدقة ، وبروز شخصيته عماد الدين كقائد عسكرى يمكن الاعتماد عليه ، مما حدى بالسلطان السلجوقى محمود بن محمد الى تولية عماد الدين أمر واسط والبصرة بالاضافة الى كونه شحنة لبغداد . وأفاض هذا الفصل فى الحديث عن مهارة عماد الدين زنكى وحنكته السياسية وبخاصة فى توطيد علاقته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، مما جعل الخليفة يقف الى جانب عماد الدين زنكى حتى تولى امر الموصل سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م.

كما درس الفصل الثالث الظروف التى كانت تحيط بالمسلمين فى بلاد الشام والجزيرة فى بداية عصر عماد الدين زنكى . وأسهب الفصل فى شرح جهود عماد الدين زنكى فى توحيد الجبهة الاسلامية قبل انغماسه فى حرب الصليبيين . وبرهن هذا الفصل على أهمية المهادنة التى عقدها عماد الدين زنكى مع جوسلين الثانى صاحب الرها سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م وما ترتب عليها من نتائج ايجابية فى صالح المسلمين ، اذ استولى عماد الدين فى السنة التالية ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م على حلب وبعض مدن وقلاع بلاد الشام ، واتخذ حلب قاعدة انطلاق عسكرية لا فى مواجهة الصليبيين فحسب بل وفى سبيل استكمال توحيد الجبهة الاسلامية . كما برهنت الدراسة فى هذا الفصل على ادراك عماد الدين زنكى لاهمية دمشق وما تشكله من خطر جسيم على الصليبيين فى مملكة بيت المقدس اذا تم له الاستيلاء عليها .

وبحث الفصل الثالث ايضا الجهود التى بذلها عماد الدين زنكى فى جهاد الصليبيين حتى استرداده الرها سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م . ففى سنة

٥٢٤ هـ/١١٣٠ م استولى عماد الدين زنكي على حصن الاثارب من الصليبيين واسر سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م صاحب طرابلس ، واستولى في سنة ٥٣١ هـ/١١١٧ م على حصن بعرين من الصليبيين . وناقش الفصل أيضا حملة الامبراطور البيزنطي حنا كومنين على شمال الشام سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨ م ، بغية الضغط على ممتلكات عماد الدين في شمال الشام وفشل هذه الحملة . واخيرا تعرض الفصل بشئ من التفصيل الى تطلع عماد الدين زنكي لتخليص منطقة الجزيرة من خطر امارة الرها الصليبية وتم له ذلك سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م. وبذلك قضى على اول امارة صليبية تأسست في بلاد المشرق الاسلامي .

أما الفصل الرابع والاخير وعنوانه الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عصر نور الدين محمود بن زنكي ، فقد ألقى أضواء على تربية ونشأة نور الدين محمود في ذروة عصر الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين ايام والده عماد الدين زنكي ، ثم عالج هذا الفصل انقسام مملكة عماد الدين زنكي بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والبلاد الشرقية ، ونور الدين محمود الذي حكم حلب والبلاد الغربية من بلاد الشام . وقد برهنت الدراسة في هذا الفصل على انقسام مملكة عماد الدين زنكي بين ولديه ولم يؤد الى انهيار هذه المملكة كما حدث للسلاجقة عقب وفاة تاج الدولة تتش وانقسام مملكته بين ولديه رضوان في حلب ، ودقاق في دمشق سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م ، بل أدى ذلك الى تفرغ كل من سيف الدين غازي ونور الدين محمود الى الحفاظ على ما تحت يده من البلاد .

وفي هذا الفصل برهنت الدراسة على يقظة نور الدين محمود في الوقوف في وجه الصليبيين وخاصة الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، تلك

الحملة التى كانت تهدف الى استعادة الرها والقضاء على قوة الزنكيين بالشام والجزيرة . وقد وقف نورالدين محمود مع أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل الى جانب حكام دمشق من أسرة طغتكين لصد الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء على دمشق . ثم شرح الفصل الرابع جهود نورالدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية منذ ان قام بتوطيد علاقته باخيه سيف الدين غازى تمهيدا للاستيلاء على الموصل ، اضافة الى توطيد علاقته بالاراتقة فى حصن كيفا وماردين بقصد الاستعانة بهم فى جهاده ضد الصليبيين . وفى هذا الصدد ناقش الفصل المحاولات المتكررة التى بذلها نور الدين محمود فى الاستيلاء على دمشق . تلك المحاولات التى أثمرت سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م بالاستيلاء عليها وما نتج عن ذلك من اهمية بالغة فى قصة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، اضافة الى استيلاء نورالدين محمود على شيزر سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م وتحقيق حلم والده بالاستيلاء على قلعة جعبر سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨م .

وألقى الفصل الرابع اضواء جديدة على موقف الخلافة العباسية من جهود نورالدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة لجهاد الصليبيين ، وكذلك شرح هذا الفصل الجهود التى بذلها نورالدين محمود فى جهاد الصليبيين فى بلاد الشام وانتزاع الكثير من البلاد الاسلامية التى كانت تحت ايديهم ، والمحاولات اليائسة التى قام بها الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م بقصد التحالف مع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس للوقوف فى وجه نور الدين محمود . وشرح هذا الفصل موضوع استمرار ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر وانحسار نفوذها عن بلاد الشام فى عصر نور الدين محمود . كما اوضحت الدراسة تطلع نور الدين محمود ورغبته فى الاستيلاء عليها ، ونجح نورالدين محمود فى استغلال الاوضاع المتردية

للفاطميين ، وأرسل حملات متتالية الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الايوبى أسفرت عن عدة نتائج كان اهمها القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر وقطع الامل على الصليبيين فى الوصول الى مصر ، وظهور قوة اسلامية جديدة اتخذت من مصر والشام مركز إنطلاق لتصفية الوجود الصليبى فى الشرق الاسلامى . واخيرًا تضمنت الرسالة خاتمة توضح اهم النتائج التى توصل اليها البحث ومجموعة من الملاحق التى تفسر بعض الحوادث الواردة فى فصول الرسالة .

ولا يفوتنى أن أسجل خالص الشكر وعظيم التقدير والامتنان لاستاذى الدكتور حسنين محمد ربيع ، المشرف على هذه الرسالة لما بذله من جهود مضنية طيلة مراحل البحث ولما أبداه من توجيهات سديدة وارشادات علمية قيمة كان لها اكبر الاثر فى اخراج الرسالة على هذا الشكل ، فجزاه الله عنى وعن طلابه خير الجزاء . كما أتقدم بالشكر الى عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية والى المسئولين فى مكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ومكتبة الحرم المكى الشريف ، ومكتبة وزارة المعارف بجدة ، ومكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، ومكتبة مدارس الفلاح بجدة ، وللمسئولين فى دار الكتب المصرية ومكتبة جامعة القاهرة ، ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، لما قدموه لى من مساعدات قيمة .

والله أسأل العون والسداد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم الى يوم الدين ....

الفصل الأول

القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الأسرة الزنكية (٤٨٥-٥٢١هـ/١٠٩٢-١١٢٧م)

- انهيار النفوذ السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .
- النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ونتائجه .
- فرقة الإسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام .
- نهاية الإمارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة
  - المرداسيون فى حلب .
  - بنو عقيل فى الموصل .
  - إمارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق .
  - إمارة بنى عمار فى طرابلس .
  - إمارة بنى منقذ فى شيزر .

((الفصـــل الاول))

القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية (٤٨٥ - ٥٢١ هـ / ١٠٩٢ - ١١٢٧ م).

- انهيار النفوذ السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .
- النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ونتائجه .
- فرقة الاسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام .
- نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة .

* المرداسيون فى حلـــب .
* بنو عقيل فى الموصـــل .
* امارة بنى مزيد فى الحلة .
* امارة بنى عمار فى طرابلس .
* امارة بنى منقذ فى شيزر .

—•—

((الفصـــل الأول))

القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيــــــام الأسرة الزنكية (٤٨٥-٥٢١هـ/١٠٩٢-١١٢٧م)

انهيار النفوذ السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام:

خلف السلطان ألب أرسلان السلجوقى عند وفاته سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢ م دولة متحدة الأركان قوية الجانب يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألــــب أرسلان الأكبر فى المشرق والعراق ، وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر فى بلاد الشام كتابع لأخيه الاكبر . واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشـاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) لاتباعه سياسة والده ووزيـره نظـــام الملك الذى توفى سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ثم تبعه ملكشاه فى نفس السنة (1).

وفى الحقيقة فان وفاة السلطان ملكشاه ووزيره فى السنة المذكورة قـــد أدى الى خلق أزمة سياسية فى صفوف العالم الاسلامى عامة والسلاجقة خاصـــة وكانت سببا حقيقيا فى تفكك وحدة السلاجقة الذين اصبحوا ثلاث قوى تتصـــارع فيما بينها ، قوة السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وقوة سلاجقة الشام بزعامة تـــاج الدولة تتش ، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركياروق بن ملكشـــاه

---

(١) ابن القلانسى ، ص١٠٦ ، ١٢١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٨، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ ، جـ ٩ ، ص ٦٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٠٦ .

ومن ينازعه من اخوته (١) .

ولا يتسع مجال البحث لتتبع ماجرى من الحوادث بين السلاجقة عامة بعد وفاة السلطان ملكشاه ، لذا فان الحديث سوفيقتصر على النزاع الذى جرى بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وعمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وما أعقبه من نزاع حاد بين أبناء تاج الدولة تتش فى بلاد الشام لما لذلك من أثر كبير على اضعاف الجبهة الاسلامية قبيل الغزو الصليبى لبلاد الشام.
فقد خلف السلطان ملكشاه بعد وفاته سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م أربعة من الابناء هم : بركياروق الاكبر ، ومحمود ، سنجر ، ومحمد ، وكان محمود أصغرهم سنا فسعت والدته تركان خاتون الجلالية ذات النفوذ الواسع فى الدولة السلجوقية الى أخذ السلطنة لابنها محمود بموافقة الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، ولقب محمود باسم ناصر الدين والدنيا وكان عمره - وقتذاك - أربع سنين وشهور (٢) . ولما كان بركياروق وهو الابن الاكبر لملكشاه بعيدا عن بغداد بأصفهان ، فقد حاولت تركان خاتون القبض عليه ولكن أنصاره استطاعوا الوقوف الى جانبه وتوليته أمر أصفهان ، وتشجيعه على الوقوف فى وجه تركان خاتون (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ص ٨٠ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ص ٤٥ (١٤٧-١) ، انظر:
The Cambridge Medieval History, Vol.IV, p.653.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠-٢١٤ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٨١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٠٦ ، ابوالفدا المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ص ٣٧٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٤-٢١٦ ، الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٢١٥ ، عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٨٣ .

ولم يقف النزاع بين السلاجقة عند حد مطالبة كل من محمود وبركيارق بالسلطنة بل تعداه الى انقسام قادة السلاجقة الى قسمين يناصر كل منهما أحد الاخوين فى سبيل فرض سيطرته على السلاجقة ، ودخل تاج الدولة تتش هذا النزاع كطرف ثالث مطالبا بأحقيته فى السلطنة السلجوقية معتمدا فى ذلك على قادة الاتراك السلاجقة فى بلاد الشام .

وكان تاج الدولة تتش قد بلغه خبر وفاة أخيه ملكشاه سنة ٤٨٥ /١٠٩٢م عند هيت وهو فى طريقه الى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ليشرح له حالة بلاد الشام وما يعانيه من بعض القادة الاتراك الا أن خبر الوفاة قد حال دون وصوله الى بغداد فاستولى على هيت وعاد الى دمشق (١) .

ومن دمشق اتصل تاج الدولة تتش بكبار قادة السلاجقة خاصة آقسنقر فى حلب وبوزان فى الرها وحران وياغى سيان فى أنطاكية وطلب منهم الدخول فى طاعته وحثهم على الوقوف الى جانبه " ليسيروا الى بلاد أخيه (ملكشاه) ليفتحها ويأخذ المملكة ، فأجابوه وخطبوا له فى بلادهم " ،على الرغم من التوتر الذى كان يشوب علاقة تتش بالقائد السلجوقى آقسنقر البرسقى لتفضيل تتش شخصية ياغى سيان صاحب أنطاكية على غيره من قادة الاتراك فى الشام وعدم توليتهم شيئا من البلاد (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢١٨-٢١٩ ، ابن القلانسى ، ص ١٢٢ ، وهيت بلدة على الفرات من ناحية بغداد فوق الأنبار . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٠٧ ، انظر ابن القلانسى ، ص ١٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢٢-٢٣ ، القرمانى ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٠٣ ، أخبار الدول وآثار الاول ، ص ٢٧٧ ، وحران : مدينة من اعظم واشهر مدن الجزيرة تقع بين الرها والرقة على طريق الموصل والشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان . ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢١٩-٢٢٠ .

ولعل تاج الدولة تتش قد أدرك استياء آقسنقر من سياسته فأراد أن يمتحن نواياه فوجه اليه رسالة خاصة طلب منه فيها أن يقوم آقسنقر بمراسلة بوزان صاحب الرها وحران وياغي سيان صاحب أنطاكية وان يطلب منهما طاعة تتش . ولما لم يكن في مقدور آقسنقر معارضة تتش لا سيما وأن ملامح النزاع بين ولدى ملكشاه لم تتضح بعد حتى ينضم الى صاحب الكفة الراجحة ، فلبى آقسنقر رغبة تاج الدولة تتش وأرسل الى ياغي سيان ، وبوزان يشير عليهما بطاعة تتش " حتى يروا مايكون من أولاد ملكشاه ففعلوا "(١) . من هنا قوى أمر تاج الدولة تتش بمن اجتمع اليه من قادة السلاجقة ، فبدأ في اعداد خططه للاستيلاء على مزيد من الاقاليم ، فقرر الاستيلاء على الرحبة لما تمثله من موقع عسكرى هام ، فسار تتش بمن معه من قادة السلاجقة الى الرحبة واستولى عليها في المحرم سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م واتخذها قاعدة لبسط نفوذه على منطقة الجزيرة (٢) .

ومن الرحبة سار تاج الدولة تتش الى نصيبين في شمال الجزيرة واستولى عليها وسلمها الى الامير العربي محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ومنها توجه الى الموصل وبها ابراهيم بن قريش بن بدران ، فراسله تاج الدولة تتش وطلب منه أن يخطب له في بلاده وأن يمنحه طريقا الى بغداد لطلب السلطنة من الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله (٣) . ولكن ابراهيم بن قريش

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٢٢ .
(٢) ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ١٠٤ ب - ١٠٥ أ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ .
- والرحبة : مدينة تقع على الفرات بين الرقة وبغداد وكانت محط القوافل بين العراق والشام ، انظر ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

رفض مطالب تتش وتأهب للقائه وحشد جيشا من العرب والأكراد لمواجهة تتش . وتم اللقاء بينهما فى شهر ربيع الاول سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣م فى مكان يسمى المضيع على نهر الهرماس شرق مدينة نصيبين ، وانكشفت الوقعة عن هزيمة وقتل ابراهيم بن قريش وكثير من زعماء العرب وسقطت الموصل بيد تتش الذى ولى عليها من قبله على بن مسلم بن قريش وأمه صفية عمة تاج الدولة تتش(١) . وكان لهذه الوقعة أثر كبير فقد قضت على بنى عقيل فى الموصل ، وحطمت آمال العرب فى الموصل والجزيرة ، حتى أن كثيرا من نساء العرب قتلن أنفسهن اشفاقا من الهتيكة والسبى (٢) .

عظمت هيبة تاج الدولة تتش بعد هزيمة العرب فى الموصل فقصد ديار بكر ونزل على آمد وضايقها وملكها ، وتسلم ميافارقين من أعيانها وجزيرة ابن عمر من أبى الحسن فخر الدولة بن جهير وأرسل من قبله رسولا الى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م يطلب منه أن يخطب له بالسلطنة فى بغداد ، ولكن الخليفة العباسى لم يستجب لطلبه ورد عليه قائلا " انما تصلح للخطبة اذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التى بأصبهان وتكون صاحب المشرق وخراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك ملكشاه من يخالفك "(٣) .

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ، ورقة ١١٣ أ ، ابن القلانسى ، ص ١٢٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص١٠٧-١٠٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٢١ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص٢٠٤ ،
Zakar, The Emirate of Aleppo: p.p. 229-230.

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٣٧ ، الفارقى ، تاريخ ميافارقين ، ص ٢٣٦ ، Zakkar, op.cit., p.230.

وآمد وميافارقين : من أشهر مدن ديار بكر بمنطقة الجزيرة . وجزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل تحيط بها مياه دجلة الا من ناحية واحدة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ولعل سبب رفض الخليفة العباسى مطلب تاج الدولة تتش هو عدم حصوله على ماكان يتوقعه من الاموال من تتش ، أو أن أولاد ملكشاه - فى نظر الخليفة - هم أحق بالسلطنة من عمهم تتش بصرف النظر عن من سيكون الفائز منهما ، أو أن الخليفة رأى أنه قد قطع على نفسه عهدا باعلان الخطبة باسم محمود ابن ملكشاه ، فلا يمكن الرجوع عن ذلك .

ومهما يكن الامر الذى استند عليه الخليفة العباسى فى الرفض ، فانه قد حمل تاج الدولة تتش على الاستمرار فى الحروب ومحاولة القضاء على أبناء أخيه . ولم يحاول تتش حث الخليفة على الاعتراف به سلطانا قبل تحقيق مآربه ، فتوجه الى خراسان بهدف القضاء على أبناء أخيه ، وشجعه على ذلك مراسلة والدة السلطان محمود بن ملكشاه له طالبة منه القدوم اليها ووعدته بالزواج منها . فسار تتش الى خراسان سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣م ولكنه حصل لتاج الدولة تتش مالم يكن فى الحسبان ، اذ انفصل عنه فى تبريز فى السنة المذكورة كل من آقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وحران وانضما الى صفوف بركياروق بالرى "ليكونا فى خدمته "(١) .

ولعل من أسباب انفصال كل من آقسنقر وبوزان عن تتش سوء معاملته لهما ، اضافة الى أنه لم يمنحهما شيئا من البلاد التى فتحها ، وأخيرا اقتناعهما بعدم أحقيته فى السلطنة السلجوقية . وقد أفصح آقسنقر البرسقى صاحب حلب عن ذلك بقوله "انما أطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من أولاد صاحبنا (ملكشاه) والان فقد ظهر ابنه (بركياروق) ونريد أن نكون معه "(٢) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٠٨-١٠٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٧٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٤٤ ، Gibb, The Damascus Chronicle of The crusades, p.22.

وتبريز : مدينة من أشهر مدن اذربيجان فى خراسان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٠٩ .

ولم يقفا عند حد الانضمام الى بركياروق ، بل حرضاه على معاجلة تتش قبل اعضال خطبه ، وتمكنه من الغلبة على السلطنة والاستيلاء على أعمال المملكة على حد قول ابن القلانسي (١) .

من هنا أدرك تاج الدولة تتش أنه لن يستطيع الوقوف أمام بركياروق ومن انضم اليه من قادة الاتراك بالشام بعد أن خذلوه ، فرجع الى ديار بكر ومنها سار الى سروج فاستولى عليها وولى فيها بعض ثقاته ، ومنها واصل مسيره الى الشام حتى وصل أنطاكية ، وأقام بها مدة من الزمن ، غير أن سوء الاوضاع الاقتصادية بها قد أجبرته على مغادرتها الى دمشق فوصلها في ذى القعدة من سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣م (٢) .

أما السلطان بركياروق فقد استقامت أموره وعلا شأنه بعد رحيل تاج الدولة تتش الى الشام ، وخرج مع آقسنقر قسيم الدولة وبوزان وسار معهما الى الرحبة من أعمال الموصل وعقد بينهما وبين على بن شرف الدولة مسلم بن قريش حلفا الموقوف فى وجه تاج الدولة تتش . ومن الرحبة عاد آقسنقر وبوزان كل منهما الى بلده فى شوال من السنة نفسها ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، بينما سار بركياروق الى بغداد فدخلها فى أول سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م حيث أقيمت الدعوة فى الخطبة باسمه (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٠٩-١١٠ .
- وسروج : مدينة قريبة من حران فى اقليم الجزيرة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٣) ابن القلانسى ، ص ١٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢٩ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٨٠-٨١ ، خاشع المعاضيدى ، الحياة السياسية فى بلاد الشام ، ص ١٠١ .

غير أن أوضاع السلاجقة لم تستقر فتاج الدولة تتش لم يتخل عن فكرة الاستيلاء على ماكان بيد أخيه ملكشاه ، ولم ينس ذلك الموقف الذى تخلى فيه آقسنقر وبوزان عنه فى تبريز وانضمامهما الى بركياروق ، لهذا أخذ فى جمع الجيوش وحشد القوى " فكثر جمعه وعظم حشده وسارعن دمشق الى حلب " بقصد القضاء على آقسنقروبوزان ، ومن ثم المسير لقتال السلطان بركياروق . فما أن سمع آقسنقر بأخبار تتش واستعداداته حتى شرع فى الجمع والاحتشاد والتأهب للقائه ، وطلب النجدة من السلطان بركياروق فأمده بكربوقا صاحب الموصل فيما بعد ، ووصله بوزان صاحب الرها وحران ويوسف بن آبق صاحب الرحبة ، وجمعا من العرب بقيادة شبل بن جامع ومبارك بن شبل من زعماء بنى كلاب ، فبلغت عدة قوات آقسنقر نحوا من عشرين ألفا فى أحسن زى وأتم آلة وعدة(١) .

ولما استكمل آقسنقر استعداداته خرج بقواته للقاء تتش وسار تتش حتى نزل على تل منسي قرب معرة النعمان ، وتم اللقاء بينهما فى العشر الاول من شهر جمادى الاول سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرق حلب . وأسفر اللقاء عن هزيمة قسيم الدولة آقسنقر ووقوعه فى أسر تتش بينما عاد بوزان وكربوقا الى حلب بقصد الاحتماء بها ، ولكن تتش تعقبهما حتى أسرهما أيضا فقتل تاج الدولة تتش آقسنقر قسيم الدولة وبوزان واستبقى كربوقا فى الاسر(٢) .

وهكذا تم لتتش القضاء على أكبر المناوئين له فى بلاد الشام واستولى على حلب وحران والرها فتم له بذلك احكام السيطرة على شمال الشام وبعض أجزاء من

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥ ، انظر ابن القلانسى ، ص ١٢٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١١١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٩ ، ص ٣٠٩ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٣ ، ورقة ٢٦٩ أ ، ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ٥٦ أ ، ابن الشحنه ، روض المناظر ، ورقة ٦٢ ب ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٧ ، ابن القلانسى ، ص ١٢٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٢-٢٣٣ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ .

منطقة الجزيرة (١) . وتوجه نحو ديار بكر ولكنه عدل عن طريق السلطان بركياروق الذى كان نازلا بأرض الموصل ، وسار نحو خراسان للمرة الثانية سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م وقصد الرى حيث انضم اليه خلق كثير من التركمان وعساكر ابن أخيه بركياروق الذى عاد على وجه السرعة الى أصبهان للاحتماء بها من تتش (٢) .

رأى تاج الدولة تتش أنه حقق كثيرا من الانتصارات على خصومه وسيطر على كثير من معاقل الدولة السلجوقية مما يخوله أن يطلب السلطنة فأرسل رسله الى الخليفة العباسى المستظهر بالله يطلب منه اعلان الدعوة فى الخطبة له ببغداد فأجيب الى ذلك ، ودعى له على منابر بغداد (٣) .

شجعت هذه الانتصارات تاج الدولة تتش فواصل مسيره الى الرى حيث استولى عليها فى المحرم سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م فامتد نفوذه من الشام غربا الى الرى شرقا . ولم يكتف بهذا بل جهز جيشا من الاتراك والعرب الموالين له ، وأغار بهم على الاراضى التى كانت لبنى عقيل ، بقصد تمشيط الاراضى التى أصبحت تحت حوزته . وأرسل الى ولده رضوان بدمشق يستدعيه " فتوجه رضوان اليه ومعه بقية من تخلف من اصحابه بالشام " بقصد الاستعانة بهم على السلطان بركياروق الذى كان بأصبهان (٤) .

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ، ورقة ١١٣ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١١٧ - ١١٨ ،
Gibb, op.cit.p.23.

(٢) ابن القلانسى، ص ١٢٧ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١١٨ ، انظر ابن القلانسى ص ١٢٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩، ص ٨٤-٨٥ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠٠ ، القلقشندى ، مآثر الانافة ، جـ٢، ص ١٢ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢، ص ١١٨-١١٩ ، انظر : ابن القلانسى، ص ١٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٣٤ .

وعلى الرغم من المرض الذى ألم ببركياروق فقد برز من أصبهان فى جموع كثيرة من أصحابه ومن انضم اليه من أنصار اخيه محمود بعد وفاة أمه تركان خاتون تلك السنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م وقصد جهة عمه تاج الدولة تتش الذى نزل على بعد أربعة فراسخ من الرى . وتم اللقاء بين الطائفتين فى اليوم السابع عشر من شهر صفر من سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م فوقعت الهزيمة على تاج الدولة تتش وتفرق أصحابه ، ونهب سواده وأسر كثيرا من أصحابه وقتل منهم الخلق الكثير ، وقُتِلَ تاج الدولة تتش نفسه وحمل رأسه الى بغداد وطيف به هناك (١) .

ويمكن القول أن الانتصارات السريعة الخاطفة التى حققها تتش فيمابين سنتى ٤٨٦ - ٤٨٧ هـ لم تكن قائمة على قاعدة صلبة من ولاء الرعية والقادة وهذا على مايبدو سبب الهزيمة التى حلت به أمام ابن أخيه بركياروق بعد أن غدر به بعض أصحابه الذين اصطنعهم لنفسه (٢) ، بالاضافة الى أن تاج الدولة تتش لم يترك لجيشه فرصة لاخذ قسط من الراحة بعد أن قطع مسافة طويلة من الشام الى الرى .

ولم تقف آثار وفاة تاج الدولة تتش عند حد قيام النزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، بل تعدتها الى أن القوى البشرية والمادية التى كان تاج الدولة تتش قد عبأها ذهبت أدراج الرياح ، فأدى ذلك الى انعدام الروابط فيما بين القوى الاسلامية فى بلاد الشام . ولذلك يمكن القول بانه لو قدر للصليبيين

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، ج١٦ ، ورقة ١١٤ ب ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، ج١٣ ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٢٩-١٣٠ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ، الاصفهانى تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٣ ، العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ١٠٧ ، [illegible] الحلب ، ج٢ ، ... Gibb, op.cit., p.23.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ١١٨-١١٩ .

أن يواجهوا كل ماعبأته المملكة التى حاول تاج الدولة تتش اقامتها من موارد بشرية ومادية لتغيير تاريخ الشام ، وأمكن القضاء على الحركة الصليبية فى سنواتها الاولى . فالذى حدث فعلا أن ممتلكات تتش بالشام تفككت ، بسبب ماوقع من النزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، فضلا عما اشتهر به القادة الاتراك من الحسد وانتهاز الفرص للعمل لحسابهم الخاص(١) .

لحله الصليب ١١ مرة

النزاع بين رضوان ودقاق ونتائجه :

استطاع تاج الدولة تتش توحيد معظم بلاد الشام والجزيرة تحت لوائه بعد موت أخيه ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، غير أن أطماعه فى السلطنة السلجوقية أودت بحياته ، الامر الذى انعكست نتائجه على بلاد الشام والجزيرة فانقسمت بلاد الشام بين ولديه رضوان بحلب ودقاق فى دمشق ، اضافة الى دخول قادة بلاد الشام من الاتراك فى نزاع مستمر ، وهذا ما أدى الى نجاح الصليبيين فى الاستيلاء على بلاد الشام .

أما بالنسبة للصراع أو النزاع الذى قام بين أبناء تتش فى بلاد الشام فيمكن أن نقسمه الى مرحلتين ، المرحلة الاولى من النزاع وهى مرحلة ماقبل الغزو الصليبى لبلاد الشام وتمتد من (٤٨٨ الى ٤٩١هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٨م) ، والمرحلة الثانية وهى مرحلة مابعد الغزو الصليبى لبلاد الشام والجزيرة ، وهى المرحلة التى برز فيها دور السلاجقة السلبى فى مجابهة الصليبيين وتفكك وحدتهم ، وما ترتب على ذلك من سقوط الكثير من مدن وقلاع بلاد الشام فى أيدى الصليبيين .

---

(١) انظر: العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ١٨ ،

وتبدأ المرحلة الاولى من قصة النزاع بين ولدى تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م عندما طلب تاج الدولة تتش المساعدة من ابنه رضوان الذى كان فى دمشق ضد بركياروق بن ملكشاه ، فخرج رضوان وصحبته عساكر دمشق والعديد من الامراء الترك والعرب ، فلما وصل رضوان الى عانه على الفرات بلغه خبر مقتل والده فعاد مسرعا فى بعض خاصته الى حلب ومعه والدته ~~وزوجها~~ جناح الدولة حسين بن ايتكين . وفى حلب تمكن رضوان بمساعدة زوج والدته جناح الدولة حسين من الاستيلاء على قلعة حلب من وزير والده أبو القاسم الحسن بن على الخوارزمى فى ربيع الثانى سنة ٤٨٨/١٠٩٥م ونودى بشعار رضوان فى حلب وتولى جناح الدولة حسين تدبير شئون رضوان بحلب(١) .

أما شمس الملوك دقاق بن تتش فقد كان قبل وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م موجودا فى بغداد ولكنه غادرها بعد وفاة عمه ملكشاه بصحبة تركان خاتون وابنها محمود بن ملكشاه . غير أنه لم يطل المقام بصحبتهما ، بعد ان سمع أن والده خرج من بلاد الشام بقصد النيل من السلطان بركياروق - كما سبق ذكره - فلقى والده عند الرى وشهد معه المعركة التى قتل فيها والده تتش سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م . وبعد معركة الرى عاد دقاق الى حلب وأقام فى كنف أخيه رضوان بن تتش فترة زمنية قصيرة(٢) .

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٦ ، ورقة ٨٩ أ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ١١٣ ب ، العينى ، عقد الجمان ، جـ١٦ ورقة ١١٤ ب ، ابن القلانسى ، ص ١٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٤٦ .
Gibb, op.cit., p.p. 30-31.
- وعانة : بلدة مشهورة على الفرات بين الرقة وهيت من اعمال الجزيرة الفراتية ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٤٤-١٤٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ، ص ٢٩٦ ، القرمانى ، أخبار الدول وآثار الاول ، ص٢٨٠ .

وفى حلب استهل رضوان سياسته بقتل أخويه أباطالب وبهرام فى نفس السنة التى قتل فيها والداهما ليخلو له الجو من المنافسة فى حكم بلاد الشام . وأجرى اتصالاته مع السلطان بركياروق بشأن تبادل الاسرى بين الطرفين ، فتم اطلاق قوام الدولة كربوقا حيث كان مسجونا بحمص ، وعاد الى السلطان بركياروق ، فى الوقت الذى وافق فيه بركياروق على اطلاق سراح طفتكين (١) ، وكان طفتكين قد حظى بعطف وتقدير تتش حتى أسند اليه منصب الاسفهسلارية (٢) على جيشه وولاية دمشق وسلمه ابنه دقاق وعهد اليه بتربيته ، وأخيرا عينه تتش واليا على ميافارقين ، فقام طفتكين بواجباته خير قيام . وعندما وقعت معركة الرى بين تتش وبركياروق كان طفتكين بصحبة تتش ووقع أسيرا فى يد بركياروق ، وظل فى الاسر حتى تم الاتفاق بين رضوان وبركياروق على تبادل الاسرى وعاد طفتكين الى دمشق مع من كان فى اعتقال بركياروق من خواص تاج الدولة تتش (٣) . وكان لهذه الخطوة - أى خطوة تبادل الاسرى - بين بركياروق ورضوان أثرها اذ أن كلا منهما انصرف عن التفكير فى التدخل فى شئون الآخر ، حتى ان رضوان لم يعد يفكر فى الاخذ بثأر والده من السلطان بركياروق ، بل انصرف رضوان الى محاولة الانفراد بحكم بلاد الشام ، ومحاولة اخضاع القوى الاسلامية الاخرى لسيطرته . فخرج الى ديار بكر فى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ،

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٣١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢١-١٢٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٢) اسفهسلار : كلمة مكونة من لفظين احدهما فارسى وهو (اسفه) ومعناه المقدم والثانى تركى وهو (سلار) ومعناه العسكر وبالتالى الاسفهسلار هو مقدم العسكر . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣ ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ١٥٦-١٥٧ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٧٣ ب - ١٧٤ أ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١١٤ ب ، ١١٥ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .

ومعه اتابكه جناح الدولة حسين ، وياغى سيان صاحب أنطاكية ، ويوسف بن أبق صاحب الرحبه وقصدوا سروج فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها من سقمان بن أرتق ، فرحلوا عنها الى الرها فى السنة نفسها فاستولوا عليها (١).

وعند الرها حصل الاختلاف بين القادة الاتراك اذ حاول يوسف بن أبق وياغى سيان صاحب انطاكية الفتك بجناح الدولة حسين ليتفردا بأمر رضوان ، ولكن جناح الدولة حسين استطاع الهرب والعودة الى حلب فى الوقت الذى استوحش فيه رضوان من محاولة ياغى سيان ويوسف بن أبق الفتك بجناح الدولة حسين ولامهما على هذا التصرف ففارقاها وعادا الى أنطاكية (٢).

ولما كان شمس الملوك دقاق بن تتش قد عاد الى حلب بعد مقتل والده فى الرى وأقام فى كنف رضوان مدة قصيرة ، فانه قد خاف أن يحل به ما حل بأخويه بهرام وأبى طالب على يد أخيه رضوان ، لذلك استغل مراسلة نائب والده فى دمشق ، ويدعى ساوتكين الخادم ، وماعرضه على دقاق بالقدوم الى دمشق ، وتعهد فى نفس الوقت بتسليم دمشق اليه . ويبدو أن ساوتكين الخادم لم يكن كارها فى السيطرة على دمشق والتفرد بحكمها ، ولكنه كان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٤٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .

- وأتابك : كلمة تركية تتألف من لفظين (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير او مربى وهى من القاب الوظائف التى أستعملت فى الدولة السلجوقية وكانت مهمة الاتابك رعاية وتربية أبناء السلاطين السلاجقة الا ان نظام الاتابكة ادى فى نهاية الامر الى انقسام الدولة السلجوقية الى عدة دويلات استقل بحكمها الاتابكة وأسرهم كطغتكين فى دمشق وغيره . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ص ١٨ . وانظر : حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ص٢ ٢ ١-٢٤ ١ كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٢-٢٤٦ .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ١١ ، ورقة ١١٥ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٤٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٢٣ .

يرمى الى اضفاء طابع الشرعية على حكمه ، بوجود أحد أمراء البيت السلجوقى فى دمشق . لذلك تظاهر بالاخلاص لدقاق فى الظاهر بينما أراد على مايبدو الاستبداد بحكم دمشق (١) . وعلى أية حال فقد وجد دقاق فى مراسلة ساوتكين له فى السر فرصة للنجاة من غدر رضوان ، بصرف النظر عن التطلع الى حكم دمشق ، فهرب من حلب وتوجه الى دمشق سنة ١٠٩٥/٤٨٨ م من غير أن يعلم به أحد . ولما علم رضوان بهرب أخيه أرسل فرقة من الخيالة لمطاردته فلم تدركه . ولما وصل دقاق الى دمشق أجلسه ساوتكين فى منصب والده . " وأخذ له العهد على الاجناد والعسكرية واستقام له الامر واستمرت على السداد الاحوال " (٢) .

وفى دمشق استقبل شمس الملوك دقاق أتابكه ظهير الدين طغتكين الذى كان رضوان صاحب حلب قد طلب من بركياروق اطلاق سراحه مقابل اطلاق سراح كربوقا ، واطمأن دقاق بوصول أتابكه ، وأسند اليه جميع الامور فى تدبير المملكة . ومما استهل به طغتكين من الاعمال تدبير مؤامرة للاطاحة بساوتكين الخادم ، الذى كان قد سعى الى اعادة دقاق الى دمشق ، ثم تزوج طغتكين من صفوة الملك والدة دقاق ليصبح ذلك أتابكا له (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٣٠ ، انظر : على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع، ص ٢٧٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٠ ، انظر : ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٢١ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٧٣ ب - ١٧٤ أ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ٩ ، ورقة ٤٨ أ ، الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ، ورقة ١٣٧ أ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٠-١٣١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٥ ، ص ٢٤٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

وهكذا عاد التمزق السياسى مرة ثانية الى بلاد الشام ،نتيجة لسوء سياسة رضوان ، ولشدة اطماع القادة الاتراك فى التفرد بالسيطرة على أبناء تتش . مما أدى الى انقسام مملكة تاج الدولة تتش بين ولديه رضوان فى حلب ودقاق فى دمشق ، وانشغال رضوان باعادة السيطرة على دمشق وبالتالى صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته لهذا الغرض[1] وبالتالى لم تحل سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م الا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت الى خمس ممالك متنافسة فيما بينها وهى : سلطنة اصبهان وعلى رأسها السلطان بركياروق الذى كانت له السيطرة على بغداد ، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر بن ملكشاه ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش، ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش ،واخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن قطلمش[2].

ولم يقتصر النزاع فى بلاد الشام بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، بل تعداه حتى شمل قادة الاتراك فى أنطاكية وحمص والرحبة وسروج وغيرها لشدة أطماع هؤلاء القادة وما كانوا يرغبون فى تحقيقه لحسابهم الخاص، مستغلين فى ذلك النزاع بين الاخوين رضوان ودقاق حول دمشق . ففى سنة ٤٨٩ هـ /١٠٩٦م دار النزاع بين رضوان ودقاق حول السيطرة على دمشق ، فقد طمع رضوان فى الاستيلاء عليها واعادتها الى سيطرته فاستنجد بسقمان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا[3] وكان موجودا بسروج ، فتوجها

---

(١) زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢٣٣ .

(٢) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٧٠ .

(٣) حصن كيفا : بلدة وقلعة عظيمة كانت مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: ياقوت ،معجم البلدان ، القرمانى ،أخبار الدول واثار الاول ص ٣٣٦ .

الى دمشق مستغلين فى ذلك غيبة دقاق وطغتكين عنها ،الا ان رضـــوان لم يستطع الاستيلاء على دمشق ،فعاد الى حلب خائبا فى الامر الذى طلب ، بسبب استبسال المدافعين عنها ، ثم عودة دقاق اليها حين سمع بحصار رضوان لها بالاضافة الى انفصال سقمان بن أرتق عن رضوان ورحيله الى بيت المقدس اقطاع أخيه نجم الدين ايلغازى بن أرتق الذى كان متحالفا مع دقاق ضـــد رضوان (١) .

ولما يئس رضوان من حملته على دمشق سنة ٤٨٩/١٠٩٦م أخذ فـــى توسيع نفوذه على حساب قادة الاتراك السلاجقة فسعى فى السنة نفسهـــا ٤٨٩ هـ /١٠٩٦م الى قتل يوسف بن أبق صاحب الرحبة ، واستولى علـــى ممتلكاته فى بزاغة ومنبج (٢) ، وأغار على أنطاكية بمشورة من أتابكه جنـــاح الدولة حسين لما كان بينه وبين ياغى سيان من نفور مستحكم . الا أن رضوان لم يكن له هم سوى الاستيلاء على دمشق " لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيهـــا " فعاد للمرة الثانية الى محاولة الاستيلاء عليها فى شهر رمضان من السنـــة نفسها ٤٨٩ هـ /١٠٩٦م ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها للخطة المحكمة التى وضعها دقاق بالتعاون مع ياغى سيان صاحب أنطاكية . ولم يقف رضـوان عند حد عجزه عن الاستيلاء على دمشق ، بل انه عجز عن العودة الى حلـب فسار الى بيت المقدس ومنها الى حلب بعد أن تفرق أكثر رجاله (٣) .

ويبدو أن عودة رضوان الى حلب بعد ان تفرق اكثر رجاله دون النيـل من دمشق ، قد أدى الى ترجيح كفة أخيه دقاق ، اذ استطاع دقاق وحليفه

---

(١) ابن القلانسى ،ص ١٣٢ ،ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) بزاغة : بلدة كانت من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب ، ومنبج :كانت مدينة كبيرة بين الفرات وحلب فى فضاء من الارض ،انظـر : ياقوت ، معجم البلدان ، ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،ص ٢٢٤ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٣٢ ،انظر ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ ، ابن الاثير ، الكامل ،جـ ١٠ ،ص ٢٦٩ .

الجديد ياغى سيان صاحب أنطاكية من استعادة بعض ماكان قد استولى عليه رضوان من املاك أنطاكية كالمعرة التى كانت بيد سقمان بن أرتق حليف رضوان سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م . وبذلك أصبح رضوان فى موقف المدافع بعد أن كان فى موقف المهاجم ، وبهذا تمكن دقاق من نقل ميادين المعارك من دمشق الى حلب(١) .

ظل كل من رضوان ودقاق يتحين الفرص للانقضاض على الاخر والنيل منه ، حتى كان ربيع الاول سنة ٤٩٠ هـ /١٠٩٧م حيث التقى كل من رضوان ودقاق فى معركة بحاضر قنسرين ، أجبرت رضوان على الاستعانة بسليمان بن ايلغازى صاحب سميساط وجمع من العرب والترك فى الوقت الذى كان مع دقاق أتابكه ظهير الدين طغتكين ، وياغى سيان صاحب أنطاكية . وعندما التقى الجمعان صمد رجال رضوان واستطاعوا اجبار دقاق ومن معه على التراجع حيث عاد ياغى سيان الى أنطاكية وعاد دقاق وطغتكين الى دمشق (٢) .

وعقب هذه المعركة حصل بين رضوان وأتابكه جناح الدولة حسين نفور خاف معه جناح الدولة حسين على نفسه من رضوان ، ففارق حلب متوجها الى اقطاعه فى حمص فى شعبان من سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م ، فاستغل ذلك ياغى سيان صاحب أنطاكية فتقرب من رضوان ، ودخل حلب وشرع فى تدبير شئون مملكة رضوان والامر والنهى فى عسكريتها واهلها (٣) . ولكن ياغى سيان

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٢٥ . والمعرة: هى معرة النعمان نسبة الى الصحابى النعمان بن بشير الذى دفن بها وهى مدينة قديمة وكبيرة من اعمال حمص بين حلب وحماة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ، ورقة ١٠٧ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٢٦ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢١٠ ، وقنسرين: بلدة بالشام بين حلب وحمص ، وسميساط: مدينة على شاطئ الفرات الغربى فى طرف بلاد الروم ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٦ ، ورقة ٩٠ أ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٢٦-١٢٧ ، الذهبى ، العبر ، جـ٣ ، ص ٣٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٧٠ .

ورضوان فى حلب لم ينصرفا الى الاهتمام بشئون حلب والعمل على تقريب شقة الخلاف بين حلب ودمشق ، بل على العكس سعى ياغى سيان ورضوان الى تجهيز حملة عسكرية بقصد الاستيلاء على دمشق من دقاق واتابكه طغتكين ، فخرجا فى السنة نفسها ٤٩٠هـ/١٠٩٧م وقصدا حمص التى بها جناح الدولة حسين بهدف القضاء عليه ولكنهما فشلا فتوجها الى شيزر التى كانت بيد بنى منقذ وحاصراها مدة بقصد الاستيلاء عليها واتخاذها نقطة ارتكاز للهجوم على دمشق وحمص ، الا انهما لم يستطيعا النيل منها ، فعاد الملك رضوان الى حلب بينما توجه ياغوسيان الى أنطاكية بسبب الاضطراب الذى وقع فى صفوفهم نتيجة وصول طلائع الصليبيين الى شمال الشام (١) .

وهكذا لم يستطع رضوان استرداد دمشق من أخيه دقاق ، فضلا عن فشله فى توطيد نفوذه فى شمال الشام ، كما أن سياسته فى حلب قد أصابها الاضطراب نتيجة للدور الذى لعبه بركات بن فارس الفوعى الملقب بالمجن الفوعى رئيس أحداث (٢) حلب الذى كان له دور بارز فى اثارة الشكوك والريبة بين رضوان وأتابكه جناح الدولة حسين وغيره من القادة الاتراك ، الا أن رضوان

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٢٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٣٥٢ ،

(٢) تكونت جماعة الاحداث فى بلاد الشام لمقاومة الحكم الفاطمى فى بلاد الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، القرن العاشر الميلادى ، وهم جماعة من القوات المدنية وكان الاحداث يقومون بحفظ النظام ومكافحة النيران واغاثة المنكوبين بالاضافة الى انضمامهم الى القوات النظامية لمحاربة الاعداء وقت الحاجة اليهم .

انظر : سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠-٣١ ،

Zakkar op.cit., p.p. 255-256. ,

The Encyclopaedia of Islam, Vol.I. p.256.

استطاع التخلص من المحن الفوضى بأن صادر أمواله وأمر بقتله سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م(١) .

ولم يقتصر انهيار وتفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام على النزاع الذى قام بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، فقد وجد فى هذا النزاع بعض العناصر المعادية للسلاجقة متنفسا لهم للخروج من دائرة نفوذهم ، وعلى سبيل المثال فقد وجد سكان أفامية واغلبهم من الشيعة فى الحوادث التى جرت بين رضوان ودقاق الفرصة مناسبة فأعلنوا العصيان على الحاكم السلجوقى وسيروا جماعة منهم الى مصر سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م يستدعون واليا فاطميا لهم ، فاهتبل الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى هذه الفرصة وسير خلف بن ملاعب الى أفامية فى السنة التالية ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م ليحكمها باسم الفاطميين فظل حاكما لها حتى وافته منيته سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م ، وسقطت أفامية بيد الصليبيين سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م(٢) .

وبالاضافة الى ذلك فقد وجد الفاطميون فى النزاع القائم بين رضوان ودقاق متنفسا لهم فى استعادة مكانتهم فى بلاد الشام - والتى كانوا قد فقدوها ابان عهد قوة السلاجقة أيام السلطان ملكشاه وأخوه تاج الدولة تتش - فشجع الفاطميون الفتن والثورات ضد الاتراك السلاجقة فى بعض مدن الشام ، وقدموا المساعدات لزعماء الحركات الانفصالية فى مقابل اعادة الدعوة لهم ، وهذا جل مايتطلعونه فى سبيل نشر مذهبهم(٣) .

---

(١) ابن القلانسى ص ١٣٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٢٤-١٢٥ .

(٢) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ٥٧ أ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ، ورقة ٢٢١ أ . ابن القلانسى ، ص ١٣٢-١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ١٨ ، ابن ميسر ، أخبار مصر جـ٢ ، ص ٣٧ .
وافامية : مدينة حصينة على سواحل الشام وكورة من كور حمص ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

(٣) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ، ص ٣٢٦-٣٢٨ .

وفى ظل تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام نجح الفاطميون فى اعادة صور الى طاعتهم سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧ م بعد تمرد واليهم عليها المسمى كتيله ، نتيجة عدم استطاعة السلاجقة فى بلاد الشام مد يد العون لهذا المتمرد ، وتقديم المساعدة له للوقوف فى وجه الفاطميين (١) .

ولم يقف الفاطميون عند هذا الحد من استغلال النزاع بين رضوان ودقاق وتفكك وحدة السلاجقة وانهيار نفوذهم فى بلاد الشام ، فى استعادة مكانتهم ببلاد الشام ، بل سعوا الى ترغيب رضوان فى تقديم المساعدة له ضد خصومه فى دمشق وحمص فى مقابل اقامة الدعوة لهم فى حلب والبلاد التى تحت حكمه فوافق رضوان على هذا المطلب وأعلن الدعوة فى الخطبة للفاطميين ٤٩٠/١٠٩٧م على سائر منابر مدن الشام التى فى يده . وعندما لم يتلق رضوان من الفاطميين ماكان قد تم الاتفاق عليه من المساعدات العسكرية ضد خصومه فى حمص ودمشق وتحت الضغط الشديد من القادة الاتراك فى بلاد الشام مثل ياغى سيان صاحب انطاكية ، فقد قطع الخطبة باسم الفاطميين من بلاده بعد مرور أربع جمع من السنة المذكورة (٢) .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ص ٣٨ .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١١٩ أ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٧-١٢٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٩-٢٠ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ ، اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ .

وفى ظل الظروف المتردية للاتراك السلاجقة فى بلاد الشام ، فقد خرج الافضل بن بدر الجمالى فى شعبان من سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨م على رأس قوة عسكرية لاسترداد بيت المقدس - الذى كان بيد نجم الدين ايلغازى وأخوه سقمان بن أرتق اللذين كانا تابعين لحكام دمشق السلاجقة - وحاصر الافضل بيت المقدس ولم يستطع الاراتقة الصمود أمام الفاطميين بسبب عدم قدرة السلاجقة فى دمشق وحلب على مد يد العون للاراتقة ، بالاضافة الى انشغال السلاجقة بالصليبيين الذين استولوا على أنطاكية تلك السنة . وبعد حصار ضربه الافضل على بيت المقدس لمدة أربعين يوما استسلم ايلغازى وسقمان ابنى أرتق للفاطميين ، فسمح لهما الافضل بالخروج من بيت المقدس وتسلمه هو وعاد الى مصر ، بعد ان ولى عليه واليا من قبله هو افتخار الدولة (١) .

ومن النتائج التى ترتبت على النزاع بين رضوان ودقاق فى هذه المرحلة هى حصول فرقة الاسماعيلية فى حلب على مكانة مرموقة بفضل ماكانوا يحصلون عليه من رضوان من مساعدة وتشيع لارائهم ، وكانت هذه الفرقة بزعامة الحكيم المنجم الباطنى ، وخليفته أبا طاهر الصائغ العجمى (٢) . ويبدو أن هدف رضوان من وراء تشجيع هذه الفرقة هو الاستعانة ببعض أفرادها فى اغتيال المعارضين له فى سبيل تنفيذ سياسته ، بعد أن عجز عن استعادة دمشق

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ٢ ، ص ٣٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٢ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، The Cambridge History of Islam, Vol.IA. p.p. 195-196.

(٢) العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٤٥ .

وحمص ، وأعادتها تحت سيطرته . وفي الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد أحرزوا عدة انتصارات متتالية فى آسيا الصغرى على السلاجقة ، لم يعبأ رضوان بذلك ، بل ظل يفكر جديا فى الاستيلاء على دمشق . ولم يتدارك رضوان ودقاق الموقف المتدهور فى بلاد الشام ولم يعملا على رأب الصدع الذى أحدثته سياستهما الهوجاء لتوحيد قواهم ضد الصليبيين الذين أخذوا يدمرون حصون انطاكية فى شهر رجب من سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، وأنهوا بذلك حكم السلاجقة فيها . ولم يقفا عند هذا الحد بل أن رضوان قد أحدث الفرقة بين صفوف المسلمين الذين كانوا يحاولون استعادة انطاكية من الصليبيين بقيادة كربوقا صاحب الموصل ، اضافة الى الموقف المتخاذل الذى سلكه دقاق صاحب دمشق تجاه حملة كربوقا (١) .

ومن هنا يمكن القول بأن النزاع الذى قام بين رضوان ودقاق قد ترتب عليه ضعف الجبهة الاسلامية ، وأدى الى عدم استقرار الامور فى بلاد الشام وأتاح لكثير من الامراء المحليين بالشام والجزيرة لان يستقل كل واحد منهم بما تحت يده ، والعمل على توسيع نفوذه على حساب الاخرين ، فتوزعت بلاد الشام والجزيرة الى امارات عدة ، تركزت حول الموصل وحلب ودمشق وطرابلس وأنطاكية وشيزر والرها ، ولا يجمع بينها ولاء واحد مما أتاح للصليبيين الاستيلاء على كثير من مدن الشام فى يسر وسهولة . فبعد استيلاء الصليبيين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٣٦-١٣٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ، ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مقال بمجلة المؤرخ العربى ، العدد الخامس ، ص ١٠٩ .

على أنطاكية توجهوا الى البارة واستولوا عليها بعد أن غدروا بأهلها فـــى أواخر سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م [١] . ومع بداية سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م توجه الصليبيون صوب معرة النعمان فضربوا حولها حصارا شديدا اضطـــر أهلها الى التسليم ، بعد أن أيسوا من مساعدة رضوان صاحب حلـــب وجناح الدولة حسين صاحب حمص ودقاق صاحب دمشق [٢] . ومن المعـــرة توجه الصليبيون الى كفر طاب واستطاعوا الاستيلاء عليها فى السابع عشـــر من شهر صفر سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م وفعلوا بأهلها كما فعلوا بأهل المعـــرة والبارة من الغدر والمكيدة [٣] . ثم رحل الصليبيون الى جبل لبنـــان فقتلوا من به من المسلمين وواصلوا سيرهم حتى بلغوا عرقه فحاصروها أربعـــة أشهر من سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨م فلم يقدروا عليها ، ونزلوا على حمص فهادنهم جناح الدولة حسين على مال يدفعه لهم ، ثم انصرفوا الى عكا التى بيـــد الفاطميين ومنها توجهوا الى الرملة حيث استولوا عليها من الفاطميين فـــى ربيع الاخر من السنة نفسها [٤] . ولم يحل شهر رجب من سنة ٤٩٢ هـ حتى استطاع الصليبيون تأسيس ثالث امارة لهم بعد امارتى الرها وأنطاكيـــة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٧٢ ، ابن العديم ، زبـــدة الحلب ، جـ٢، ص ١٤١ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، جســـن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ص ١٠ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٤٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٣٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى . حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
ـ وكفر طاب : بلدة مشهورة بين المعرة ومدينة حلب ، انظر ياقوت الحموى معجم البلدان .

(٤) ابن القلانسى ، ص ١٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٣ .
وعرقة : بلدة مشهورة الى الشرق من طرابلس الشام على سفح جبل ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

تلك هى مملكة بيت المقدس بعد أن عجز الفاطميون عن صد الصليبيين عن بيت المقدس[1] .

ولا شك أن اجتياح الصليبيين لبلاد الشام فى مدة قصيرة يعود بالدرجة الاولى الى عدم ادراك القوى الاسلامية لمغزى الحروب الصليبية ، واهداف الصليبيين ، ولم يعملوا على توحيد قواهم ضد الصليبيين ، ولم يعمل رضوان رضوان ودقاق على التحالف مع القوى الاسلامية للوقوف فى وجه الصليبيين ، بل سعى كل واحد منهما الى تحقيق أطماعه وتوسيع ممتلكاته على حساب القوى الاسلامية الاخرى ، فدقاق بن تتش توجه فى بداية سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م الى ديار بكر وميافارقين بقصد توطيد نفوذه بها والعمل على توسيع ممتلكاته هناك ، فى الوقت الذى كان فيه رضوان محاصرا بحلب من قبل الصليبيين[2].

ولم يستغل رضوان ودقاق وغيرهما من القوى الاسلامية بالشام وقوع بوهمند صاحب أنطاكية فى أسر سلاجقة الروم سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩م[3] من أجل لم شعثهم وشتاتهم والوقوف صفا واحدا فى وجه الصليبيين ، بل حاول كل واحد منهم الحصول على اكبر قدر من الممتلكات والسعى فى تدبير المؤامرات ضد خصومهم من المسلمين ، فرضوان حين عجز عن اصلاح مابينه وبين جناح الدولة حسين صاحب حمص سعى فى أمر اغتياله على يد الباطنية الذين دبروا اغتياله والتخلص منه وذلك فى الثانى والعشرين من شهر رجب سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م[4] .

---

(١) عن سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين ، انظر: ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٢٨٢ - ٢٨٥ ، وابن القلانسى، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٢٧٢-٢٨٣ ، ابن القلانسى ص ١٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٤٣ ، الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٦٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٨ ، اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ص ١٥٥ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٤٦ ، ابن القلانسى، ص ١٤٢ .

ولسوء سياسة رضوان التى اتبعها تجاه القوى الاسلامية فى بلاد الشام فانه لم ير فى نفسه من الكفاية والقدرة على سد الثلمة التى حدثت فى حمص عقب اغتيال جناح الدولة حسين ، فأصبحت حمص محل نزاع بين دقاق صاحب دمشق والصليبيين فى بيت المقدس . وأخيرا استطاع دقاق الاستيلاء على حمص فى نفس السنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م وسلمها الى اتابكه ظهير الدين طغتكين ، فقطع بذلك الطريق على الصليبيين من الوصول اليها " فحين عرفوا ذلك أحجموا عن القرب اليها والدنو منها[1] " كما يقول ابن القلانسى.

ولم يقف رضوان عند هذا الحد من تدبير المؤامرات والاغتيالات لزعماء المسلمين ، وطعنهم من الخلف ، بل سعى فى سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م الى التصدى لزعيم سلاجقة الروم قلج أرسلان وهزمه أثناء محاولة قلج أرسلان قتال الصليبيين حول الرها[2]، ولم يكتف رضوان بهذا فقد انضم الى الصليبيين نجدة لتانكرد صاحب انطاكية ضد جاولى سقاوه صاحب الموصل فى سنة ٥٠١ هـ /١١٠٧ م بسبب خلاف وقع بين رضوان وجاولي[3]. ولم يقدر الصليبيون هذا الموقف من رضوان ، فقد حاصروا حلب نفسها سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م وضيقوا على من بها من المسلمين حتى أكلوا الميتات وورق الشجر ، ولم يكتفوا بهذا بل فرضوا على رضوان مبلغا كبيرا من المال يحمله اليهم ، ولعل هذا هو ما دفع بعض سكان حلب الى الخروج منها الى بغداد لطلب النجدة

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٤٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ص ١٧ ، العظيمى تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٥٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٥٣ ، وكان جالى سقاوة احد قادة السلطان محمد بن ملكشاه ، اقطعه الموصل سنة ٥٠٠ هـ ، ولكنه أساء السيرة فى الرعية مما دعى السلطان الى تنحيته عن الموصل سنة ٥٠٢ هـ وعين بدلا منه شرف الدولة مودود ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٨ - ٧١٧ .

من السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله (١) .

وبهذه السياسة العشوائية ألحق رضوان الضرر بأهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين حتى أن النجدة التى أرسلها السلطان محمد بن ملكشاه بقيادة شرف الدولة مودود سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م قد وقف رضوان فى وجهها وعمل على عرقلتها ، ولم يكتف بهذا بل عمد الى بث الحرامية من اتباعه يتخطفون من يظفرون به من عساكر مودود ، وأخيرا سعى الى افساد مابين مودود وحليفه ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق (٢) .

أما عن موقف دقاق صاحب دمشق من الهجوم الصليبى على بلاد الشام فانه لم يكن بأحسن حال من موقف رضوان بحلب ، فبالاضافة الى موقفه المتخاذل تجاه مايجرى على ارض الشام مما هو بيد غيره ، فانه لم يستطع العمل على رأب الصدع الحاصل بينه وبين أخيه رضوان بحلب ، ولم يستطع تقديم المساعدة الجدية للقوى الاسلامية فى بلاد الشام للوقوف فى وجه الصليبيين ، وعمد دقاق ومعه أتابكه طغتكين الى الاستيلاء على بعض المدن التى كانا يخشيان عليها من السقوط بيد الصليبيين بعد خلوها من حكامها ، مثل استيلائهما على حمص عقب اغتيال جناح الدولة حسين سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م ثم قيامهما بالاستيلاء على الرحبة بعد وفاة صاحبها المسمى قايماز التركى فى نفس السنة (٣) . غير ان الاجل قد احاط بدقاق حيث توفى فى السنة التالية

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٨٥-٤٨٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٥٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٧٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٦٠ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) انظر: ابن القلانسى ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٧٣-٣٧٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢١٦ .

٤٩٧ هـ/١١٠٣م بعد ان أوصى بالامر من بعده لاتابكة ظهير الدين طغتكين ، وبوفاة دقاق هذه السنة انتهى حكم السلاجقة من دمشق ، وانتقل الى أسرة ظهير الدين طغتكين التى ظلت تحكم دمشق حتى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م(١) .

ولم يقتصر النزاع بين رضوان ودقاق فى بلاد الشام وما ترتب عليه من تفكك وحدة السلاجقة عند حد اجتياح الصليبيين لبلاد الشام فى يسر وسهولة ، بل أدى الى تنازع القادة العسكريين السلاجقة ، الامر الذى أدى فى النهاية الى بروز قوى جديدة فى بلاد الشام على أنقاض السلاجقة ، كان لها دور أيضا فى تفكك وحدتهم لا فى بلاد الشام فحسب بل وفى اقليم الجزيرة . ومن أشهر القادة العسكريين الذين أسسوا لهم امارات مستقلة عقب تمزق وحدة السلاجقة فى الشام والجزيرة ولعبوا دورا بارزا فى مجريات الحوادث السياسية فى الفترة الاخيرة ، نجم الدين ايلغازى ابن أرتق واخوه سقمان بن أرتق . كان والدهما أرتق بن أكسك التركمانى أحد مماليك السلطان ملكشاه(٢) واشتهر أرتق بالشجاعة وحسن التدبير حتى نال مرتبة عاليه لدى السلطان ملكشاه ، غير أن العلاقات بينه وبين السلطان ملكشاه قد ساءت منذ عام ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م فتوجه أرتق أثر ذلك الى بلاد الشام وانضوى تحت لواء تاج الدولة تتش وشاركه فى فتوحاته ببلاد الشام ، فكافأه على حسن بلائه وخدماته بأن اقطعه بيت المقدس سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م فظل بها حتى وفاته سنة

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٤٤ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥، ص ١٨٩ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٩٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ص ١٩٠ ، ١٩١ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ، ص ٥٧ ، حاشية رقم (١) .

٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م[1] ، وخلفه على اقطاعه فى بيت المقدس ابنه نجم الدين ايلغازى وأخوه سقمان بن أرتق ، ولعب الاراتقة دورا بارزا فى حوادث النزاع الذى نشب بين أبناء تتش كغيرهم من قادة السلاجقة فى بلاد الشام[2].

ولما انتزع الفاطميون بيت المقدس من بنى أرتق سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م، اتجه بنو أرتق جميعا الى منطقة الجزيرة والعراق . ومن اتجه منهم الى العراق نجم الدين ايلغازى بن أرتق حيث لزم جانب السلطان محمد بن ملكشاه ، وأسند اليه شحنكية بغداد سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م ، ولعب دورا بارزا فى النزاع الذى كان قائما بين السلطان محمد بن ملكشاه واخوه بركياروق بن ملكشاه[3] . أما سقمان بن أرتق فقد اتجه بعد خروجه من بيت المقدس الى سروج واتخذها مركزا له فى محاولة فاشلة للاستيلاء على الرها . وظل بسروج حتى استطاع سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢م من الاستيلاء على حصن كيفا عقب وفاة قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل[4] ، واستطاع سقمان ابن ارتق أن يؤسس له بحصن كيفا امارة مستقلة ، واستولى نجم الدين ايلغازى الذى كان شحنة للسلطان محمد بن ملكشاه ببغداد على ماردين واستقل بحكمها وترك فى حصن كيفا ابن اخيه داود بن سقمان بن أرتق[5] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل، جـ١٠ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن الاثير، الباهر ، ص ٣٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ١٩٧ - ٢١١ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ١، ص ١٩١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٥ ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ١، ص ١٩١ ، ابن ايبك ، كنز الدرر، جـ٦، ص ٤٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ ، ٣٤١ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ٥، ص ٥٦ ، والشحنة : هوالمسئول عن حفظ الامن فى المدينة وممثل السلطان امام الرعية عند غيبة السلطان عن المدينة والشحنكية اسم الوظيفة التى يتولاها الشحنة . انظر : المقريزى ، السلوك جـ١ ق ١ ، ص٣٥-٣٦ ، حاشية ، نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٢ حاشية رقم ١ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٠١ .

(٤) ابن الاثير الكامل ، جـ١٠، ص ٣٤٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ،
Gibb, op. cit., p.p. 26-27.

(٥) ابن القلانسى ص ١٤٦ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ١٥١ =

وهكذا استطاع سقمان بن أرتق ونجم الدين ايلغازى أن يؤسسا للاراتقة امارتين بديار بكر، احداهما فى ماردين والاخرى فى حصن كيف، ولعب زعماء هاتين الامارتين دورا بارزا فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية سنة ٥٢١ هـ . (١)

- فرقة الاسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام :

وبالاضافة الى ماقام به قادة الاتراك السلاجقة من دور بارز فى زيادة تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام والجزيرة ، فقد شهدت بلاد الشام ظهور فرقة الاسماعيلية أوالباطنية التى أدت الى زيادة تفكك القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة . وتنسب هذه الطائفة الى اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ هـ (٢) . وقد أسس حركة الباطنية التى تعرف أحيانا باسم الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذى سافر من ايران الى مصر وقابل الخليفة الفاطمى المستنصر وتلقى منه اصول الدعوة الاسماعيلية ، ثم عاد الى بلاد فارس . وفى سنة ٤٨٣ هـ/١٠٨٨م استولى الحسن الصباح على قلعة الموت التى عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وارتفاعها وحصانتها . وبفضل ما اشتهر به الحسن بن الصباح من الدهاء والمكر وضع لاتباعه تنظيما دقيقا وقسمهم الى خمس مراتب ، وألف كتابا من اربعة فصول

= ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٩١ ، احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ .
وماردين : قلعة عظيمة على قمة جبل الجزيرة ، كان لها ريض عظيم واسواق كثيرة وحانات . انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

(١) ولمزيد من التفصيل عن الاراتقة انظر كتاب عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، طبعة بيروت ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ١٩٨-٢٠٧ ، انظر المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، جـ٢ ، ص ١٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٣٦ ، برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية ، ص ٥٢-٨٤ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

ضمنه أهم مبادئ دعوته ، وجند فئة من أتباعه تميزت بقوة الابدان وطاعتهـا العمياء لتنفيذ مايطلب منها فى اغتيال خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج وكثرجمعه فملك القلاع الكثيرة ، وأخذ أمره فى الانتشار وساعده فى ذلـك تفكك وحدة السلاجقة عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وضعف الخلافة العباسية (١) .

وكان من أبرز نشاطات هذه الفرقة فى بلاد فارس والعراق وبلاد الشام الفتك بزعماء أهل السنة وكانت اولى ضحاياهم - ابرز شخصية فى الدولـة السلجوقية - وهى شخصية نظام الملك ووزير السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م (٢) . ولم يقتصر نشاط هذه الفرقة عند حد الفتك بزعماء السنة ، بل تعداه الى التعرض لحجاج المسلمين القادمين من الهند وبلاد مـاوراء النهر . غير أن أمر هذه الفرقة بفارس والعراق أخذ فى الضعف والتدهـور بعد سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٧م حين أقدم السلطان محمد بن ملكشاه علـى تخريب قلاعهم وتشريد بعض زعماء هذه الفرقة من بلاد فارس (٣) .

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٢٠٣ - ٢٠٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٣٢٦ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٣٢٢ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٣ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٢١ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجـوق ، ص ٦٨ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٣٩٣ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ق ١ ، ص ١٩ ، ابن الـوردى ، تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٨ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٤١٠ .

أما عن هذه الفرقة ببلاد الشام ، فقد استغل زعماء الباطنية الانقسام الذى ساد بلاد الشام عقب وفاة تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٦ م ، وقيام النزاع بين رضوان ودقاق فى حلب ودمشق وازدياد مطامع القادة الاتراك فى بلاد الشام فتيسر لهم التغلغل فى صفوف المسلمين وتثبيت أقدامهم فى بلاط كل منهم بقدر استطاعتهم . ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل ساعدوا على اخراج بعض ممتلكات السلاجقة الى الفاطميين حلفائهم فى العقيدة ، كما حصل فى أفامية سنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٧م(١) .

ولما لم يكن للاسماعيلية مركز فى بلاد الشام ، فقد سعى الحسن بن محمد الصباح الى أن تكون حلب تحت سيطرته ، فأخذ فى بث رجاله ودعاته فنجح فى هذا الامر . واستطاع أحد دعاته ويعرف باسم الحكيم المنجم الباطنى التقرب من الملك فخر الملوك رضوان سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧م ، وبدأ باظهار مذهب الباطنية فى حلب ، فاعتبر بذلك أول داعية للاسماعيلية ببلاد الشام بفضل المؤازرة والمساعدة التى حصل عليها من رضوان صاحب حلب ، حيث سمح رضوان للحكيم المنجم باقامة دار لدعوة الاسماعيلية بحلب ، ولم يقف عند هذا الحد بل شمل اصحابها بعطفه ورعايته (٢) .

وبفضل ما حصل عليه رجال الاسماعيلية بحلب من عطف ورعاية رضوان ، فقد استغلوا ذلك فى الفتك بزعماء المسلمين الذين كانوا يعارضون رضوان . وهذا على ما يبدو سر تقريب رضوان لهذه الفرقة ، وقد افتتحوا أعمالهم الاجرامية فى بلاد الشام بقتل جناح الدولة حسين أتابك رضوان ، بعد أن توترت العلاقات بينهما فى شهر رجب ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م . ولم تطل أيام

---

(١) انظر ما سبق ، ص

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٤٦-١٤٧ ، ١٦٨ ، ابن القلانسى ص ١٤١-١٤٣ ، ابن سبط الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

زعيم هذه الفرقة فى حلب - الحكيم المنجم - بعد مقتل جناح الدولة حسين فتولى أمر الاسماعيلية بها ابوطاهر الصائغ ، الذى سار على نهج سلفه فى الفتك بزعماء المسلمين حيث دبر من قبله بعض رجاله ففتكوا بخلف بن ملاعب صاحب أفاميه سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م بالتعاون مع ابى الفتح السرمينى الذى اتخذ من سرمين مقرا له ولاعوانه (١) .

وهكذا يمكن القول أن توطيد الاسماعيلية بحلب واتساع نفوذهم فى بلاد الشام قد أدى الى ظهور عامل جديد من عوامل تفكك وحدة المسلمين عامة والسلاجقة خاصة ، ذلك التفكك الذى تعرضت له بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، الامر الذى أدى بهذه الفرقة الى مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على بعض معاقل المسلمين ، أو تهيئة المناخ المناسب لسقوطها بيد الصليبيين كما حصل فى أفامية سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٧م .

ولم تقف الاسماعيلية عند هذا الحد من طعن المسلمين من الخلف باغتيال الشخصيات الكبيرة ، بل تعداه الى انهم حاولوا الاستيلاء على قلعة شيزر من بنى منقذ سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م بقصد اتخاذها معقلا لهم فى بلاد الشام بدلا من حلب ، ولكنهم أخفقوا فى هذا الامر (٢) . على أن ما قام به زعماء فرقة الاسماعيلية من اثارة روح الكراهية بين السكان تجاه أمراء وقادة السلاجقة ومن نشر الرعب والفزع فى بلاد الشام مما أسهم الى حد كبير فى وضع العراقيل أمام توحيد الجبهة الاسلامية (٣) . فقد سعوا - على سبيل المثال - سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م الى فض الحلف الاسلامى الذى حصل بين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٤٨ ، ابن القلانسى ص ١٤٩- ١٥٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥، ص ١٩٢ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ٢ ، ص ٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
وسرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب ، واغلب سكانها من الشيعة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٧٢ .

(٣) الحرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ، ص ٢٧ .

مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وذلك الحلف الذى كان نواة حقيقية فى توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين ، حينما أقدم الباطنية على الفتك بمودود فى دمشق فى السنة المذكورة . الامر الذى أدى بظهير الدين طغتكين الى اتباع سياسة اللين مع الصليبيين فى السنة التالية ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م[١] .

ولكن أمر الاسماعيلية فى حلب خاصة وبلاد الشام عامة ، أخذ فى الضعف عقب وفاة رضوان بن تتش سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣م اذ أن خليفة رضوان المسمى ألب أرسلان بن رضوان قد أقدم على الفتك بهذه الفرقة المارقة بطلب من السلطان محمد بن ملكشاه ، حيث قبض على ابى طاهر الصائغ وقتله ، وقتل زعماء هذه الفرقة " وقبض على زهاء مائتى نفس منهم " ، وبذلك قضى على نفوذهم بحلب وشرد من بقى منهم ببلاد الشام[٢] . غير أن من بقى منهم على قيد الحياة قد تجمعوا وحاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر من بنى منقذ سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق مقصدهم مرة أخرى[٣] . وعادت فلول الباطنية الى حلب مستغلين فى ذلك وفاة ألب ارسلان بن رضوان سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤ م ، الا أن أمرهم فى حلب لم يعد كما كان عليه فى زمن رضوان ، فظلوا على حال من الضعف والاستتار بحلب حتى كان حكم بلك بن بهرام لها سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م اذ أمر باخراج الباطنية من حلب " فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها "[٤] .

---

(١) انظر مايلى ، الفصل الثانى ، ص
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٦٨-١٦٩ ، انظر ابن القلانسى، ص ١٩٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠، ص ٤٩٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٤٧ ، العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .
(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧ .
(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٢١٦ ، انظر: احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ص ٧١ .

ولكن أمر الاسماعيلية فى بلاد الشام لم يضعف بما حل بهم على يد بلك ابن بهرام بن أرتق سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، فقد تزعم أمرهم أحد الرجال المعروفين وهو بهرام الاستراباذى ، وتجمع معه الكثير من جهلة الناس ورعاعهم وهو على غاية من الاستتار والاختفاء ، حتى ظهر أمره فى دمشق سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، فتقرب منه ظهير الدين طغتكين اتقاء لشره ، وتنازل له عن ثغر بانياس فى السنة نفسها ففدت بالياس حصنا للاسماعيلية ، بدلا من حلب (١) . وكان لهذا العمل من قبل طغتكين اثره فى نفوس الكثيرين من الفقهاء ورجال الدين من أهل السنة ، وعدوا ذلك سيئة من سيئات طغتكين فى حق الاسلام والمسلمين ، خصوصا وان بهرام قد اتخذ من بانياس قاعدة انطلاق للاستيلاء على مزيد من الحصون والقلاع ، ففى سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧ م استولى بهرام على حصن القدموس غير أن منيته قد وافته فى السنة التالية ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م ، وهو فى طريقه للاستيلاء على مزيد من الحصون ، بعد أن استخلف على بانياس رجلا من اصحابه ، اسمه اسماعيل العجمى (٢) .

ولم يقنع زعماء الاسماعيلية بما حصلوا عليه من ظهير الدين طغتكين ، بل انهم استغلوا وفاته فى أول سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وسعوا الى الاتفاق مع

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣٢ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٠ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١١٧ - ١١٨ ،
- وبانياس : بلدة صغيرة قريبا من جبل لبنان ، وتعد من اعمال دمشق ، انظر : ابوالفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢١ هـ - ٥٢٢ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٤٣ .
وحصن القدموس : حصن من حصون وادى التيم ، من أعمال بعلبك شمال الشام ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٦ .

الوزير أبوعلى طاهر بن سعد المزدقانى وزير تاج الملوك بورى بن طغتكين ، على تسليم دمشق للصليبيين فى مقابل حصول الوزير على صور التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من الفاطميين سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م . وعلم تاج الملوك بورى بهذا الامر قبل تنفيذه فقبض على وزيره المزدقانى ، وقتله وفتك بالاسماعيلية ، وأحدث فى صفوفهم مذبحة شنيعة ، اذ بلغ عدد قتلاهم نحوا من ستة آلاف نفس(١) . الامر الذى أدى بمن ببانياس من الاسماعيلية الى القيام بتسليمها الى الصليبيين فى السنة التالية ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م(٢) . وعلى الرغم مما حل بفرقة الاسماعيلية من دمار وتشريد على يد قادة بلاد الشام فان نشاطهم العدائى للمسلمين عامة وأهل السنة خاصة لم ينقطع فى بلاد الشام ، بل ظل عائقا أساسيا فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فضلا عن تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام .

نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة :

واكب انهيار النفوذ السلجوقى وتفكك وحدتهم نهاية للامارات العربية التى كانت قد اتخذت من الموصل وحلب والجزيرة وبادية الشام مسرحا لها . وتمتعت هذه الامارات فى هذه المناطق بنفوذ واسع النطاق قبل الحكم السلجوقى ، حين كان الفاطميون يسيطرون على معظم مدن بلاد الشام ويتفقون مع كثير من القبائل العربية فى المذهب الشيعى خاصة قبائل كلاب وعقيل ، وبنى مزيد فى الحلة . ولكن السلاجقة الاتراك حينما وصلوا الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م أخذوا على عاتقهم حماية الخلافة العباسية والعمل على توسيع نفوذها فى بلاد الشام ، وذلك بهدف القضاء على النفوذ الشيعى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٢١-٢٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٢٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

الفاطمى ، فاصطدموا بالامارات العربية فى الموصل وحلب ، وأخضعوها لنفوذهم وقضوا على معظمها .

فالمرداسيون فى حلب الذين يعود نسبهم الى قبيلة كلاب العربية ، العدنانية [1] وقفوا فى وجه السلاجقة وحاولوا منعهم من السيطرة على حلب والبلاد التابعة لها فى شمال الشام . وقد تجلى موقفهم هذا فى عهد الامير محمود بن نصر بن صالح بن مرداس أثناء حملة السلطان ألب أرسلان على ديار بكر وبلاد الشام سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠م حيث رفض محمود تسليم حلب لمندوب السلطان . ولكن ادراكا من محمود بعدم قدرته العسكرية على مواجهة السلاجقة ، فقد قابل السلطان ألب ارسلان وشرح له عن أعماله فى حلب وجهاده ضد البيزنطيين ، فعفى عنه ألب أرسلان وأقره على بلاده [2] . وكان محمود قد لعب دورا كبيرا فى جهاد الروم البيزنطيين فى منطقة أنطاكية والثغور الاسلامية ، اذ كانت هذه البلاد بين مد وجزر فيما بين المرداسيين والبيزنطيين [3] .

ظل محمود بن نصر فى حكم حلب حتى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥م اذ وافته منيته على أثر مرض حل به ، وخلفه ولده الامير نصر بن محمود [4] . وقد تعرض نصر هذا لضغوط من الاتراك السلاجقة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٦م ولكنهم فشلوا

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٠٥ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ١ ص ٣٠٤ .
(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ١١ ورقة ٥٧ أ ، ٥٩ ب ، ابن القلانسى ، ص ٩٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢١-٢٢ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٤١-٤٢ .
(٤) ابن القلانسى ، ص ١٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٠٠-١٠٦ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٤٢ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٣ ، ص ٣٢٩ .

فى الاستيلاء على حلب . غير أن نصرا لم تطل حياته ، فقد قتله بعض زعماء السلاجقة فى شهر شوال من نفس السنة ، فتولى امر حلب بعده أخوه سابق ابن محمود (١) .

دخل سابق بن محمود فى نزاع مع أخيه وثاب بن محمود الذى اجتمعت عليه بنو كلاب فاستعان سابق بن محمود بالاتراك السلاجقة ، واستطاع هزيمة خصومه فى نهاية سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٧م (٢) وأخذت أحوال البيت المرداسى فى الانحلال والتدهور اذ لجأ وثاب بن محمود وجماعة من العرب الى السلطان ملكشاه وطلبوا منه المساعدة ضد سابق بن محمود ، وبدلا من ان يقدم السلطان ملكشاه لهم المساعدة فقد أقطع بلاد الشام كلها لاخيه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وأمرهم بالمسير الى بلاد الشام فساروا وانضموا الى صفوف تتش الذى أخذ فى حصار حلب سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧م ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها فعاد الى دمشق واستولى عليها فى السنة التالية من أحد قادة السلطان ملكشاه (٣) .

من هنا شعر سابق بن محمود بخطر تتش والسلاجقة فطلب المساعدة من مسلم بن قريش العقيلى صاحب الموصل فى الوقت الذى كان فيه أهل حلب قد بعثوا برسلهم اليه لطلب الاستغاثة منه وانجادهم من سوء الاوضاع بحلب . وقرر مسلم المسير الى حلب لا لنجدة سابق بن محمود وانما للاستيلاء على حلب فوصلها فى شهر الحجة سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م ومعه جمع من العرب .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٥٣ أ ب ، ابن العديم بغية الطلب،جـ٢،ورقة ١٦٥ ب ، ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٤٧-٤٩ .

(٢) ابن العديم ،بغية الطلب،جـ٢ ورقة ١٦٦ أ ب ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ٥٤ .

(٣) ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ،ورقة ٤٧ أ ،ابن القلانسى ، ص ١١٢ ، ابن الاثير،الكامل،جـ١٠،ص ١١١ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢،ص ٥٦ ، The Cambridge History of Islam, Vol.IA, p.195.

وراسل سابق بن محمود الذى تحصن بقلعة حلب ، وعرض مسلم بن قريش على سابق بن محمود تسليم حلب ، فرفض سابق بن محمود ، وكاد اليأس أن يدب الى نفس مسلم بن قريش ، غير ان الفرج قد أتاه بوقوع الخلافات مجدداً بين الامراء المرداسيون ، فتوسط على بن المقلد بن منقذ بين سابق بن محمود ومسلم بن قريش ، وأشار على سابق بن محمود وأمراء بنى مرداس بتسليم حلب الى مسلم بن قريش ورغبهم فى قبول التعويضات المالية والاقطاعات السنية لكل واحد منهم ، فنزل الامراء المرداسيون عند هذه المشورة وتسلمها مسلم بن قريش فى شهر ربيع الاخر من سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م (١) . وبتسلم مسلم بن قريش لحلب زالت دولة بنى مرداس وأصبحت حلب تحت حكم مسلم بن قريش حتى وفاته سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٤ م عندما استولى عليها تاج الدولة تتش من القائمين عليها من قبل مسلم بن قريش(٢) . وهكذا يمكن القول أن نهاية امارة بنى مرداس فى حلب جاءت فى فترة قوة السلاجقة واتساع نفوذهم ، بما أحدثوه من اثارة المنازعات بين الامراء المرداسيين بعضهم ضد بعض حتى تمكن مسلم بن قريش بمساعدة السلاجقة من القضاء على هذه الامارة العربية الفتية سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م .

أما عن امارة بنى عقيل فى الموصل وشمال الشام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م - ٤٧٨ هـ/١٠٨٤م) فلم تكن بأحسن حظ من امارة بنى مرداس فى حلب وذلك للجهود الجبارة التى بذلها السلاجقة للاطاحة بهذه الامارة نظراً لاختلافها فى المذهب عن مذهب الخلافة العباسية والسلاجقة وموالاة زعماء هذه الامارة للخلافة الفاطمية فى القاهرة . فقريش بن بدران زعيم بنى عقيل

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ، ورقة ١٥أ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص٥٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٨٤-١٨٥ .

(٢) العمرى ، مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١٠٦أ ، ابن القلانسى ص ١١٨ - ١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١١٥ ، ١٤٨-١٤٩ ، Zakkar, The Emirate of Alenpoy , p.2ol.

فى الموصل شعر كثيره من أمراء العرب بخطورة السلاجقة ، فأخذ فى تشجيع الحركات المناوئة لهم . غير ان حياة قريش لم تطل حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م فخلفه فى حكم الموصل ابنه شرف الدولة مسلم بن قريش ، فأخذ فى توطيد علاقاته بالسلطنة السلجوقية وتقرب من السلطان ألب أرسلان ، فزاد السلطان فى اقطاعه سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م (١) .

وفى ظل هذه العلاقة الطيبة مع السلاجقة استطاع مسلم بن قريش الاستيلاء على حلب سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م والقضاء على امارة بنى مرداس فبسط نفوذه على الموصل وشمال بلاد الشام . وتطلع الى الاستيلاء على دمشق من تاج الدولة تتش سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، ولكنه فشل فى الامر ، بسبب قوة السلاجقة وعدم وصول النجدة التى طلبها من الفاطميين بمصر ، فأفسد بذلك علاقاته مع السلاجقة (٢) .

لم يقف مسلم بن قريش عند هذا الحد من معاداة السلاجقة ، بل انضم الى بنى مروان بديار بكر لمساعدتهم ضد الحملة التى أرسلها السلطان ملكشاه سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م للقضاء على الامارة المروانية

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٣ ، ورقة ٢٤٨ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ، ص ٦٤٠-٦٤٧ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٣٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٥ ص ٢٦٧- ٢٦٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٧ ، الازدى ، اخبار الدولة المنقطعة ، ص ٦٨ ، سيرة المؤيد فى الدين ، داعى الدعاة ، ص ٩٢ - ١٤٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١١٤-١١٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٢٧ .

بديار بكر . وانهزم مسلم بن قريش امام السلاجقة ، وكاد ان يقع اسيرا في ايديهم ، الا انه استطاع الافلات بمساعدة أرتق بن أكسك جد ملوك الارتقة في ماردين وحصن كيفا ، وقرر مصالحة السلطان ملكشاه ، وقدم للسلطان اموالا وهدايا بما فيها فرسه الخاص ، فعفى عنه واقره على بلاده (١) .

غير أن طموح شرف الدولة مسلم بن قريش وكرهه للسلاجقة السنيين كانتا سببا في حتفه سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٤ م على مقربة من انطاكية في لقاء له مع زعيم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى سليمان بن قطلمش (٢) . وبمقتل مسلم بن قريش تولى أمر بني عقيل في الموصل أخوه ابراهيم بن قريش بن بدران ، ولما كان مسلم بن قريش تابعا للسلاجقة ، فقد قام السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م باستدعاء ابراهيم بن قريش الى بغداد لمحاسبته ، فاعتقله ملكشاه وظل معتقلا حتى توفي ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م فأطلقته تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه . وعاد ابراهيم بن قريش الى الموصل وبها زوجته صفية وابنها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان ابراهيم قد تزوجها بعد وفاة أخيه مسلم بن قريش . فلما عاد ابراهيم من الاعتقال رحبت به زوجته وسلمت اليه الموصل فبقي حاكما لها حتى أتاه تاج الدولة تتش سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣ م وهزمه وقتله ، وبمقتله اضمحل أمر بني عقيل في الموصل وشمال الشام (٣)

---

(١) العمري ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ، ورقة ١٠٧ أ ، النويري ، نهاية الارب ، جـ٢٦ ، ورقة ١٢٤ أ ، ابن القلانسي ص ١١٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٣٤-١٣٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ ، ورقة ٧١ أ ب ، ابن القلانسي ، ص ١١٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٩١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٣٩-١٤٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٠٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

ومن أهم القوى الاسلامية فى بلاد الشام والعراق قبل قيام الاسرة الزنكية امارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق (٤٩٥-٥٢١هـ/١١٠١-١١٢٧م) وامارة بنى عمار فى طرابلس (٤٦٢هـ-٥٠٣هـ/١٠٧٠-١١٠٩م)، وامارة بنى منقذ فى شيزر (٤٧٤-٥٥٢ / ١٠٨١-١١٥٧م).

فأما عن امارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق (٤٩٥/١١٠١هـ - ٥٢١/١١٢٧م) فتنسب الى مضر وهم بطن من بطون أسد بن خزيمة، تركزت زعامتهم فى بنى مزيد الناشرى (١). علا شأن بنى مزيد بالعراق بين واسط والبصرة، بما انضم اليهم من الاكراد حتى صار خلفاء بنى بويه وسلاطينهم يتقربون الى زعماء هذه الامارة تفاديا للاصطدام بهما، اذ أن بنى مزيد كانوا يمثلون الانتفاضة العربية ضد السيطرة البويهية على الخلافة العباسية، بالرغم من اشتراك البويهيين والمزيديين فى مذهب التشيع (٢).

وعندما سقطت حكومة البويهيين سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وتولى أمر الخلافة العباسية سلاطين السلاجقة، سعى بنو مزيد الى عرقلة التوسع السلجوقى فى العراق وبلاد الجزيرة وحاولوا مساعدة القوى المعارضة لهم

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ، ص ،
والحلة: المقصود بها حلة بنى مزيد، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد الى الغرب من الفرات، وكانت تسمى الجامعين قبل ان ينزلها ويعمرها سيف الدولة صدقة سنة ٤٩٥ هـ. وكانت اجمة تأوى اليها السباع
انظر ياقوت، معجم البلدان.
(٢) الحلى، تاريخ الحله، ص ٢٢.

كالبساسيرى ، حتى اضطر السلطان السلجوقى طغرل بك الى التقرب من زعيم بنى مزيد نور الدولة دبيس ، وخلع عليه بما يناسب مقامه . وقد ظل فى الامارة حتى توفى فى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م فتولى الامر من بعده ابنه بهاء الدولة منصور (١) .

تقرب بهاء الدولة منصور من سلاطين السلاجقة ، وحضر الى جانبهم الوقعة التى جرت بين السلاجقة من جانب بنى مروان ومسلم بن قريش من جانب آخر فى آمد سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م وكان لبهاء الدولة منصور على مايبدو - دور بارز فى الافراج عن مسلم بن قريش الذى كاد أن يقع أسيرا فى يد السلاجقة . وقد تحلى بهاء الدولة منصور بصفات حميدة ، وظل فى الامارة حتى وفاته سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م فتولى الامر من بعده ابنه سيف الدولة صدقة ، فى عهد السلطان السلجوقى ملكشاه (٢) . وكان السلطان ملكشاه حين سمع بوفاة بهاء الدولة منصور قد طلب احضار ابنه سيف الدولة صدقة ، فلما حضر بحضرته خلع عليه وولاه ماكان لابيه ، فظل سيف الدولة صدقة على علاقة طيبة بالسلاجقة ولزم جانب الطاعة ، واشترك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ص ١٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ، ص ١٠٠ ، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٥١ ، ١٥١ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ، ص ١٣-١٦ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٢ الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢١١ - ٢٢٠ .

مع رجال السلطان فى اصلاح ماخربه العرب بالبصرة سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م[١] .

وعند ما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م استغل سيف الدولة صدقة النزاع الذى قام بين أبنائه من جهة وبين عمهم تاج الدولة تتش من جهة أخرى ، وما حصل عليه القادة الاتراك من الاقطاعات فى العراق ، اضافة الى اختلافه عنهم فى المذهب . فالسلاجقة سنيين متعصبين بينما سيف الدولة صدقة وبقية بنى مزيد شيعة رافضة[٢] .

من هنا وجد سيف الدولة سدقة الفرصة سا نحة فى الاستقلال بما تحت يده من الاملاك ، فقطع الخطبة باسم السلطان بركياروق بن ملكشاه وأعلنها باسم اخيه محمد بن ملكشاه سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م . ولم يقف عند هذا الحد بل عمد فى السنة التالية ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م الى اتخاذ الحلة مقرا له وانتقل اليها فسميت بالحلة السيفية نسبة الى سيف الدولة صدقة ، وأخضع القبائل الفراتية وأخذ فى توسيع امارته على حساب السلاجقة والخلافة العباسية ، فشملت امارته البصرة والبطيحة ، وهيت وعانة ، والكوفة[٣] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ١٥١ ، ١٨٣ - ١٨٤ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ، ص ١٨٤ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ١١٢ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٠٨ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١١٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢ ، ص ٤٩٠ ، الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٨٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١١٢ .
- والبطيحة : ارض متسعة بين واسط والبصرة . انظر ياقوت : معجم البلدان .

وتماديا في سياسة العداوة للسلطان بركياروق ، فقد رفض سيف الدولة صدقة مقابلة السلطان بركياروق سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م حين قدومه الى بغداد ، وانضم في السنة التالية ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م الى نجم الدين ايلغازي وأخيه سقمان بن أرتق للوقوف في وجه السلطان بركياروق ومساعدة السلطان محمد بن ملكشاه . ثم أقدم سيف الدولة صدقة في السنة نفسها ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م على الاستيلاء على هيت التابعة لبركياروق واستخلف عليها سيف الدولة صدقة ابن عمه ثابت بن كامل ، وبقيت تحت سيطرته حتى وفاته سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م(١) . وفي نفس السنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م استغل سيف الدولة صدقة خروج كمشتكين القيصري - شحنة بغداد من قبل السلطان بركياروق - من بغداد فأعاد الخطبة بها باسم السلطان محمد بن ملكشاه ، فذاع صيت سيف الدولة صدقة وعدله بين الناس ، حتى أن اهل عانة من بني يعيش بن عيسى بن خلاط قد تقدموا في اول سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م الى سيف الدولة صدقة وسلموا اليه بلدهم عانة ، وفي نفس السنة استولى سيف الدولة على واسط وولى عليها من قبله أحد أصحابه بينما عاد هو الى عاصمته الحلة (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، الحلي ، تاريخ الحله ، ص ٢٤ .

(٢) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، ٣٦٨ - ٣٧٧ ، ابو الفدا ، المختصر جـ٢ ص ٢١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٦٣ ، الحلي ، تاريخ الحله ص ٢٤ .

وفى ربيع الاخر من سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م عقد الصلح بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه ، فما كان من سيف الدولة صدقة الا أن رفض هذا الصلح جملة وتفصيلا ، وأعلن رفضه بقبول اعلان الدعوة فى الخطبة لبركياروق على منابر بغداد ، وأبلغ الخليفة العباسى المستظهر بالله بأنه سوف يقوم باخراج شحنة بغداد نجم الدين ايلغازى اذا وافق على اعلان الدعوة فى الخطبة لبركياروق . ونجح سيف الدولة صدقة بما فرضه من مطالب وأفسد ماتم بين الاخوين بركياروق ومحمد(١) غير ان السلطان بركياروق لم يعمر طويلا بعد هذا الاتفاق ، فقد توفى فى السنة التالية ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، بعد ان استخلف فى منصبه ابنه ملكشاه بن بركياروق الذى حاول منازعة عمه محمد بن ملكشاه الا أنه لم ينجح (٢) .

أما سيف الدولة صدقة ، فانه بعد وفاة السلطان بركياروق أمد حليفه السلطان محمد بن ملكشاه بقوة عسكرية جعل عليها اولاده بدران ودبيس لمساعدته ضد خصومه من أنصار ملكشاه بن بركياروق ، فتوثقت عرى الصداقة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه ، لادراك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٧٠ - ٣٧٢ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٢ ، ص ٢١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٦٣ ، احمد كمال الدين حلمى ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٥١ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ٨٣ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٨٠ - ٣٨٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ص ٨٠-٩٦ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٩١ .

كل منهما بحاجة الى الاخر ، خصوصا وأن سيف الدولة صدقة كان مسموع الكلمة عند القبائل العربية في العراق التي كانت سببا في اثارة الفتن ضد السلاجقة الاتراك(١) .

وفي ظل الصداقة المتبادلة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه أغار سيف الدولة صدقة في سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م على البصرة واستولى عليها ، وولى عليها من قبله أحد أصحابه ، الا أن ذلك أزعج السلطان محمد بن ملكشاه . فاستردها من سيف الدولة صدقة ، ولكن سيف الدولة صدقة عد ذلك اعتداء على حرمته ووجد الفرصة سانحة للاستيلاء على تكريت فاستولى عليها في السنة التالية ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م من صاحبها كيقباذ الديلمي الموالي السلطان محمد بن ملكشاه ، وولى عليها من قبله ورام بن ابي فراس بن ورام (٢) .

من هنا بدأت العلاقات بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه ، تأخذ شكلا مغايرا عما كانت عليه ، بسبب تطرف سيف الدولة صدقة في علاقاته مع الخلافة العباسية ، وطمع الكثيرين من رجال

---

(١) الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ، ص ٨٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١، ص ١٦٨ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢١٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ص ١٦٤ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٨٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٤٠٤-٤٠٥ ، ٤١١ ، ابن شاكر عيون التواريخ، جـ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢٢١ ، الحلي ، تاريخ الحلة ص ٢٥ .- وتكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، كان لها قلعة حصينة غربي دجلة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله فى عقيدة سيف الدولة صدقة (١) .

وما قيل عن سبب العداوة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه فانها لاتخرج عن كونها الرغبة من السلطان السلجوقى فى تحطيم هذه الامارة العربية الفتية التى أصبحت ملجأ يستجير بها صغار الناس وكبارهم من ظلم الحكام ، خصوصا وأن زعماء هذه الامارة يختلفون عن العباسيين وسلاطين السلاجقة فى المذهب . ولذلك وجد السلطان محمد بن ملكشاه الفرصة سانحة للقضاء على سيف الدولة صدقة ، مستغلا فى ذلك منح سيف الدولة صدقة حق اللجوء لابى دلف سرخاب ابن كيخسرو الديلمى صاحب ساوه وآبه (٢) ، ورفض سيف الدولة صدقه اعادته الى السلطان ، الامر الذى استدعى السلطان محمد بن ملكشاه الى القدوم الى بغداد سنة (٥٠١ هـ / ١١٠٧م بقصد التباحث مع سيف الدولة صدقة فى أمر ابى دلف سرخاب وغيره من الامور ، غير أن سيف الدولة صدقة عقد العزم على محاربة السلطان . فلما سمع الخليفة العباسى المستظهر بالله بموقف سيف الدولة صدقة تجاه السلطان محمد بن ملكشاه أرسل اليه رسولا لتطييب قلبه ، وازالة مخاوفه ، ويعرفه ان قدوم السلطان الى بغداد

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٢ ، ٤٤٠ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) ساوه : مدينة حسنة بين الرى وهمذان تبعد عن كل منها ثلاثون فرسخا ، وآبه : قرية من قرى اصبهان ، تقابل ساوه ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

هو من أجل الاستعداد لمحاربة الصليبيين ، الا ان سيف الدولة صدقة لم يثق بهذا كله ، خصوصا وان بعض رجال السلطان محمد بن ملكشاه بدأوا يتحرشون باملاك سيف الدولة صدقة (١) .

انزعج الخليفة العباسي المستظهر بالله لهذا الموقف المتأزم بين السلطان محمد بن ملكشاه وسيف الدولة صدقة فأرسل من قبله مندوبا الى السلطان محمد بن ملكشاه ، يأمره بالتوقف وترك العجلة خوفا على الرعية من سفك الدماء ، فأجاب السلطان محمد بن ملكشاه . وأرسل الخليفة مرة أخرى الى سيف الدولة صدقة من ينهاه عن المخالفة ويأمره بطاعة السلطان فأجاب سيف الدولة صدقة وأرسل رسله الى الخليفة لتقديم اعتذاره عما بدر منه في الوقت الذي جهز فيه ابنه دبيس للمسير الى السلطان محمد بن ملكشاه . غير ان رجال السلطان محمد بن ملكشاه انتهزوا قدوم رجال سيف الدولة صدقة وهجموا عليهم ، الا ان رجال سيف الدولة ظفروا بالاتراك ، وركبوا ظهورهم بالقتل والنهب والسلب (٢) . ومرة أخرى أزعجت هذه الحوادث الخليفة العباسي المستظهر بالله وكرر مساعيه بين الطرفين ، الا انه لم يفلح في التوفيق بينهما ، الامر الذي أدى في نهاية الامر بأن أمر السلطان رجاله بعبور دجلة ، فساروا حتى

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠١ هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٥٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٤١-٤٤٣ ، الذهبي ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٢٩-٣٠ ، سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ص ٢٦ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ .

أصبحوا مع جيش ا سيف الدولة صدقة على أرض واحدة بالنعمانية فـي شهر رجب من سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٦م . وتقابل الفريقان وحمى الوطيس وترجل الاتراك عن خيلهم ، واطلقوا سهامهم على العرب ، في الوقـت الـذى وقعت فيه خيل العرب في الوحل الذى تميزت به أرض المعركة . ففتكت سهام الاتراك بالعرب ، وقتل سيف الدولة صدقة ومعه وجـوه أصحابه ولم ينج منهم الا اليسير ممن حماه الاجل ، ووقع ابنه دبيـس ابن صدقة ووالدته في الاسر (١) .

ومقتل سيف الدولة صدقة لم يعد للعرب بعده مثله في العـدل والانصاف واحسان السيرة فيهم وجزيل العطاء لهم ، وحسن الوفـاء ، والتجاوز عن الجرائم والكبائر ، والتعفف عن أموال الناس(٢) . وفي الحقيقة فان امارة بني مزيد وعلى رأسها سيف الدولة صدقة ، قد استغلت الظروف التي أحاطت بالسلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م فاستقلت عن سلطانهم . ولم تقف امارة بني مزيد عند هذا الحد بـل ساعدت على اشعال نار الفتنة بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه

---

(١) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٠١ هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٥٩-١٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل، جـ ١٠ ، ص ٤٤٧-٤٤٨ ، ابـن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٥٦ ، الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٢٧٤ ، ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧ ، الحلي تاريخ الحلة ، ص ٣٠-٣١ .

والنعمانية : بليدة صغيرة بين واسط وبغداد على ضفة دجلة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) انظر : ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠١ هـ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٩٠ ، ابـن العمراني ، الانبـاء في تاريخ الخلفاء ص ٢٠٧ ، الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٨١ ، الحلي ، تاريخ الحلة ، ص ٣٢ ، حاشية رقم ١ .

بما اتبعه سيف الدولة من الميل ناحية السلطان محمد بن ملكشاه ضد أخيه بركياروق ، والتى كانت على مايبدو بهدف اضعاف جانب السلطان بركياروق ثم الميل أخيرا على السلطان محمد بن ملكشاه والتخلص منه ، لان السلطان محمد كان أقل قوة من أخيه بركياروق . غير ان آمال سيف الدولة صدقة لم تتحقق اذ ذهب ضحية طموحه ونزواته وتطرفه[1] .

أما نور الدولة دبيس بن صدقة ، الذى وقع هو ووالدته فى أسر السلطان محمد بن ملكشاه فقد أحسن اليه السلطان محمد بن ملكشاه ، وأطلق سراحه من الاسر ، بعد أن أخذ عليه المواثيق الغليظة ، بعدم الافساد او العودة الى الحلة ، فبقى دبيس قريبا من السلطان محمد ، وحصل على الاقطاعات الكثيرة حتى ظن الكثير من الناس انه قد نسى ملك والده كما وصف ذلك الاصفهانى " وقد سلا عن بلده وقنع بما فى يده ، ورضى من السلطان بالرضى ، وانقضى طمعه فى ملك أبيه الذى انقضى "[2].

ظل دبيس بن صدقة على هذه الحال الى أن أتاه الفرج بموت السلطان محمد بن ملكشاه سنة (٥١١ هـ/ ١١١٧ م ، وقيام ابنه محمود بن محمد مقامه وهو لم يبلغ سن الحلم واجتماع كثير من حاشيته حوله مع ماكانت عليه من الفساد وسوء التدبير ، فحسنوا للسلطان الصغير السماح لدبيس بن صدقة بالعودة الى الحلة بعد ان اخذوا منه مالا على سبيل الرشوة[3]

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١، ص ١١٢ .

(٢) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٤-١١٨ ، انظر ابن الجوزى المنتظم ، جـ٩، ص ١٩٣ .

(٣) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٩ ، انظر ابن الاثير ، جـ١٠، ص ٤٤٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٣ ، الفارقى ، تاريخ الفارقى، ص ٢٨٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١١ هـ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢، ص ٢٦٣ ، الحلى ، تاريخ الحله ، ص ٣٣ .

وما أن عاد دبيس بن صدقة الى الحلة بالعراق حتى اجتمع حوله كثير من العرب والاكراد وغيرهم فعظم شأنه وارتفع ، ونظر اليه العرب والاكراد على انه محط آمالهم فى الخلاص مما يعانونه من سلب الحرية على يد الاتراك السلاجقة ، خصوصا وانهم قد عرفوا فيه بعض الصفات الحميدة كالجود والكرم وحب الغزوات ، مع ما تمتع به من معرفة فى الادب والشعر(١).

أخذ دبيس يحدث نفسه بالخروج عن طاعة السلاجقة ، واستعادة ماكان لوالده من البلاد ، فبدأ بمراسلة جيوش بك اتابك الملك مسعود بن محمد شقيق السلطان محمود بن محمد والذى كان قد استولى على الموصل بعد وفاة والده السلطان محمد بن ملكشاه ، وحسن لجيوش بك والملك مسعود بن محمد العصيان على السلطان محمود بن محمد لعلم دبيس بصغر سن السلطان ، وفساد حاشيته فلبيا دعوة دبيس وخرجا نحو العراق ، وصحبتهما عدد من الامراء منهم عماد الدين زنكى . غير ان آقسنقر البرسقى شحنة بغداد من قبل السلطان محمود بن محمد قد نجح فى صدهما عن دخول بغداد ونهاهما عن المواجهة العسكرية مع السلطان محمود بن محمد ، فعادا الى الموصل سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . وفشل نور الدولة دبيس بن صدقة فى ماكان يصبو اليه من اثارة الفتن بين الاخوين السلطان محمود بن محمد والملك مسعود بن محمد (٢) .

---

(١) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، ج١٣ ، حوادث سنة ٥١٢ هـ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨، ق ١ ص ١٥٥ ؛ ابن طباطبا ، الفخرى فى الاداب السلطانية ، ص ٣٠٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٣٣ - ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٢ .

ومن جهة أخرى فان فشل جيوش بك والملك مسعود بن محمد قد غير وجهة نظر دبيس بن صدقة في النيل من سلاطين السلاجقة ، وعرف ان استعادة ماكان لوالده من مجد لن يتم الا بالتقرب من السلطان محمود ابن محمد ، فمال الى جانبه ضد خصومه من افراد البيت السلجوقي مستغلا في ذلك النزاع القائم بين السلطان محمود بن محمد وعمه سنجر بن ملكشاه . فشجع دبيس بن صدقة السلطان محمود بن محمد على لقاء عمه سنجر ، وزوده بفرقة عسكرية بقيادة أخيه منصور بن صدقة حينما خرج السلطان محمود لملاقاة عمه بهمذان . غير أن الهزيمة قد حلت بالسلطان محمود ومن معه وانتهى اللقاء بينهما بعقد صلح أصبح محمود بموجبه وليا لعهد سنجر سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م[(١)] .

لم يرق هذا الصلح لدبيس بن صدقة ، ولذلك عاد الى سياسته السابقة في الاتصال بجيوش بك والملك مسعود بن محمد في السنة التالية ٥١٤ هـ /١١٢٠ م ووعدهما بالمساعدة العسكرية اذا خرجا بجيوشهما الى بغداد لطلب السلطنة لمسعود من الخليفة العباسي المسترشد بالله بدلا من أخيه محمود بن محمد وحثهما على القاء القبض على آقسنقر البرسقي شحنة بغداد ، الا أن آقسنقر استطاع الهرب والانضمام الى السلطان محمود بن محمد بهمذان وأخبره بحقيقة الامر الذي دبر ضده فاستعد للموقف ، وخرج لملاقاة أخيه مسعود بن محمد ، فالتقى الاخوان سنة ٥١٤ هـ عند عقبة أسداباذ ، فوقعت الهزيمة على الملك مسعود بن محمد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٥١ ، ٥٦٠ ، الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ، ص ١١٥ .

وأصحابه نتيجة للخطة المحكمة التي وضعها آقسنقر البرسقي ، وهرب مسعود وجيوش بك الا ان البرسقي استطاع اللحاق بهما وأعادهما الى السلطان محمود ، فعفا عنهما وجردهما من حكم الموصل ومنحها لآقسنقر البرسقي (١) .

أما دبيس بن صدقة فانه حين سمع بعفو السلطان محمود بن محمد عن جيوش بك والملك مسعود بن محمد ، وما عزم عليه السلطان من القدوم الى بغداد سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م ثارت ثائرته وسار من الحلة الى بغداد ونصب خيمته بازاء خيمة الخليفة العباسي المسترشد بالله ، وهدده وتوعده اذا لم يسع الى محاولة منع السلطان من القدوم الى بغداد . وحاول الخليفة ان يهدئ من روعه ، ووعده بانه سيسعى في اصلاح مابينه وبين السلطان محمود بن محمد ، الا انه قد وعد الخليفة بالتهديد والوعيد ، اذا دخل السلطان محمود بغداد بالرغم من ان السلطان محمود نفسه قد بعث الى دبيس بن صدقة من يطيب قلبه ، ويخبره بان هدف السلطان من دخول بغداد انما هو لتفقد احوال الرعية ، ومد يد العون للمسلمين في بلاد الشام للوقوف في وجه الصليبيين (٢) .

---

(١) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٤ هـ ، سبط ابن الجوزي مراة الزمان ، ج٨/ق١ ص ٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ص ٢٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ق ١ ، ص ٧٣ ، - واسراباذ : بلدة قريبة من همذان كان قد عمرها اسد بن ذي السرو الحميدي ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٥١ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٣ ، حوادث سنة ٥١٤ هـ ، ابوالفدا ، المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج١ ص ٥٣٤ .

وعلى أية حال فقد وصل السلطان محمود بن محمد فى رجب سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م الى بغداد ودخلها ، الامر الذى أجبر دبيس بن صدقة على العودة الى الحلة ، لعلمه بعدم قدرته على الوقوف فى وجه السلطان محمود بن محمد وجيوشه . وبدلا من ان يتخذ موقفا معاديا من السلطان فقد لجأ الى المسالمة فبعث من الحلة بهديه سنية الى السلطان محمود بن محمد ، وأعتذر عما بدر منه تجاه الخليفة العباسى المسترشد بالله ، فمنحه السلطان محمود الامان على نفسه . غير ان بعض رجال دبيس ابن صدقة لم يرق لهم هذا ، فأخذوا يتحرشون ببعض ممتلكات السلطان محمود بن محمد بالعراق ، فلما تيقن السلطان من أن دبيس ورجاله لم يفوا بما وعد به دبيس بن صدقة من حسن الطاعة سار عن بغداد فى شوال من السنة نفسها ٥١٤ هـ / ١١٢٠م وقصد دبيس بن صدقة بالحلة بهدف القضاء عليه ، الا أن دبيس بن صدقة استطاع الهرب الى ديار بكر، وانضم الى نجم الدين ايلغازى والد زوجته واقام عنده مدة من الزمن بماردين (١) .

ومن ماردين حاول دبيس بن صدقة الرجوع الى الحلة وبحث هذا الموضوع مع شحنة بغداد يرنقش الزكوى الذى تولى هذا المنصب عقب دخول السلطان محمود بن محمد الى بغداد ، ولكن دبيس بن صدقة لم يفلح فى الامر فأوعز الى صهره نجم الدين ايلغازى بالتدخل لدى السلطان محمود ابن محمد فى السماح له بالعودة الى الحلة . فأرسل نجم الدين ايلغازى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٨٥ .

ابن حسام الدين تمرتاش البالغ من العمر سبعة عشر عاما الى السلطان محمود بن محمد شفيعا فى دبيس بن صدقة ، وتعهد للسلطان كل يوم ألف دينار وفرس مقابل الحلة الا أن هذه الوساطة لم تنجح أيضا ، فقرر دبيس بن صدقة بعدها العودة الى الحلة مهما كانت الصعاب ، فعاد الى الحلة فى السنة التالية ٥١٥ هـ / ١١٢١ م(١) . ولا شك فى أن عودة دبيس بن صدقة الى الحلة على الرغم من معارضة السلطان محمود بن محمد قد أثارت فى نفسه الشكوك والريبة ، لذلك فقد بادر بارسال مندوبين من قبله الى السلطان محمود بن محمد والخليفة العباسى المسترشد بالله يعتذر عما بدر منه ويعدهما بالطاعة والاستقامة ، الا انهما لم يثقا بكلامه وسير السلطان محمود بن محمد اليه بعض عساكره ففارق الحلة ، غير ان يرنقش الزكوى شحنة بغداد سعى بالصلح بين دبيس بن صدقة والسلطان محمود بن محمد فنجح فى الامر واشترط على دبيس ان يرسل اخاه منصور مع بعض رجاله رهينة عند السلطان محمود مقابل وفاء دبيس بن صدقة بالطاعة ، ففعل دبيس وعادت الامور الى نصابها ، وعاد دبيس بن صدقة الى الحلة للمرة الثانية فى نفس السنة ٥١٥ هـ / ١٠٢١ م(٢) .

ويبدو أن هذا الصلح الذى تم بين السلطان محمود بن محمد من جهة ودبيس بن صدقة من جهة أخرى لم يرق للخليفة العباسى المسترشد بالله ، الامر الذى دعاه الى مطالبة السلطان محمود بن محمد فى سنة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٦ - ٥٩٢ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩١ ، الحلى ، تاريخ الحلة ، ص ٣٦ .

٥١٦ هـ / ١١٢٢م بابعاد عربيس بن صدقة عن الحلة ، غير ان السلطان محمود بن محمد لم يصغ الى مطلب الخليفة العباسي المسترشد ، والتزم بما وعد به يرنقش الزكوى شحنة بغداد تجاه دبيس . ولكن السلطان اراد تلبية رغبة الخليفة العباسي ووعده بان يجعل على بغداد شحنة قوية يستطيع الوقوف في وجه دبيس بن صدقة فيما لو حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة . فطلب من آقسنقر البرسقي الذى كان قد ولاه الموصل العودة الى بغداد ، وجعله شحنة لها ، وأوصاه بالوقوف في وجه دبيس بن صدقة وايناس وحشة الخليفة العباسي المسترشد بالله (١) .

استغل آقسنقر هذا المنصب الذى تولاه للانتقام من دبيس بن صدقة ، خصوصا وانه عرف بوجود منصور بن صدقة رهينة طرف السلطان محمود بن محمد ، فأخذ يتحرش بدبيس بن صدقة عله يظفر به من ناحية ومن ناحية أخرى للايقاع بينه وبين السلطان محمود بن محمد . ولا يستبعد أن يكون دبيس بن صدقة قد أدرك نوايا آقسنقر البرسقي ، الامر الذى دعاه الى أخذ اليقظة والحيطة ، حتى ان دبيس بن صدقة استطاع ان ينزل هزيمة ساحقة بآقسنقر البرسقي سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م عند نهر بشير شرقي الفرات (٢) . ولكن هذه الهزيمة للبرسقي كانت في باطن الامر نجاحا له ، اذ أن السلطان محمود بن محمد ما ان سمع بخبر

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٩٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩٦ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢٩-٣٠ ، الحلي تاريخ الحله ص ٣٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٩٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٣٠ ، العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

هذه الوقعة حتى أصدر اوامره بالتشديد فى حق منصور بن صدقة أخى دبيس بن صدقة ، وبهذا نجح آقسنقر البرسقى فى الايقاع بين السلطان محمود ودبيس بن صدقة مرة أخرى . وما ان سمع دبيس بن صدقة بما حل بأخيه منصور لدى السلطان حتى جهز بعض رجاله سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢م وامرهم بالمسير الى واسط لنهبها وتخريبها ، غير ان عماد الدين زنكى الذى كان قد اقطع شحنكية البصرة وواسط استطاع الوقوف فى وجه دبيس ابن صدقة ورجاله وصدهم عن تحقيق هدفهم فى الاضرار بواسط (١).

أخذ دبيس بن صدقة فى الجمع والاحتشاد وهم بقصد بغداد ، فخرج اليه الخليفة العباسى المسترشد بالله واحقه شحنة بغداد آقسنقر البرسقى مع من اجتمع اليه من الاجناد وحطوا على دبيس بن صدقة وهزموه فى أواخر سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م فعاد الى الحلة بينما عاد الخليفة الى بغداد ودخلها فى اواخر المحرم من السنة التالية ٥١٧ هـ / ١١٢٣م (٢) .

أما عن العلاقات الودية بين زعيم بنى مزيد دبيس بن صدقة والصليبيين فى بلاد الشام فترجع فى الحقيقة الى مابعد هزيمة دبيس بن صدقة أمام الخليفة العباسى المسترشد بالله وآقسنقر البرسقى شحنة بغداد . فبعد الهزيمة التى منى بها دبيس بن صدقة اواخر سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠،ص ٥٩٩ - ٦٠١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ،ص ٢٤-٢٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ،ق ١/ص ١٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(٢) انظر مايلى ، الفصل الثانى ص

ووقوع الكثير من نسائه واصحابه فى الاسر ، اختفى خبره وانتشر بين الناس خبر وفاته ، الامر الذى أدى الى رحيل دبيس بن صدقة الى غزية لطلب النجدة من عربها الا ان منبها من العرب امتنعوا من التحالف مع دبيس بن صدقة لخوفهم من السلطان السلجوقى والخليفة العباسى (١) .
ولما فشل دبيس بن صدقة فى الحصول على نجدة عرب غزية أتجه نحو المنتفق بالعراق وتحالف مع عربها بقصد الاستيلاء على البصرة ، فساروا معه اليها ، ودخلها بعد ان جلى اكثر سكانها ، الا ان خوف دبيس بن صدقة من آقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى قد أجبره على تركها ، والرحيل الى قلعة جعبر (٢) .

وفى قلعة جعبر استقبله الامير شهاب الدين مالك بن سالم صاحب القلعة ، وحسن له التحالف مع الصليبيين الذين كانوا يودون الاستيلاء على حلب من حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى خليفة بلك بن بهرام الذى قتل فى شهر ربيع الاول من سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م (٣) . وقد ساعدت الظروف السياسية فى حلب دبيس بن صدقة على التحالف مع

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١١١ ، وغزية : موضع قرب فيد الواقعة فى نصف الطريق بين مكة والكوفة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان . وعرب غزية : بطن من هوازن من العدنانية ينتسبون الى غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومنازلهم بالسروات بين تهامة ونجد . انظر القلقشندى ، نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١٠ ، وقلعة جعبر : قلعة مشهورة على الفرات مقابل صفين وكان يقال لها قلعة دوسر . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

الصليبيين ، فحسام الدين تمرتاش كما وصفه ابن الاثير ، كان رجلا يحب الدعة والرفاهية مما دعاه الى مغادرة حلب الى ماردين بعيدا عن مشاكل الصليبيين وحروبهم . ولم يقف عند هذا الحد بل وافق على اطلاق سراح بلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى كان فى أسر بلك بن بهرام . بعد أن تعهد بلدوين الثانى لحسام الدين تمرتاش بمساعدته ضد خصمه دبيس بن صدقة الذى كان يود الاستيلاء على حلب (١) . غير ان بلدوين الثانى تنكر للشروط التى شرطها على نفسه لحسام الدين تمرتاش بعد الافراج عنه . ورأى ان أنجح وسيلة لاضعاف حسام الدين تمرتاش هو التحالف مع دبيس بن صدقة للاستيلاء على حلب . وكان دبيس بن صدقة قد كاتب قوما من أهل حلب وعاهم وطلب منهم تسليم حلب اليه ، وبذل لهم أموالا كثيرة فى هذا الشأن ، غير أن حسام الدين تمرتاش قد اكتشف هذه المؤامرة فالقى القبض على كل من كانت له يد فيها وقتله (٢) .

ولما كانت اقامة حسام الدين تمرتاش الرئيسية فى ماردين بعيدا عن حلب فان هذا قد ساعد كلا من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ودبيس ابن صدقة فى تحقيق مآربهما ، اذ قام دبيس بن صدقة بحث الصليبيين على الاستيلاء على حلب وقال لهم ان أغلب اهلها شيعة وسيميلون اليه لاجل المذهب . وقد أورد ابن العديم صيغة الاتفاق الذى تم بين الصليبيين ودبيس بن صدقة بقوله " واتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠-٢٢١ ، العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، اسامة بن منقذ الاعتبار ، ص ١٠٣ ، الطباخ الحلبى ، اعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٤٥٥-٤٥٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠٨ .

عليها ، منها أن تكون حلب لدبيس بن صدقة ، والاموال والارواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج " بالاضافة الى مابذله دبيس بن صدقة للصليبيين من الاموال مع تعهده لهم بأن يكون تابعا ومطيعا لهم اذا نجحوا فى الاستيلاء على حلب (١) .

لم يكتف بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بانضمام دبيس بن صدقة اليه ضد حلب ، بل عمل على تشكيل قوة من المسلمين اشترك فيها سلطان شاه بن رضوان وعيسى بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر وياغى سيان ابن عبد الجبار صاحب بالس ، وبدأوا هجومهم على حلب ومعهم جوسلين دى كورتناى صاحب الرها فى شعبان سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م مستغلين فى ذلك غياب حسام الدين تمرتاش عن حلب بماردين (٢) . غير أن الصليبيين بزعامة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ودبيس بن صدقة ومن انضم اليهم من المسلمين قد فشلوا فى الاستيلاء على حلب بسبب استبسال اهلها فى الدفاع عنها ولجوء أهلها الى طلب النجدة من آقسنقر البرسقى صاحب الموصل الذى بادر فى التوجه اليهم فى بعساكره ووصوله فى ذى الحجة من نفس السنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، الامر الذى أجبر الصليبيين ودبيس ابن صدقة على الرحيل عن حلب ورفع الحصار المضروب عليها . (٣) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص ٢٢٣ ، انظر ايضا : ابن الاثير الكامل،جـ١٠،ص ٦٢٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان،جـ٨،ق ١ ، ص ١١١-١١٢ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب،جـ ٢،ص ٢٢٤-٢٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية،جـ١،ص ٥١٠ . - بالس : بلدة صغيرة بالشام بين حلب والرقة غرب الفرات ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن القلانسى،ص ٢١١-٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٢٣-٦٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص ٢٢٧-٢٢٨ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ .

وهكذا لعب دبيس بن صدقة ومن انضم اليه من الامراء المسلمين الى احداث فرقة بين صفوف المسلمين وحقق رغبة الصليبيين فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض والى ايجاد نوع من التوتر فى حلب ادى الى خروجها من حكم الاراتقة الى حكم آقسنقر البرسقى صاحب الموصل فى سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م وما ترتب على ذلك من حدوث مجاعة حلت بالحلبيين الى حد أنهم أكلوا الكلاب وأوراق الشجر (١) .

واذا كانت سياسة دبيس بن صدقة زعيم بنى مزيد قد أحدثت الفرقة بين صفوف المسلمين ، فان هذا يعود بالدرجة الاولى الى عدم حسن تصرف سلاطين السلاجقة والخلافة العباسية تجاه هذا الزعيم العربى وامارته الفتية فى الحلة ، اذ أن علاقته بالصليبيين تتضح من سياق علاقته بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ، ففى الوقت الذى زادت فيه سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية وضعفت فيه مكانة القبائل العربية فى الشام والجزيرة والعراق ، برز أمراء بنى مزيد فى الحلة ، وحاولوا القيام بنفس الدور الذى لعبته الامارة المرداسية فى حلب من قبل للحيلولة دون خضوع القبائل العربية لسيطرة السلاجقة ، فبدأت العداوة بين السلاجقة وزعماء بنى مزيد فى الحلة وتقلبت زمنا طويلا بين المد والجذر حسب قوة وضعف الطرفين ، حتى ان دبيس بن صدقة عندما انهزم سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م امام السلاجقة والخلافة العباسية كان عليه ان يولى وجهه تجاه قوة تساعده لاستعادة مكانته فاتجه ناحية الصليبيين ، خاصة وأن

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٣٧ .

بعض القوى الاسلامية فى بلاد الشام وغيرها لم تدرك حقيقة الحركة الصليبية واهداف الصليبيين التوسعية .

أما عن نهاية دبيس بن صدقة فانه بعد أن فشل فى الاستيلاء على حلب بمعونة الصليبيين سار من الشام سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م وقصد الملك طغرل بن محمد أخا السلطان محمود بن محمد ، وكان طغرل عاصيا على أخيه بالمشرق ، فلما وصله بهمذان استقبله أحسن استقبال وجعله من أعيان خواصه (١) . وحسن دبيس بن صدقة للملك طغرل بن محمد قصد العراق وهون عليه أمر الاستيلاء عليه واقامة الدعوة له فى بغداد بدلا من أخيه محمود بن محمد . واقتنع الملك طغرل بن محمد بهذه المشورة وقرر المسير الى العراق ، فتجهز ومعه دبيس بن صدقة وسارا حتى وصلا قريبا من العراق فتصدى لهما الخليفة العباسى المسترشد بالله ، واستطاع اجبارهما على التراجع الى الوراء فى نفس السنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥م ، فقصدا السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان (٢) . وظل دبيس بن صدقة ملازما للسلطان سنجر حتى عزم السلطان على القدوم الى بغداد سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م بقصد انتزاع العراق جميعه من السلطان محمود بن محمد والخليفة العباسى المسترشد بالله ، الا أن السلطان سنجر قد عدل عن مشروعه وسعى الى اصلاح شقة الخلاف بين دبيس بن صدقة والسلطان محمود بن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٤٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٥١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٥٢ و جـ١٠ ص ٣ .

محمد في أواخر سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨م فنجح السلطان سنجر في مسعاه هذا ، الا أن أمر دبيس بن صدقة لم يستقم بالعراق نتيجة للموقف العدائي الذي وقفته الخلافة تجاهه ، وقتل سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م(١) .

أما عن امارة بني عمار في طرابلس (٤٦٢-٥٠٣هـ/١٠٧٠-١١٠٩م) فان قيامها ببلاد الشام قد جاء نتيجة لاستيلاء السلاجقة على معظم بلاد الشام من الفاطميين في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وهي من الامارات العربية التي استطاعت الصمود في وجه السلاجقة ودسائس الفاطميين ولعبت دورا بارزا في مجريات الحوادث السياسية في بلاد الشام وفي مواجهة الصليبيين بعد تفكك السلاجقة قبل قيام الاسرة الزنكية في الموصل سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧م .

وقد أسس امارة بني عمار العربية في طرابلس القاضي أمين الدولة ابوطالب عبدالله بن محمد بن عمار الطائي سنة ٤٦٢/ ١٠٧٠م على أثر الضعف الذي انتاب الفاطميين في عهد المستنصر بالله واستيلاء السلاجقة الاتراك على معظم بلاد الشام ، وظل أمين الدولة ابوطالب في حكم طرابلس حتى وفاته بها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م(٢) . وتولى الامر بعده في طرابلس ابن عمه جلال الملك ابوالحسن بن عمار في نفس السنة " فضبط البلد

---

(١) انظر الفصل الثالث فيما يلي ص

(٢) ابن القلانسي ص١١٢ ، ابن حيوس ديوان ابن حيوس ، جـ١ ص١٣٢ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣٠٢ ، الازدي ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٦٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص١٨٧ .

أحسن ضبط ولم يظهر لفقد عمه أثر لكفايته "(١) . وعلى الرغم من استقلال بنى عمار عن الخلافة الفاطمية فى القاهرة فان زعماء هذه الامارة قد لزموا جانب الاعتدال مع حكومة القاهرة ، ولم يجاهروها بالعداء مراعاة ~~للغالبية العظمى~~ من سكان طرابلس الذين كانوا يتبعون المذهب الشيعى . ومما يدل على ذلك ان العملة التى كانت متداولة فى طرابلس سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م كانت تحمل اسم الفاطميين (٢) . الا ان هذه الامارة لم تسلم من دسائس ومؤامرات الفاطميين بالقاهرة مما اضطر جلال الملك بن عمار فى سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣م الى الحيلولة دون اتمام المصاهرة بين تاج الدولة تتش والوزير الفاطمى بدر الجمالى خوفا من ان يقع بين شقى الرحى ، بين الفاطميين والسلاجقة (٣) .

ولم يكن الفاطميون وحدهم هم الذين اختصوا بالرغبة فى الاستيلاء على طرابلس من بنى عمار فقد حرص تاج الدولة تتش على الاستيلاء عليها اذ قام فى سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م بحملة عسكرية يرافقه آقسنقر البرسقى والد عماد الدين زنكى صاحب حلب وبعض قادة السلاجقة فى بلاد الشام فى محاولة منهم للاستيلاء على طرابلس . غير ان جلال الملك بن عمار نجح

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٧١ ، انظر ابو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٢) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١١١ ،
La Catalgue des Mannaies , Musulmanes , Vol. III, p.p. 130-133.

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٦٥ ب ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١١٦ .

فى استمالة آقسنقر صاحب حلب وثنى عزمه عن مواصلة حصار طرابلس ، مما اضطر تاج الدولة تتش الى رفع الحصار عنها والعودة الى دمشق (١) .

وبفضل ماتميز به جلال الملك بن عمار من الحنكة والدهاء فقد تميزت فترة حكمة التى دامت اكثر من ثلاثين عاما بسياسة المهادنة التى اتبعها حيال السلاجقة والخلافة الفاطمية فى القاهرة ، بالاضافة الى ماتمتعت به طرابلس فى عهد جلال الملك بن عمار من رخاء اقتصادى وتجارى وصناعى وزراعى وعمرانى والاهتمام بتشجيع العلم والادب ، حتى ان المكتبة التى أنشأها ابوطالب بن عمار فى طرابلس قد عنى بها جلال الملك من بعده حتى اصبحت تحوى اكثر من مائة الف كتاب يهتم اكثرها بنشر مذهب التشييع فى بلاد الشام . وأصبحت طرابلس فى عهد جلال الملك بن عمار محط أنظار الرحالة ورجال العلم والادب (٢) . وقد استمر جلال الملك بن عمار فى حكم هذه الامارة حتى وفاته سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م وخلفه فى حكمها اخوه فخر الملك بن عمار (٣) .

تولى فخر الملك بن عمار حكم طرابلس عقب وفاة اخيه فوقع على عاتقه مهمة الدفاع عن طرابلس والبلاد التابعة لها كعرقة وانطرسوس من الغزو

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٢-١٣٣ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه، ص ٤٧-٤٨ ، سعيد عبدالفتاح عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ ، احمد رمضان المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٠ - ٤١ .

(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ١٠٨ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، السيد عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٧٥-٧٦ .

الصليبى ، الذى اجتاح بلاد الشام ، ومما تجدر الاشارة اليه ان فخر الملك ابن عمار قد اتبع نفس السياسة التى سار عليها جناح الدولة حسين وعزالدين سلطان بن منقذ فى مسالمة الصليبيين حتى لا يعرض نفسه وامارته للابادة على يد الصليبيين (١) . ولا يستبعد أن يكون فخر الملك ابوعلى بن عمار قد لجأ الى هذه السياسة تجاه الصليبيين بسبب تدهور العلاقات بينه وبين الفاطميين اضافة الى انهيار النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام . وبعبارة صريحة فان اتباع فخر الملك بن عمار وغيره من الامراء المسلمين سياسة المسالمة تجاه الصليبيين يرجع الى عدم وجود قوة اسلامية كبيرة تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين خصوصا بعد هزيمة السلاجقة بانطاكية سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م ، ومراسلة الفاطميين للصليبيين ومحاولة عقد صلح معهم لاقتسام بلاد الشام سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨م (٢) .

فبعد استيلاء الصليبيين على حصن الاكراد سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م ، شعر فخر الملك بن عمار بخطورة الموقف فبعث برسله الى الصليبيين يسألهم الموادعة والمسالمة ويعرض عليهم استعداده لمساعدتهم فى الوصول الى بيت المقدس . ولم يكتف بهذا ، بل زود رسله الذين أرسلهم الى الصليبيين بهدايا لزعماء الصليبيين عبارة عن أربعة بغال وعشرة جياد ، مع مبلغ من المال ، ولكن ريموند الصنجيلى أحد زعماء الصليبيين صرح لرسل ابن عمار

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠، ص ٢٧٨ ، وعرقة: بلد فى شرق طرابلس على سفح أحد الجبال المطلة على البحر ، وانطرسوس: بلدة فى سواحل بلاد الشام وهى من اعمال طرابلس وهى الى الشرق من عرقة وتطل على البحر المتوسط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) انظر مايلى : الفصل الثانى ، ص

أنه لا يقبل المسالمة والموادعة مع فخر الملك بن عمار الا اذا اعتنق النصرانية (١) .

ولكن ريموندى تراجع عن مطلبه هذا وبعث الى ابن عمار برسل من قبله للاتفاق معه . وفى طرابلس استرعى انتباه رسل ريموند ثروة طرابلس وغناها وطمعوا فى زيادة الجزية على ابن عمار بدليل ما اشاروا به على ريموند بعد عودتهم اليه من زيادة الجزية على ابن عمار والاسراع فى محاصرة عرقه التابعة لابن عمار حتى يضطر الى دفع مزيد من المال للصليبيين ، قبل ريموند الصنجيلى ما أشار به رسله الى ابن عمار وهاجم عرقة ، غير انه عجز عن الاستيلاء عليها مما اضطره الى رفع الحصار عنها فى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م على الرغم من انه استولى على انطرطوس التابعة لابن عمار ، وفى نفس السنة . ولم يكتف الصليبيون بهذا بل فرضوا على قاضى جبلة جزية من المال والخيل يسوقها اليهم (٢) .

ولما عجز الصليبيون عن الاستيلاء على عرقة زحفوا على طرابلس فى محاولة منهم للاستيلاء عليها من ابن عمار . وكعادته فى مسالمة الصليبيين فقد قدم لهم خمسة عشر الف قطعة ذهبية ومثلها من الهدايا الغالية القيمة بالاضافة الى ما زودهم به من الذخيرة والمؤن واطلاق سراح ثلاثمائة من

---

(١) أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٠٩ ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨ حاشية رقم ١ . وحصن الاكراد : هو حصن منيع وحصين على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، ويقع بين بعلبك وحمص ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٨ ، أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٠-١١١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٣-٢٢٤ ، - وجبلة : قلعة مشهورة من قلاع بلاد الشام الساحلية وتعد من اعمال حلب قرب اللاذقية . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

المسيحيين كانوا فى أسره بطرابلس . ولم يقف عند هذا الحد بل وعد اللصليبيين بالتنصر ، اذا هم استطاعوا الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين (١) .

حاول فخر الملك بن عمار استعادة ما استولى عليه الصليبيون من أملاكه بعد رحيلهم الى بيت المقدس فاستطاع فى سنة ٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م استعادة انطرطوس من الصليبيين ، واستعادة جبله التى كان الصليبيون قد فرضوا عليها فى السنة السابقة جزية باهظة (٢) . ولا يستبعد ان تكون انتفاضة ابن عمار هذه قد جاءت نتيجة للخلافات التى حصلت بين زعماء الصليبيين فى بيت المقدس حول مستقبل المدينة ، وما آل اليه أمر بوهمند صاحب أنطاكية ووقوعه فى أسر سلاجقة الروم فى نفس السنة ٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م (٣) .

وعلى أية حال فان فخر الملك بن عمار لم يحاول استغلال التوتر الذى نشب بين قادة الصليبيين فى اتخاذ موقف اكثر شدة وصلابة تجاه الصليبيين بل سعى الى مساعدة بلدوين صاحب الرها ، وأنقذه من الكمين الذى نصبه له دقاق بن تتش صاحب دمشق فى سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠١ م ، حين كان بلدوين ذاهبا الى بيت المقدس لتولى امورها بعد وفاة أخيه جودفرى ملك بيت المقدس (٤) . ولم تقتصر اهمية مساعدة ابن عمار لبلدوين الاول على

---

(١) اعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٢-١١٣ ، حسن حبشى ، الحرب الصليبية الاولى ، ص ١٧٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج١ ، ص ٢٦٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣١٢ ، ابو الفدا ، المختصر ج٢ ص ٢١٣ .

(٣) العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٢٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٨ .

سلامة وصوله الى بيت المقدس ، بل كانت سببا مباشرا فى سقوط معظم مدن الساحل الفاطمية بيد الصليبيين فى السنة نفسها (٤٩٤هـ/١١٠١م) كأرسوف وقيسارية وحيفا (١) .

وهكذا فان سياسة فخر الملك بن عمار السلبية تجاه الصليبيين لم تؤد الى حمايته من أطماع الصليبيين الذين سيطروا على معظم بلاد الشام . ولم يرع الصليبيون لابن عمار ماقدمه لهم من خدمات ، بل ان ريموند الصنجيلى بعد ان أيس من حصوله على منصب كبير فى مملكة بيت المقدس طمع فى الاستيلاء على طرابلس ليؤسس له بها امارة مستقلة على غرار مافعل بوهمند بأنطاكية ، وجودفرى ببيت المقدس ، وبلدوين فى الرها ، عندها جمع كثيرا من الصليبيين وسار بهم صوب طرابلس وفرض عليها حصارا شديدا بقصد الاستيلاء عليها مما اضطر فخر الملك بن عمار الى طلب المساعدة من السلاجقة ، حيث استنجد بجناح الدولة حسين صاحب حمص ، ودقاق ابن تتش صاحب دمشق . غير أن هذه المساعدة لم تأت بطائل اذ انهزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١م ، مما اضطر فخر الملك بن عمار الى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٣٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٣٢٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٧٥-٢٧٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ١٢٠-١٢١ . - وأرسوف : مدينة على ساحل البحر المتوسط بين يافا وقيساريه ، وقيسارية : مدينة على ساحل البحر المتوسط وتعد من اعمال فلسطين بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة ايام على الاقدام ، وحيفا : بلدة على ساحل البحر المتوسط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

الدفاع عن بلدهم ، قد كلف اهل طرابلس الكثير من المال والجهد مع مابذله فخر الملك بن عمار من صبر عظيم وشجاعة نادرة . واضطر فخر الملك ابن عمار الى الاستنجاد بسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤م (١) .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلها فخر الملك بن عمار واهل طرابلس والتى أدت الى هدم قلعة صنجيل الغربية من طرابلس ووفاة صنجيل نفسه على أثر حروق اصابته اثناء حريق القلعة فى سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤م ، فان وضع طرابلس الداخلى قد انكشف للصليبيين بسبب طلب النجدة التى طلبها فخر الملك بن عمار من سقمان بن أرتق والتى لم تصل الى طرابلس بسبب وفاة سقمان بن أرتق وهو فى طريقه الى طرابلس . أما السبب الثانى الذى كشف للصليبيين عن ضعف طرابلس فهو أن ابن عمار قد لجأ الى بعض الاغنياء من سكان طرابلس ، وأخذ منهم أموالا كثيرة وزعها على المجاهدين ، فما كان من هؤلاء الا أن هربوا الى الصليبيين بأنطاكية ، فكشفوا بذلك ضعف طرابلس اقتصاديا . ولم يكتف هؤلاء الخونة الذين هربوا من طرابلس الى أنطاكية بهذا ، بل انهم وعدوا الصليبيين بالمساعدة فى الاستيلاء على طرابلس (٢) .

استغل فخر الملك بن عمار وفاة ريموند الصنجيلى وما حل بأهل طرابلس من الضائقة المالية وارتفاع فى الاسعار ، وما تلى ذلك من هجرة أغلب سكان طرابلس ، واستقرار الاوضاع السياسية للسلطان محمد بن ملكشاه

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٤٦-١٤٧ .
(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ ، ابن القلانسى، ص ١٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ،جـ١٠ ص ٤١٢-٤١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦ .

الى مهادنة الصليبيين على مال وخيل فرحلوا عن طرابلس الى انطرطوس بقيادة ريموند الصنجيلي حيث استعادوها من ابن عمار (١) .

رأى ريموند الصنجيلي انه من الصعوبة بمكان الاستيلاء على طرابلس قبل ان يتخذ له قاعدة قريبة منها يشن منها غاراته عليها . لذلك لجأ ريموند الى بناء قلعة بالقرب من طرابلس عرفت باسم قلعة صنجيل فأحكم بذلك القبضة على طرابلس (٢) . وبذلك أصبح ابن عمار معزولا عن المدن المجاورة خصوصا وان ريموند جرد طرابلس من جميع المدن التابعة لهما ، مما اضطر فخر الملك ابن عمار الى مهادنة ريموند فى سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣ " على ان يكون ظاهر طرابلس لصنجيل بحيث لا يقطع عنها الميرة ، ولا يمنع المسافرين منها " (٣) .

وعلى الرغم من الهدنة التى عقدها فخر الملك بن عمار مع الصليبيين فقد ازداد حماسا وقوة لمواجهة الصليبيين والعمل على هدم القلعة التى بناها الصليبيون قريبا من طرابلس ، ويعود هذا على ما ايد والى العتاد والمؤن التى حملها الاسطول المصرى هذه السنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م الى مدن الساحل الشامى (٤) . ولكن ما قام به ابن عمار واهل طرابلس فى سبيل

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٤٠-١٤١ ، العظمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٣-٣٤٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ ،
(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤١١-٤١٢ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٢٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ .
(٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٧ .
(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

عقب وفاة منافسه في السلطنة بركياروق بن ملكشاه سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م، فرأى ابن عمار لنفسه وللمسلمين قصد السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسي المستظهر بالله للاستعانة بهما في رفع الحصار الذي فرضه وليم جوردان خليفة ريموند على طرابلس خاصة وان فخر الملك بن عمار أيس من أي نجدة تصله من القوى الاسلامية الاخرى في بلاد الشام، ولعلمه عن ضعف الفاطميين في مصر وعجزهم عن تقديم اي مساعدة له (١). ولكن فخر الملك بن عمار أعاد النظر في هذا الموضوع الى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق واستشاره في هذا الامر، فرد ظهير الدين طغتكين على فخر الملك ابن عمار وطلب منه القدوم الى دمشق للتشاور في هذا الامر، فاستناب فخر الملك بن عمار بطرابلس ابن عمه ابا المناقب ومعه وجوه اصحاب فخر الملك وغلمانه واعطى الجند المكلفين بالدفاع عن طرابلس اعطياتهم لمدة ستة شهور، حتى لا يكلف ابن عمه مشقة في ذلك، وتوجه الى دمشق فوصلها في شهر شعبان سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧م (٢). وتم الاتفاق بين فخر الملك بن عمار وظهير الدين طغتكين على خروج تاج الملوك بوري بن طغتكين بصحبة فخر الملك ابن عمار الى بغداد، فتوجها من دمشق صوب بغداد فوصلاها في شهر رمضان من السنة المذكورة، واستقبلا احسن استقبال من قبل السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسي المستظهر بالله، وقدم فخر الملك بن عمار ما حمله من الهدايا الى السلطان والخليفة، وطلب منهما امداده بقوة عسكرية لمدافعة الصليبيين عن طرابلس. ووعدهما فخر الملك بن عمار بانه سوف يتكفل بكل ما يتحمله الجيش الذي سيخرج لنجدته بكل ما يلزمه

---

(١) انظر ابن القلانسي، ص ١٦٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٣٥٢.

(٢) ابن القلانسي، ص ١٦٠-١٦١، ابن الاثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٢-٤٥٣، العظيمي، تاريخ العظيمي، حوادث سنة ٥٠١ هـ، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٨.

من المعتاد والمؤن . غيران ذلك لم يجد قبولا لدى حكومة بغداد ، التى لم تقدم لابن عمار غير معسول الكلام ، فعاد منكفئا الى دمشق حيث وصلها فى المحرم من السنة التالية ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م[١] . ولا يستبعد أن تكون عودة فخر الملك بن عمار الى دمشق بخفى حنين انما كانت بسبب انشغال السلطان السلجوقى بامر سيف الدولة صدقه سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧م بالاضافة الى الخلاف المذهبى بين فخر الملك بن عمار والسلاجقة ، ففخر الملك بن عمار شيعى والسلاجقة سنيون ، وهذا الخلاف المذهبى كان من الاسباب التى أدت الى تفكك وحدة المسلمين فى بلاد الشام قبل قدوم الصليبيين اليها .

أما الاوضاع بطرابلس فانها قد تغيرت قبل وصول فخر الملك بن عمار الى بغداد لا بسبب شدة حصار الصليبيين الذين يحاصرونها وانما بسبب عصيان ابى المناقب عم فخر الملك بن عمار على فخر الملك ابى على بن عمار، ومناداته بشعار الافضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين[٢] . ويرجع ابن الاثير سبب عصيان ابى المناقب بطرابلس الى ان ابا المناقيب قد عرف ان بعض الشخصيات فى طرابلس قامت بمراسلة الافضل بمصر يلتمسون منه واليا يكون عندهم من قبله فبادر هو الى قطع الطريق عليهم وحمل زمام المبادرة ونادى بشعار الفاطميين[٣] .

ومهما يكن من امر فان هذا الحادث بطرابلس لا يخرج عن كونه استنكار بعض شخصيات طرابلس الشيعية على ذهاب فخر الملك بن عمار الى بغداد

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل، جـ١٠،ص ٤٥٣-٤٥٤ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة،جـ٣،ص ١٠٩-١١١ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة،ص ٩٣ .
(٢) ابن القلانسى،ص ١٦١ ، المقريزى ،اتعاظ الحنفا ،جـ٣،ص ٣٨ .
(٣) ابن الاثير،الكامل ، جـ١٠ ،ص ٤٥٤ .

مركز أهل السنة لطلب المساعدة ضد الصليبيين . ورأوا فى شخصية أبى المناقب مايحقق رغبتهم فى الاطاحة بفخر الملك بن عمار والمناداة بشعار الفاطميين فى مصر ، ففعلوا ، ولكن فخر الملك بن عمار استطاع ان يكتب لبعض اصحابه بطرابلس يأمرهم بالقاء القبض على ابى المناقب ففعلوا ذلك وحملوه الى أحد الحصون القريبة من طرابلس حيث اعتقل هناك فى سنة (٥٠١ هـ / ١١٠٧ م) وتولى الأمور بطرابلس اصحاب فخر الملك بن عمار (١) .
ولما كان الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى يتطلع الى فرض سيطرته على طرابلس فقد اهتبل هذه الفرصة السانحة وسيرمن قبله حملة بحرية فى نفس السنة (٥٠١ هـ /١١٠٧م) جعل على رأسها شرف الدولة بن ابى الطيب (٢) ، الى طرابلس ، وأمره بالقبض على اهل فخر الملك فدخل طرابلس فى السنة المذكورة والقى القبض على اهل فخر الملك بن عمار وحريمه ونقلهم الى مصر (٣) .

وقبل معرفة ما آل اليه أمر طرابلس لابد من الاشارة الى أن رحلة فخر الملك بن عمار الى بغداد قد ترتب عليها عدة امور منها ،عودته خائبا من الحصول على مساعدة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ، ثانيا : توثق عرى الصداقة والمودة بين فخر الملك بن عمار وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق على الرغم من اختلاف المذهب بينهما ، ثالثا خروج طرابلس من حكم اسرة بنى عمار الطائيين الى حكم الفاطمية فى مصر

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠١ هـ ،ابن القلانسى ، ص ١٦١ .
(٢) ويلقبه المقريزى بالامير مشير الدولة ، انظر المقريزى ،اتعاظ الحنفا ، ج ٣،ص ٣٨ ، اما ابن القلانسى وابن الاثير فيلقبانه باسم شرف الدولة انظر ابن القلانسى،ص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل،جـ ١٠،ص ٤٥٤ .
(٣) ابن القلانسى ص ١٦١ ، ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٤ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة،جـ٣،ص ١٠٩ - ١١١ ،المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣،ص ٣٨ ،ابن ميسر ،اخبار مصر ،جـ٢،ص ٤٣ .

سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م .

أما عن مصير طرابلس بعد انتقالها الى الفاطميين ، فانهم لم يستطيعوا حمايتها من السقوط بيد الصليبيين الذين فرضوا عليها حصارا شديدا ابتداء من شهر شعبان ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م اشترك فيه على حد قول ابن الاثير تانكرد (طنكريد) صاحب انطاكية ، وبلدوين (بغدوين) صاحب القدس ، بالاضافة الى ابن أخت صنجيل المعروف باسم السرداني وابن صنجيل (١) . ولم يستطيع الفاطميون واهل البلد الصمود امام الصليبيين ، بسبب تأخر المعونات الفاطمية عن طريق البحر ، مما ادى الى سقوط طرابلس بيد الصليبيين فى ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م (٢) .

أما مصير فخر الملك بن عمار بعد خروج طرابلس من يده الى الفاطميين ثم سقوطها بيد الصليبيين ، فقد استقر به المقام فى دمشق ، فأكرمه طغتكين وأنزله فى دار تليق بمقامه ، ولم يكتف بهذا بل أقطعه الزبدانى واعطاها سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩م (٣) . وظل فخر الملك بن عمار فى دمشق

---

(١) انظر ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠ ص ٤٧٥-٤٧٦ ، وابن صنجيل هذا هو المعروف بابن ريموند الصنجيلى واسمه Bertram Son of Raymond انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ٤٣ ، حاشية رقم ٣ - اما السردانى الذى ذكره ابن الاثير فان اسمه وليم جوردان Willame Gordan انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ١ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن القلانسى ص ١٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٣ ، اما ابن الاثير فيذكر ان سقوط طرابلس بيد الصليبيين سنة ٥٠٣ هـ ، انظر ابن الاثير ، الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٧٦ ، ابو الفدا ، المختصر، جـ٣، ص ٢٢٤ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ابن القلانسى، ص ١٦٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ، ق١، ص ٢٧ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ٢، ص ٣٢ ، والزبدانى : كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك ومنها يسير نهر دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

بصحبة ظهير الدين طغتكين حتى خرج من دمشق سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م متوجها الى القاهرة حيث تقيم اسرته هناك منذ ان نقلهم شرف الدولة بن أبى الطيب سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م[١] .

وهكذا يمكن القول أن اسرة بنى عمار الطائية فى طرابلس استطاعت الاستمرار فى حكم طرابلس منذ سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م حتى سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، وان يتصدى زعماء هذه الامارة للاطماع السلجوقية والفاطمية ، حتى كان الغزو الصليبى لبلاد الشام فى العقد الاخير من القرن الخامس الهجرى حيث تضعضع حكم بنى عمار فى طرابلس نتيجة للحصار الذى فرضه عليهم الصليبيون والذى دام اكثر من سبع سنين متواصلة ، استطاعوا خلالها الصمود فى وجه الصليبيين تارة بالسلم وتارة بالحرب . وتجدر الاشارة الى القول انه لولم تخرج طرابلس من يد ابن عمار واسرته سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م الى الفاطميين لاستطاع فخر الملك ابن عمار واصحابه الدفاع عنها ومنعها من السقوط بيد الصليبيين أوعلى الاقل تاخير سقوطها فترة من الزمن اذ أن فخر الملك بن عمار كان من المرونة وحسن المعاملة مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام وخصوصا السلاجقة مايجعل هذا كفيلا بان يمدوا له يد العون ضد الصليبيين بعكس الفاطميين الذين كانوا يتحرجون على مايبدو الى الاستعانة بالسلاجقة بالاضافة الى انهيار القوة البحرية للفاطميين ، بعد ان سيطر الصليبيون على اغلب المدن الساحلية التى كانت مركزا حيويا للاسطول البحرى الفاطمى .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٧٨- ٧٩ .

أما عن امارة بنى منقذ فى شيزر[١] فهى الامارة العربية التى استطاعت الصمود والبقاء حتى مابعد قيام الاسرة الزنكية ٥٢١ هـ/١١٢٧ م فلم يصبها ما أصاب امارة المرداسيين فى حلب ولا امارة مسلم بن قريش فى الموصل وذلك بسبب اعتصامها بقلعة شيزر ، اضافة الى عدم دخول زعماء هذه الامارة فى النزاع الذى قام بين السلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه .

وبنو منقذ يرجع نسبهم الى قبيلة كنانة العربية القحطانية ، والتى لم تكن تضاهى كلاب وعقيل وطى فى الكثرة ، وانما اشتهرت قبيلة بنى منقذ الكنانية بعدة صفات كالكرم والشجاعة والشهامة مع اهتمامهم بالعلم والادب ، وقرض الشعر[٢] . ويعود ذكر بنى منقذ الى ماقبل سنة ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١م فقد كان لهم دور فى النزاع الذى لعبته القبائل العربية ابان سيطرة الفاطميين على بلاد الشام قبل وصول السلاجقة اليها[٣] .

أما شيزر فكانت بيد البيزنطيين ، حينما قام زعيم بنى منقذ ابوالحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ببناء حصن على تل الجسر غربى شيزر سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م بقصد انتزاعها من يد البيزنطيين . ولما تم له بناء الحصن نقل اليه أهله وعشيرته وبدأ التخطيط للاستيلاء على شيزر[٤] .

---

(١) شيزر : هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصى الغربية الى الشمال من مدينة حماة والنهر يحيط بها من ثلاث جهات ، بحيث أصبحت شبه جزيرة مرتفعة ، ومما زاد فى مناعتها وحصانتها وقت الحرب وجود خندق محفور فى الصخر يصل شبه الجزيرة بالبر، انظر ياقوت معجم البلدان ، اسامة بن منقذ ،الاعتبار ،مقدمة المحقق ، ص.ت.

(٢) العماد الاصفهانى ، خريدة القصر ،جـ١ ص٤٩٧ ، ياقوت ،معجم الادباء جـ٢ ص١٨٧ ، ابن خلكان ،وفيات الاعيان جـ٥ ص ٢٧٠ .

(٣) انظر ابن الاثير،الكامل،جـ٩،ص ١٠٥ ،الصفدى ،الوافى بالوفيات، جـ٩ ص ٤٢٥ .

(٤) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان،جـ ١٣ B ،ورقة ٥٦ ب ،ابوالمحاسن النجوم الزاهرة،جـ٥،ص ١١٣ ، ابن خلكان ،وفيات الاعيان،جـ٥،ص٢٧٠ .

استغل سديد الملك ابو الحسن على بن منقذ الكنانى انشغال البيزنطيين بالغزو السلجوقى لاسيا الصغرى وبلاد الشام وبدأ يخطط للاستيلاء على شيزر ، غير انه ادرك صعوبة الاستيلاء على شيزر بسبب شدة حصانتها الطبيعية ، فقام بالاستيلاء على أحد الحصون القريبة منها وكانت شيزر خاضعة لاسقف البارة (١) المسمى دمترى ، الذى كان مقره فى شيزر . ولما تم لعلى بن مقلد الحصول على مركز قريب من شيزر تقرب الى العديد من الشخصيات البيزنطية بالهبات والعطايا بالاضافة الى احسانه للمسيحيين الذين كانوا فى الحصن الذى استولى عليه فلم يكلفهم مالا يطيقون عمله . وبهذه السياسة اطمأن أهل شيزر لجواره ووفدوا عليه ولم يقف عند هذا الحد بل وقف الى جانبهم عند ما يحل بهم مكروه وهذا على ما يبدو كان السبب وراء تقدم اهل شيزر الى على بن مقلد بن منقذ وعرضوا عليه تسليم شيزر اليه عند ما توترت العلاقات بينهم وبين الاسقف دمترى . ولكن ابن منقذ تظاهر بالرفض فى مبدأ الامر حتى اتفق مع الاسقف دمترى على تسليم شيزر اليه مقابل مال يدفعه ابن منقذ الى الاسقف بالاضافة الى دفع راتب ستة اشهر للحامية البيزنطية داخل قلعة شيزر وعدم المساس باملاك الاسقف نفسه . وبهذا تسلم ابن منقذ شيزر فى شهر رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ونقل اليها اهله وعشيرته . ولم تقف سياسة التسامح التى بذلها ابن منقذ للبيزنطيين عند هذا الحد بل قام اهل عين تاب وبقية الحصون الخاضعة للبيزنطيين بتسليمها اليه والدخول فى طاعته ، ولما اطمأن ابن منقذ الى مكانته فى شيزر سمح للحامية البيزنطية بمغادرة القلعة وكتب بذلك البشائر الى بغداد تعبيرا عن

---

(١) البارة : بليدة وكورة من نواحى حلب . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

الفرحة بطرد البيزنطيين من شيزر (١) .

ولما كانت شيزر تتمتع بموقع استراتيجى هام يسيطر على معظم قلاع وحصون وادى العاصى فقد تعرض ابوالحسن على بن مقلد بن منقذ لاطماع مسلم بن قريش صاحب الموصل ولاطماع سليمان بن قطلمش سلطان سلاجقة الروم الا ان اباالحسن بن منقذ استطاع ان يسلك مع هؤلاء الخصوم سياسة حكيمة جنبت امارته السقوط فى يد اى من هذه القوى تارة بالحرب وتارة بالمال (٢) .

ولكن ابا الحسن على بن مقلد بن منقذ الكنانى لم يلبث طويلا فى الامارة اذ توفى فى بداية سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م ، وكان محبوبا عند رعاياه لاتباعه سياسة التسامح مع المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وخلفه فى حكم امارة شيزر ابنه ابوالمرهف نصر بن على (٣) . وقد استطاع ابوالمرهف نصر بن على المحافظة على امارته من السقوط ، فاستغل النزاع الذى قام بين تاج الدولة تتش وسليمان بن قطلمش ، واستعاد مافقده والده من الحصون مثل كفر طاب وافامية . ولم يقف عند هذا الحد بل استغل مقدم ملكشاه الى حلب سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م فراسله ودخل فى طاعته ، وسلمه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٣ ق١ ورقة ٥٧ أ ، ابن القلانسى ، ص ١١٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٢، ص ٢٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان، جـ٣، ص ٤٠٩ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ج-ح ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١، ص ٦١ . - وعين ثاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ، وتعد من اعمال حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص ٢١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢، ص ٩٤ ، على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير، ص ٢٤٨-٢٥٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ ق١ ورقة ٨٤ ب ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١، ص ١٦ .

اللاذقية وكفرطاب وافامية فأقره السلطان ملكشاه على امارته فى شيزر (١) .

وعلى الرغم من سياسة ابى المرهف نصر بن على التى سار عليها تجاه القوى الاسلامية فانه قد تعرض سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م لمحاولة من آقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى للاستيلاء على شيزر ولكن ابوالمرهف نصر بن على استطاع مصالحة آقسنقر واقنعه بالعدول عن شيزر (٢) . حافظ نصر بن على على امارته ، اضافة الى ماضمه اليها من قلاع وحصون . ولم يقف ابوالمرهب بن نصر عند هذا الحد بل استطاع الابتعاد عن الزج بنفسه فى النزاع الذى حدث بين قادة السلاجقة فى بلاد الشام عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، واستمر فى حكم امارة بنى منقذ حتى وفاته سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م عند قدوم الحملة الصليبية الاولى . والى جانب محافظته على امارته فقد برع فى الشعر والادب ، وتولى الامارة من بعده أخوه مجد الدين ابوسلامه مرشد بن على والد اسامة بن منقذ مؤلف كتاب الاعتبار ، غير انه تنازل عن الامارة لاخيه عز الدين ابى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٤٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٦١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٢٤ .

(٢) العيينى ، عقد الجمان ، جـ١ ، حوادث سنة ٤٨١ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ١٩٩ ، الدواداری ، الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٢١ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ، ورقة ١٢٥ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢١٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٣ ، احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٤٦ .

أما موقف هذه الامارة من الغزو الصليبى لبلاد الشام ، فقد تمثل لنا فى الموقف السلبى الذى وقفه زعيم هذه الامارة ابو العساكر سلطان بن منقذ من القوى الاسلامية التى حاولت منع انطاكية من السقوط بيد الصليبيين ٤٩١ هـ/١٠٩٧م فلم تشر المصادر التاريخية الى قيام امارة بنى منقذ بتقديم اى مساعدة لمنع سقوط انطاكية فى ايدى الصليبيين . ولا يستبعد أن يكون ابو العساكر قد ظن كغيره من القوى الاسلامية الى ان الصليبيين لن يتقدموا الى وسط بلاد الشام بعد استيلائهم على أنطاكية ، غير ان موقف ابى العساكر السابق ظهر بعد استيلاء الصليبيين على معرة النعمان سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م بقيادة ريموند الصنجيلى فبمجرد سماع ابن منقذ بما حل بأهل المعرة خشى ان يحل بامارته ما حل بمعرة النعمان من الخراب والدمار ، ولذلك فلم يتخذ من الاحتياطات العسكرية مايكفل له ولامارته الوقوف فى وجه الصليبيين ، بل أرسل الى ريموند الصنجيلى فى السنة المذكورة رسلا يحملون اعلان الطاعة للصليبيين ، ويؤكدون لريموند الموادعة والمسالمة والتعهد بتقديم كل مايحتاجه الجيش الصليبى من تسهيلات عند مروره بارضهم (عن طيب خاطر) ، وأرسل ابو العساكر سلطان للصليبيين دليلين ليرشدا الجيش الصليبى أثناء عبوره اقليم العاصى (١) .

غير أن اطماع الصليبيين فى بلاد الشام لم تقف عند حد معين ، بل كانت نظرتهم أوسع وأشمل مما كان يتصوره قادة المسلمين فى ذلك العصر. ففى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م تعرضت شيزر لهجوم عنيف من تانكرد صاحب

---

(١) اعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٠٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٨ ، حسن حبشى ، الحرب الصليبية الاولى، ص ١٦٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٢١ .

أنطاكية ، بقصد السيطرة على وادى العاصى ، فلجأ ابن منقذ الى عقد صلح مع تانكر لمدة سنتين . ثم بموجبه تقديم مبلغ خمسة عشر ألف دينار يدفعها ابن منقذ للصليبيين . ويبدو ان ماقدمه ابن منقذ من مبلغ كبير لتانكرد قد اطمع وليم جوردان خليفة ريموند الصنجيلى فقام بمحاولة منه فى نفس السنة للاستيلاء على شيزر ، ولكن ابا العساكر سلطان بن منقذ تصدى له وحاول الامساك به اسيرا ولكنه لم يستطع . ولما انتهت مدة الصلح الذى عقد بين تانكرد صاحب انطاكية وابى العساكر سلطان عاد تانكرد لحصار شيزر سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م (١).

وقد أورد لنا أسامة بن منقذ وصفا حيا عن استبسال اهالى شيزر فى الدفاع عنها كما اوضح بانه قد اشترك فى هذه الحرب وكان عمره وقتذاك قد جاوز الخامسة عشر سنة (٢) . ولم يقف ابوالعساكر سلطان بن منقذ عند حد الدفاع عن شيزر ، بل كتب الى شرف الدولة مودود صاحب الموصل وقائد قوات السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م يخبره بما فعله تانكرد فى حصاره لشيزر ، وفى نفس الوقت يستحثه على الوصول اليه بأسرع مايمكن " ويحثهم على الوصول الى جهته " (٣) . ولم يكتف أبو العساكر سلطان بن منقذ بما بعث به الى قوات السلطان محمد بن ملكشاه من طلب الاستغاثة وسرعة الوصول اليه سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م ، بل اشترك

---

(١) اسامة بن منقذ ،الاعتبار ص ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ابن القلانسى ص١٦٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ق١ ص ٣١ ، سعيد عاشور ، ، الحركة الصليبية ، جـ١ص ٣٣٥ ، ٤٠٩ ، وتانكرد Tancred هو الذى خلف بوهمند الاول فى حكم انطاكية ٤٩٧هـ/ ١١٠٣ م . وقد ظل فى حكم انطاكية حتى وفاته سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م . انظر اسامة بن منقذ الاعتبار ،ص ٦٥ حاشية رقم ١٢٧ .

(٢) اسامة بن منقذ ،الاعتبار،ص ٦٦ .

(٣) ابن القلانسى ،ص ١٧٤ ، انظر سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ،جـ٨، ق ١ ، ص ٣٥ .

هو وبقية أسرة بنى منقذ مع مودود فى قتال الصليبيين فى السنة التالية فى السنة التالية ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م . وقد لعب سلطان بن منقذ دورا ناجحا فى حرب الصليبيين فى تلك السنة بما قدمه من حسن المشورة لمودود والقوات الاسلامية فى اختيار لمواقع الاماكن الهامة ، مما زاد المسلمين حماسا واقداما " وقويت نفس مودود بهذه المشورة "(١) .

وفى سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م اشترك ابوالعساكر سلطان بن منقذ مع قوات السلطان محمد بن ملكشاه ضد الصليبيين والمعارضين لحكمه فى بلاد الشام من القوى الاسلامية . وكانت هذه القوات التى ارسلها السلطان بقيادة برسق بن برسق التركمانى . وقد اوضح اسامه بن منقذ فى كتابه الاعتبار بانه قد اشترك فى حرب الصليبيين الى جانب هذه القوات الاسلامية التى استطاعت دفع الصليبيين الذين حاولوا الاستيلاء على شيزر بالرغم من اشتراك زعماء الصليبيين فى تلك المحاولة كروجر(٢) صاحب أنطاكية وبلدوين الاول ملك بيت المقدس . (٣)

---

(١) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٦٨-٦٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٨٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

(٢) روجر الصقلى صاحب انطاكية ، كان قد خلف عمه تانكرد فى حكم أنطاكية بعد وفاة تانكرد سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م واستمر روجر فى حكم انطاكية حتى مصرعه سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٣١١ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٣ ، ٧٥ ، ٩٠ ، انظر ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢، ص ١٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٠٩ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤١٨ .

وفى سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م حاول سلطان بن منقذ استغلال الهزيمة التى حلت بالصليبيين فى معركة دانيث ومقتل روجر صاحب انطاكية وحاول استعادة افامية من الصليبيين ، غير ان الهزيمة قد حلت ببنى منقذ بقيادة أسامة فى افامية فعادوا الى شيزر دون تحقيق أملهم ، ولكن الصليبيين فى السنة التالية ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م استغلوا رحيل نجم الدين ايلغازى عن شيزر الى حلب وقاموا بحصار شيزر حتى أرغموا صاحبها على دفع مبلغ من المال اليهم مقابل رفع الحصار عن شيزر (١) .

وهكذا خضع ابن منقذ لمطالب الصليبيين التعسفية ولم يكتفوا بما فرضوه من مال على شيزر بل حاولوا مرة اخرى فى سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م الاستيلاء على شيزر ولكنهم فشلوا ، مما شجع بنى منقذ على القيام بغارات مضادة على املاك الصليبيين فى أفامية وغيرها سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م (٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد أن علاقة بنى منقذ بالصليبيين قد طرأ عليها تحسن فى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م بعد اطلاق سراح بلدوين الثانى ملك بيت المقدس من أسر حسام الدين ترتاش بفضل المساعى الحميدة التى بذلها زعماء بنى منقذ لدى حسام الدين تمرتاش لاطلاق سراح بلدوين الثانى . ولما كانت ابلدوين السيطرة على بيت المقدس وانطاكية

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٠١ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤٠ ، ١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩٢ .
(٢) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ - ٥٧ .

فقد اتبع سياسة طيبة تجاه بنى منقذ فى شيزر ، فأعفاهم من دفع القطيعة التى كانوا يدفعونها لحكام أنطاكية . وزيادة على ذلك فقد اورد لنا أسامة ابن منقذ وصفا عن هذه العلاقات الطيبة بقوله " وصار امرنا فى انطاكية نافذا " ، وقد استمرت العلاقات حسنة بين بنى منقذ والصليبيين حتى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وهى السنة التى قدم فيها بوهمند الثانى ابن روجر من ايطاليا عن طريق ميناء السويدية والذى يطلق عليه اسامة بن منقذ اسم "ابن ميمون " ويصفه بانه شيطان ابتلى به الشرق ، فسلمه بلدوين امارة انطاكية وما ان تولى حكم انطاكية حتى فكر فى استعادة ما فقدته امارة انطاكية من املاك ، خصوصا وان آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب قد توفى فى تلك السنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م فبدأ بالغارة على شيزر فى محاولة منه للاستيلاء عليها ولكنه عجز عن ذلك (١) .

وهكذا لعبت امارة بنى منقذ فى شيزر دورا هاما فى فترة حكم زعيمها ابى العساكر سلطان بن على بن منقذ فى الفترة التى سبقت قيام الاسرة الزنكية ، بين السلب والايجاب تجاه الصليبيين فى بلاد الشام . ويمكن القول ان زعيم بنى منقذ ابا العساكر سلطان قد استطاع ان يجنب امارته خطر السقوط بين الصليبيين فى فترة اجتياحهم لبلاد الشام بما اتبعه معهم من سياسة المسالمة والموادعة ، وكانت لابى العساكر سلطان بن منقذ

---

(١) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٢٠-١٢١ .

علاقات ودية مع الصليبيين أوضحها لنا اسامة بن منقذ فى معرض حديثه عن مغامراته وبطولاته التى دونها فى كتابه الاعتبار .

أما عن علاقات بنى منقذ فى شيزر بحكام حمص وحماة وافامية ودمشق وغيرها فان المصادر التاريخية لم تذكر شيئا عنها ذا بال الا ماذكره اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار من مقتطفات اوردها اسامة بن منقذ فى معرض حديثه عن مغامراته وحروبه ، فعلاقة بنى منقذ بخلف بن ملاعب الاشهبى صاحب أفامية كانت علاقات غير ودية ، اذ ان خلف بن ملاعب الاشهبى كان كثير الغدر والخيانة بالمسلمين لتطرفه فى التشيع ، فقامت بينه وبين ابى العساكر سلطان ابن منقذ عدة حروب كان اخرها سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣م اشترك فيها والد أسامة بن منقذ ، وقد اسفرت هذه الحروب عن عقد صلح بين الطرفين استمر حتى وفاة خلف بن ملاعب سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥م[1] .

أما عن علاقة بنى منقذ بامارة بنى عمار فى طرابلس فلم تذكر المصادر المتداولة مايدل على اشتراك بنى منقذ فى مساعدة بنى عمار فى طرابلس ضد الصليبيين على الرغم من الحصار الذى فرض عليهم مدة سبع سنوات متوالية (٤٩٥ هـ / ٥٠٢ هـ ، وذكر مؤرخ دمشق ابن القلانسى من انه بعد

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ، ورقة ٢٢١ أ ، اسامة بن منقذ الاعتبار ، ص ٥٢ ، ابن القلانسى ، ص ١٤٩-١٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٩ .

سقوط طرابلس سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م بيد الصليبيين ، عرج فخر الملك بن عمار على شيزر فاستقبله ابو العساكر سلطان بن منقذ وعرض عليه المقام عنده بشيزر الا أن فخر الملك بن عمار لم يقبل وتوجه الى دمشق (١) .

أما عن علاقة ابى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى زعيم بنى منقذ فى شيزر بصاحب حماة شهاب الدين محمود بن قراجه ، فقد كانت فى جملتها عدائية نظرا لاشتراكهما فى كثير من مناطق النفوذ . ونشبت بين الطرفين عدة حروب كانت احداها فى سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م عندما قام صاحب حماة بهجوم على شيزر ، فتصدى له بنو منقذ واستطاعوا اجباره على التراجع . وقد شارك أسامة بن منقذ فى هذه الحرب الى جانب أسرته دفاعا عن شيزر . ويذكر أسامة ان صاحب حماة قد استعان بصاحب حمص خير خان بن قراجا فى الهجوم على شيزر (٢) .

أما عن علاقة بنى منقذ بالسلاجقة فى حلب ودمشق ، فقد التزم زعماء بنى منقذ جانب الحياد اثناء النزاع الذى قام بين رضوان بحلب ودقاق فى دمشق ، والذى أسفر عن قيام عدة امارات مستقلة عن السلاجقة كالاراتقة فى ماردين وأسرة طغتكين فى دمشق . وأورد أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ ، ٩٧ ، ١٠٠-١٠١ .

أن عمه ابا العساكر سلطان بن منقذ قد تزوج احدى بنات رضوان بن تتش ولكن اسامة لم يذكر تاريخ هذا الزواج ولا عن طبيعة العلاقات بين أمير بني منقذ ورضوان . وذكر أسامة بن منقذ أيضا في كتابه الاعتبار ان عمه أبا العساكر قد ارسل رسولا الى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش ولم يوضح لنا اسامة عن زمان ومضمون الرسالة التي حملها من شيزر احد موالي ابوالعساكر سلطان يدعى موفق الدولة شمعون (١) .

وهكذا يمكن القول بأن الصليبيين انتهزوا فرصة التمزق السياسي للقوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة نتيجة انهيار النفوذ السلجوقي وانحسار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ونهاية الامارات العربية ونجحوا في تأسيس ثلاث امارات صليبية في الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة صليبية في بيت المقدس وكان على قادة المسلمين ان يبعثوا فكرة الجهاد ضد الصليبيين ، وهو موضوع الفصل الثاني .

—•—

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٣ ، ١٤٨ .

الفصل الثانى

الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الأسرة الزنكية (٤٩١ - ٥٢١هـ / ١٠٩٧ - ١١٢٧م)

- موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين
- موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام
- بعث فكرة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى .

((الفصل الثانـــــى))

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين حتى قيام الاسرة الزنكية

(٤٩١ - ٥٢١ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢٧م)

---

* موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد ضد الصليبين .
* موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام .
* بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى .

-.-

الفصل الثانــــى

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الأسرة الزنكية

(٤٩١ - ٥٢١ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢٧ م)

- موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد ضد الصليبيين :

كانت الخلافة العباسية فى بغداد قبل قدوم الصليبيين الى بلاد الشـام خاضعة لنفوذ السلاجقة الذين كانوا قد سيطروا قبل منتصف القرن الخامـــس الهجرى على ايران واقليم ماوراء النهر. وقد استطاع السلاجقة انقاذ الخلافـة من تزايد النفوذ الفاطمى فى بغداد وغيرها من الاقاليم العباسية (١) ، وظلــت الخلافة العباسية فى ظل سلاطين السلاجقة العظام كطغرل بك ، وألب ارسـلان وملكشاه - كما كانت عليه زمن البويهيين - محكوما عليها بالبقاء بعيدا عـــن الخوض فى الامور السياسية او التدخل فى شئون الحكم ، فانحسرت سلطــــة الخلفاء العباسيين فى ذكر اسمائهم فى خطبة الجمعة ونقشها على السكـــة ، وعاش الخلفاء على ماتدره الاقطاعات الخاصة بهم ، وهذا مالم يكن له سابقـــة زمن البويهيين (٢) .

ولم يستطع الخليفة العباسى القائم بأمر الله أن يتخذ موقفا حازما للنهوض بأمر الخلافة العباسية عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م ونشوب الخلاف بين أبنائه ، بسبب تجريده من أى قوة عسكرية يستطيع بها الوقوف فى

---

(١) انظر سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، ص ٤ - ٥٤ .
The Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 655.

(٢) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٩١-٩٢ ، فاضل مهدى بيارى ، السياسة السلجوقية فى العراق ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشـــر ، ١٩٨١ م ، ص ٩٧ - ١٠١ .

فى وجه خصومه ، ولذلك فقد وقف موقفا سلبيا أثناء النزاع بين ابناء ملكشاه ، لدرجة أنه أعلن السلطنة لاثنين من ابناء ملكشاه هما بركياروق ولقبه ركن الدين ومحمد ولقبه ناصر الدين (١) . وقد ظل الخليفة العباسى القائم بأمر الله ألعوبة فى يد السلاجقة حتى وافته منيته فى بغداد سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م . فخلفه فى الحكم ابنه المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢ هـ/ ١٠٩٤-١١١٨م) الذى لم يكن بأحسن حظا من والده ، فلم تذكر المصادر المتداولة ماويوضح قيامه بأية محاولة للافادة من النزاع القائم بين السلاجقة ، بل ظل كما كان عليه والده من الاستكانة للسلاجقة (٢) ، لهذا لم تنهض الخلافة العباسية بدور فعال فى الدفاع عن مدن الشام والجزيرة التى اخذت تنهار واحدة تلو الاخرى تحت ضربات الصليبيين (٣) . أما عن سبب عدم قيام الخلافة العباسية بالدور الفعال فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فلا يخرج عن كون الخلافة العباسية كانت فى مرحلة الشيخوخة بالاضافة الى ماقام به سلاطين السلاجقة من تجريد الخلافة من أية قوة عسكرية ، ليظهروا هم على أنهم حماة الخلافة من السقوط بيد أعدائها . على أنه ليس معنى ذلك أن الخلافة العباسية وقفت موقف المتفرج من الحركة الصليبية وسقوط بيت المقدس ، بل قامت بالقدر بالكيفية التى سمحت بها ظروفها وامكانياتها وطاقاتها ، وان لم يكن مباشرا . وبما أن الخلافة العباسية لم تكن تمتلك قوة عسكرية تستطيع التحرك بها ضد الصليبيين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٢٢٩ ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ٢٠٤ ، الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢٩-٢٣١ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣٩ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٧٩ .

(٣) سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٥ .

ولذلك فان الدور الذى قامت به انما جاء نتيجة لاستنجاد المسلمين بهـا عند ما كانت تحل بهم كارثة على أيدى الصليبيين (١) . ففى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م استولى الصليبيون على أنطاكية وخرج المستنفرون الى بغداد لطلب المساعدة من الخليفة العباسى المستظهر بالله ، فما كان من الخليفة المستظهر الا احالة المستنفرين الى السلطان السلجوقى بركياروق الذى كان منشغلا بنزاع أخيه محمد بن ملكشاه (٢) . وعند ما استولى الصليبيون على بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، اضطر أهل الشام وبيت المقدس الى الخروج للمرة الثانية الى بغداد لشرح الموقف المتدهور فى بلاد الشام للخليفة العباسى المستظهر بالله ، وانزعج الخليفة العباسى من الموقف وتأثر بما سمعه من الفقهاء ورجال الدين والشعراء ، ولم تكن عنده قوة عسكرية يستطيع بها نجدة المسلمين بالشام ولذلك لم يجد بدا من عرض الامر على السلطان السلجوقى بركياروق ابن ملكشاه ، فأرسل الخليفة اليه وفدا من خيرة رجال بغداد تقوى وديانة ، فساروا الى السلطان يستصرخونه على ما حل باخوانهم فى الشام ، ولكنه لم يستطع دفع الخطر ولا حتى ارسال نجدة الى الشام فتمكن الصليبيون منها (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٧٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٦١ .

(٣) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ١٣ ، حوادث سنة ٤٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٨٤ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

وقد صور لنا ابن الاثير ،وابن الجوزى ،صورة الحال فى ديوان الخليفة حينما تحدث قاضى دمشق ابوسعيد الهروى (١) الذى أبكى الحاضرين فى مجلس الخليفة بما شرحه من تدهور اوضاع المسلمين بالشام ، حتى ان بعض المسلمين قد أفطروا فى ذلك اليوم من شدة البكاء والنحيب حزنا على ما أصاب اخوانهم بالشام . وقد انصب اللوم على الخلافة العباسية ، وسكان بغداد وقد عبر عن هذا الشعور الشاعر الأموى أبو المظفر الابيوردى فى أبيات من الشعر نظمها فى مجلس الخليفة العباسى المستظهر بالله (٢) .

وعاد المستنفرون من بغداد ، دون الحصول على أدنى ماكانوا يرغبون فيه ، فى الوقت الذى ظلت فيه الخلافة العباسية فى بغداد فى موقف حرج بين نزاع السلاجقة من ناحية وبين مايجرى فى بلاد الشام من انتهاك لحرمات المسلمين على أيدى الصليبيين من ناحية أخرى . ففى سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م

---

(١) القاضى أبو سعيد الهروى هو أحمد بن نصير بن منصور أحد مشاهير الفقهاء وسادة الكبراء ، قتلته الباطنية بهمذان سنة ٥١٩ هـ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٤-٢٨٦ ،ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ١٠٨-١٠٩ . ومما قاله الابيوردى فى مجلس الخليفة العباسى المستظهر بالله :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتى لا يشرعون الى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم .

والابيوردى الشاعر المشهور ابوالمظفر محمد بن ابى العباس احمد بن محمد بن ابى العباس احمد بن اسحاق القرشى الاموى المعاوى الابيوردى كان من الادباء ، راوية نسابة ، شاعرا ظريفا ،توفى سنة ٥٠٧ هـ ، انظر الفارقى ،تاريخ الفارقى ص ٢٨٥ ، حاشية رقم ٦ .

قدم الى بغداد فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس ، لطلب النجدة ضد الصليبيين الذين يحاصرون طرابلس ، الا انه لم يجد من الخليفة العباسى المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه غير معسول الكلام والوعود الكاذبة . اذ أن الخليفة العباسى المستظهر بالله والسلطان السلجوقى ملكشاه كانا مشغولين بأمر سيف الدولة بن صدقة صاحب الحلة والاسماعيلية في بلاد فارس(١) .

وعلى الرغم من هذا الموقف السلبى الذى وقفته الخلافة العباسية تجاه الغزو الصليبى فقد ظلت بغداد محط أنظار المسلمين فى بلاد الشام حينما يحل بهم مكروه . ففى سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م خرج اهل حلب - حين ضاق عليهم الامر بحصار الصليبيين - لطلب النجدة من الخليفة العباسى المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه (واستغاثوا فى ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة ، مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج "(٢) .

وعلى الرغم من ان سكان بلاد الشام لم يجدوا فى الخلافة العباسية مايحمينهم على صد الصليبيين عن بلادهم فان حكام بلاد الشام كانوا ينظرون الى هذه الخلافة المنهارة على انها الظل الذى يستظلون به فى الدفاع عن بلادهم ، فهم يتقربون اليها لينالوا رضى الخليفة العباسى على انه خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حكم المسلمين ، مثلما فعل طغتكين صاحب دمشق حين قام برحلته المشهورة الى بغداد سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥م وما حصل

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٥٦ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٣٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٩٦ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ ٢ ص ١٥٧ ، انظر: ابن القلانسى ، ص ١٧٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ص ١٦٥ ، ابن الاثير، الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٨٣ .

عليه من رضى الخليفة العباسى المستظهر بالله لما يقوم به فى جهاد الصليبيين والتمسك بالمذهب السنى (١) .

لم تقف الخلافة العباسية على هذا الحال من السلبية تجاه الحوادث السياسية فى بلاد الشام والعراق ، فقد مرت الخلافة بدور جديد من الصحوة بعد وفاة الخليفة العباسى المستظهر بالله الذى وافته منيته سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، فقامت فى بغداد حركة انتعاش ومحاولة لاسترداد هيبة الخلافة مع بداية عهد المسترشد بالله ، فقد كان ذا همة عالية وشهامة زائدة ، ضبط أمور الخلافة ورتبها احسن ترتيب (٢) . ولعل شدة حماسته فى اخراج الخلافة مما هى فيه قد جاءت نتيجة معرفته بما كان عليه اسلافه من الذل والهوان اللذين فرضهما عليهم سلاطين السلاجقة .

وقد استغل المسترشد بالله حالة الضيق التى حلت بالناس فى بغداد من ارتفاع فى الاسعار ونقص الغلال وانتشار الفساد ، بالاضافة الى ما ابتليت به السلطنة السلجوقية من منازعات ، ليقوم بدوره فى استرداد هيبة الخلافة وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٩٢-١٩٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥١٤ ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٢ ص ٢٢٩ ، سعيد عاشور ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٣٦ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣١ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ١٤٠ .

(٣) انظر ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦١ .

وأدرك الخليفة العباسى المسترشد بالله أن النزاع بين السلاجقة لن يكون الطريق الوحيد فى استرداد هيبة الخلافة العباسية ، ومن ثم القيام بواجبها تجاه المسلمين فى بلاد الشام الذين تعرضوا للغزو الصليبى . ورأى أن الاصلاحات الداخلية والقيام بها سيحببه فى قلوب رعاياه وبخاصة الفقهاء والعلماء ورجال الدين ، وان هذه الناحية أولى بالاهتمام ، لما عرفه من انتشار الفساد ، فعمل على تطهير المجتمع من المفاسد - على سبيل المثال - حيث أمر باراقة الخمور التى كانت تباع علنا فى سوق السلطان ببغداد سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م(١) .

وعلى الرغم مما بذله الخليفة المسترشد بالله فى سبيل الاصلاح وماكان يتوق اليه من رغبة فى تحقيق ذلك ، فقد تعرضت بغداد وغيرها من الاقاليم لكوارث طبيعية ، وفتن داخلية أعاقته عن تحقيق طموحاته . ففى السنة الاولى من حكمه انقطع الغيث فانعدمت الاقوات وغلت الاسعار ، فعظم على المسترشد بالله وأهل بغداد ماكانوا يلاقونه من شحنة بغداد عماد الدين منكوبوس . وأسقط الخليفة المكوس والضرائب عن اهل بغداد ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، فقد تعرضت بغداد عقب ذلك لفتنة العيارين (٢) فى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦١٥ - ٦١٦ ، ٦٥٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٤٣ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

- العيارون : جمع عيار والعرب تمدح بالعيار وتذم به . فيقال غلام عيار نشيط فى المعاصى ، وغلام عيار ، نشيط فى طاعة الله . حركة العيارون وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وقد اتصف العيارون بصفات حميدة ، كالصدق ، وحفظ الاعراض بالاضافة الى ما اتصف به بعضهم من الفساد والاكثار من الفوضى وهذه الجماعة شبيهة الى حد ما بجماعات الاحداث فى بلاد الشام والجزيرة انظر : حسن أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٢-٣٣ .
The Encyclopaedia of Islam, Vol.I p.794 .

غرب بغداد ، وما أخذوه من أموال الناس جهارا نهارا ، كان له الأثر على سياسة المسترشد بالله ، وماكان يصبو اليه من استرداد هيبة الخلافة وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين (١) .

وفى سبيل استرداد هيبة الخلافة والنهوض بها ، حاول الخليفة المسترشد بالله استغلال النزاع القائم بين السلاجقة ، فوقف فى وجه آقسنقر البرسقى وعماد الدين منكوبرس شحنة بغداد ومنعهما من دخول بغداد سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م ، أثناء النزاع الذى كان قائما بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وخصومه من البيت السلجوقى ، من أجل ان تبقى بغداد بعيدة عن طمع الطامعين (٢) . كما حاول الخليفة المسترشد بالله أن يستغل خروج الملك مسعود بن محمد ضد أخيه السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م ، فوقف الى جانب السلطان محمود بن محمد لا بهدف تقويته على خصمه ، وانما بهدف تجنيب بغداد النهب والسلب والفساد ، الذى سيترتب اذا دخل بغداد (٣) . ولكن الخليفة المسترشد بالله لم ينجح فى الامر ، اذ أن دبيس بن صدقة الذى كان متورطا فى خروج الملك مسعود بن محمد ضد أخيه السلطان محمود بن محمد ، قام فى السنة نفسها ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م بتهديد الخليفة ، ولم يكتف بالتهديد

---

(١) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ١٣ ، حوادث سنة ٥١٢ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٤٢ ، ٥٥٦ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ق ١، ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٤١ - ٥٤٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢١٧-٢١٨ ، محمد القزاز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٤٢ .

بل سار الى بغداد وضرب سرادقه بازاء دار الخلافة ، مما اضطر المسترشد الى طلب النجدة من السلطان محمود بن محمد وبعض أمراء الاطراف الذين لبوا دعوة الخليفة المسترشد بالله وقدموا الى بغداد . ولما كان دبيس بن صدقة لا يقوى على الوقوف فى وجه جيوش السلطان محمود بن محمد ، فقد انسحب من بغداد الى الحلة ومنها واصل سيره قاصدا حمية الامير نجم الدين ايلغازى بن أرتق صاحب حلب وماردين (١) .

وفى صفر سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م نجح الخليفة العباسى المسترشد بالله فى اقناع السلطان محمود بن محمد فى الخروج من بغداد . ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة لصالح الخليفة فقد استغل دبيس بن صدقة خروج السلطان من بغداد فتقدم الى الخليفة فى نفس السنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م ببعض المطالب التعسفية ، فما كان من الخليفة الا ان طلب من شحنة بغداد آقسنقر البرسقى الخروج لقتال دبيس بن صدقة ، ولكن دبيس استطاع هزيمة البرسقى (٢) . ولما لم تكن مع الخليفة قوة عسكرية يستطيع بها مواجهة دبيس بن صدقة ، الذى لم يكتف بما حققه من نصر على آقسنقر البرسقى ، بل أرسل رسالة الى الخليفة العباسى يهدده فيها اذا لم يلب مطالبه . وطلب الخليفة من اصحاب الاطراف الذين كانوا تحت سيطرة

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٤ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٦ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ص ٢١٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٨ - ٦٠٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٣٣ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٠ .

السلاجقة المساعدة ضد دبيس بن صدقة فاجتمع عنده عدد من الامراء فيهم شحنة بغداد آقسنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ، وسليمان بن مهارش العقيلي والامير كرباوي بن خراسان ، فاستحلفهم على المناصحة في الحرب ضد دبيس بن صدقة فحلفوا للخليفة على المناصحة واستطاعوا أن ينزلوا به هزيمة ساحقة سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م وقع على اثرها كثير من رجاله في الاسر ، بينما هرب هو الى الشام (١) .

وعلى الرغم من أن ما حققه الخليفة العباسي المسترشد بالله على دبيس ابن صدقة من انتصار ساحق قد رفع من معنويته امام رعاياه ، فان هذا الانتصار على دبيس بقوات سلجوقية قد أضاع جهود الخليفة في التحرر من سيطرة السلاجقة الذين كانوا يعدون هذا الانتصار انتصارا لهم على القوى العربية التي كانت تحاول التحرر من سيطرتهم . ويمكن القول انه كان في امكان خليفة بغداد الاستعانة بقوات بني مزيد وزعيمهم دبيس بن صدقة خصوصا وانه اى الخليفة ، يسعى للتحرر من سيطرة السلاجقة .

واصطدم الخليفة العباسي المسترشد بالله للمرة الثانية مع دبيس بن صدقة والملك طغرل بن محمد شقيق السلطان محمود بن محمد في سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م ، فقد حاول الملك طغرل بن محمد بتحريض من دبيس بن صدقة ، النيل من الخليفة المسترشد بالله واجباره على اعلان الخطبة بالسلطنة

---

(١) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٦ هـ - ٥١٧ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٠٧-٦١٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٢٥-٢٦ ، ابن القلانسي ص ٢٠٦ ، سلبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣٠ ، ابن العمراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٥ ، السيوطي ، تاريخ الخلفا ، ص ٤٣١ .

له دون أخيه محمود بن محمد ، ولكن الخليفة العباسي المسترشد منع طغرل ودبيس بن صدقة من دخول بغداد وأجبرهما على التراجع عن بغداد (١) . ونظر السلطان محمود بن محمد الى هذا النصر الذي حققه الخليفة على الملك طغرل بن محمد ودبيس بن صدقة على أنه في صالحه وكتب الى الخليفة المسترشد يقول له " قد بلغني مافعلت لاجلي وانا خادمك وسائر اليك " ولم يكتف السلطان محمود بن محمد بما ذكره للخليفة المسترشد بل ذكر انه سيكون مع الخليفة يدا واحدة ضد عمه السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان " وتراسلا بالايمان والعهود على انهما يتفقان على سنجر " (٢) . في الوقت الذي كانت فيه نظرة السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه تختلف عن نظرة ابن اخيه محمود بن محمد تجاه انتصار الخليفة على الملك طغرل ابن محمد ودبيس بن صدقة اللذين لجآ اليه بعد أن منعهما الخليفة المسترشد من دخول بغداد ، حيث ذكر السنجر بان الخليفة العباسي قد اشتد عوده وكثر جمعه وان هدفه الاستقلال والتحرر من السلاجقة . ولذلك فقد كتب سنجر الى السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م بالاخذ على يد الخليفة وكفه عن مشروعاته التوسعية ، والبقاء على ماكان عليه

---

(١) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٩ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ص ١١٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٩ ، احمد كمال الدين حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٥٤ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٩٥ .

آباؤه وأجداده . ولم يكتف السلطان سنجر بهذا بل حذر السلطان محمود من جانب الخليفة حين قال : " أنت صبي والخليفة قد عزم على أن يمكر بك فلا تصغ اليه "(١) .

أدرك السلطان محمود بن محمد عندما اطلع على رسالة عمه اليه ، مايهدف اليه الخليفة المسترشد بالله ، خصوصا وأنه أى السلطان محمود قد استقبل فى شهر رجب من السنة نفسها ٥٢٠ هـ شحنة بغداد برنقش الزكوى الذى كان قد فر من بغداد هاربا من الخليفة العباسى المسترشد بالله " وشكا اليه وحذره جانبه وأعلمه انه قد قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه "(٢) . ولم يكتف برنقش الزكوى بهذا بل حذر السلطان من الوزير ابن صدقة الذى جمع للخليفة الاعوان من العرب والاكراد وفوق هذا وذاك فقد قال برنقش الزكوى للسلطان محمود بن محمد " وان تأخرت عن العراق ازداد منعة وقوة ومنعك عن البلاد "(٣) .

ولم تنته سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م حتى عزم السلطان محمود بن محمد على السير الى العراق ودخول بغداد ، فأرسل اليه الخليفة المسترشد بالله ينهاه عن دخول العراق ويعرفه ان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم وجود الغلات والاقوات بعد ما خربها دبيس بن صدقة وهى لاتفى بى وبكم فاما أنا أو انتم " . الا أن السلطان لم يصغ الى ماطلبه منه الخليفة بعدم

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ٢٥٤ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٩٥ ، الذهبى دول الاسلام جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٣٥ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٨ - ٢٩ ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ٢٥٤ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦١ .

الدخول الى بغداد ، على الرغم مما بذله الخليفة له من الاموال . (١)

ولما علم الخليفة بما عزم عليه السلطان محمود بن محمد من اقتحام البلد خرج الى الجانب الغربى من بغداد تجنبا للصدام مع السلطان (٢) . ودخل السلطان وجيوشه الى بغداد واخذوا يعيثون الفساد والخراب فى البلد ، وتعرضوا لقصر الخليفة بالنهب والسلب ، وأثار هذا العمل ثائرة الخليفة فعزم على ملاقاة السلطان مهما كانت النتائج ، وفعلا تم اللقاء بين الطرفين فى ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م وكان النصر الى جانب الخليفة فى بادىء الامر ولكن خيانة بعض رجاله وانضمامهم الى السلطان قد فت فى عضده مما دعاه الى الاستجابة لعقد الصلح مع السلطان محمود بن محمد . وقد نص الصلح على تجريد الخليفة من المقاتلين والا يعود الى اعداد أو قيادة الجيوش ، وفوق هذا وذاك فقد أجبر على تقديم الاعتذار للسلطان محمود بن محمد ، ودفع شىء من الاموال والسلاح كتعويض عن خسارة السلطان وما لحق به من أضرار (٣) . ولم تقتصر نتائج هذه المعركة عند حد النصر العسكرى الذى حققه السلطان محمود ابن محمد على الخليفة العباسى بل انها حطمت آمال الخليفة العباسى وتطلعاته فى النهوض بأمر الخلافة وجهاد الصليبيين بسبب مافرض عليه من قيود حدت من طموحاته وآماله . (٤)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٣٥-٦٣٦ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢١٥-٢١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٥- ١٩٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٣٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥ ، جـ ١ ص ٣-٦ ، الاصفهانى ، دولة ال سلجوق ص ١٤ ، محمد القزاز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٤٧-٤٨ ، محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ١٢٥ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٩-٣٠ ، انظر سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، ص ٦١-٦٢ .

ووجد الخليفة العباسي الفرصة سانحة في العام التالي أي سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م للتخلص من بعض القيود التي فرضت عليه ، اذ استجد للسلطان محمود بن محمد بعض الامور الطارئة التي استوجبت خروجه من بغداد فطلب منه الخليفة عدم الخروج من بغداد حتى لا يتركها خالية من أي قوة عسكرية تحميها من خصوم الخلافة والسلطنة وخاصة دبيس بن صدقة . غير ان السلطان الذي اشتد به المرض لم يكن يملك سوى الخروج من بغداد ، فخرج منها في شهر ربيع الاخر من هذه السنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م وسمح للخليفة العباسي المسترشد باتخاذ مايراه مناسبا لعلاج مايطرأ على بغداد حيث قال للخليفة " فمهما رأيت من المصلحة فافعله " . وبذلك تخلص الخليفة العباسي من الشروط التي كانت قد فرضت عليه في سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م بعدم اعداد اي قوة عسكرية او قيادة الجيوش(١) .

واخيرا يمكن القول ان الصحوة التي مرت بها الخلافة العباسية في عهد المسترشد بالله ومحاولة التحرر من السيطرة السلجوقية من أجل القيام بدور فعال في جهاد الصليبيين لم تؤد الى ماكان يأمله انصار الخلافة العباسية ، ذلك ان الخلافة العباسية قد انشغلت بعلاج حالة الضيق التي حلت بالناس في العراق والى اصلاح ماكان قد أفسده النظام السلجوقي في بغداد في ظل الخلفاء السابقين للمسترشد بالله . بالاضافة الى مواجهة الخارجين عن سلطة الخليفة من بعض العناصر العربية التي تمثلت في أمراء الحلة من بني مزيد ، ومواجهة نواب السلطان السلجوقي محمود بن محمد في بغداد ، الذين كان لهم دور بارز في اثارة الفتن بين الخلافة والسلطنة .

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٢٠ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٣٨ ، محمد القزاز ، الحياة السياسية في العراق ص ٤٨ .

وهكذا لم تستطع الخلافة العباسية فى عهد المسترشد بالله أن تقوم بدور واضح وايجابى فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية بل بقيت كما كانت عليه فى عهد المستظهر بالله ، حتى ان الاستغاثات التى استغاثها المسلمون فى بلاد الشام والتى كانت قد وصلت الى بغداد من حلب لم تجد استجابة من قبل الخلافة ولا حتى من قبل السلطنة السلجوقية ، وذلك بسبب ضعف الخلافة العباسية وانشغال الخليفة المسترشد بالله بالامور الداخلية (١) .

- موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام :

أما عن الدور الذى قامت به الخلافة الفاطمية فى سبيل مواجهة الغزو الصليبى لبلاد الشام فمن المعروف ان الدولة الفاطمية تمتعت بحالة من الاستقرار والرخاء منذ انتقال الخلافة الى القاهرة سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، حتى سنة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م . وقد صور لنا الرحالة ناصر خسرو فى رحلته الى مصر فى الفترة مابين سنتى ٤٣٩ هـ/١٠٤٧م وحتى ٤٤٢ هـ/١٠٥٠م ماكانت عليه مصر من الرخاء والاستقرار والعدل ، وقوة الدعوة (٢) . ولكن الضعف بدأ ينخر فى جسم هذه الدولة منذ سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م ، وهى السنة التى قصر فيها فيضان النيل وتحركت موجة الغلاء الفاحش الذى لم يسبق

---

(١) انظر ابن القلانسى ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ٨٦ ، ١٠٦ .

له مثيل في عهد هذه الدولة ، حتى كثر الموت في الناس بحيث انه كان يموت في اليوم بالآلاف فلا يوجد من يكفنهم أو يغسلهم (١) . وتعطلت الدواوين وذهب وقار الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي صار يجلس على حصير مصنوع من سعف النخيل ، مما اضطر نساؤه الى الخروج مع كثير من سكان مصر سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م الى العراق عندما بلغت الازمة أشدها (٢) .

ولم يقتصر ضعف الفاطميين في مصر على ما حل بهم من كوارث طبيعية بل تعدت ذلك الى ظهور بعض الوزراء الذين استغلوا هذا المنصب لتحقيق مآربهم الشخصية ، فالوزير الحسن ابو محمد بن علي بن عبد الرحمن اليازوري الذي تولى وزارة المستنصر فيما بين سنتي ٤٤١-٤٥٠ هـ/ ١٠٤٩-١٠٥٨م قد استغل فتنة البساسيري في العراق ، واعلان الدعوة الفاطمية في بغداد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م فكلف الخزينة الفاطمية من الاموال الباهظة لانجاح الدعوة ما أضر بها حتى قيل ان حادثة البساسيري في العراق كانت آخر سعادة الفاطميين في الشام والعراق (٣) . على ان ضعف الفاطميين في مصر لم يقف عند حد ما قام به اليازوري من تكليف الخزانة الفاطمية ما لا طاقة لها به ، بل لقد تولى الوزارة بعده مجموعة من الوزراء الضعاف فكثر العزل والتغيير فيهم ، بحيث لم تطل وزارة بعضهم اكثر من ايام معدودة ، وهذا دليل على عدم قدرتهم في الاستمرار وعلاج الامور الطارئة (٤) . ومما زاد

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٢٢٤ ، المقريزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ ، المقريزي ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ١٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠، ص ٦٢ ، المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ ، ابو الفدا ، المختصر، جـ ٢، ص ١٨٦ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢، ص ٢٥٧ ، الازدي ، الدول المنقطعة قسم الفاطميين ، ص ٦٩ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٣ .

(٤) انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٢٦٢ ، ابن الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٣٥ - ٥٦ .

الطين بلة فى أوضاع مصر الداخلية ثورات الجند التى لم تقف عند حد ففى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وقع صدام بين **الجنود الاتراك** والسودانيين مما ادى الى تفاقم الازمة فى عهد المستنصر بالله (١) .

استمرت الشدة فى مصر حتى سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٣ م وطلب الخليفة المنتصر النجدة من بدر الجمالى الارمنى والى عكا ، والذى كان قد تمرس على السياسة ببلاد الشام ولبى بدر الجمالى الدعوة وقدم الى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م وحصل من المستنصر على تفويض كامل بتصريف الامور وعلاج الموقف فى مصر ، فأصبح بذلك اول وزير تفويض بمصر ، وزيد فى نعوته والقابه عمن سبقه من الوزراء . واستهل بدر اعماله بمصر بالقضاء على كثير من رجال مصر، ممن ولى القضاء او الوزارة واهتم باعادة الامن والسكينة واعفاء الفلاحين من الخراج بهدف تشجيعهم على بذل المزيد من الجهد فى زراعة الارض . ولم يقف بدر الجمالى عند هذا الحد بل سعى الى اعادة هيبة الخلافة حتى استقرت الاوضاع الداخلية بمصر (٢) .

لم يقف بدر الجمالى عند حد علاج الازمة الداخلية فى مصر ، بل استطاع على الصعيد الخارجى أن يصد حملة أتسز بن أوق الخوارزمى قائد السلطان ملكشاه فى بلاد الشام سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٧ م ، واستطاع بدر مقارعة السلاجقة على أبواب دمشق سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م (٣) . غير

---

(١) الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٥٧ ، المقريزى اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٣٦-٢٥١ ، ٢٦٥ ، المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ٢٣-٢٦ ، عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٦٦ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، كتاب بحوث ، ص ١٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩-٣١٩ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ابن القلانسى ص ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٨٩ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

أن بدر الجمالى عرف انه لا جدوى من منازعة السلاجقة على وسط بلاد الشام وان الاولى به المحافظة على القواعد البحرية فى عكا وصور وغيرها ، فأرسل فى سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م القائد الفاطمى منير الدولة الجيوشى بحملة عسكرية تمكنت من استعادة صور من قاضيها ابن ابى عقيل الذى كان قد أعلن خروجه على طاعة الفاطميين سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م (١). غير ان محاولات بدر الجمالى هذه فى اعادة مكانة الدولة الفاطمية بالشام لم تؤد الى نتائج حقيقية ، ذلك أن القائد الفاطمى منير الدولة الجيوشى قد أعلن التمرد والعصيان على الخلافة الفاطمية فى القاهرة سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م واستقل بصور ولكن بدر الجمالى كان من اليقظة وشدة الرغبة فى الاحتفاظ بساحل الشام ماجعله يجرد حملة عسكرية فى نفس السنة بقيادة ابنه الافضل لاستعادة صور ، فحقق الافضل رغبة والده بالقاء القبض على منير الدولة الجيوشى وحمله الى مصر ، حيث قتل هناك ، فى الوقت الذى تمكن الافضل من فرض سيطرة الفاطميين على يافا أثناء عودته الى مصر (٢).

هكذا استطاع بدر الجمالى اعادة الامن والطمأنينية والاستقرار الى ربوع مصر وانتشالها من فوضى الوزراء والشدة المستنصرية ، التى كادت أن تقضى على الفاطميين ، غير ان الاجل لم يمهله ، اذ توفى سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م ولحقه المستنصر بالله بأقل من ثلاثين يوما (٣). وعلى الرغم من

---

(١) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، ج١٣ ، حوادث سنى ٤٧١ هـ ، ٤٨٢ هـ ، ابن القلانسى ص ٩٨ ، ١٢٠-١٢١ ، ابن ميسر اخبار مصر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٧ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ج ١٣ B ، ورقة ١٠٥ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٢٣ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ج ٢ ، ص ٢٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٩ .

أن بدر الجمالى كان قد استأثر بالامور عن الخليفة المستنصر فى أواخر أيام هذا الخليفة ، فان الافضل بن بدر الجمالى الذى تولى الوزارة عقب وفاة والده ، قد تغالى فى اغتصاب حقوق الخليفة الفاطمى .

وتجدر الاشارة الى حقيقة ضعف الفاطميين فى مصر وانحسار نفوذهم عن بلاد الشام ، على الرغم من الجهود التى بذلها بدر الجمالى وابنه الافضل من بعده فى سبيل المحافظة عليها ، وذلك قبل وصول الحملة الصليبية اليها سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م . تلك الحقيقة أن ضعف الفاطميين فى بلاد الشام وانحسار نفوذهم عن كثير من معاقلهم بها ،لم يرجع فقط الى قوة السلاجقة ، وضعف حكومة القاهرة ، بل الى شعور اهل الشام المعادى للفاطميين (١) . والدليل على ذلك قول مؤرخ دمشق ابن القلانسى : " وكان أهل دمشق يأبون المغاربة لمخالفتهم فى الاعتقاد ولانهم أمويون ولقبح سيرة الفاطميين الذين كانوا عليهم " . وحين عبر ابن القلانسى عن سخط اهل دمشق للحكم الفاطمى واسبابه ، فانما استنتج ذلك مما كان يعانيه اهل الشام فى ظل الحكم الفاطمى . فالفاطميون شيعة متعصبون ، فى الوقت الذى كان فيه معظم اهل الشام يدينون بالمذهب السنى الذى لم تشبه شائبة منذ العصر الاموى ، كما ان ولاة الفاطميين بالشام كانوا من قبح السيرة وفساد الاخلاق والظلم والجور ما أثار عليهم حقد أهل الشام (٢) . وبذلك غدت بلاد الشام مسرحا للمنازعات بين الشيعة والسنة أو بالاحرى بين السلاجقة والفاطميين ، مما أدى الى تفكك وحدة

---

(١) انظر سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٦ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٦ .

المسلمين ومهد الطريق أمام الصليبين لغزو بلاد الشام فى سهولة ويسر والاستقرار بها دون صعوبة (١) .

وصل الصليبيون الى اطراف بلاد الشام سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م فى الوقت الذى كان النزاع المذهبى والسياسى بين السلاجقة والفاطميين على أشده فكان ذلك احد الاسباب التى مهدت للصليبيين المضى قدما فى اجتياح بلاد الشام . وأرسل الافضل بن بدر الجمالى وزير المستعلى سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م سفارة من قبله الى قادة الحملة الصليبية الاولى ، ووصلتهم قبل سقوط انطاكية وهى تحمل عرضا خلاصته أن يتعاون الطرفان للقضاء على السلاجقة فى بلاد الشام ، وأن تقسم هذه البلاد بينهما بحيث يكون القسم الشمالى من الشام للصليبيين فى حين يحتفظ الفاطميون بفلسطين ولما كان هدف الصليبيين هو السيطرة على بيت المقدس ، فقد كان ردهم غامضا على سفارة الافضل ، بحيث لم يتعهد بث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، واعطاء الافضل صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم التوسعية فى بلاد الشام (٢) . وعلى الرغم من ان هذه السفارة كشفت للصليبيين عن مدى تفكك المسلمين ، فان الافضل بن بدر الجمالى لم يجد حرجا فى عدم الانضمام الى القوات الاسلامية التى كان كربوقا صاحب الموصل قد تزعمها فى محاولة منه لمنع سقوط انطاكية بيد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م (٣) .

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) انظر اعمال الفرنجة ، لمؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشى ، ص ٥٩ ، ٦٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٧٠-١٧١ ،
William of Tyre, A History of deads Done Beyond the sea. Vol.I, p.p.223-224, 325-336.

(٣) انظر مايلى ، ص

بل وقف الافضل وصاحبه المستعلى موقف المتفرج بعيدا عن النزاع ، مع قدرتهما على الرجال والمال والسلاح على حسد قول ابى المحاسن (١) . ولم يقف الافضل بن بدر الجمالى عند هذا الحد من التقاعس عن نجدة السلاجقة فى بلاد الشام بل استغل ضعفهم وتفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنازعات فسار فى سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م على رأس جيش كبير لحصار بيت المقدس والاستيلاء عليه لتدعيم موقفه أمام الصليبيين الذين كان قد اقترح عليهم اقتسام بلاد الشام . وكان فى القدس آنذاك سقمان بن أرتق ونجم الدين ايلغازى ابن أرتق وكثير من اتباعهما . وعندما وصل الافضل بجيشه الى بيت المقدس ضرب عليه حصارا ونصب عليه اكثر من اربعين منجنيقا حتى تهدمت بعض الاماكن فى السور المحيط به ، ووقع القتال بين الجانبين . ولما كان الاراتقة لا يأملون فى وصول مساعدات عسكرية من السلاجقة فى بلاد الشام فقد أذعنوا للصلح وسلموا المدينة الى الافضل فى شعبان سنة ٤٩١ هـ/ اغسطس ١٠٩٨م وعهد الافضل بولاية بيت المقدس أحد رجاله ويدعى افتخار الدولة ، بينما عاد هو الى مصر (٢) .

اطمأن الافضل بن بدر الجمالى بعد استيلائه على بيت المقدس، وظن أن آماله قد تحققت وأن سيطرته على وسط وجنوب بلاد الشام قد تحققت وان الصليبيين لا مطامع لهم فى بيت المقدس وجنوب بلاد الشام . ولكن

---

(١) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١١٧ أ ، ابن القلانسى، ص ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ ٣ ، ص ٢٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ .

والمنجنيق : آلة خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وهو على ثلاثة انواع . المقربى والتركى والافرنجى . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٢، ص ١٤٤ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص ٢٦ .

بقدر ما انخدع الافضل بن بدر الجمالى بالرد الغامض الذى كان الصليبيون قد ردوا به عليه ، فقد انخدع قبله حكام دمشق وحلب من أسرة تاج الدولة تتش اثناء حصار الصليبيين لانطاكية حين بعثوا اليهم برسائل تتضمن مايفيد بأنهم - اى الصليبيين - تحت قيادة الامبراطور البيزنطى ، وأن هدفهم لايتعدى ماكان بيد الامبراطور البيزنطى " مكرا منهم وخديعة حتى لايساعدوا صاحب أنطاكية " (١) .

ونظرا للدور الكبير الذى قام به الافضل بن بدر الجمالى فى جهاد الصليبيين فيمابعد فانه يمكن ان نلتمس له العذر فى اتصاله بالصليبيين وذلك للاسباب التالية :

أولا : خطر السلاجقة الذين هددوا مصر ووصلت غاراتهم الى القاهرة نفسها .

ثانيا : الازمات الاقتصادية والفتن الداخلية التى اضعفت مصر .

ثالثا : التسامح الدينى لغير السنة عند الخلفاء الفاطميين والاستعانة بكثير من الوزراء المسيحيين قد جعل الافضل فى موقف لم يجد معه حرجا فى الاتصال بالصليبيين خصوصا وانه كان ينظر اليهم على انهم مرتزقة تابعين للامبراطور البيزنطى .

وربما استند الافضل فى تفكيره هذا الى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الافضل أن أولئك الصليبيين انما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٧٥ ، انظر المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٧٠ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ ، عبدالمنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٥ .

فى القرن العاشر الميلادى . وبالاضافة الى ذلك فانه يمكن القول أن عدم ادراك الافضل لهدف الصليبيين هو الذى دفعه الى التفكير فى اقامة تحالف بينه وبينهم ضد السلاجقة فى بلاد الشام ، ولكن هذه السياسة ظهر فشلها حينما أخذ الصليبيون فى اجتياح بلاد الشام سواء ماكان منها بيد السلاجقة أو ماكان بيد الفاطميين ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على الرملة ، ومحاصرتهم عكا سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م (١) .

ولما أدرك الافضل بن بدر الجمالى أن الصليبيين خرجوا عن حدود ماكان يتوقعه لهم أعاد النظر فى سياسته وقرر الاتصال بالامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين للاستفسار منه عن نوايا الصليبيين ، وهل هم يعملون لحسابه أم لا ؟ فكان رد الامبراطور البيزنطى على الوزير الافضل أنه أنكر أن تكون له بهم علاقة . فلما تيقن الافضل من أن الصليبيين لا يعملون لحساب الامبراطور البيزنطى قام بارسال سفارة ثانية اليهم قريبا من طرابلس تحمل معها جملة من الهدايا والتحف لكل قادة الحملة وعرض عليهم شروطا كالمشروع السابق بالاضافة الى السماح لهم بحرية العبادة فى بيت المقدس على ألا يدخلوه بسلاحهم ، ولكنهم ردوا عليه ردا عنيفا حيث قالوا : بانهم سيدخلون بيت المقدس باذن الله دون اذن من خليفة القاهرة .(٢)

وجد الصليبيون انه لامانع لهم من الوصول الى بيت المقدس، خصوصا وانهم قد اطمأنوا الى استقرار بلدوين فى الرها ، وبوهمند فى أنطاكية

---

(١) ابن القلانسى ،ص ١٣٦ ، ابن ميسر ،أخبار مصر ،ج ٢،ص ٣٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣،ص ٢٣-٢٤ ، حسن حبشى ،الحملة الصليبية الاولى،ص ١٧١ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ،ص ١٧٠.
والرملة:مدينة عظيمة بفلسطين ،ظلت محلا للنزاع بين الصليبيين والفاطميين زمنا طويلا . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٢) حسن حبشى ، الحملة الصليبية الاولى ، ص ١٧١.

لمعاينتهم من الخلف ، بالاضافة الى عدم وجود تحصينات عسكرية فى المدن الفاطمية على ساحل بلاد الشام ، وما حصلوا عليه من مساعدات من اخوانهم المسيحيين بالمدن التى استولوا عليها (١) . ومن هنا توجه الصليبيون الى بيت المقدس فى شهر رجب من سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م وجدوا فى السير حتى وصلوا اليه فى شعبان فضربوا عليه حصارا شديدا عجز معه افتخار الدولة نائب الفاطميين فيه عن مقاومتهم ، على الرغم من الجهود التى بذلها فى الدفاع عنه . وأرسل الرسل الى مصر لطلب النجدة من الوزير الأفضل غير أن الصليبيين الذين شعروا بوصول قوات مصرية بقيادة الافضل شددوا الحصار عليه حتى استطاعوا اقتحامه فى شهر شعبان من السنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م (٢) .

أما الافضل بن بدر الجمالى الذى أدرك خطأ اتصاله بالصليبيين - على مايبدو - فانه ما ان سمع بمسير الصليبيين الى بيت المقدس حتى خرج على رأس قوات كثيرة بقصد منع الصليبيين من دخوله ، ولكنه لم يستطع الوصول الى بيت المقدس ، حيث فاجأه الصليبيون بعسقلان وأنزلوا به هزيمة ساحقة كاد معها السقوط بأيديهم " فندم حيث لا ينفعه الندم لانه كان أحب نزولهم الساحل ليكونوا مانعين من نفوذ الترك الى ديار مصر " .

ولم يتحرج ابن ظافر الازدى فى القول بان القدس لو بقى بيد الأراتقة وأسيادهم السلاجقة لكان اصلح للمسلمين من انتقاله الى حكام القاهرة

---

(١) أعمال الفرنجة ، مؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٢-١١٤، الحرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١، ص ٢٦٥ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٦-١٣٧ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢، ص ٢١١ .

الفاطميين ، الذين لم يستطيعوا الدفاع عنه ومنعه من السقوط بأيدى الصليبيين (١) .

وفى الواقع ان انتصار الصليبيين على الفاطميين فى عسقلان فاق بكثير انتصارهم على السلاجقة فى أنطاكية حتى انه يمكن القول ان الهزيمة التى حلت بكربوقا على ايدى الصليبيين سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م أخرجت السلاجقة من معركة الشام ، وكذلك أدى انتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان على الفاطميين الى القضاء على هيبتهم بفلسطين ، حتى أصبحت ايدى الصليبيين طليقة فى فلسطين ، مثلما صارت ايديهم طليقة فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوقا (٢) . وبالاضافة الى ذلك فان الوقعة التى أنزل فيها الصليبيون الهزيمة بالافضل وعساكر مصر فى عسقلان سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م كان لها أكبر الأثر فى عودته الى مصر على أسوأ حال وقلة رجال " وقد استحكم بأسه من بقاء الساحل فى ايدى المسلمين ، ولم يغزهم بعدها " . وعلى الرغم من هذا القول فان الافضل لم يستكن على ما حل به فى عسقلان . ولم تقض على آماله فى استرداد ما فقده من معاقل فى بلاد الشام ، ولوقف الزحف الصليبى عليها ، حتى أصبح ارسال الجيوش من مصر الى الشام كل عام أمرا مألوفا للجهاد ، حقيقة ان الافضل لم يخرج البتة الى الشام بعد هزيمة عسقلان الا انه لم يبخل بكل امكانياته ، ولم يضن حتى بأولاده فى الخروج الى الشام للجهاد (٣) . ولم يتخاذل عما يقوم به

---

(١) ابن ظافر الازدى ، الدولة المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(٣) ابن ظافر الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٢ ، انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٤ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٧ .

الصليبيون من اجتياح لبلاد الشام فقد جهز حملة عسكرية سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١ م وجعل عليها سعد الدولة القواسي ، المعروف بالطواشي ، فوصل الى عسقلان واتخذها مركزا لانطلاقه فى مواجهة الصليبيين . وفى عسقلان تحرك بقواته صوب الرملة بقصد تهديد الصليبيين فى يافا وبيت المقدس . غير أن بلدوين الاول ملك بيت المقدس أدرك خطر الجيوش الفاطمية ، فتقدم الى الرملة بقصد مباغتة المسلمين على غرة من أمرهم ،فالتقى بالمسلمين فى الجنوب الغربى من الرملة ،فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، فتصدع الجيش الفاطمى فى هذه الموقعة وانتصر الصليبيون عليهم . وقد قتل من المسلمين عدد كثير، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الجيش الفاطمى سعد الدولة القواسى صريعا فى المعركة حيث كبا به فرسه فاستشهد مكانه (١) .

ولما بلغ الافضل بن بدر الجمالى ما آل اليه أمر سعد الدولة القواسى والقوات الفاطمية التى ارسلها معه من هزيمة بالرملة على يد الصليبيين أسرع فى السنة التالية ٤٩٥ هـ/١١٠٢م الى اعداد حملة عسكرية ثانية من العرب والسودان وجعل عليها ابنه شرف المعالى ، وسيرها الى عسقلان فوصلت فى رجب من تلك السنة (٢) . ولما علم بلدوين الاول ملك بيت المقدس بمسير الفاطميين الى عسقلان خرج على رأس قوة صغيرة من رجاله تقدر بنحو سبعمائة فارس وراجل اختارهم من رجاله فالتقى بالجيش الفاطمى بيازور قريبا من الرملة وهناك دارت معركة بين الطرفين اسفرت عن هزيمة الصليبيين " وقتل المسلمون أكثر خيله ورجالته وانهزم الى الرملة " فتبعه المسلمون واحاطوا به وكاد ان يقع

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٤٠ ، ابن الاثير ،الكامل،جـ١٠ ،ص ٣٦٤ ،ابن ميسرة ،اخبار مصر جـ٢ ،ص ٤٠ ، المقريزى ،اتعاظ الحنفا ،جـ٣ ،ص ٢٦ ،ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ،جـ٥ ،ص١٥٢ .

(٢) ابن القلانسى ،ص ١٤١ ، ابن الاثير ، الكامل ،جـ١٠ ،ص ٣٦٤ .

فى الاسر ، لولا هروبه الى يافا (١) . وفى الرملة استطاع المسلمون احكام الحصار على من بقى بها من الصليبيين بعد هروب بلدوين الاول . وبعد حصار استمر خمسة وعشرين يوما تمكن شرف المعالى بن الافضل من اقتحام الرملة " فقتل من الصليبيين أربعمائة صبرا بينما أسر منهم ثلاثمائة بعث بهم الى مصر " (٢) .

هكذا استطاع شرف المعالى استعادة الرملة من الصليبيين ، غير أن الاختلاف وقع بين رجاله حول المكان الذى يجب المسير اليه أولا ، يافا أم بيت المقدس . وبينما هم فى هذا الاختلاف اذ وصل من البحر خلق كثير من الصليبيين قاصدين زيارة البيت المقدس " فندبهم بلدوين الاول لقتال الفاطميين ، فساروا الى عسقلان وبها شرف المعالى بن الافضل " فلم يكن يقوى بحربهم " ولكن هذه الجموع من الصليبيين حين رأت شدة تحصين عسقلان عادت الى يافا " فلطف الله تعالى بالمسلمين " (٣) . وعاد شرف المعالى الى مصر بسبب الاختلاف الذى وقع بين القوات الفاطمية . وبهذا لم يستطع الفاطميون البقاء فى عسقلان لمواجهة الصليبيين ومد يد المساعدة لاخوانهم بالشام بسبب الاختلاف الذى وقع بينهم (٤) .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٦ ، انظر ابن القلانسى ، ص ١٤١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ق ١٠ ص ١٠ .
ويازور بلدة صغيرة تقع بسواحل الرملة من اعمال فلسطين واليها ينسب الوزير الفاطمى على بن عبد الرحمن اليازورى ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ ، انظر ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٥ ، انظر ابن القلانسى ، ص ١٤١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٣٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ .

ولما لم يستطع شرف المعالى بن الافضل استغلال ما حققه على الصليبيين من انتصار فى حملته التى خرج بها فى سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢م بسبب الاختلاف بين القوات الفاطمية عاد الى مصر ، الا ان الوزير الفاطمى الافضل لم يتخاذل عن جهاد الصليبيين ومحاولة استعادة مافقده الفاطميون من املاك فى بلاد الشام ، فأسرع الى تجهيز حملة عسكرية ثالثة سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م ، قسم منها أرسله عن طريق البحر بقيادة القاضى بن قادوس(1) ، وقسم منها أرسله عن طريق البر بقيادة تاج العجم أحد مماليك بدر الجمالى فوصل الاسطول الى يافا فى الوقت الذى وصل فيه تاج العجم الى عسقلان ، الا أن وجهات نظر كل من القائد البحرى ابن قادوس والقائد البرى تاج العجم اختلفت اذ راى القاضى بن قادوس استدعاء تاج العجم لقتال الصليبيين بيافا والثغور البحرية ، فرفض تاج العجم تلبية دعوة القاضى ابن قادوس محتجا بأنه لم تكن عنده الاوامر من الافضل بالانضمام اليه ، فما كان من القاضى ابن قادوس الا أن أرسل الى قاضى عسقلان وأعيانها يخبرهم بموقفه وعدم انضمام تاج العجم اليه ، ويطلب منهم شهادة بأنه أقام على يافا مدة عشرين يوما (٢) .

وعلى اية حال فان هذه الحملة العسكرية لم تأت بطائل فى استعادة مافقده الفاطميون فى بلاد الشام ، الا أن الاسطول الذى كان بقيادة ابن قادوس كان يحمل معه الكثير من الغلات والمؤن التى أدت الى رخص الاسعار ،

---

(١) ابن قادوس ، هو ابوالفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس الدمياطى ، كان كاتب الانشاء بالديار المصرية وهو شيخ القاضى الفاضل ، وكان الفاضل يسميه ذا البلاغتين ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٣ .

وانتعاش السكان بيافا وغيرها من مدن الساحل للصمود فى وجه الصليبيين الذين لم تنقطع غاراتهم عن مدن الساحل الفاطمية (١) .

أما الوزير الافضل بن بدر الجمالى فانه حين علم بما حصل من تاج العجم وتأخره عن نجدة بن قادوس ، أرسل من قبله من قبض عليه وحمله الى مصر ، وعين بدلا منه على الجيش الفاطمى بعسقلان قائدا آخر هو جمال الملك رضوان " وأسكنه بعسقلان وجعله متقدم العساكر الشمالية " (٢) . الا أن هذه الجيوش لم تستطع الوقوف فى وجه الصليبيين ، بل زادت من حدة وضراوة قتال الصليبيين الذين استولوا فى السنة التالية ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م على جبيل وعكا (٣) . وكان سقوط عكا بيد الصليبيين فى تلك السنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م فى عهد واليها زهر الدولة الجيوشى من قبل الفاطميين ، حيث عجز عن حرب الصليبيين ، فخرج منها الى دمشق ومكث بها مدة من الزمن سار على اثرها الى القاهرة (٤) . ولما وصل زهر الدولة الى القاهرة عاتبه الافضل بن بدر الجمالى على تسليم عكا ولامه على ذلك وكاد ان ينزل به العقوبة ولكنه قبل عذره فى تسليم البلد الى الصليبيين خصوصا اذا عرفنا ان صاحبه الخليفة الفاطمى الآمر باحكام الله لم يهتم بأمر الجهاد ضد الصليبيين على حد تعبير ابوالمحاسن " حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه " (٥) .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧ ، ابن القلانسى ، ص١٤٣ .
(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٦٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٢ ، والمقريزى يخالف ابن الاثير حول اسم القائد الذى ارسله الافضل خلفا لتاج العجم حيث ذكر المقريزى ان اسمه تاج الملك رضوان .
(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، ابن القلانسى ص ١٤٣-١٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٧٢ ، الازدى ، الدول المنقطعة قسم الفاطميين ص ٨٨ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ص ٩٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٠-١٨٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣٤ .
وجبيل : بلد مشهور الى الشرق من بيروت على بعد ثمانية فراسخ . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ٤٠ .
(٥) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٧٨ .

والواقع أن الافضل لم يستطع صبرا على مايجرى فى بلاد الشام وما حل بالمعاقل الفاطمية وسقوطها بيد الصليبيين ، وحيث انه لم يتخل عن فكرة ارسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من بلاد الشام فقد جهز الافضل سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م حملة عسكرية جعل عليها ابنه سناء الملك حسين مع عسكر كثيف يزيد عدده عن خمسة الاف فارس وراجل ، واستنفر معه العرب بجنوب فلسطين ولما وصل سناء الملك حسين بن الافضل الى عسقلان انضم اليه جمال الملك رضوان النائب بها حسب تعليمات الافضل . ولم يكتف الافضل بهذا ، بل طلب النجدة من ظهيرالدين طغتكين صاحب دمشق بسبب مابلغ الافضل من وصول العديد من مراكب الصليبيين الى ميناء اللاذقية ، بالاضافة الى مابلغه من شدة الحصار المفروض على طرابلس ، فلبى طغتكين النداء وأرسل الى الفاطميين أحد رجاله ومعه ألف وثلاثمائة فارس . ويبدو أن هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين (١) .

وعلى أية حال فان بلدوين الاول ملك بيت المقدس ، حين علم باجتماع المسلمين فى عسقلان ترك يافا وسار الى الرملة ليستطيع حماية يافا وبيت المقدس ، فالتقى بالمسلمين بين يافا وعسقلان فاستظهر الصليبيون على المسلمين ، وقتلوا والى عسقلان ، وأسروا بعض المقدمين ، وانهزم عسكر مصر الى عسقلان وعسكر دمشق الى بصرى (٢) . وكانت هذه آخر محاولة

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٩٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٢٦٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٩٥ ، المقريزى اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣٥ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ٢ ، ص ٤١ ، وذكر العظيمى (تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ) بان الغلبة لم تكن لاى من الطرفين .

- بصرى : من اعمال دمشق ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

قام بها الأفضل بن بدر الجمالي لاسترداد بيت المقدس وغيرها من المعاقل الفاطمية التي سقطت بيد الصليبيين ، وقف بعدها موقف المدافع عما تبقى بيد ولاة الفاطميين بالشام. ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان الافضل لم يستطع الحفاظ على ماتبقى من معاقل الفاطميين بسواحل بلاد الشام. اذ اتبع خطة في الدفاع عنها تختلف عن تلك التي اتبعها في مبدأ الامر، وتقوم هذه الخطة في أغلب الاحيان على ارسال الاساطيل المصرية المحملة بالمؤن والعتاد والذخائر لتقوية أصحاب البلاد الاصليين للدفاع عن بلادهم كما فعل مع أهل بيروت وصيدا سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩م (١) ، ولكن حين بلغه خبر حصار الصليبيين لبيروت وما حل بها من دمار أرسل حملة عسكرية صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ثلاثمائة فارس نجدة لاهلها ، الا أن هذه النجدة لم تصل الى بيروت ، اذ تعرض لها الصليبيون حيث نصبوا لها كمينا بالاردن ، ففرقوا شملها وتشتت أمرها (٢) .

وبالرغم من أن خطة الدفاع التي سلكها الافضل قد شجعت كثيرا من السكان على مواصلة القتال والوقوف بصلابة في وجه الصليبيين ، الا أنها لم تنجح في وقف الزحف الصليبي ، نظرا لعدم وجود تنسيق بين المدافعين أنفسهم ، وتأخر الاسطول المصري في الوصول الى بلاد الشام في بعض الاحيان نظرا لبعد المسافة بين مصر وبلاد الشام ، مما أدى الى انهيار قوة المدافعين ، كما حصل لاهل طرابلس سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩م تلك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٤٧٥-٤٧٦ ، ابن القلانسي ، ص ١٦٧ ، ١٧١ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣، ص ٤٥ - ٤٦ ، ابوالفداء ، المختصر ، جـ٢، ص ٢٢٤ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٧٠ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ٦ ، ص ٤٧٤ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٤٥ .

المدينة التي سقطت بيد الصليبيين بعد حصار لها دام أكثر من سبع سنين (١) .

وفي الحقيقة فان لجوء الأفضل بن بدر الجمالي الى تزويد المدن الساحلية بالمؤن والسلاح والعتاد بدلا من الحملات العسكرية لا يعني تخاذله عن جهاد الصليبيين ، ولكنه أدرك ما اتصفت به الاعمال العسكرية التي قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين من سوء النظام والاهمال وعدم تقدير خطورة الموقف . وقد ظهر ذلك بوضوح في الخلافات التي حصلت بين قادة الجيش الفاطمي ، فضلا عن سلوك قادة الاسطول ، وما اتصفوا به من الأنانية (٢) .

ولما لم يبق من المعاقل الفاطمية ببلاد الشام في أيديهم سوى صور وعسقلان ، فان الافضل لم يتهاون في أمر الحفاظ عليها ، حتى انه حين علم بمراسلة شمس الخلافة الوالي بعسقلان لبلدوين الاول ملك بيت المقدس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م عظم الامر عليه ، وأرسل حملة عسكرية الى عسقلان بقصد القبض على الوالي بها ، فتم ذلك وزال ما كان الافضل يخشاه من تسليم عسقلان الى الصليبيين (٣) .

كما أن الافضل بن بدر الجمالي لم يجد حرجا في السكوت حين سمع بتسليم صور من قبل عز الدين أنوشتكين صور الى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٨ أ ب ، ابن القلانسي ، ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٥ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٧٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٤٦ - ٥٠ .

سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢م نظرا لما كانت تمر به مصر من شدة اقتصادية نتيجة تفشى الوباء بها تلك السنة والسنة التى قبلها ، مما عرقل الافضل عن ارسال مايمكن ارساله من المؤن والذخائر . ويبدو أن الافضل رأى أن بقاء صور بيد المسلمين سواء الفاطميين أو غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين .
ومما يدل على ذلك أن الافضل بن بدر الجمالى جهز فى سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣م أسطولا الى صور محملا بالمؤن والميرة والعتاد فرخصت بها الأسعار وتحسنت أحوال سكانها " وزال طمع الافرنج عنها "(١) . وهكذا نجح الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى قطع الامل على الصليبيين فى الاستيلاء على صور بعد تسليمها الى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق الذى وافق من جانبه على بقاء الدعوة فيها للفاطميين . ويبدو أن ظهير الدين طغتكين قد أبقى الدعوة بصور للفاطميين بقصد الحصول من مصر على مايحتاجه من المؤن والذخائر التى كانت تصل الى مدن الساحل الشامى .

وفى الحقيقة أن ماسلكه الافضل بن بدر الجمالى فى سبيل المحافظة على صور وعسقلان ، قد أدى الى تنبيه الصليبيين عن خطورة الفاطميين وانه لابد من حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة ، من أجل عزل مصر عن بقية العالم

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٨١ - ١٨٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٩٨ ، ٦٢٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٥١ ، العظيمى تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٦ هـ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٧١ .

الاسلامى فى الشرق ، وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز (١) . ومن أجل تحقيق ذلك سعى بلدوين فى سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م الى تشييد حصن الشوبك ، ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه . ولم يقف بلدوين ملك بيت المقدس عند هذا الحد ، بل قام فى السنة التالية ٥١٠ هـ/١١١٦ م بحملة عسكرية مضى بها على ساحل خليج العقبة حتى وصل أيلة وبنى بها قلعة حصينة مكنته من السيطرة على طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام . كما شيد قلعة اخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة على خليج العقبة ، وبذلك تمكن الصليبيون من السيطرة على شبه جزيرة سيناء (٢) . ولما لم يكن أمام بلدوين الاول من وسيلة لوقف غارات الفاطميين على مملكته سوى مهاجمتهم فى عقر دارهم ، ليشعرهم بقوته ، فقد خرج على رأس قوة من رجاله فى سنة ٥١١ هـ/١١١٨ م ، وعبر الصحراء من غزة الى العريش حتى وصل الى الفرما فاستولى عليها واحرق مساجدها وكثيرا من بيوتها (٣) . ولكن أجله لم يمهله لمواصلة سيره داخل الاراضى المصرية ،

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٦٠ .
وحصن الشوبك: قلعة حصينة فى اطراف بلاد الشام بين عمان وأيله قرب الكرك . وأيله: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام ، وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١ هـ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٧١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ .
والفرما مدينة على ساحل البحر المتوسط من ناحية مصر ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وسواء جاء ذلك المرض لانه سبح فى النيل عند تنيس أم غير ذلك ، فقد توفى فى نهاية السنة ٥١١ هـ/١١١٨ م ، وحمله اصحابه حتى وصلوا به قرب بورسعيد ودفنوه فى المكان الذى يعرف باسم سبخة بردويل (١) .

وعلى أية حال فان حملة بلدوين الاول على مصر لم تؤد الى نتائج حاسمة بالنسبة للصليبيين ، بل على العكس فقد أيقظت الفاطميين وأشعرتهم بالخطر الصليبى على بلادهم ، ودفعت الوزير الافضل للعودة مرة أخرى لاعداد الحملات العسكرية وارسالها الى بلاد الشام ، كما ان حملة بلدوين الاول على مصر قد حملت الافضل بن بدر الجمالى على التحالف بصورة واضحة مع حكام دمشق السنيين . ففى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م جهز الافضل بن بدر الجمالى حملة عسكرية قوامها سبعة الاف فارس سارت الى عسقلان بقصد تعقب رجال بلدوين . ولكن هذه الحملة لم تستطع اللحاق بالصليبيين فبقيت العساكر الفاطمية فى عسقلان بانتظار التعليمات الواردة من الوزير الافضل . ولما كان الافضل قد اتصل بطغتكين من أجل الوقوف سويا فى وجه الصليبيين ، فقد وافق طغتكين وحضر بنفسه الى عسقلان ، وعندئذ أخبره قائد الحملة الفاطمية بأن لديه تعليمات من الافضل بالوقوف عند رأيه - أى طغتكين - والتصرف بامرته (٢) ولكن القوات المشتركة بقيادة طغتكين لم تستطع لقاء الصليبيين ولم تقم بأى عمل عسكرى بل رابطت مدة شهرين فى عسقلان عاد بعدها طغتكين الى دمشق

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٤٣ ، ابن القلانسى ، ص ١٩٩ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٧١ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٩ .
- وتنيس جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر مابين الفرما ودمياط ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٤٣ ، ابن القلانسى ، ص ١٩٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

والفاطميون الى مصر (١) .

كان هذا آخر ماقام به الافضل بن بدر الجمالى فى سبيل وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام ، ذلك ان العلاقات بينه وبين الخليفة الآمر الفاطمى قد توترت ، وتعرض الافضل لبعض الفتن الداخلية ، تلك الفتن التى صرفته عن الاهتمام بأمر الصليبيين فى بلاد الشام (٢) .

ولما كان الافضل بن بدر الجمالى قد لجأ الى محاولة التحالف مع حكام دمشق السنيين لوقف زحف الصليبيين ، فقد أغضب ذلك الخليفة الامر وغلاة الشيعة بمصر ، مما أدى الى قيامهم بتدبير قتله بيد بعض الباطنية الذين كانوا " يكرهونه لاسباب منها : تضييقه على امامهم .. وترك معارضة أهل السنة فى اعتقادهم والنهى عن معارضتهم ، واذنه للناس فى اظهار معتقداتهم والمناظرة عليها " (٣) .

وبمقتل الوزير الافضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ/١١٢٢ م تخلص الخليفة الآمر من القيود التى كانت مفروضة عليه وبدأ فى تحقيق طموحه لا من أجل جهاد الصليبيين وانما من أجل الحد من نفوذ الوزراء العظام ، فاختار فى وزارته بعد مقتل الافضل ، أبو محمد عبد الله البطائحى ، واستبد الخليفة الآمر بالأمور عنه (٤) . أما الخطوة التالية التى اتخذها الخليفة الآمر ووزيره

---

(١) ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ٢، ص ٣٤ ، ابن العماد الحنبلى ، الانس الجليل ، جـ١ ، ص ٣٠٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٥٩٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ٥٧ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٥٩٠ ، انظر ابن القلانسى ، ص ٢٠٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥، ص ٢٢٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣، ص ٦٠ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦١ ،

(٤) ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢، ص ٧٣ .

المأمون البطائحي ، فهي العمل على التخلص من سيف الدولة مسعود الوالي بمدينة صور من قبل ظهير الدين ظفتكين . ففي سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢م وردت الى مصر عدة شكايات من أهل صور ضد واليهم سيف الدولة مسعود . فما كان من الخليفة الامر ووزيره المأمون البطائحي الا أن سيرا أسطولا محملا بالمؤن والعتاد بقيادة وحشي بن طلائع ومعه التعليمات بالقاء القبض على الوالي بصور ، وارساله الى مصر ، فقبض عليه واحضره الى القاهرة (١) وعلى ما يبدو فقد شعر الخليفة الامر ووزيره المأمون البطائحي بنوع من الحرج تجاه رعاياهما الذين كانوا قد تعودوا من الوزير السابق الافضل بن بدر الجمالي سماع أنباء الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في بلاد الشام ، فما كان منهما الا أن أمرا بتجهيز حملة عسكرية في السنة التالية ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م في عسقلان لحصار الصليبيين في يافا في الوقت الذي سيرا فيه الاسطول بالبحر . ولكن هذه الحملة لم تستطع النيل من الصليبيين (٢) .

أما بالنسبة للصليبيين في هذه المرحلة فانهم حين سمعوا بخروج سيف الدولة مسعود من صور الى مصر واعتقاله هناك تحرك فيهم طمع الاستيلاء عليها وحدثوا انفسهم بتملكها " وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها " في سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م (٣) . فلما أحس الوالي بها الاعز بن اللبان بالخطر الصليبي أرسل الى الخليفة الامر بأحكام الله يخبره بحقيقة الامر وما هو فيه من قلة الرجال والسلاح ، وأشار عليه بأن ترد ولاية صور الى ظهير الدين

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٩٦ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٩ ، العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية ، ص ١٩١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢١ .

طغتكين " فاقتضى الرأى ان ترد ولاية صور الى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها "(١).

وافق ظهير الدين طغتكين ان ترد ولاية صور اليه ولكنه ندب لولايتها جماعة لاغناء لهم ولاكفاية فيهم ولاشهامة ، ففسد أمرها ، فى الوقت الذى وجد فيه الصليبيون الفرصة سانحة لمواصلة حصارها . وحاول طغتكين رفع الحصار عنها بمهاجمة ممتلكات الصليبيين فى بانياس وغيرها ، غير ان من بصور من المسلمين لم يتمكنوا من الدفاع عنها وضعفت نفوسهم عن مقاومة الصليبيين مما اضطر ظهير الدين طغتكين الى مراسلة الفاطميين فى مصر لطلب المساعدة ولكنهم لم يستجيبوا له (٢) . ويبدو أن عدم استجابة الفاطميين لنداء ظهير الدين طغتكين هو انشغالهم باخماد الفتنة التى قام بها بعض المناوئين فى صعيد مصر فى ذلك الوقت ، وانشغال الاسطول المصرى بالدفاع عن ثغر الاسكندرية سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م الذى تعرض لحملة بحرية قام بها البنادقة (٣) . بالاضافة الى عدم مبالاة الخليفة الامر بجهاد الصليبيين فى بلاد الشام.

وعلى أية حال فقد أدى عدم ارسال الفاطميين نجدة للوالى بصور الى مراسلته لظهير الدين طغتكين يعرض عليه تسليم صور الى الصليبيين على ان يسمحوا لمن بها من الجند والرعية بالخروج منها وحمل مايمكن حمله من اموالهم وامتعتهم فاستقر الرأى على ذلك . وأرسل ظهير الدين طغتكين الى الصليبيين بشأن تسليم صور اليهم واعطاء الامان لمن بها من المسلمين فوافق الصليبيون على ذلك وفتحت صور ابوابها للصليبيين فى اليوم الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م وانتهى الامر الى خروج اهلها وتفرقهم فى البلاد (٤).

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢١١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢١-٦٢٢ الازدى ، الدول المنقطعة قسم الفاطميين ص ٨٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ٨٦ .

(٢) ابن القلانسى ص ٢١١ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١٨ هـ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ، ورقة ٢٠٦ أ ، ابن القلانسى ص ٢٠٩-٢١١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٦٢٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٠٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ، ص ٢٣٧ ، ابوالمحاسن ، جـ ٥ ، ص ٢٢٨ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

لم يؤد سقوط صور بيد الصليبيين الى رد فعل حاسم من قبل الفاطميين بسبب اهمال الخليفة الآمر لأمر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بالشام بالاضافة الى الانقسام الداخلى فى صفوف الفاطميين . ففى بداية سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م قبض الخليفة الامر على وزيره المأمون البطائحى وقتله (١) .
ويبدو أن سبب القاء الخليفة الآمر القبض على وزيره البطائحى انما كان بسبب انتفاضة بعض الرعايا المصريين الذين اتهموا الآمر بالتهاون فى أمر الجهاد فجعل مرد هذه الانتفاضة الى وزيره البطائحى ، بدليل استبداده بالامور واستعانته ببعض العناصر من غير المسلمين كبهرام الارمنى . (٢)

وهكذا يمكن القول أن الدولة الفاطمية قد أسهمت بدور فعال فى جهاد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية ولكن هذا الدور لم يؤد الى وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام حيث لم يبق من معاقلهم فى بلاد الشام سوى عسقلان التى ظل الفاطميون يتشبثون بها حتى سقطت هى الاخرى بيد الصليبيين سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه لا يمكن لأحد انكار فضل الفاطميين فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، ولكن عدم نجاح الفاطميين فى الحفاظ على معاقلهم فى بلاد الشام قد أسدل الستار على دورهم فى جهاد الصليبيين بالاضافة الى أن هناك عدة عوامل حدت من نشاط وفعالية الفاطميين فى صد الصليبيين ويمكن تلخيصها فيما يلى :

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .
(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٩٣ .

أولا : عدم ادراك الفاطميين لطبيعة الحركة الصليبية ، ومثلهم مثل السلاجقة فى شمال الشام ، وهذا بالتأكيد من أبرز العوامل التى دفعت الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى الى اجراء مفاوضات مع الصليبيين بأنطاكية سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ، الامر الذى جعل الفاطميين يتخبطون فى سياستهم الحربية ضد الصليبيين فيما بعد .

ثانيا : ضعف الخلافة الفاطمية عند قدوم الصليبيين الى بلاد الشام وماكانت تمر به من الازمات السياسية والاقتصادية ، وانتشار الاوبئة ، بالاضافة الى النزاع الذى كان ينشب بين طوائف الجيش كطائفة السودان والاتراك ودور الخلفاء الفاطميين فى تأجيج الازمات تلك كالاستعانة بطائفة ضد أخرى .

ثالثا : تقاعس الفاطميين عن الاستعانة بالسلاجقة ، بسبب وجود العداء المذهبى بين الطرفين ، الامر الذى دفعهم احيانا الى استغلال هذا العداء المذهبى الى الانقضاض على بعض ماكان بحوزة السلاجقة من المعاقل . وهذا بالتأكيد مادفع بعض المؤرخين الى اتهام الدولة الفاطمية بأنها كانت وراء وصول الصليبيين الى الشام.(١)

رابعا : وقوف الخلفاء الفاطميين كالمستعلى والامر كحجر عثرة فى وجه المتحمسين من الوزراء لجهاد الصليبيين كالوزير الافضل بن بدر الجمالى الذى كان قد حمل على عاتقه مهمة جهاد الصليبيين .

خامسا : تعيين قادة غير أكفاء لقيادة الجيوش الفاطمية التى كانت تسير الى بلاد الشام ، الامر الذى أدى الى سوء النظام وعدم تقدير خطورة الموقف مما كان سببا فى وقوع الهزائم على الجيوش الفاطمية ، هذا فضلا

---

(١) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٧٣ .

عن طول المسافة بين مصر والشام مما كان عائقا من العوائق التى حدت من نشاط الفاطميين للوقوف فى وجه الصليبيين (١) .

- بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى :

من الحقائق المسلم بها فى تاريخ الحركة الصليبية ، ان حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين انبعث لأول مرة فى بلاد الشرق الاسلامى من منطقة الجزيرة (٢) . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه على الباحث هو لماذا انبعثت فكرة الجهاد الاسلامى من منطقة الجزيرة دون غيرها من بلدان الشرق الاسلامى ؟ . وقبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء نظرة على خريطة الشرق الاسلامى لمعرفة الدول والامارات الاسلامية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، مع شرح أهم الاسباب التى حالت دون قيام أى من بلدان الشرق الاسلامى بحمل لواء الجهاد الاسلامى لأول مرة ضد الصليبيين .

فالخلافة الفاطمية فى مصر كما رأينا فى الصفحات السابقة ، قد أصابها الضعف والانهيار ، وبذلك لم يصبح بمقدورها حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين ، بعد ان فقدت كل أسباب القوة والمنعة ، ودخلت مرحلة الشيخوخة والتدهور ، بالاضافة الى أنها لم تعانى من خطر الصليبيين فى عقر دارها ، بعكس السلاجقة الذين فوجئوا بسقوط أنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٦٥-١٩٥ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ، على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ص ٢٩٤-٢٩٧ .

(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١ ، وبلاد الجزيرة تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مضر وديار بكر ، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهرى دجلة والفرات . وتمتاز منطقة الجزيرة بانها صحية الهواء جيدة الريع والنماء ، واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة . انظر ابوالفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

فى أيدى الصليبيين . كما أن المحاولات التى قام بها الوزير الافضل بن بدر الجمالى لوقف الزحف الصليبى على بلاد الشام لم تؤد الى نتيجة ولا تعدو أن تكون أشبه بصحوة الموت التى تسبق القدر المحتوم[1] . ولم تقل الخلافة العباسية فى العراق ضعفا وخورا عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، بل انها أشرفت على السقوط فى منتصف القرن الخامس الهجرى- الحادى عشر الميلادى - أمام حركة البساسيرى التى ساندها الفاطميون ، لولا دخول السلاجقة الى العراق وانقاذ الخلافة من السقوط . واصبح بقاء الخلافة العباسية لا يعدو كونه شكلا لا معنى له ، فقد جردها السلاجقة من أى قوة حقيقية ، وأضحت خاضعة لهم ، رغم تفكك وحدتهم عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، ولم يعد فى استطاعة اى من الخلفاء العباسيين جمع كلمة المسلمين وحمل راية الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام[2] .

أما عن السلاجقة فى فارس وخراسان فقد كانوا مشغولين عن واجب الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بسبب الانقسام والتفكك الذى حدث بين أبناء السلطان ملكشاه وظل العداء وسوء العلاقات مستحكما بين أمراء البيت السلجوقى ، الامر الذى حال دون قيام دولة السلاجقة بفريضة الجهاد ضد الصليبيين ، بالاضافة الى ان السلاجقة فى ايران كانوا فى منأى عن الامارات الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة وهذا على ما يبدو قد برر لهم العذر فى عدم مشاركتهم للاراتقة وغيرهم عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[3] .

---

(١) انظر ماسبق ،ص

(٢) انظر ماسبق ، ص

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١ ،ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ،عبدالنعيم حسنين ،سلاجقة ايران والعراق ،ص ٨٣ - ٨٥ .

أما عن بلاد الشام وماكان يمكن أن تقوم به فى سبيل حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فان النزاع الذى كان قائما فيها بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السنيين قبيل الحملة الصليبية الاولى أصبح أكبر عقبة أمام توحيد الجبهة الاسلامية هناك . يضاف الى ذلك ماقام بها من نزاع بين الاخوين دقاق ورضوان ابنى تتش اللذين اتخذا من دمشق وحلب مركزين لاثارة الفتن والشقاق فى بلاد الشام (١) . فضلا عن ان بلاد الشام كانت تزخر بالعديد من الامارات كامارة بنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر تلك الامارات التى كانت تحرص على بقائها اكثر من حرصها على الانضمام لاى من القوى الاسلامية التى تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين .

وهكذا لم يبق من أقطار المشرق الاسلامى من هو أقدر على بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين سوى منطقة الجزيرة ، وذلك للاسباب التالية :

أولا : أن منطقة الجزيرة اول أقطار المسلمين فى المشرق الاسلامى التى اكتوت بنار الخطر الصليبى عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الامارات الصليبية سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ م ، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين فى بلادهم ، مما بعث المسلمين على التفكير الجدى فى المبادرة الى مهاجمة الصليبيين .

ثانيا : ان منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الاسلام بسبب مجاورتها لاطراف الدولة البيزنطية ، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين ايام الامويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الاول عن ثغور المسلمين ضد الروم ، وبعد الغزو الصليبى اصبحت منطقة الجزيرة تواجه امارة الرها الصليبية التى شكلت اكبر خطر على الخلافة العباسية فى بغداد (٢) .

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢ .
(٢) عبدالمنعم ماجد ، العلاقات ا بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص١٥٣ .

ثالثا : شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى دخول الاتراك السلاجقة اليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة ، وتعصبهم الشديد للمذهب السنى .وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة الحماسة الى الجهاد فى سبيل الله ،بعكس القوى الاسلامية الاخرى فى بلاد الشرق الاسلامى التى خبت جذوة الحماس الدينى فى نفوسها وخمدت روح القتال لديها (١) .

رابعا : الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التى حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه ، وخصوبة الارض، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعى اللازمة للخيل والماشية ، الامر الذى مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفذ من المؤن والعتاد . هذا فضلا عن الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التى انطلقت منها حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، مثل الموصل ، وآمد ،وماردين ، وحصن كيفا وغيرها ،اذ أن تلك المدن التى امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمرا بالغ الصعوبة ، وبالتالى اصبحت فى مأمن من الهجمات الصليبية المضادة ، ولا يستبعد ان يكون قد اختمر فى نفوس زعماء حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى مايمثله وجود امارة الرها الصليبية فى منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزهم بالاضافة الى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوبا للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد .

من هنا فلا غرو أن تنبعث فكرة الجهاد الاسلامى من منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من ايدى الصليبيين . وقد اتخذت الفكرة مظهرها العملى منذ

---

(١) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ،ص ٢٢-٢٣ ، عماد الدين خليل ،الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ،ص ٢٠١ .

سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م حين قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع انطاكية من السقوط بيد الصليبيين ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية ، وقد تم لهم ذلك " ولو أن كربوقا أنفذ الى أنطاكية مباشرة لاسلمة ياغي سيان مدينة أنطاكية ، وتغيرت ظروف المحاصرين "(١) . ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين ، وعبر الفرات الى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق ، وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس ، وغيرهم من الامراء ممن ليس مثلهم في القدرة والكفاية على حد قول ابن الاثير(٢) . وانضم الامراء جميعا تحت قيادة كربوقا ، وسار بهم صوب أنطاكية في سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م التي كانت قلعتها لاتزال في أيدي المسلمين ، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم ، اذ وجدوا انفسهم محاصرين من الداخل والخارج ، فتعرضوا لازمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم الى أكل الجيف وأوراق الشجر(٣) . ودفع ذلك الصليبيين الى ارسال وفد الى كربوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من انطاكية ، غير ان كربوقا رفض طلبهم وقال لهم : "لا تخرجون الا بالسيف "(٤) . وهذا مادفع احد رجال الدين المسيحيين

---

(١) مؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشي ص ٧١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٧٦ ، انظر مكسيموس موندوند ، من تاريخ الحروب الصليبية جـ١ ص ١١٦ .

وعن سنجار انظر مايلي ص حاشية

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٢٧٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٣٦-١٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٥٥ ، ابن خلدون العبر ، جـ٥ ص ١٩-٢٠ ، مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ، جـ١ ص ١١٧ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٢٧٦ ، انظر ابن الوردي تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص ١٩ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٦ .

واسمه بطرس بورثلميوا الى اختلاق قصة الحربة المقدسة التى أدت الى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم ، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين " وهم فى الغاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم "(١) .

وهكذا فشل كربوقا فى قيادة التحالف الاسلامى الذى أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية فى ايدى الصليبيين سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م . ويمكن أن نتساءل عن أسباب فشل كربوقا فى منع سقوط انطاكية فى ايدى الصليبيين فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد وصلوا الى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية . وللاجابة على هذا السؤال يمكن تركيز اسباب الفشل فيما يلى :

أولا : ماذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع فى حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية ، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية او من اخوانهم فى بلاد الشام وغيرها (٢).

ثانيا : عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التى تكونت من العرب والترك وغيرهم ، ثم ماقام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ص ١٣٦ ، انظر مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص ١٨٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ، ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ص ٢١١ .
أما الحربة المقدسة : فهى حربة يزعم الصليبيون كذبا بان المسيح طعن بها حين رفع على خشبة الصليب . انظر اعمال الفرنجة ، ص ١٨٢ ، ومكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب الصليبية المقدسة ، جـ ١ ، ص ١٢٢-١٢٤ .

(٢) مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص ٧٠ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥-٢٧٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ ، وانظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

ثالثا : عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا ، ولعل أبرز مايوضح ذلك هوعدم رغبة كربوقا فى السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية . وهذا يعود الى أن كربوقا كان يخشى على مايبدو من أنه اذا فعل ذلك فسوف لا يقضى الا على مقدمة الصليبيين (١) .

رابعا : سوء معاملة كربوقا لمن معه من الامراء ، كانت سببا من أسباب هزيمته وفشله ، فقد شعر بنوع من الاستعلاء عليهم " ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال " مما ادى الى استيائهم من تصرفاته (٢) .

خامسا : ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة ، بالاضافة الى ماقام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا الى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق واخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ماكان بيد الامبراطور البيزنطى فى شمال الشام (٣) .

ولا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين فى حالة اتحادهم ، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الاسلامى ، ليكملوا المسيرة من بعده . وتتمثل هذه

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١، ص ٣٥٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل، جـ ١٠ ص ٢٧٧ ، انظر ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر، جـ ٢، ص ٢١١ ، الذهبى ، دول الاسلام، جـ ٢، ص ١٩-٢٠ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر ماسبق ، ص

الحقيقة اذا ماعلمنا أن عماد الدين زنكى قد عاش فى كنف كربوقا بعد موت والده (١) ، على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته منيته عند مدينة خوى بأذربيجان سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م أثناء النزاع بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه ، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين (٢) .

وفى الواقع أن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين لم تنطفىء فى منطقة الجزيرة بموت كربوقا فقد كان فى جزيرة ابن عمر أحد قادة الاتراك السلاجقة ويدعى شمس الدولة جكرمش ، من مماليك السلطان ملكشاه وكان فى طاعة كربوقا (٣) . فلما توفى كربوقا استطاع جكرمش الاستيلاء على الموصل سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م . ونشب النزاع بين قادة وأمراء السلاجقة مع ما أصاب المسلمين من تمزق فى الشام والجزيرة (٤) . من هنا رأى الصليبيون ان الفرصة سانحة للانقضاض على المسلمين والاستيلاء على حران ، نظرا لاهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل الى بغداد وقلب العالم الاسلامى فى المشرق وقطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس عن اخوانهم فى الشام والجزيرة فضلا عن أن سقوط حران بأيديهم سيعطيهم فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتامين الرها ، والسيطرة على اقليم الجزيرة (٥) .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥-١٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧ . ولمزيد من التفصيل انظر ابراهيم خليل كربوقا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى العدد الخامس طبعة الكويت ص ٩٥-١١١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٤١ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ص ٢٥ ، وخوى بلد مشهور من اعمال اذربيجان كثير الخيرات والفواكه .. انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٥٩ ، ٣٤٢-٣٤٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢١٥ ، انظر رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٧٠

(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٩١ .

واستغل الصليبيون النزاع الذى نشب بين جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين ، فضلا عما يدور فى حران نفسها من النزاع بين بعض الزعماء المحليين (١) . وسار الصليبيون الى حران ومعهم كل من بلدوين الثانى صاحب الرها - الذى أصبح فيما بعد ملكا لبيت المقدس - وبوهمند الثانى صاحب أنطاكية ومعه تانكرو . الامر الذى ازعج كلا من جكرمش وسقمان بن أرتق وجعلهما يتناسيان مابينهما من حزازات قديمة ويتفقان على مقاومة الصليبيين . والتقى الاميران المسلمان عند راس العين على نهر الخابور فى اوائل شعبان سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م ، وكان مع سقمان سبعة الاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة الاف فارس من الترك والعرب والاكراد (٢) . وتوجه جكرمش وسقمان لمهاجمة الرها والنيل منها ولكن بلدوين الثانى صاحب الرها أدرك خطر المسلمين على الرها ، فطلب من أصحابه التقدم صوب حران فتقدموا اليها وضربوا عليها حصارا كاد يؤدى الى سقوطها فى أيديهم . ولكن الخلف الذى وقع بين زعماء الصليبيين حال دون سقوط حران ، حتى وصلت الجيوش الاسلامية التى عدلت عن المسير الى الرها ، فدارت بين الطرفين رحى معركة عنيفة عند نهر البليخ ، وهو أحد روافد نهر الفرات ، فانهزم الصليبيون ووقع بلدوين صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر فى أسر المسلمين وبلغ عدد القتلى من الصليبيين أكثر من عشرة الاف فارس (٣) . وفر بوهمند صاحب انطاكية بمن سلم معه من رجاله " فكان نصرا حسنا للمسلمين لم تيهيأ مثله وبه ضعفت نفوس الافرنج " (٤) .

---

(١) ابن الاثير ، جـ ١٠ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٧٤ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٤٨ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، جـ ٢ ص ٢٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .

(٤) ابن القلانسى ص ١٤٣ .

وترتب على هزيمة الصليبيين فى معركة حران نتائج بالغة الأهمية منها ماذكره ابن القلانسى ايضا من انها أدت الى تقوية نفوس المسلمين فى نصرة الدين ومجاهدة الملحدين (١) ، كما برهنت هذه المعركة على خطأ الاسطورة القائلة بان الصليبيين قوة لاتقهر ، يضاف الى ذلك أن معركة حران حددت زعامة تانكرد ابن أخت بوهمند على بقية الامارات الصليبية فى شمال الشام ، لان بلدوين الثانى صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر قد وقعا فى أسر المسلمين وسار بوهمند الى أوربا يتجرع مرارة الهزيمة بحران . ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أفادوا من هزيمة الصليبيين اذ أن الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين كان يتطلع فى غضب لما يجرى بشمال الشام ولم يأسف لما سمعه من هزيمة الصليبيين . كما تجدر الاشارة الى أن موقعة حران أوقفت تقدم الصليبيين فى منطقة الجزيرة وشمال الشام ، وقضت على رغبة بوهمند فى ان يجعل من انطاكية مملكة صليبية كبيرة ، وأنقذت حلب من مطامعه . ومن أهم نتائج معركة حران ايضا انها قضت على مطامع الصليبيين بقطع الصلة بين القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب (٢) .

وعلى الرغم من ان الصليبيين قد توقفوا فى توسعهم نحو الشرق عقب موقعة حران ، الا ان التحالف الذى انعقد بين سقمان بن ارتق وجكرمش لم يعش طويلا ، حيث وقع الشقاق بينهما بعد احراز النصر فى حران . ذلك

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٧٤ - ٧٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ٤٥٠ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

أن طوائف التركمان الذين كانوا مع سقمان قد حصلوا على معظم الاسرى والغنائم التى استولوا عليها عقب هزيمة الصليبيين ، فاشتعلت نار الحقد فى نفوس اصحاب جكرمش وقالوا له : " اى منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان اذا انصرفوا بالغنائم دوننا ؟ " ولم يقفوا عند هذا الحد بل انهم حسنوا لصاحبهم جكرمش اختطاف بلدوين الثانى صاحب الرها من أسر رجال سقمان بن أرتق . وتحت الحاحهم سمح جكرمش لبعض رجاله باختطاف بلدوين صاحب الرها من أسر رجال سقمان . ولما علم سقمان بهذا ثارت ثائرته وشق عليه الامر ، غير انه أظهر من ضبط النفس ما جعله يقول : " لا أوثر شفاء غيظى بشماتة الاعداء بالمسلمين " فانسحب الى ماردين واستولى على كثير من حصون ديار بكر ، أما جكرمش فقد سار الى حران وأناب فيها احد اصحابه ، ثم توجه الى الرها وحاصرها مدة خمسة عشر يوما عاد بعدها الى الموصل (١) .

وهكذا حقق جكرمش وسقمان بن أرتق للمسلمين اول نصر حاسم على الصليبيين ، وفتحا به الطريق لظهور قيادات واحلاف اسلامية وجهت الضربات المتتالية للصليبيين فى الشام والجزيرة ومنعتهم من تحقيق مطامعهم . ففى سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م تحالف سقمان بن أرتق مع سالم بن بدر العقيلى صاحب قلعة جعبر ، ونجحا فى صد الصليبيين عنها (٢) وتشجع سقمان بن ارتق على الدخول فى محالفات مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ضد الصليبيين ولكنه ذهب ضحية محاولاته ، حيث توفى فى السنة التالية ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م عندما

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٥ ، انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢١٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢١٨ .

كان فى طريقه الى بلاد الشام لنجدة ابن عمار صاحب طرابلس ضد الصليبيين(١). أما جكرمش صاحب الموصل فقد ذهب ضحية الفتن والقلاقل التى كانت قائمة بين السلاجقة ذلك ان السلطان محمد بن ملكشاه قد استاء من بعض تصرفات جكرمش فأقطع احد مماليكه ويدعى جاولى سقاوة الموصل وديار بكر والجزيرة كلها وطلب منه المسير الى تلك البلاد . فلما وصل جاولى الى مقربة من الموصل سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م لقيه جكرمش ودارت بين الطرفين معركة ، وقع فيها جكرمش أسيرا فى يد جاولى فقتله واستولى على الموصل من زنكى بن جكرمش(٢). غير أن أمره لم يطل بالموصل ، فقد أساء السيرة فى الرعية ، ولم يقم بواجب الطاعة وتقديم المساعدة للسلطان محمد بن ملكشاه . ولم يكتف بهذا ، بل أطمع بعض أعداء السلطان فى الخلاف والعصيان ، مما اثار عليه حقده ، فطلب من بعض قادة الاتراك التوجه الى الموصل بزعامة مودود بن التونتكين فتوجهوا اليها وشددوا الحصار عليها حتى استولوا على الموصل فى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م . فلما تم لهم ذلك ولى عليها السلطان محمد بن ملكشاه مودود الذى اصبح أحد زعماء المسلمين بما حققه من بعث لفكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وما سعى اليه من محاولة توحيد قوى الشام مع الجزيرة للوقوف فى وجه الصليبيين (٣) . وعلى ما يبدو فان شرف الدولة مودود ابن التونكتين كان مولى من موالى السلطان محمد بن ملكشاه الذى أسند اليه ولاية الموصل ، وجعله أتابكا لولده مسعود بن محمد . ومودود من أصل تركمانى كان فى بادىء أمره شديد العسف بالرعية . ولكنه شعر ان تلك السيرة غيرت نية السلطان فيه ، فعدل عنها وحسنت أفعاله واظهر العدل

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الاول ص

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٠٠ هـ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ص ٤٢٢-٤٢٣ ، ابن القلانسى ، ص ١٥٦ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٤٥٧ - ٤٥٩ ، ابن القلانسى ، ص ١٦٠ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ١٨٠ .

والانصاف في رعيته (١) .

ولما استقر مودود في حكم الموصل والبلاد التابعة لها سعى الى تحقيق مافشل فيه كل من جكرمش وجاولي من توطيد العلاقات بالسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه ، وسعى الى تحقيق رغبة السلطان في كل مايطلبه منه . ففي سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م تلقى مودود نداء من السلطان يدعوه الى القيام بجهاد الصليبيين والابتداء بالرها . وزوده بعدد من قادة الاتراك وانضم اليهم نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين ، فلما اجتمعوا ساروا الى سنجار وفتحوا عدة حصون للصليبيين حتى وصلوا الرها فأحكموا الحصار عليها ، غير أنهم رحلوا عنها من غير أن يملكوها (٢) .

ويبدو أن انسحاب مودود عن الرها على الرغم من قوة المسلمين انما كان بهدف ملاقاة الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بتحريض من ملك بيت المقدس، وقصدوا عبور الفرات الى الرها وحران . غير أن زعماء الصليبيين لم يستطيعوا عبور الفرات لتقديم النجدة العسكرية لاخوانهم في الرها ورأوا ان العودة الى بلاد الشام أفضل من المضي قدما في ميدان مكشوف ، حتى لا يصيبهم ما أصاب اخوانهم سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م في موقعة حران . فعادوا الى الشام ، وفي طريق عودتهم اخذوا في تخريب البلاد الاسلامية التابعة لحلب ، ولم يكتفوا بهذا بل فرضوا على رضوان صاحب حلب مبلغ عشرين الف دينار وعشرة رؤوس من الخيل مع تقديم المؤن والعتاد للصليبيين بالرها (٣) .

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، ابن القلانسي ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٥، ص ٢٠٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥، ص ٢٠٧ .

(٢) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٤٨٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٥٢ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٤٥٤-٤٥٥ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٦٩-١٧٠ ، ابن الاثير، الكامل جـ١٠ ص ٤٨٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٥٦ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق ١ ، جـ ٨، ص ٣١ .

أما الجيوش الاسلامية بقيادة مودود فقد عادت الى حصار الرها للمرة الثانية سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م ولم تستطع اقتحامها بسبب ما وصلها من الذخائر والمؤن والامتعة من الصليبيين ، مما اضطر المسلمين الى الرحيل عنها ، ولم يبلغوا غرضا ، ولكنهم ساروا فى ملاحقة الصليبيين العائدين الى بلاد الشام ولما لم يلحقوا بهم فقد حاصروا تل باشر مدة خمسة عشر يوما بدون طائل . عندها عاد مودود وقادة السلاجقة الى بلادهم ، بينما سار ظهير الدين طغتكين الذى قدم من دمشق لمساعدة مودود الى بلاده خوفا من ان يغدر به الصليبيون هناك . ويشير ابن القلانسى الى أن تفرق الجيوش الاسلامية سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م ورفعها الحصار عن الرها كان بسبب الخلاف الذى حصل بين بعض قادة الاتراك السلاجقة ونجم الدين ايلغازى صاحب ماردين (١) .

وعلى الرغم من ان الحملة التى قادها مودود ضد الصليبيين سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م لم تؤد الى سقوط بعض معاقل الصليبيين بيده ، الا انها كانت علامة واضحة على مواصلة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين الذى انطلق من منطقة الجزيرة ، كما أدت الى توطيد عرى الصداقة بين شرف الدولة مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وشجعت القوى الاسلامية على التحالف فى جبهة واحدة ضد الخطر الصليبى المتزايد (٢) . فبعد تفرق الجيوش الاسلامية فى حملة مودود الاولى التى قام بها ضد الصليبيين زادت اطماع الصليبيين فى التضييق على المسلمين فى بلاد الشام وفرضوا على حلب مالا طاقة لزعيمها رضوان بدفعه ، واستولوا فى

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٧٠ ، انظر ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٧ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ ٤، ص ٤٨٧ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٧٠ .

سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م على قلعة الاثارب التابعة لحلب(١) . واستاء المسلمون من هذه الاوضاع المتردية ، وارتفعت الاصوات تنادى بالجهاد ولما لم يكن هناك من القادة المسلمين من يستطع تلبية داعى الجهاد سوى شرف الدولة مودود فقد لبى النداء وخرج فى نفس السنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠م بمن معه من المسلمين من الموصل ووصل اليه عدد من الامراء السلاجقة الاراتقة بارض حران فى المحرم من سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١م(٢) .

وعزم الامراء المسلمون بقيادة مودود على عبور الفرات والمسير الى بلاد الشام ، حيث وصلتهم بحران اخبار من صاحب شيزر باستعدادات الصليبيين فساروا ونزلوا على تل باشر ، فوصلهم هناك برسق بن برسق صاحب همزان وأخذوا فى تشديد الحصار على تل باشر ، غير ان جوسلين استغل الخلافات القائمة بين بعض الامراء المسلمين فتقدم الى احمديل الكردى صاحب مراغة ولاطفه بمبلغ من المال ، حتى ثنى عزمه عن مواصلة الجهاد ، ورغبه فى العودة الى بلاده وظل به حتى اقتنع وعاد (٣) . أما من بقى من المسلمين مع مودود على نية الجهاد فانهم رأوا الاستعانة برضوان صاحب حلب . غير انه لم يلتفت اليهم ولم يكتف بهذا بل غلق أبواب حلب فى وجوههم ، وسمح لرجاله بتعقب اطراف الجيش الاسلامى . ولكن هذا لم يثن عزم مودود ومن بقى معه من المسلمين عن مواصلة الجهاد ، فساروا حتى وصلوا الى معرة النعمان ، حيث انضم اليهم هناك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . غير ان انضمام

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨١ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٧٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

- ومراغة : بلدة مشهورة بأذربيجان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

طغتكين اليهم لم يؤد الى نتيجة ، بل كان عاملا من عوامل تفرق هذه الحملة فقد اطلع فى معرة النعمان على فساد نيات بعض العساكر الاسلامية فلم يحتمل صبرا على هذا بل سعى الى مهادنة الصليبيين سرا . وعلى ما يبدو فقد لجأ الى ذلك خوفا من ان يتعرض له الصليبيون اثناء عودته الى دمشق . أما بقية القوات فقد تفرقت أيدى سبأ (١) . وسار مودود ومعه طغتكين من معرة النعمان الى نهر العاصى مما يدل على رغبة زعماء الجزيرة فى نقل المعارك مع الصليبيين الى بلاد الشام (٢) .

ووجد الصليبيون الفرصة سانحة للانقضاض على قوات مودود وطغتكين بعد تفرق بقية قوات الجزيرة ، فاجتمعوا فى افامية بقيادة تانكرو صاحب انطاكية ومعه بلدوين ملك بيت المقدس وبلدوين صاحب الرها وعزموا على المسير الى غرب نهر العاصى بقصد لقاء المسلمين الذين أصابهم التفرق وهم كانوا " يدا واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله " على حد قول ابن القلانسى ، ولكن تدبيرهم خاب فقد تعرض صاحب شيزر من بنى منقذ لضغط الصليبيين الامر الذى حمله على اثارة حماس مودود وطغتكين وشجعهم على ملاقاة الصليبيين ، فازداد مودود وطغتكين حماسا فى لقاء الصليبيين ، فتم اللقاء بين الطرفين عند نهر العاصى فى ربيع الاول سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م . وظفر المسلمون بالصليبيين فارتفعت المعنويات وقويت النفوس على مواجهة الصليبيين ، وعاد

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٧٥ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن القلانسى ، ص ١٧٦- ١٧٧ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ١٦ .

بعدها طغتكين الى دمشق ، بينما عاد مودود الى الموصل (١) .

وعلى الرغم من ان حملة مودود الثانية لم تحقق ماكان مرجوا منها ، فان هذا لا يعد فشلا فى حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . بل انها ثبتت الدعائم التى كانت قد وضعت فى حران سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣ م ، وساعدت على مواصلة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، والذى اينعت ثماره زمن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ومن بعدهما صلاح الدين الايوبى .

ومما يؤكد عزم المسلمين على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين أن مودود بعد عودته الى الموصل جهز حملة عسكرية فى سنة ٥٠٦ هـ/١١١٢ م سار بها الى الرها بقصد الاستيلاء عليها فحاصرها فترة من الزمن ، ولما ايس من الاستيلاء عليها اتجه نحو سروج بارض الجزيرة ، غير انه لم يستطع الاستيلاء عليها ، لانه فرق جيوشه بين حصار الرها وحصار سروج فى وقت واحد ، مما سهل لجوسلين صاحب تل باشر ان يوقع به هزيمة عند سروج (٢) . ورغم هذه الهزيمة التى منى بها مودود فانه عقد العزم على الخروج فى حملة ثالثة ضد الصليبيين بالشام فى نفس السنة ٥٠٦ هـ/١١١٢ م بعد ان توثقت عرى الصداقة والمودة بينه وبين ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . ولم تنته سنة ٥٠٦ هـ/١١١٢ م حتى حصل فى بلاد الشام ما اوجب خروجه اليها اذ تعرضت دمشق وغيرها من بلاد الشام لغارات عنيفة شنها بلدوين الاول ملك بيت المقدس . واضطر طغتكين الى طلب النجدة من شرف الدولة مودود صاحب

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٧٧ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٦١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦ - ٣٧ .
وعن سروج انظر ما سبق ص حاشية رقم ١ ق ١ ج ٨

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٢ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٩ .

الموصل ، فماكان من الاخير الا ان وجه الدعوة لعدد من امراء المسلمين بالجزيرة وطلب منهم المسير معه نجدة لطغتكين ، وعبروا الفرات فى نهاية سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م متوجهين الى الشام لنجدة طغتكين . فلما سمع طغتكين بقدوم قوات الجزيرة خرج من دمشق ولقيها ببلدة سلمية ، وواصلوا مسيرهم جميعا عبر الاردن حتى وصلوا الى الاقحوانة ومنها ساروا الى طبرية حيث عسكر هناك الصليبيون بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس ، وجوسلين صاحب تل باشر وروجر(١) صاحب أنطاكية . وفى المحرم من سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م التقى المسلمون بالصليبيين ودار القتال بين الطرفين فانهزم الصليبيون ووقع كثير منهم فى الاسر ومنهم بلدوين ملك بيت المقدس الا انه لم يعرف فنجا بدون سلاحه . وكان عماد الدين زنكى قد حضر هذه الوقعة وأبلى فيها بلاء حسنا . وحاصر المسلمون الصليبيين حول طبرية ستة وعشرين يوما ، ساروا بعدها الى بيسان ونهبوا اراضى الصليبيين الواقعة بين عكا وبيت المقدس فارتفعت بذلك معنويات المسلمين بما وصل اليه الصليبيون من اليأس والخذلان ، وبما انضم الى قوات طغتكين ومودود من امدادات من بعض قبائل العرب فى الشام وبما وصلهم من الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب من معونة عسكرية . ولم تقف اهمية هذه الوقعة عند حد ما حل بالصليبيين بل انها ادت الى تاكيد المودة ووحدة الهدف والمصير بين امراء المسلمين بشمال الشام والجزيرة مع اخوانهم فى العراق ووسط بلاد الشام(٢) .

---

(١) كان تانكرد صاحب انطاكية قد مات سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م فخلفه روجر فى حكم انطاكية . انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٠٦ هـ، رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٦ هـ - ٥٠٧ هـ ، ابن القلانسى، ص ١٨٤ - ١٨٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٨ - ١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ١٧٥ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون، ص ١٧ .

- عن سلمية انظر مايلى : ص : حاشية رقم
- الاقحوانة : موضع بالاردن على شاطئ بحيرة طبرية ، ياقوت ، معجم البلدان .
- وبيسان : مدينة بالاردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ولما طال المقام بعساكر الجزيرة فى بلاد الشام اصابهم الضجر وتفرق اكثرهم فى الوقت الذى استأذن بعضهم مودود فى العودة الى بلادهم ، فأذن لهم ، بينما ظل هو وبعض عساكره الى جانب طغتكين ليثبت له على على ما يبد وعن حسن نيته فى جهاد الصليبيين ، او انتظار ما عسى يصله من أوامر من قبل السلطان محمد بن ملكشاه . غير انهما اى مودود وطغتكين قررا العودة الى دمشق فدخلاها فى ربيع الاول سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م بعد أن اطمأنا الى ما حل بالصليبيين من هزيمة عند طبرية ، وهى هزيمة أعادت للمسلمين بالشام ما كانوا قد أيسوا من تحقيقه بعد مضى سنوات عديدة من دخول الصليبيين الى بلاد الشام (١) . وبالرغم مما حققه شرف الدولة مودود من جهود كبيرة فى سبيل توحيد قوى الشام والجزيرة ، فقد تعرض بعد دخوله دمشق للاغتيال على يد نفر من الباطنية عندما كان يصلى بالجامع الاموى بدمشق فى آخر جمعة من ربيع الاول سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م (٢) ، ومع ما أبداه طغتكين من الحزن الشديد على ضيفه ، وما آل اليه امر الشخص الذى اغتال مودود من المصير المشين حسبما ذكر ابن القلانسى (٣) ، فان ابن الاثير قد اتهم طغتكين بقتل مودود حيث قال : " وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله " . خوفا من ان يكون بقاؤه بدمشق بتدبير من السلطان محمد بن ملكشاه " (٤) . وعلى أية حال فان قتل شرف الدولة مودود قد أثبت للمسلمين أن أمراء الشام لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الاسلامى ، وأنهم رفضوا

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٨٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠، ص ٤٩٦-٤٩٧ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٠٧ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠، ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .

التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الوقوف مع قادة بلاد الجزيرة فى وجه الصليبيين الذين رأوا فى استشهاد البطل المجاهد شرف الدولة مودود الخلاص من عدو لدود (١) .

ومهما يكن من أمر فان مقتل مودود لم يقف عند حد ما ذكرناه بل تعداه الى ان حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قد هدأت مؤقتا بسبب اضطراب الامور بين أمراء المسلمين فى بلاد الشام . بالاضافة الى أن ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق قد اضطر الى عقد هدنة مع الصليبيين فى السنة التالية ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م خوفا من عجزه عن حماية دمشق من غاراتهم (٢) .

غير أن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين التى انطلقت من منطقة الجزيرة لم تتوقف فقد تولى امر الموصل عقب استشهاد مودود آقسنقر البرسقى ، فحمل على عاتقه لواء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين لا فى منطقة الجزيرة فحسب بل وفى بلاد الشام ايضا . ففى سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م استطاع آقسنقر البرسقى بعد ان انضمت اليه قوات جزيرة ابن عمر بقيادة اياز بن نجم الدين ايلغازى حصار الرها لمدة شهرين ، الا انه لم يستطع فتحها ، فغادرها الى سميساط فخربها وخرب سروج التابعة للصليبيين . (٣)

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٣١٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية، جـ ١، ص ٤٦٤ .

(٢) ابن ايبك ، كنز الدرر، جـ ٦، ص ٤٧٦ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون، ص ١٩ .

(٣) ابن الاثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٥٠١ - ٥٠٣ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص ١٩ - ٢٠ ، ابوالفدا ، المختصر، جـ ٢، ص ٢٢٧ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢، ص ٣٧ .

وعندما اشتد خطر الصليبيين على بلاد الشام وجه طغتكين الدعوة لاقسنقر صاحب الموصل سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م طالبا منه النجدة ، فتوجه آقسنقر من الرحبة الى دمشق فوصلها فى نفس السنة . وصادف ذلك أن الصليبيين بزعامة صاحب طرابلس قد أغاروا على منطقة البقاع ، فاجتمع رأى طغتكين وآقسنقر على قتال الصليبيين فباغتوهم على غرة فى مخيمهم ، فمنح الله المسلمين النصر على الصليبيين ، عادوا بعدها الى دمشق فطلب آقسنقر من طغتكين الاذن بالعودة الى بلاده بعد استحكام المودة بينهما فأذن له(١)

وتجدر الاشارة الى أن حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ارتبطت ارتباطا شديدا بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١٢ هـ/١١١٧ م الى ازدياد تدهور احوال السلاجقة فى العراق فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه الى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد (٢) . الامر الذى أفقد الموصل مكانتها القيادية فى بعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين مؤقتا ، وانتقال هذه القيادة الى نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين .

واستهل ايلغازى أعماله بالاستيلاء على حلب سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م ، لاهميتها بالنسبة لاية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجى حيوى من النواحى البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية . وكانت حلب تقع بين امارتين صليبيتين هما

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١ هـ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج ٩، ص ٣١٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢١٤ .

الرها وأنطاكية ، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الاسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة . لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد ، وذلك ما حدث فعلا بالنسبة لنجم الدين ايلغازى وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى ونور الدين محمود فيما بعد . (١)

أما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين ايلغازى على حلب سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها حيث بلغت حدا من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم . ولكن خوف أهلها من ان تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين ايلغازى وتسليمه حلب في السنة المذكورة . واستهل ايلغازى أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس ، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين فاستوحش منه أهل حلب وجندها - على حد قول ابن العديم - مما اضطره الى مغادرتها الى ماردين بعد أن استخلف على حلب ابنه حسام الدين تمرتاش (٢) . واستغل الجند المقيمون في بالس موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م فارسلوا الى الصليبيين ليسلموها اليهم فاضطر ايلغازى الى العودة على رأس قوة من التركمان الى حلب . فلما شعر الصليبيون بالخطر انسحبوا عنها فتسلمها ايلغازى للمرة الثانية ، وعاد الى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أى منهما على ممتلكات الطرف الآخر . (٣) ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج ايلغازى من

---

(١) انظر عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية في بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٨٠ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

حلب ، وعدم وجود مدافع عنها وعن غيرها ، فنقضوا الهدنة التى بينهم وبين ايلغازى واغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين الى التسليم . واضطر أهل حلب الى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التى كان عقدها معهم ايلغازى وان يسلموهم اى اهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن اربعة اشهر ومقدارها الف دينار ويكون لهم من حلب شمالا وغربا (١) .

غضب نجم الدين ايلغازى لما وصلت اليه أخبار حلب ، ولكنه لم يستطع العودة اليها وانقاذها مما هى فيه لقلة عساكرها فاتجه الى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر فى الوقت الذى أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته فى الاجتماع به سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما ، الامر الذى دفع الصليبيين الى احكام السيطرة على مداخل حلب بعد ان استولوا على بزاغة فتردت الاحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم (٢) . ولم يجد اهل حلب بدا من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية فى بغداد ، الا انهم لم يغاثوا نظرا لانشغال السلاجقة بالمنازعات الاسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى .

أما نجم الدين ايلغازى فلما لم يتيسر له لقاء الصليبيين فقد فارق طغتكين وعاد الى ماردين لجمع العساكر تمهيدا للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين فى معركة حاسمة (٣) . وفى ماردين حشد نجم الدين ايلغازى مايزيد على

---

(١) ابن العديم ، ج ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .
وتل هراق : حصن من حصون حلب الغربية . انظر ياقوت . معجم البلدان .
(٢) ابن العديم . زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

عشرين ألفا من التركمان (١) . بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت ان تعدم القوت . وأرسل ايلغازى رسله الى بغداد لاعلان النفير ضد الصليبيين واعلام الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وانهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها ابن عطير (٢) . وكان نجم الدين ايلغازى قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين فى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م على ملاقاة الصليبيين فى شهر صفر من السنة التالية ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م بالشام . وتوجه ايلغازى قبل الموعد المحدد الى الرها وشدد عليها الحصار ، مما اضطر من بها من الصليبيين الى مصالحته ، لقاء تنازلهم عن الاسرى المسلمين الموجودين بها فأجابهم ايلغازى وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة امير انطاكية فى حالة حدوث قتال معه فأجابوه . وقد كانت هذه خطوة صائبة من ايلغازى تمكن بموجبها من عزل احدى قوى الصليبيين عن مد يد العون للقوى الاخرى . وهذا دليل واضح على رضوخ الصليبيين فى منطقة الجزيرة الى مطالب الامراء المسلمين (٣) .

وبعد أن اطمأن ايلغازى الى أنه لن يتعرض الى طعنة الصليبيين من الخلف توجه الى بلاد الشام وقد انضم اليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابى والامير طغان ارسلان صاحب بدليس وآرزن ، وواصل سيره حتى بلغ قريبا من الاثارب بأرض سرمدا فى ربيع الاول سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م ، وهناك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٥٣ - ٥٥٥ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٠٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ - ١٩٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٤٥ .

(٣) انظر عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٤١ .

انتظر وصول ظهير الدين طغتكين . وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا فى بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين ايلغازى سيباغتهم هناك لضيق الطريق ، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينازلون الاثارب او زردنا ، حتى ان الغرور قد اصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم فأرسلوا الى ايلغازى يقولون له : " لا تتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون اليك "(١) .

ولما طال انتظار ايلغازى لوصول حليفه طغتكين ، لبى رغبة الامراء الذين كانوا معه فى التعجيل بمباغتة الصليبيين ، فماشعر الصليبيون الا ورايات المسلمين قد اقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب ، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاول من السنة ٥١٣ هـ/١١١٩م . وخرج قاضى حلب أبوالفضل بن الخشاب، وخطب فى المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد ، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات ، فكانت السهام على الصليبيين كالجراد ، فى الوقت الذى أخذتهم السيف من سائر نواحيهم . فلم يفلت منهم غير نفر يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح . وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذى كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها . ووقع فى الاسر نيفا وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم ، وحاولوا ان يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة الف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين ايلغازى بل أمر

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٥٣ - ٥٥٤ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص١٨٤ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ، ص٤٠ . ودليس: بلد من نواحى ارمينية قرب خلاط ، وارزن: مدينة مشهورة قرب خلاط وسرمدا: موضع من اعمال حلب ، وزردنا: بلد من نواحى حلب الغربية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

بقتلهم جميعا (١) . وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين ، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم (Ager san guinis) لكثرة ماقتل فيها من الصليبيين ، والتى لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل (٢) .

وعلى أية حال فان اهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكرى الذى حققه نجم الدين ايلغازى عليهم ، بل تعداه الى انه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة اسلامية متحدة من الامراء المسلمين فى الشام والجزيرة اضافة الى انها جعلت حلب فى منأى عن اخطار الصليبيين خصوصا بعد استيلاء نجم الدين ايلغازى على حصن قريب من الاثارب من السنة نفسها فضلا عن انها كانت كارثة فادحة حرمت انطاكية من زعيمها روجر وجيشها مما جعل السريان والارمن بانطاكية يتشككون فى موقفهم الى جانب الصليبيين وهذا على ما يبدو ما دفعهم الى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٠٠-٢٠١ ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٤٠ ، ١١٨-١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٧٩ - ٨٠ .
وقد قال العظيمى ابياتا من الشعر يمدح فيها نجم الدين ايلغازى بما حققه على الصليبيين من نصر حاسم حيث قال فى تاريخه حوادث سنة ٥١٣ هـ :

ألا أبلغ طغاة الشرك أنك آخذ ... بثاراتنا منهم عليها مزايد
وأنهم لم ينج منهم مخبر ... بحيث أحاطتهم لديك المصايد

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ - ٢٤٢ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٧٣ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٣) انظر ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤٠ - ٤١ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣ هـ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ١٨ .

وذكر ابن العديم أن نجم الدين ايلغازى نزل بعد انتهاء المعركة الى خيمة روجر ليسلم اليه المسلمون الغنائم التى حصلوا عليها ، ولكنه رد جميع الغنائم الى المقاتلين ولم يأخذ منهم الا سلاحا يهديه لملوك الاسلام ليبعث فى نفوسهم حب الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين (١) . وعلى الرغم من أن نجم الدين ايلغازى لم يهتبل الكارثة التى حلت بأنطاكية وصاحبها وجيشها للهجوم عليها والاستيلاء عليها بدون صعوبة تذكر ، بسبب تكالب عسكره على الغنائم التى وصفها ابن القلانسى بأنها من الكثرة بحيث يفوق الاحصاء (٢) الا أنه حقق سلسلة من الانتصارات فى شمال الشام هيأت للمسلمين جوا من الهدوء والاستقرار . فقد استطاع المسلمون ان يلحقوا بالنجدة الصليبية التى أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب انطاكية هزيمة ساحقة . حتى انه لم يمنع الصليبيين من الاخذ على يد المسلمين سوى تعلقهم بالجبال (٣) . ولم يكتف نجم الدين ايلغازى بهذا بل اجتمع فى ارتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الاثارب وزردنا ، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين . ثم سار ايلغازى الى دانيث بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة فى جمادى الاولى من السنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م أسفرت عن انتصار نجم الدين ايلغازى وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم (٤) . ثم عاد نجم الدين ايلغازى الى حلب بينما

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ .

( ) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٩٠ ، ودانيث : كان بلد من اعمال حلب بين حلب وكفر طاب انظر ياقوت ، معجم البلدان .

التقى رجاله فى طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الابرص وبصحبته قوة من الصليبيين ، فهاجمتهم قوة ايلغازى مما اضطر من سلم من الصليبيين الى العودة الى حصن هاب ، فى الوقت الذى وقع فيه الابرص اسيرا فى أيدى المسلمين فحملوه الى ايلغازى بحلب ، وأنفذه بدوره الى طغتكين بدمشق حيث قتله صبرا (١) .

وفى أواخر جمادى الاولى سنة ٥١٣ هـ/١١١٩ م غادر ايلغازى حلب الى ماردين بسبب الضائقة المالية التى مر بها ، اضافة الى ان حلب كانت من الضعف ما جعلته لا يستطيع البقاء فيها (٢) . وبالرغم من انشغال نجم الدين ايلغازى ببعض الامور الادارية فى ماردين ، فقد جمع جيشا من التركمان عبر بهم الفرات الى بلاد الشام فى سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م واجتمع بطغتكين وسارا الى أنطاكية حيث ضربا عليها حصارا ، فلم يتمكنا منها ، فدخلا الى قنسرين ، وحاصراها يوما وليلة ، ولم ينالا منها شيئا . وعندها اشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وان يعود كل منهما الى بلده . فقبل نجم الدين ايلغازى مشورة صاحبه ، وعاد الى حلب بعد ان أدرك ماعليه الصليبيون من القوة ، وتفرق عساكره من التركمان . واضطر ايلغازى الى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثانى ، على ان يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق ، وعلى ان يكون أمد هذه الهدنة نهاية تلك السنة (٣) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ١٩١-١٩٣ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ١١٩-١٢٠ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٥٠-٢٥١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢، ص ٢٤٥ . وهاب: قلعة عظيمة من العواصم . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٠١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠، ص ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٠٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ١٩٥-١٩٦ ابن الشحنة ، المنتخب، ص ٢١٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ق ١، ص ٩٠ - ٩١ . وعن جبل السماق، انظر مايلى ص حاشية

ولم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة ، فقد اغار جوسلين صاحب تل باشر فى السنة نفسها ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م على بعض البلاد التابعة لحلب ، مما اضطر أهل حلب الى ارسال احتجاج شديد اللهجة الى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين ، ولكنه رد عليهم بقوله " مالى على جوسلين يد "(١) . ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بانطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا امير شيزر العربى ابو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية ، مما اضطره الى مصالحتهم على مال يدفعه اليهم(٢) . وبالاضافة الى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلوص حلب من ايلغازى فشنوا فى صفر من سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م هجوما على الاثارب واحرقوا مابها من الدور والغلال . وسار بلدوين الثانى واغار على حلب نفسها ، وفرض عليها حصارا شديدا أدى الى وقوع خمسين اسيرا من أهلها فى يده . ونجح الحلبيون فى استنقاذ اخوانهم واجبروه على التراجع عنها الى أنطاكية(٣) . وعلى مايبدو فان نجم الدين ايلغازى قد اضطر الى البقاء فى ماردين بعض الوقت مما دعاه الى مراسلة ولده سليمان بن ايلغازى النائب عنه فى حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين ، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب ، والاثارب (٤) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٩٩ ، والاثارب : كانت قلعة معروفة بين حلب وانطاكية بينها وبين حلب ثلاثة فراسخ . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٩٩ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ، وليلون : بلدة على جبل مطل على حلب من جهة انطاكية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وعلى الرغم من أن الصلح الذى عقده سليمان بن ايلغازى مع الصليبيين لم يكن فى صالح المسلمين ، فان سليمان بن ايلغازى لم يسع الى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب ، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب . وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان ابن ايلغازى الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها فى جمادى الاخرة من سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م ، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الاثارب لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس، ولكن سكان الاثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين ، الأمر الذى أجبر بلدوين على التراجع الى انطاكية ومنها الى بيت المقدس(١) .

أما نجم الدين ايلغازى فانه ما ان سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم اليها على وجه السرعة ، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه ، فلما راى سليمان ما حل باعوانه من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب الى دمشق ، وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء . ولما تم لايلغازى القضاء على الفتنة بحلب استناب ابها ابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق ، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة . وكان هدف ايلغازى من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة الى ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين ، اضافة الى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم(٢) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢، ص ١٩٩ - ٢٠٥ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ ٨، ص ٥٩١ - ٥٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٦٠ .

وفى ماردين استطاع نجم الدين ايلغازى أن يحشد اكبر عدد من التركمان ثم سار بهم الى بلاد الشام فى شهر ربيع الاخر من سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م ، مستغلا فى ذلك الشقاق الذى حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونس صاحب طرابلس . ولكن نجم الدين ايلغازى لم يستطع أن يحقق نصرا حاسما على الصليبيين ، بالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين الى جانبه . غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب.(١) وفى شهر رمضان من سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م احس ايلغازى بتدهور صحته فعاد الى ميافارقين حيث وافته منيته هناك(٢). وبقدر ماكانت وفاة نجم الدين ايلغازى خسارة فادحة للمسلمين فى بلاد الشام والجزيرة عامة فان المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته ، لان نجم الدين ايلغازى كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين فى الاستيلاء عليها . ولم تقف اهمية وفاة نجم الدين ايلغازى عند هذا الحد ، بل ادت الى أن امارته قد تفككت وقسمت بين اولاده حسام الدين تمرتاش الذى حصل على ماردين ، وابنه سليمان الذى حصل على ميافارقين ، بينما بقيت حلب من نصيب ابن اخيه سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، واحتفظ بلك بن بهرام بن ارتق بقلعة خرتبرت وضم اليها حران فيمابعد (٣) . يضاف الى ذلك ان حلب التى كانت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٠٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٦ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ص ٦٠٤ - ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٤٨ العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٠٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢٦٢ . وخرتبرت : هى الحصن المعروف بحصن زياد فى اقصى ديار بكر من بلاد الروم ، كان بينه وبين ملطية مسيرة يومين على الاقدام ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم ايلغازى من شمال الجزيرة. قد افتقدت هذا العنصر البشرى الذى رجح كفة المسلمين على الصليبيين فى عهد ايلغازى ما جعلها عرضة لغارات الصليبيين . وضعف مركز صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن ارتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس على بزاغة وبالس على نهر الفرات . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبى الاستيلاء على قلعة البيرة ، حتى اصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات ، مما حتم على سليمان بن عبد الجبار ان يعقد مع الصليبيين صلحا سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣م تنازل بموجبه لهم عن حصن الاثارب (١) .

ولكن منطقة الجزيرة التى احتلت الصدارة فى عملية بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، أنجبت بطلا جديدا وخصما عنيدا للصليبيين ممثلا فى شخص بلك بن بهرام بن أرتق صاحب قلعة خرتبرت الذى كان يتطلع الى القضاء على الصليبيين لا فى منطقة الجزيرة فحسب بل وفى بلاد الشام . وقد استهل اعماله العسكرية اثناء مرض عمه نجم الدين ايلغازى فى رجب سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢م بحصار الرها ، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار ، مما اضطره الى الانسحاب عنها (٢) . لذا راى الصليبيون الذين بالرها انه لابد من الاستعانة بجوسلين صاحب الاطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد ، الذى كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٢٠٩-٢١٠ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢٣٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٤٨١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٥٩٣ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢، ص ٢٣٥ حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون، ص ١٩ .

مستغلين فى ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها . الا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كمينا عند سروج بارض موحلة ومشبعة بمياه الامطار ، فلم تتمكن خيولهم من الاسراع بسبب هذا الوحل ، فى الوقت الذى سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم اربعمائة فارس وابلا من السهام فلم يفلت منهم الا القليل ، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة فى سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م(١). وقد ترتب على هذا الانتصار الذى حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية فى بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم الى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية(٢) .

حاول بلك بن بهرام بن ارتق ان يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا فى الاسر على تنازل منهم عن الرها ، مقابل اطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين : " نحن والبلاد كالجمال .. متى عقر جمل حول رحله الى اخر والذى بايدينا قد صار بيد غيرنا " . عندها حمل بلك بن بهرام أسراه الى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م الى حصن كركر التابع لامارة الرها بقصد الاستيلاء عليه . وادرك بلدوين ملك بيت المقدس الذى اصبح وصيا على الرها مضافا الى وصايته على انطاكية ان من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الاسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وافهام المسلمين بان قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة وخرج بلدوين على راس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه احد روافد الفرات تجاه

---

(١) ابن القلانسى، ص ٢٠٨ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠، ص ٥٩٣ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٢٠٦ ، انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١٧ هـ . وكركر : حصن بين سميساط وخرتبرت ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

معسكر بلك بن بهرام الذى كان قد رفع الحصار عن كركرعاد لمواجهة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس . ودار القتال بين الطرفين فى التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م ، وانهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين . ولم تقف اهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته الى ان بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع فى أسر بلك بن بهرام بالاضافة الى استيلائه على حصن كركر . وحمل بلك أسيره الجديد الى خرثيرت وضمه الى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم (١) .

وهكذا خلت امارات الصليبيين ، الرها ، وانطاكية ، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها ، مما أدى الى اضطراب وضع الصليبيين فى الجزيرة وبلاد الشام . ولكن القوى الاسلامية فى بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على اماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين .

أما بلك بن بهرام بن أرتق فانه بعد ان جمع أسراه فى قلعة خرثيرت توجه الى حران للاستيلاء عليها فى ربيع الاول من سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م ، بهدف التقوى بها ، فتم له ذلك . وكان بلك بن بهرام يطمع فى الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبد الجبار عقب استيلائه على حران لانه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية ، وأنه لن يحقق اية نتيجة حاسمة على الصليبيين مالم يضم حلبا الى امارته كى تكون له قاعدة فى بلاد الشام ، يستطيع من خلالها التحرك فى ميدان فسيح ، وليتفرغ لقتال الصليبيين (٢) . لذلك

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٦٨ .

فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها الى تسليمها اليه فى صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الاولى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م(١) . الا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضى قدما فى جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الاسر بمعونة جماعة من الارمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن اليهم بخرتبرت ، فعاد على وجه السرعة الى خرتبرت فى رجب من نفس السنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م واستطاع اعادة الامن بها ونقل الاسرى المتبقين فيها الى حران بعد معاقبة الارمن الذين كانوا بها (٢) .

أما جوسلين صاحب الرها الذى هرب من الاسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيي بيت المقدس وانطاكية ، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين . ولم يكتف بهذا ، بل أقدم على نبش قبور الموتى من المسلمين فى البلاد المحيطة بها . وظل محاصرا لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها ٥١٧ هـ/ ١١٢٣م . ولما لم يستطع النيل منها عاد الى تل باشر . على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين الى تل باشر ، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيى أنطاكية ، أدى الى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الاسلامية فى الشام ، تلك البلاد التى كانت تزودها بالمؤن(٣) .

وجد بلك بن بهرام بن أرتق انه لا بد من الاستعانة بآقسنقر البرسقى صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولانزال ضربة بالصليبيين ، يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة الى

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٠٩-٢١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧ هـ ، وذكر ابن الاثير (الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٣-٦١٤) رواية تختلف عن رواية ابن القلانسى وابن العديم والعظيمى فى ان بلدوين الثانى هو الذى هرب الى بلاده بدلا من جوسلين ، انظر ايضا حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢١٤-٢١٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

حلب واقرار الاوضاع بها . فوصل اليه سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقى وصاحب دمشق طغتكين على رأس قواتهما ، فعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز ، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين ، فعاد كل منهم الى بلده . ودخل بلك بن بهرام حلب فى سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م . وتخلص من بعض المناوئين له ، وقضى على فوضى قطاع الطرق ، وتزوج باحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة ، واتخذ من حلب عاصمة له فى بلاد الشام ، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين . ولم يكتف بهذا بل نقل اليها أسراه من حران واعتقلهم فى قلعة حلب . ويبدو وان ماقام به بلك بن بهرام من نقل أسراه الى حلب انما كان بقصد الاطمئنان عليهم من أية محاولة لانقاذهم قد يقوم بها الصليبيون أثناء بعده عنهم ، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية فى صفر من سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م لقتال الصليبيين بعزاز ، لم يخرج معهم خوفا من ان يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه (١) . ولكن الاجل لم يمهل بلك بن بهرام حيث وافته منيته فى شهر ربيع الاول من تلك السنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، عندما كان يحاصر منبج التابعة لامارة طرابلس الصليبية ، ففقد المسلمون فيه رجلا أثبتت اعماله انه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين فى الشام والجزيرة ضد الصليبيين (٢) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢، ص ٢١٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ .

ويمكن القول انه بمقتل بلك بن بهرام سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م انتهت مرحلة قيادة الارتقة لحركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام (١) . الا أن حلب لم تتمتع فى ايامه باوضاع مستقرة ، بل فسدت احوالها وضعف امر المسلمين بها حيث "الهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر فى امور الملك" (٢) . ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين ، بل قبل وساطة أبى العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر فى اطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس ، الذى كان فى أسر بلك بن بهرام (٣) ، الامر الذى أدى الى ازدياد حماس الصليبيين فى النيل من المسلمين . وهذا بالطبع كان له اثر كبير فى تصدى الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى المرحلة التالية التى قادها كل من آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق .

وفى هذه الظروف الصعبة التى كان يمر بها المسلمون فى حلب وشمال الشام من جراء الغارات الصليبية والتى كادت ان تؤدى الى سقوط حلب بيد الصليبيين ، طلب الحلبيون النجدة من الامير آقسنقر البرسقى صاحب الموصل ، وكان مريضا ، ولكن هذا لم يثنه عن مد يد المساعدة لحلب ، فجهز حملة

---

(١) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٧٥ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٠ .
(٣) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠٣ ، ١٢٠ - ١٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ٢٧٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٨٤ .

عسكرية وساربها من الموصل الى حلب فى ذى الحجة سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، فلما أشرف عليها اشترط على من بها تسليم القلعة الى رجاله فأجابوه الى ذلك وسلموا القلعة الى نوابه ، وواصل مسيره اليها . فلما علم الصليبيون بذلك رحلوا عنها عائدين الى بلادهم دون الالتقاء به لعلمهم بقوته وشدة بأسه ، بالاضافة الى ماكان يتمتع به من تأييد كبير من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية فتبعهم رجاله وتخطفوا من مؤخرتهم ماقدروا عليه وظلوا يطاردونهم حتى ادخلوهم انطاكية ، ودخل آقسنقر البرسقى حلب فى اواخر سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م واجتهد فى حمايتها والذب عنها من الصليبيين ، وكتب لاهلها توقيعا برفع المظالم والمكوس ، فنعمت حلب بالخيرات حيث عاد أهلها الى الزراعة وتوالت عليها الامطار فعمها الخير(١) .

وهكذا انتقل عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى شمال الشام ومنطقة الجزيرة الى آقسنقر البرسقى الذى حكم الموصل وحلب ، مما يعتبر نواة لتوحيد الجبهة الاسلامية فى اطراف العراق وشمال الشام ، وهذا ماكان يخشاه الصليبيون من ان تنقطع الصلة بين امارة الرها بارض الجزيرة عن بقية الامارات الصليبية فى شمال الشام ووسطها (٢) .

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، ج ١١ ، ورقة ٢٠٦ أ ، الاصفهانى ، البستان الجامع ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٦١٩-٦٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦-٢٣٠ ، ابوالفدا المختصر ، جـ ٢ ص ٢٢٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٢٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٤٧ .

وسبقت الاشارة الى أن آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب كان يمثل الشرعية الاسلامية باعتباره تابعا للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية فى بغداد ، وكان هذا من الاسباب الرئيسية التى زادت من خطورته على القوى الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة ، الامر الذى شجعه على تكوين حلف اسلامى او بمعنى آخر جبهة اسلامية تمتد من الموصل الى حلب فدمشق . ففى سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م طلب من ظهير الدين طغتكين الاجتماع به فى حلب ، فلما تم ذلك توجها سويا الى كفر طاب واستوليا عليها وواصلا مسيرهما الى عزاز . غير ان اجتماع الصليبيين بعزاز ، قد أجبرهما على التراجع فعاد آقسنقر الى حلب وطغتكين الى دمشق (١) .

رأى آقسنقر البرسقى انه لابد من عقد هدنة مع الصليبيين ، خصوصا وأنه عقد العزم على العودة الى الموصل لجمع العساكر من التركمان والاكراد ، والعودة مرة اخرى الى حلب لقتال الصليبيين بالشام . وكان آقسنقر يخشى أن يقوم الصليبيون بحصار حلب والاستيلاء عليها عقب خروجه منها . ولذلك فقد تم عقد الصلح بين الطرفين فى نفس السنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م ، وعبر الفرات الى الموصل بعد ان استخلف على حلب ابنه عز الدين مسعود (٢) .

وفى الموصل جمع آقسنقر البرسقى الكثير من التركمان وغيرهم وعبر بهم الفرات الى بلاد الشام ، فوصل الرقة فى أواخر ربيع الاخر من سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م ، وواصل مسيره حتى وصل قريبا من حلب ، فراسله جوسلين صاحب

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٩ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٣ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠- ٢٣١ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .

تل باشر على المهادنة على ان تكون البلاد الواقعة بين عزاز وحلب مناصفة بينهما " وأن تكون الحرب على غير ذلك ، فاستقر هذا الامر " ولما تم الاتفاق بينهما سير آقسنقر البرسقى ابنه عزالدين مسعود بفرقة عسكرية من التركمان نجدة لصاحب حمص صمصام الدين خيرخان بن قراجة ، حيث تعرض في هذه السنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦ لهجوم من الصليبيين ، في الوقت الذى واصل فيه اقسنقر مسيره بمن معه من التركمان حتى وصل حصن الاثارب فى شهر جمادى الاخرة من السنة نفسها بقصد الاستيلاء على هذا الحصن . ولم يتيسر له ذلك اذ ان الصليبيين لما شعروا بشدة الحصار الذى فرضه عليهم اقسنقر طلبوا النجدة من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، فلم يتوان عن نجدتهم ، فلما حضر اجتمع بجوسلين صاحب تل باشر وارسلا الى آقسنقر البرسقى يطلبون منه الرحيل عن الاثارب ، على ان تبقى بينهم الهدنة التى عقدت فى العام السابق . وتجنبا لهزيمة محققة من الصليبيين ووفاء بالعهود وافق آقسنقر البرسقى على رفع الحصار عن الاثارب حفاظا على العهود والمواثيق . وما ان رفع اقسنقر البرسقى الحصار عن الاثارب حتى تنكر له الصليبيون بالصلح وقالوا : " ما نصالح الا على ان تكون الاماكن التى ناصفنا عليها فى العام الماضى لنا دون المسلمين " . فعرف آقسنقر البرسقى نوايا الصليبيين ، وطلب النجدة من طغتكين صاحب دمشق فوصلته النجدة بعد ان نزل قنسرين قريبا من حلب وظل يواصل مسيره حتى نزل سرمين فامتدت جيوش المسلمين الى قرية الفوعة وبلدة دانيث ، بينما نزل الصليبيون على حوض معرة مصرين فظل المسلمون ينتظرون قدوم الصليبيين حتى شهر رجب من السنة نفسها ، فلما لم يتم لقاء بين المسلمين والصليبيين رحل آقسنقر ومعه طغتكين الى حلب حيث مرض هناك طغتكين فجهز بكل وسائل الراحة وعاد الى دمشق بعد ان اوصى البرسقى بقتال الصليبيين . اما آقسنقر فانه لم يطل الاقامة بحلب

بل عاد بعدها الى الموصل فوصلها فى أواخر سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م بعد أن استخلف ابنه عز الدين بن مسعود بحلب للمرة الثانية(١) .

ويبدو أن عودة آقسنقر البرسقى الى الموصل فى تلك السنة كان بهدف الاستعداد لمعاودة قتال الصليبيين ، ولكن جماعة من الباطنية وثبوا عليه وهو يصلى الجمعة بالموصل فأردوه قتيلا فى ذى القعدة سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م(٢). وباستشهاد آقسنقر البرسقى كانت نهاية جهاد آخر شخصية من الشخصيات التى استطاعت القيام ببعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين من منطقة الجزيرة وشمال الشام قبل قيام الاسرة الزنكية سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م .

وقد رأينا فيما سبق أن منطقة الجزيرة بما حباها الله تعالى به من الامكانيات البشرية والمادية قد حملت لواء بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وتهيأ لزعماء هذه المنطقة من القدرات والبطولة ما جعلهم ينقلون ميادين المعارك بينهم وبين الصليبيين الى بلاد الشام ، وقد اتخذت هذه الفكرة مظهرها العملى فى عهد شرف الدولة مودود صاحب الموصل ثم من أعقبه من زعماء منطقة الجزيرة كنجم الدين ايلغازى وبلك بن بهرام بن أرتق وآقسنقر البرسقى . على انه لا يمكن اغفال الدور الذى قامت به دمشق " قلب بلاد الشام النابض " فى مواجهة الصليبيين بقيادة ظهير الدين طغتكين(٣) ،

(١) ابن القلانسى ، ص ٢١٣ - ٢١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٦ ، والنوعة : هى قرية من نواحى حلب ، ومصره مصرين بلدة صغيرة بنواحى حلب وكانت تعد من اعمالها ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ١١٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ص ٦٣ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٣٠ .
(٣) طغتكين هو الامير ابو منصور طغتكين ، كان من رجال تاج الدولة تتش زوجه بأم ابنه دقاق وكان مع تاج الدولة تتش لما ذهب الى الرى لقتال =

(٤٩٧ - ٥٢١ هـ / ١١٠٣ - ١١٢٧ م) الذى لم يكتف بعد يد المؤن لزعماء حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى الجزيرة وشمال الشام فحسب ، بل قام بمساعدة الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين فى بلاد الشام لوقف الزحف الصليبى على كثير من بلاد الشام . والى جانب الجهود التى قام بها لمساعدة امراء الجزيرة والشام كما سبق وشرحناه فى الصفحات السابقة فقد واجه الصليبيين وجها لوجه للدفاع عن املاكه مستغلا فى ذلك قوته احيانا وضعف الصليبيين احيانا اخرى . ففى سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م استغل طغتكين هزيمة الصليبيين فى حران فى السنة الماضية واسترد بعض المواقع كبصرى وصرخد من يد بعض خصومه الذين كانوا يستنجدون دائما بالصليبيين (١) . وفى السنة التالية ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م تقدم طغتكين الى حصن علعال بطبرية الذى كان الصليبيون قد شرعوا فى عمارته ليكون قاعدة انطلاق لهم فى حصار دمشق. وحاصر طغتكين هذا الحصن ووعد عساكره المحاصرين لهذا الحصن بان من أحضر له حجرا من حجارة هذا الحصن فله خمسة دنانير ، مما زاد فى حماسة المسلمين حتى هدموه عن آخره واسروا من في داخله من الصليبيين فأمر بهم طغتكين وقتلوا عن آخرهم ، ثم عاد بعدها طغتكين الى دمشق ، ومن ثم توجه الى حصن رفنية واستولى عليه (٢) .

= ابن أخيه بركياروق ورجع الى دمشق بعد قتل تاج الدولة ، وكان اتابك دقاق مدة ولايته . وكان شهما مهيبا يؤثر عمارة بلاده شديدا على المفسدين والفرنج ،فامتدت ايامه الى ان توفى سنة ٥٢٢ هـ بدمشق انظر الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٦ أ ب .

(١) ابن الاثير، الكامل ،جـ١٠ ص ٤٠٧ . وعن صرخد انظر ما يلى ص

(٢) تاريخ العظيمى ،حوادث سنة ٤٩٩ ، ابن القلانسى ص ١٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ،جـ١٠ ص ٤٠٧ ، سبط ابن الجوزى ،مراة الزمان ، جـ٨ ق١ ص ١٦ ، ابن ايبك ،كنز الدرر ،جـ٦ ص ٤٦٥ ، وعلعال: جبل بالشام مشرف على البثنيه بين الغور وجبال الشراة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وفى السنة التالية ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م خرج ظهير الدين طغتكين بقوة عسكرية من عساكر دمشق الى طبرية واستولى على أحد حصون الصليبيين بها ، مستغلا فى ذلك ما اصاب الصليبيين من هزيمة على تبنين بقيادة عز الملك انوشتكين الوالى الفاطمى بصور(١) . وشجعت هذه الانتصارات ظهير الدين طغتكين من أجل مضايقة الصليبيين . ففى سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م جهز فرقتين عسكريتين ارسل احدهما الى فلسطين والاخرى اغار بها على طبرية فخرج اليه صاحبها المسمى جرفاس الذى يقول عنه ابن القلانسى انه " من مقدمى الافرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس يجرى مجرى الملك بغدوين فى التقدم على الافرنج " . فالتقى برجال طغتكين ووقع فى أسرهم بعد قتل اكثر رجاله وحمل الى دمشق(٢) . وحاول ان يفتدى نفسه بمبلغ من المال فلم يقبل منه ، طغتكين بل قتله على حد قول ابن الاثير(٣) . ورغم ان طغتكين حارب الصليبيين وانتصر عليهم بعيدا عن دمشق الا ان الهزيمة قد حلت به عندما خرج فى محاولة منه لتقوية حصن رفنية فى سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م الذى كان الصليبيون قد شددوا عليه الحصار عقب انقطاع المدد عنه من طرابلس . ولما سمع الصليبيون المحاصرون لطرابلس بنزول طغتكين على الحصن المذكور تجهزوا بقوة عسكرية عندها وجد طغتكين وعساكره البالغ عددها أربعمائة فارس ألا قبل لهم بمواجهة الصليبيين ، فانسحبوا الى حمص ، وتفرق اكثرهم بعد ان غنم

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٥١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٢٧ ، ويذكر ابن جبير فى الرحلة ص ٢٧٤ ان حصن تبنين هذا موضع قرب بانياس وكان موضع تمكيس قوافل المسلمين الذاهبة الى عكا على ساحل البحر .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٥١ ، انظر تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٦٧ ، ويضيف ابن الاثير ان طغتكين عرض على جرفاس الاسلام ولم يجبه الى ذلك فقتله وارسل الى الخليفة والسلطان بقية الاسرى .

الصليبيون منهم غنيمة هائلة وهم " على أقبح حال من التقطع ولم يقتل منهم أحد "(١) .

أدرك ظهير الدين طغتكين تزايد الخطر الصليبى على بلاده وبلاد المسلمين فى الشام ، وانه لابد من عقد هدنة مع الصليبيين فترددت الرسل بينه وبين بلدوين الاول ملك بيت المقدس فى الصلح والموادعة حتى استقر الامر بينهما سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م على هدنة امدها اربع سنوات(٢) . ويعلق ابن الاثير على هذه الهدنة فيقول : " ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين (٣) . ولكن الصليبيين لم يتقيدوا بهذه الهدنة ، فبعد سقوط طرابلس فى ايديهم سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م ، تقدموا بجموعهم بقصد الاستيلاء على رفنية فى نفس السنة ، الا ان ظهير الدين طغتكين قد بلغه ذلك فخرج من دمشق على رأس قوة عسكرية قليلة العدد سار بها حتى وصل حمص . وعلى الرغم من انه لم يشتبك معهم الا ان خروجه على راس قواته قد حال دون استيلائهم عليها . وترددت بينه وبينهم المراسلة حتى افضت الى الموادعة والمسالمة على ان يكون للصليبيين الثلث من غلات البقاع ، ويسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ، ويكفوا عن العبث والفساد فى الاعمال الحورانية والاطراف الاسلامية وان يكون حصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الاكراد داخلا فى شروط الموادعة ويحمل أهلها عنها مالا معينا فى كل سنة الى الصليبيين (٤) .

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١٠، ص ٤٦٨ ، انظر ابن القلانسى، ص ١٦٢ .
(٢) ابن القلانسى ص ١٦٤ .
(٣) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١٠، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .
(٤) ابن القلانسى ، ص ١٦٥ . ورفنية: بلدة عند طرابلس من سواحل بلاد الشام وهى غير رفنيه تدمر التى كانت تعد من اعمال حمص . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وعلى الرغم من أن هذه الهدنة التي أبرمها طغتكين مع الصليبيين كانت مجحفة في حق المسلمين الا انها اوضحت سياسة طغتكين ومرونته مع الصليبيين ، فانه لولم يعقد معهم هذه الهدنة لاستطاعوا اجتياح بلاده وغيرها لانهم كانوا كلهم مجتمعين عقب استيلائهم على طرابلس ، ولذلك فقد جنب بلاده من ضغط الصليبيين . ولا يمكن القول بان هذا تخاذل منه في جهاد الصليبيين . والدليل على ذلك انه في سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م عقد العزم على المسير الى بغداد لتقديم الشكوى الى الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه لما نزل به وبالمسلمين في الشام من الذل والهوان على يد الصليبيين مع استمرارهم "بالطمع في الامتداد الى تلك الاعمال الجزرية والعراقية" . بعد ان اوصى ابنه تاج الملوك بوري بن طغتكين بالاحسان الى الرعية ومغالطة الصليبيين في الثبات على الموادعة المستقرة بينه وبين الصليبيين ، الا ان ظروفه التي لم يشر اليها أي من المؤرخين قد حالت دون وصوله الى بغداد (١) .

وفي سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م انضم طغتكين الى قوات شرف الدولة مودود صاحب الموصل وحققا في السنة التالية نصرا مؤزرا على الصليبيين في طبرية (٢) . ولكن مقتل مودود بدمشق سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م قد أثار على طغتكين حقد السلطان محمد بن ملكشاه ، الامر الذي اضطر طغتكين

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٥-١٦٦ .
وتاج الملوك بوري بن طغتكين : هو ابو سعيد المعروف بتاج الملوك ولد في سنة ٤٧٨ هـ وولي امرة دمشق بعد موت ابيه طغتكين في صفر سنة ٥٢٢ هـ وكانت سيرته غريبة اتصف بالحلم والسماح . قتل في سنة ٥٢٦ هـ . انظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣ ص ٢٩٩ ، صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العصر السلجوقي ص ٢١ .
(٢) انظر ما سبق ، ص

الى التحالف مع الصليبيين للوقوف فى وجه القوات التى أرسلها السلطان محمد سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م بقيادة برسق بن برسق صاحب همذان بقصد النيل منه ومن نجم الدين ايلغازى . ويبدو ان انضمام طغتكين الى الصليبيين لم يكن الهدف منه اضعاف جانب المسلمين بقدر ما كان الهدف منه الاحتماء بهم من جيوش السلطان ، حتى أن مؤرخ حلب ابن العديم قد بين لنا ذلك حينما تم اللقاء بين المسلمين والصليبيين فى ارض شيزر سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م بقوله :" وجعل أتابك (طغتكين) يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج ان يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه او ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على ما فى يده "(١) . ومما يؤكد لنا ان انضمام طغتكين الى جانب الصليبيين لم يكن الهدف منه اضعاف جانب المسلمين ، ما قام به فى نفس السنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م من استعادة رفنية من ايدى الصليبيين عنوة وقهرا (٢) . وما قام به فى نفس السنة من شد الرحال والعزم على المسير الى بغداد لازالة ما علق بذهن الخليفة العباسى المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه نحوه . ولم يكتف بهذا بل تقرب من الامراء المسلمين فى بلاد الشام والموصل وشمال الجزيرة ، رغبة منه فى الوقوف الى جانبهم صفا واحدا فى وجه الظليبيين . (٣)

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ؛ انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٠٩ - ٥١١ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ ، ابن القلانسى ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٩٣ .

استغل الصليبيون خروج ظهير الدين طغتكين من دمشق وانضمامه الى الفاطميين بعسقلان سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م وبقاءه مدة شهرين هناك فاستولوا على بعض الحصون التابعة لدمشق وساروا الى أذرعات ونهبوها بالرغم من كون ابنه تاج الملوك بورى كان مقيما بها . ولما بلغت هذه الاخبار طغتكين ارسل الى بورى بعدم منازلة الصليبيين خوفا من استطاعة الصليبيين فى الدفاع عن انفسهم . الا أن ابنه لم يصغ الى مشورة والده ونازلهم فتحققت مخاوف والده وحلت الهزيمة على تاج الملوك بورى ووقع عدد من رجاله فى أسر الصليبيين (١) . وبدلا من ان يقوم ظهير الدين طغتكين بالمسير الى الصليبيين والاخذ بثأره مما حل بابنه فى أذرعات اتجه الى حلب تلبية لدعوة نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م ولكن ظهير الدين طغتكين لم يستطع البقاء طويلا الى جانب ايلغازى بسبب الغارات التى شنها الصليبيون على حوران والبلاد المحيطة بدمشق (٢) .

وعلى ما يبدو فان هزيمة الصليبيين فى ساحة الدم (٣) سنة ٥١٣ هـ/١١١٩م وما ترتب عليها من رفع الحالة المعنوية للمسلمين قد دفع ظهير الدين طغتكين الى منازلة الصليبيين سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م والاستيلاء منهم على تدمر والشقيف اللتين ولى عليهما حفيده شهاب الدين محمود بن بورى (٤) .

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠ ص ٥٤٣-٥٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، واذرعات بلد فى اطراف الشام يجاوز أرض البلقاء وعمان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير، الكامل جـ١٠ ص ٥٤٤ .

(٣) عن هزيمة الصليبيين فى ساحة الدم انظر ما سبق ، ص

(٤) ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠ ص ٥٨٧ ، وتدمر : مدينة قديمة مشهورة كان بينها وبين حلب مسيرة خمسة ايام على الاقدام . والشقيف : بلدة تعرف بشقيف ارنون عبارة عن قلعة قرب بانياس من ارض دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وشهاب الدين محمود بورى : هو ابو القاسم بن ابى سعيد الملقب بشهاب الدين ولى دمشق بعد قتل اخيه اسماعيل سنة ٥٢٩ هـ ، وكانت امه المعروفة بزمرد خاتون المدبرة لامره حتى تزوجها عماد الدين زنكى فتولى تدبير امره معين الدين انر احد مماليك جده طغتكين . وظل فى حكم دمشق حتى قتل سنة ٥٣٣ هـ ، انظر صلاح الدين الصفدى ، ولاة دمشق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٢-٢٣ .

ولم يقف طغتكين عند هذا الحد بل استطاع فى السنة التالية ٥١٥هـ/ ١١٢١م انزال هزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم وأسر وأرسل من الاسرى والغنايم للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، والخليفة العباسى المسترشد بالله على حد قول ابن الاثير (١) . ولا يستبعد ان طغتكين كان يهدف من وراء ارسال الاسرى والغنائم الى الخليفة والسلطان هو كسب رضاهما وليحصل منهما على موافقة بتأييد المنشور الذى كان قد حصل عليه من السلطان محمد ابن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م "بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده فى ارتفاعه "(٢) .

وفى الحقيقة ان ظهير الدين طغتكين لم يستغل وقوع جوسلين صاحب الرها وتل باشر ، وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى أسر بلك بن بهرام سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م للقيام بعمل عسكرى للنيل من الصليبيين ، ولم يسع الى توثيق روابط الصلة بينه وبين بلك بن بهرام خليفة نجم الدين ايلغازى فى حلب . ويبدو أن سبب ذلك هو انشغاله بتطورات الاوضاع فى صور وما قام به الفاطميون من عزل لواليها سيف الدولة مسعود الذى كان قد وليها من قبل ظهير الدين طغتكين (٣) .

وعلى الرغم من أن ظهير الدين طغتكين اصبح شبه محاصر بين الصليبيين بعد سقوط صور بايديهم سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م الا انه كان متيقظا لاطماع الصليبيين فى دمشق والبلاد التابعة لها . ففى سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م بلغه عزم ملك بيت المقدس بلدوين الثانى على المسير الى حوران " للعبث فيها والفساد " فلما تحقق من ذلك الامر شرع فى الاستعداد للقائه " وكتب الى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠، ص ٥٩٤.
(٢) ابن القلانسى ، ص ١٩٣.
(٣) انظر ماسبق ، ص

أمراء التركمان واعيانهم باعلامهم بصورة الحال ويستنجد بهم ويبذل لهم الاحسان والانعام " فلبوا الدعوة وقدموا اليه واجتمع بهم فى مرج الصفر اشهر المروج بدمشق ولما علم الصليبيون بذلك تقدموا الى طغتكين وخيموا بازائه بمرج الصفر ، ودارت بين الطرفين معركة حاسمة فى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٥١٩ هـ ،فكان النصر من نصيب المسلمين ، ولكنهم لم يتمتعوا به ، فقد حاولت فرقة من عساكر التركمان اللحاق بالصليبيين الذين لاذوا بالفرار وتمكنت هذه الفرقة من مضايقة الصليبيين ، غير ان الصليبيين تجمعوا واعادوا الكرة على العسكر الاسلامى " وحملوا عليه حملتهم المعروفة فكسروهم وهزموهم . . واطلقوا السيف فيهم حتى أتوا عليهم وتتبعوا المنهزمين بالقتل " . فى الوقت الذى عاد فيه ظهير الدين طغتكين الى دمشق (١) .

وعلى أية حال فان ظهير الدين طغتكين لم يعمر طويلا فقد توفى فى صفر سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م بعد أن بذل كل ما أمكنه بذله فى صد الصليبيين عن دمشق وغيرها من بلاد الشام مع ما كان عليه من حسن السيرة واثارة العدل فى الرعية ، بعد ان استخلف على دمشق ابنه تاج الملوك بورى (٢) .

ولا شك أن ظهير الدين طغتكين نجح فى المحافظة على دمشق من السقوط بيد الصليبيين ، بالاضافة الى مساهمته مع غيره من زعماء بعث

---

(١) ابن القلانسى ،ص ٢١٢ - ٢١٤ ، ابن الاثير، الكامل ،جـ ١٠ ،ص ٦٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ،جـ ١٢ ،ص ١٩٦ ، وعن حوران انظر مايلى ص حاشية رقم

(٢) ابن القلانسى ،ص ٢١٨ - ٢٢٠ ، سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، جـ ٨ ،ق ١ ،ص ١٢٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـ ٥ ،ص ٢٣٤ .

فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين على تكوين جبهة اسلامية متحدة تتكون من الموصل وحلب ودمشق ، وذلك بما أبداه من تعاون صادق مع أولئك الرجال للوقوف صفا واحدا فى وجه الصليبيين مما ساعد على بلورة فكرة الجهاد الاسلامى وتوحيد الجبهة الاسلامية فى أذهان بعض قادة المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين زنكى ، وهو موضوع الفصل الثالث .

— • —

الفصل الثالث

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١ هـ/١١٢٧-١١٤٦م)

- عماد الدين زنكي حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م.
- عماد الدين زنكي وبعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.
- عماد الدين زنكي والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١-٥٣٨ هـ/١١٢٧-١١٤٣م)
- استيلاء عماد الدين زنكي على إمارة الرها الصليبية (٥٣٩ هـ/١١٤٤م)

((الفصل الثالـــــث))

الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عصر عماد الدين زنكي

(٥٢١-٥٤١ هـ / ١١٢٧- ١١٤٦م)

- عماد الدين زنكي حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧م .
- عماد الدين زنكي وبعث فكرة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين .
- عماد الدين زنكي والصليبيون حتى قبيل سقوط الرهـــــــا (٥٢١-٥٣٨ هـ / ١١٢٧-١١٤٣م) .
- استيلاء عماد الدين على امارة الرها الصليبية سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م .

—•—

الفصل الثالث

الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عصر عماد الدين زنكي

(٥٢١-٥٤١ هـ / ١١٢٧-١١٤٦م)

عماد الدين زنكي حتي ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م :

كان على عماد الدين زنكي أن يحمل راية الجهاد الاسلامي وأن يسير على خطى من سبقه من أبطال الجزيرة مثل جكرمش ، وسقمان بن أرتق ، ومودود وايلغازي بن أرتق ، وآقسنقر البرسقي وغيرهم . وعماد الدين زنكي هو ابن آقسنقر البرسقي بن عبد الله ، المعروف والده بالحاجب[1] ، وكان آقسنقر الحاجب من مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان ، تربى معه في صغره ، وظل مصاحبا له حتى كبر. فلما تولى ملكشاه السلطنة السلجوقية سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م رعى لاقسنقر ذلك فجعله من أمرائه ولقبه بقسيم الدولة " يوم كانت الالقاب لا تعطى الا لمستحقيها " كما يقول ابن الاثير[2] .

---

(١) الحاجب : لم تكن تعني هذه الكلمة التي تلقب بها آقسنقر والد عماد الدين ، ذلك الرجل الذي كان يقف على ابواب الخلفاء والملوك لتنظيم دخول الناس اليه ، بل انها تعني الرجل الذي اصبح في مرتبة الوزير واليه تناط مهمة الانصاف بين الامراء والجند زمن السلاجقة انظر القلقشندي ، صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨ ، د . حسن الباشا الالقاب الاسلامية ، جـ ص

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤ ، انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ١ ، ص ٢٤١ ، جـ ٢ ص ٣٤٧ .

وأصبح آقسنقر ثقة عند ملكشاه اعتمد عليه فى كثير من الامور ، فولاه حلب سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م فظهرت هيبته وكفايته فى جميع البلاد التى كانت تابعة لحلب كحماة ومنبج اللاذقية ، فبسط العدل بين اهلها وتتبع المفسدين فأبادهم ، وقصد أهل الشرفأ بعدهم (١) . ولما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م شارك آقسنقر الحاجب فى الحوادث والفتن التى وقعت بين سلاجقة الشام بزعامة تتش وسلاجقة فارس بزعامة بركياروق ، لرغبة كل منهما فى الفوز بعرش السلطنة السلجوقية ، وكان لآقسنقر الحاجب دور بارز فى تلك الحوادث ، انتهت بمقتله سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م فى المعركة التى نشبت بينه وبين تتش عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرقى حلب (٢) .

لم يخلف آقسنقر الحاجب من الاولاد غير عماد الدين زنكى ، الذى كان فى العاشرة من عمره حين قتل والده ، فلماتولى أمر الموصل سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦ م قوام الدولة كربوقا (٣) ، طلب من بعض مماليك آقسنقر الحاجب

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨ ، ابن القلانسى ص ١١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢، ص ١٠٤ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ٩ ، ص٣٠٩ - وقسيم الدولة آقسنقر الحاجب والد عماد الدين زنكى هو غير آقسنقر صاحب الموصل والمتوفى سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م ولم تكن لعماد الدين به ايةصلةقرابة ، ولم يتول عماد الدين زنكى الموصل بعد وفاة والده مباشرة كما ذكر ذلك أبوالمحاسن وابن العبرى ، انظر ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٧٩ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصرالدول ، ص٢٠٣ .

(٢) انظر ماسبق ص

(٣) كان قوام الدولة كربوقا احد قادة السلاجقة انضم الى جانب آقسنقر فى نزاعه مع تتش ، فوقع فى أسر تتش بعد قتل آقسنقر ، ولما لم يكن له بلد معين فقد أطلق سراحه رضوان بن تتش من سجن حمص عقب مقتل والده تتش سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م . انظر ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠ ص٢٥٨ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٢٨ .

المقيمين فى حلب ، احضار عماد الدين زنكى وقال لهم : " هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده "(١) . وعلى ما يبدو فان كربوقا ادرك مكانة آقسنقر والدعماد الدين فى نفوس كثير من التركمان وعرف ما يكنون له من الولاء والطاعة ، فأحب أن يضم اليه ابنه ليحصل على الولاء نفسه الذى كان يكنه التركمان لوالده . يضاف الى ذلك أن كربوقا أثناء ملازمته لآقسنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده ، فأراد ان يضمه الى جانبه ، للاستعانة به وبمماليك والده فى حروبه ضد خصومه ، وليضمن عدم منافسته له مستقبلا ، هذا فضلا عن خوف كربوقا من قيام رضوان بن تتش صاحب حلب باستمالة عماد الدين اليه ، فتقوى شوكته ضد خصومه التابعين لعمه بركياروق الذين كان منهم كربوقا ، ومما يوضح ذلك استعانة كربوقا بمماليك آقسنقر فى حروبه ضد خصومه الاراتقة بديار بكر ، وكان عماد الدين قد حضر معه احدى المعارك التى خاضها كربوقا ضد الاراتقة ، وكانت هذه اولى المعارك التى حضرها عماد الدين زنكى . ويدل وصف ابن الاثير لهذه المعركة وما به من مبالغة على ما كان يكنه ابن الاثير لهذه الاسرة الزنكية من تقدير وولاء(٢) .

حظى عماد الدين زنكى ومماليك والده بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا ، وظل عماد الدين ملازما لكربوقا حتى وفاته بالموصل سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م . وعلى الرغم من ملازمة عماد الدين لكربوقا فترة زمنية طويلة ، فان المصادر المتداولة لم تذكر انه شارك مع كربوقا فى حملته العسكرية التى قام بها ضد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م فى محاولة انقاذ انطاكية من

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥-١٦ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٢٨ . ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٤ ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦ .

(٣) عن حملة كربوقا ضد الصليبيين ووفاته انظر ماسبق ص

السقوط بيد الصليبيين . ولما توفى كربوقا تولى أمر الموصل بعده جكرش ، فقرب عماد الدين زنكى واتخذه ولدا له لمعرفته بمكانة والده ، فبقى ملازما لجكرش حتى وفاته سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م (١) .

لم يفارق عماد الدين زنكى الموصل ،عقب مقتل جكرش ، بل ظل بها وانضم الى صفوف جاوى سقاوة بقصد جهاد الصليبيين . ولكن عماد الدين زنكى حين شعر بتغير جادلى تجاه السلطان محمد بن ملكشاه فارقه ، ومعه كثير من الامراء الاتراك ، بعد أن اشترك مع جاولى فى احدى المعارك ضد الصليبيين سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م (٢) . واضاف ابن الاثير ان سبب مفارقة عماد الدين زنكى لجاولى هو انضمام جاولى الى الصليبيين بزعامة تانكرد ضد المسلمين فى حلب سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م (٣) .

وفى تلك السنة (٥٠٢ هـ) استولى شرف الدولة مودود من قبل السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل ، واتصل به عماد الدين زنكى ، فقدر له مودود انفصاله عن جاولى ، وعرف مودود قدر عماد الدين من مواقفه ضد الصليبيين ، بالاضافة الى ماكان لوالده من منزلة كبيرة عرفها جميع الامراء

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ص ١٦ ، ابن واصل ،مفرج الكروب جـ١ ص٢٨ ولم ينس عماد الدين زنكى هذه العناية من جكرش فبعد ولايته على الموصل سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧ م احسن الى ولد جكرش ناصر الدين كورى ، اذ اكرمه وقدمه واقطعه كثيرا من الاقطاعات ولم يكتف بهذا بل اتخذه صهرا . انظر ابن الاثير، الكامل ، جـ١٠ ص ٤٢٤ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٦ ، ابن الاثير، الكامل جـ١٠ ص٤٢٤ . وجاولى سقاوة احد قادة الاتراك السلاجقة كانت له السيطرة على البلاد الواقعة بين خوزستان وبلاد فارس عمر بها الكثير من القلاع والحصون فاراد السلطان محمد بن ملكشاه ان يستغل مواهبه فى القضاء على خصومه فطلب حضوره باصبهان ولما حضر أمره بالمسير الى الصليبيين لحربهم بالجزيرة والشام " واقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة كلها " فسار حتى بلغ قريبا من الموصل فلقيه جكرش ودارت بينهما معركة انتهت بأسر جكرش وقتله سنة ٥٠٠ هـ واصبحت لجاوى السيطرة على الموصل والبلاد التابعة لها حتى سنة ٥٠٢ هـ حين تولى مودود امر الموصل .انظر ابن الاثير ،الكامل جـ١٠ ص ٤٢٢ ، ابوالفدا ،المختصر جـ٢ ص ٢٢١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٤٦٤-٤٦٥ .

الاتراك ، فزاد مودود فى اقطاعه وشهد عماد الدين معه حروبه ضد الصليبيين . وعلى سبيل المثال ، كان لعماد الدين زنكى اليد الطولى فى الموقعة التى جرت بين المسلمين والصليبيين فى معرة النعمان سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م التى ذكر ابن الاثير انه لم يظهر فى عسكر مودود احد ظهور زنكى[١]. كما شهد عماد الدين زنكى مع مودود المعركة التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى طبرية سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م[٢] .

لم ينقطع عماد الدين زنكى عن جهاد الصليبيين ، بل ظل ملازما لحكام الموصل الذين اخذوا على عواتقهم عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، فبعد ان عين السلطان محمد بن ملكشاه آقسنقر البرسقى على الموصل سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م وأوكل اليه مهمة جهاد الصليبيين عقب استشهاد مودود بدمشق انضم عماد الدين زنكى الى صفوفه وكان يعرف باسم زنكى الشامى . فظهر منه فى جهاد الصليبيين مالا يوصف على حد قول ابن الاثير[٣] . ورغبة من عماد الدين زنكى فى مواصلة الجهاد ضد الصليبيين فانه لم يذهب مع آقسنقر البرسقى الى بغداد سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م بل ظل فى الموصل مع الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه وجيوش بك حتى سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١م

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٨ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٢٩ ،
(٢) انظر ماسبق ص
(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٢٩ ،
وعن اللقب الذى لقب به عماد الدين زنكى وهو زنكى الشامى الذى عرف به زمن البرسقى انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، حاشية رقم ١٠ .

حين عاد اليها أقسنقر البرسقى واخذها من الملك مسعود وجيوش بك بأمر من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (١).

وكان أقسنقر البرسقى حين عاد الى الموصل قد حمل معه أمرا من السلطان محمود بن محمد أمرا بحفظ عماد الدين زنكى ، والوقوف عند اشارته ففعل بسبب ماذكره ابن الاثير من أن عماد الدين زنكى كان قد أشار على الملك مسعود بن محمد وجيوش بك ،بعدم الخروج عن طاعة السلطان محمود سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م (٢) . ولم يقف أقسنقر البرسقى عند حد تنفيذ أمر السلطان محمود له بالوقوف عند حد اشارة زنكى ، بل انه زاد على ذلك لمكانة عماد الدين عنده لما له من العقل والشجاعة .

أما عن علاقة عماد الدين زنكى بالسلاجقة والخلافة العباسية قبل ولايته الموصل سنة ٥٢١ هـ ، فقد كان عماد الدين زنكى من الامراء التابعين لآقسنقر البرسقى الذى طلب منه سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م العودة الى العراق لتولى شحنكيتها مرة اخرى والوقوف فى وجه دبيس بن صدقة ، ففعل آقسنقر ذلك واستصحب معه عماد الدين زنكى . ولما كان أمر دبيس بن صدقة قد استفحل تلك السنة فقد اقطع اقسنقر البرسقى عماد الدين زنكى مدينة واسط لايناس اهلها من دبيس بن صدقة ، واضاف اليه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها فظهر من كفايته فى البلدين مالم يظنه أحد فازداد شأنه (٣).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٥٠١-٥٠٢ ، ٥٢٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٠ .
كانت عودة اقسنقر الى بغداد بطلب من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، لتولى منصب شحنكية بغداد بدلا من مجاهد الدين بهروز الذى كان متوليها زمن السلطان محمد بن ملكشاه . انظر ابوالفدا ، المختصر ،جـ٢ ،ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ،ص ٢٢-٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٢٤-٢٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٣٠ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٢ ص ٢٣٦ ،ابن كثير ،البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٩٠ .

وهكذا أصبح عماد الدين زنكى بحكم توليه أمر واسط والبصرة تابعا لاقسنقر ، مما حتم عليه الاشتراك فى حروب السلطنة السلجوقية ، لكونه أحد قادة الدولة السلجوقية ويرتبط بشحنتهم آقسنقر فى بغداد ويلتزم بأوامره (١) . وبحكم سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية فى هذه الفترة فقد وقفوا الى جانب الخليفة العباسى المسترشد بالله ضد أمراء الحله العرب لا من أجل نصرة الخلافة وانما من أجل اضعاف الطرفين . وكان لعماد الدين زنكى أثره الكبير فى ترجيح كفة الخليفة العباسى ضد دبيس بن صدقة سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م (٢) .

وفى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م توترت العلاقات بين الخليفة العباسى المسترشد وآقسنقر البرسقى شحنة بغداد فطلب الخليفة من السلطان محمود بن محمد ابعاده عن بغداد ، فأجابه السلطان الى ذلك ، وأرسل الى البرسقى يأمره بالعودة الى الموصل والاشتغال بجهاد الصليبيين . وكان عماد الدين زنكى حينئذ بالبصرة فأرسل اليه البرسقى يعلمه الحال ويستدعيه للمسير معه الى الموصل . ولكن عماد الدين زنكى رأى انه لا طاقة له بالبقاء تحت تصرف آقسنقر البرسقى واوامره ، فرفض طلبه وانضم الى السلطان محمود بن محمد وأقام عنده باصبهان ، فرحب به وأكرمه وزوجه من أرملة احد أمراء والده السلطان محمد بن ملكشاه ، وزاد على ذلك أن جعله أتابكا لأخيه الملك طغرل بن محمد (٣) .

---

(١) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٥-٢٦ ، ابن القلانسى ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٢٧-٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢٢-٦٢٣ ، . واتابك لقب يتكون من لفظين : أتا - بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير . ولما كانت نظرية السلاجقة فى الحكم ترتكز على ان يتولى أفراد من الاسرة السلجوقية حكم الاقاليم ، فقد ارتبط بكل فرد من هؤلاء الامراء السلاجقة قائد تركى يحمل لقب أتابك - أى الامير الوالد - =

وعندما ازدادت غارات دبيس بن صدقة وأعوانه على البصرة سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م أقطعها السلطان محمود بن محمد لعماد الدين زنكي وأمره بالمسير اليها ، كما أمره بمراعاة أحوال واسط ، ومراقبة تحركات الخليفة المسترشد بالله ، الذى كان قد أشيع عنه فى بلاط السلطان محمود انه قد باشر الحروب وجند الجيوش فقام عماد الدين زنكي بالمهمة خير قيام "فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده "(١) .

وهكذا كان انفصال عماد الدين زنكي عن أقسنقر البرسقى ، وعدم اللحاق به فى الموصل بعد طرده عن شحنكية بغداد وانضمامه الى السلطان محمود بن محمد نقطة تحول فى تاريخ عماد الدين ، أدت الى ارتباطه بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مما سيكون له أكبر الاثر على شخصية عماد الدين .

وفى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م توترت العلاقات بين السلطان محمود ابن محمد والخليفة العباسى المسترشد بالله ، حصل على أثر ذلك قدوم السلطان الى بغداد ، بعد أن طلب من عماد الدين زنكي القدوم بالعساكر

= الذى يعتبر مسئولا عن تربية ابن الامير وتلقينه اصول الادارة والحكم وقد درج زعماء السلاجقة على تزويج الاتابك من احدى مطلقاتهم ، او قيام الاتابك بالزواج من والدة الامير الصغير عقب وفاة والده . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى جـ٤ ص ١٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٦٥ ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ١٢٢-١٢٣ ، الباز العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠-٢١ ، على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ص ٢٨٩-٢٩٠ .

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٨ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٣٠ .

الى بغداد لحرب الخليفة ، مما رجح كفة السلطان على الخليفة ، ولكن الامر انتهى الى عقد الصلح بين الطرفين فى السنة نفسها . ولما أراد السلطان محمود الرحيل عن بغداد فى السنة التالية ٥٢٠ هـ/١١٢٦ م نظر فيمن يصلح أن يلى شحنكية بغداد والعراق ، لتوطيد الامن بها والوقوف فى وجه الخليفة المسترشد بالله ، فلم ير فى أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم غير عماد الدين زنكى " فولاه شحنكية العراق مضافا الى مابيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد ، وقد اطمأن قلبه من جهة العراق حيث اسنده الى الكافى القيم بأمره "(١) ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود بن محمد قد أراد من وراء تولية عماد الدين زنكى شحنكية بغداد الوقوف فى وجه الخليفة العباسى المسترشد بالله ، فان عماد الدين زنكى ، قد سعى على مايبدو الى توطيد علاقاته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، بدليل ماسعى اليه الخليفة العباسى من تنحية دبيس بن صدقة عن الموصل ومساعدته لعماد الدين زنكى فى الوصول الى ولايتها سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م(٢) . ولا شك أن علاقة عماد الدين زنكى بالسلاجقة وبالخلافة العباسية فى عهد المسترشد بالله ، قد حددت مستقبله السياسى ، فبينما كان عماد الدين زنكى أحد الامراء التابعين لاقسنقر البرسقى ، فانه رأى بثاقب بصره وخبرته أنه لن يكسب من وراء ذلك

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٣١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٤١ ، سبط بن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ٢-٦ ، ابن قاضى شهبة الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، ص ٩٢ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٣١ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ص ٢٠٣ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ .

سوى تحمل تبعاته ، ولذلك فان عماد الدين قد اختار الطريق المناسب حين التحق بخدمة السلطان محمود بن محمد بأصبهان وارتبط به الارتباط الكامل ، الامر الذى كشف للسلطان محمود بن محمد عن قوة شخصية عماد الدين ، خصوصا حين وقف بصلابة فى وجه طموحات الخليفة العباسى المسترشد بالله الذى كان سائرا فى سبيل النهوض بأمر الخلافة العباسية .

أما عن ولاية عماد الدين زنكى للموصل سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، فالحقيقة أن الظروف السياسية فى العراق والموصل قد سارت فى صالحه ، وأصبح المنصب الجديد فى الموصل مهيأ له حتما ، ذلك انه قد حسن علاقاته بالخليفة المسترشد مدة توليه أمر شحنكية بغداد ، ثم ان عماد الدين زنكى قد حظى بصداقة رجل قوى من سكان بغداد ، هو أبوسعيد نصير الدين جقر بن يعقوب الهمذانى " الذى كان اعظم اصحاب اتابك زنكى منزلة " . بالاضافة الى ماتجمع عند السلطان محمود بن محمد من أسباب الاقتناع باختيار عماد الدين زنكى . ويضاف الى ذلك ان أحوال الموصل سارت من سيىء الى أسوأ بعد وفاة عز الدين بن مسعود بن آقسنقر سنة ٥٢١ هـ /١١٢٧ م ، اذ برز أحد المماليك الاتراك ويدعى جاولى سقاوه الذى سبق أن انتزع الموصل من جكرمش سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وأخذ على عاتقه الوصاية على الابن الاصغر لاقسنقر الذى لم تشر المصادر التاريخية المتداولة الى ذكر اسمه ، وحاول جاولى ان يحصل من السلطان محمود بن محمد على موافقة منه بتولية هذا الطفل شئون الموصل ، لكن الامور سارت على غير ماكان يصبو اليه ، فقد أرسل جاولى فى سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧ م صلاح الدين محمد الياغيسيانى ، وبهاء الدين الشهرزورى الى بغداد لأخذ الموافقة من السلطان محمود ، وكان الرسولان يخافان من جاولى " ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه " فلما حضرا الى بغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك

الامر قابلهما نصير الدين صقر المقدم ذكره وبينه وبين صلاح الدين الياغيسيانى مصاهرة ومودة ، فذكر له صلاح الدين سبب قدومه الى بغداد "فخوفه نصير الدين جقر من جاولى وتحكمه على صاحبه" ونصحه بأن يطلب الامر من السلطان باسم عماد الدين زنكى شحنة العراق . وعلى الرغم من اقتناع صلاح الدين بالامر ، الا أنه طلب من جقر مقابلة الشهرزورى ، واقناعه بذلك ، فتقابل معه ووعده نصير الدين ومناه وضمن له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع ما جاوز أمله ، فأجاب الشهرزورى كما أجاب الياغيسيانى (١). وبالاضافة الى ذلك فان الخليفة العباسى المسترشد بالله ، كان له دور بارز فى تغيير وجهة نظر الرسولين اللذين كان جاولى قد أرسلهما الى بغداد ، حيث استدعاهما الخليفة وطلب منهما ان يطلبا من السلطان محمود تعيين عماد الدين زنكى بدلا من الطفل الذى قدما من أجله (٢) .

والواقع أن رسل الموصل اقتنعا بما تلقياه من نصائح جقر والخليفة المسترشد بالله ، فقدما على الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد وزير السلطان محمود بن محمد ببغداد وشرحا له الموقف فى الموصل وما يعانيه أهل الشام والجزيرة من أخطار الصليبيين عقب مقتل آقسنقر البرسقى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وابنه مسعود فى السنة التالية وقالا له ان البلاد أصبحت خالية "من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها ، وقد انهينا الحال اليك لئلا يجرى خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من الله

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٤-٣٥ ، انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٣٢ ، ابوالفداء ، المختصر جـ ٢ ص ٢٣٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ .

واللوم من السلطان " . فأنهى الوزير ذلك الامر الى السلطان محمود بهمذان فاستحسنه وشكرهما عليه وأحضرهما ، واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة ، منهم عماد الدين زنكي . ولم يكتف الرسولان بهذه المشورة ، بل انهما تقربا الى الوزير ووعداه بأموال جليلة له وللسلطان ، اذا وافق على تولية زنكي أمر الموصل ، فأجاب السلطان الى تولية عماد الدين أمر الموصل ، لما يعلمه من كفايته لما يليه ، فأحضره بهمذان وولاه البلاد كلها ، وكتب منشورا بها ، وضم اليه ولديه ألب أرسلان وفرخنشاه المعروف بالخفاجي ، ليشرف على تربيتهما ، فلهذا قيل له أتابك (١) .

بعد أن حصل عماد الدين زنكي على المنشور الخاص بولاية الموصل والبلاد التابعة لها سار في شهر رمضان من السنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧م ، متوجها الى الموصل ، وقد شملت ولايته الموصل وديار الجزيرة ونصيبين وما كان بيد آقسنقر البرسقي (٢) . ومما تجدر الاشارة اليه أن ولاية عماد الدين زنكي لم تكن وليدة مشاورات حصلت في بغداد في عدة أيام بين عدد من الاصدقاء في تلك السنة ، ولكن الامر أبعد من ذلك بكثير ، فاشتراك عماد الدين زنكي مع قادة الموصل منذ سنة ٤٨٩ هـ في حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في الشام والجزيرة ، ثم اشتراكه مع اقسنقر البرسقي شحنة بغداد والسلطان محمود والخليفة المسترشد في القضاء على حركة دبيس بن صدقة سنة ٥١٧ هـ ، واخيرا ما قام به من

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٥ ، انظر ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٦٤٣-٦٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٣٣ ، الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ص ١٤٠-١٤٢ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ١٠ ص ٥ ، العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٢١ هـ وحوادث سنة ٥٢٥ هـ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣١-٣٣ .

ضبط الامور فى بغداد وواسط والبصرة فى السنوات من ٥١٨ هـ الـى ٥٢٠ هـ ، كل هذه الاسباب كانت سببا فى اختياره لولاية الموصل سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، فى الوقت الذى كان فيه أمر المسلمون فى بلاد الشام والجزيرة فى حالة من الضعف والهوان . وقد صور لنا ابن الاثير مدى اتساع سلطان الصليبيين وضعف المسلمين بقوله " وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حمص وحماة ودمشق (وشيزر) وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ، ورأس العين ، فاستأصلوا مالاهلها من أثاث وعبيد ، وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم فى ذل وصغار .. واستضعاف واقتسار ... وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا "(١) .

ولم يكتف الصليبيون بما فرضوه على المسلمين من مغارم ، وما قاموا به من قطع الطريق بين بلاد المسلمين ، بل انهم فرضوا على كل البلاد التى كانت تجاورهم اتاوة وخراجا " يأخذونها منهم ليكفوا ايديهم عنهم " ولم يقنعوا بذلك بل انهم ارسلوا رسلهم الى دمشق والمدن الاسلامية الاخرى ، واستعرضوا الرقيق الذين كان المسلمون قد استولوا عليهم من الروم البيزنطيين والارمن " وخيروهم بين المقام عند اربابهم (من المسلمين) او العودة الى أوطانهم والرجوع الى أهليهم واخوانهم " وهذا اخر مابلغ اليه المسلمون من الضعف

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٢-٣٣ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٤٣ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٢ .
- ورأس العين : مدينة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢١٧ .

على حد قول ابن الاثير " وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا وللكافرين قدرة واقتسارا "(١) . وهذه صورة معبرة عما كان المسلمون فيه من الضعف والهوان فى بلاد الشام والجزيرة وما عليه الصليبيون من القوة والاقتدار قبل قيام عماد الدين زنكى بأمر الجهاد .

- عماد الدين زنكى وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين :

ما ان تلقى عماد الدين زنكى الامر بتولى أمر الموصل وما كان بيد آقسنقر البرسقى من البلاد حتى سار الى الموصل فى شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م . وفى طريقه استولى على البوازيج (٢) وكان قصده من الاستيلاء عليها قبل وصوله الى الموصل الاحتماء بها فيما لو تصدى له جاولى ومنعه من دخول الموصل . الا أن جاولى حين بلغه قدوم عماد الدين زنكى ، تلقاه بالحفاوة والاكرام ، ودخل فى طاعته فأقطعه زنكى الرحبة وسيره اليها (٣) . ويبدو أن اذعان جاولى ودخوله فى طاعة زنكى انما هو لعلمه بعدم قدرته على مقاومة عماد الدين زنكى ، بالاضافة الى أنه من غير المستبعد أن تكون المفاوضات التى دارت فى بغداد قد وصلته ففضل عدم المجابهة لمن ارتضاه الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٣ .
(٢) البوازيج : بلد على نهر الزاب قرب تكريت من اعمال الموصل بخلاف بوازيج الانبار ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٤-٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٦٤٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٣٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٩ .

أقام عماد الدين زنكى بالموصل لاصلاح أمورها وتقرير قواعدها ، فكان أول عمل قام به اكرام الثلاثة نفر الذين سعوا فى بغداد لتوليته الموصل ، فولى نصير الدين جقر ولاية القلاع فى كل بلد يستولى عليه بعد الموصل ، وجعل صلاح الدين الياغيسيانى امير حاجب ، وبهاء الدين ابا الحسن الشهرزورى قاضى قضاة بلاده جميعها " ووفى لهم بما وعدهم "(١) .

ولما وطد عماد الدين زنكى أموره بالموصل ، بدأ يفكر فيمن حوله من الامراء المسلمين الذين يسيطرون على عدد من المدن والقلاع ، وهم متناحرون فيما بينهم . ورأى أن هؤلاء الامراء سيقفون حجر عثرة فى سبيله فيما لو أراد مواجهة الصليبيين ، خاصة وانه الرجل الذى عاصر قادة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى الموصل منذ سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م ، وعرف عماد الدين أن هؤلاء الامراء لابد من ضمهم تحت لوائه ، فبذلك يكون قد حقق ماعجز عن تحقيقه كربوقا ومودود ، وآقسنقر البرسقى من توحيد للجبهة الاسلامية .

من هنا بدأ عماد الدين زنكى بجزيرة ابن عمر ، التى كانت تحت حكم أحد مماليك آقسنقر البرسقى ، فاستولى عليها سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م ، ثم اتجه الى نصيبين فى نفس السنة وكانت بيد حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى صاحب ماردين . وقد حاول تمرتاش الدفاع عنها ولكنه عجز ، فذهب الى

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣٤ .

ونصيبين مدينة على شاطئ الفرات كان بينها وبين آمد اربعة ايام أو ثلاثة ومثلها بينها وبين حران . وهى وبيئة لكثرة بساتينها . انظر ياقوت ، معجم البلدان . ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢١٥ .

حصن كيفا بقصد الاستنجاد بابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق . غير أن أهل نصيبين سلموها الى عماد الدين زنكى ، حين تأخرت عنهم النجدة التى ذهب حسام الدين تمرتاش فى طلبها . ومن نصيبين سار زنكى الى سنجار فامتنع من بها عن التسليم ، ولكن أهلها صالحوا عماد الدين وسلموا اليه البلد ، ثم واصل مسيره الى الخابور وبها عدد من القرى الواقعة على نهر الخابور (١) ، واستطاع أن يفرض عليها سلطانه . ومن الخابور سار زنكى الى حران التى كانت فى ضيق شديد من حصار الصليبيين لها لقربها من الرها وسروج اللتين كانتا بيد الصليبيين . وكان أهل حران قد أرسلوا الى عماد الدين يستحثونه على الوصول اليهم ، فسار اليهم مجداً حتى نزل بأرضهم فاستبشروا بقدومه وخرجوا الى لقائه للترحيب به (٢) .

وبعد أن ملك عماد الدين زنكى بعض البلاد الجزرية التى كانت بيد الأراتقة وبعض المماليك الذين كانوا تابعين لاقسنقر البرسقى صاحب الموصل ، عاد فى سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م الى الموصل بقصد عبور الفرات، والاستيلاء على حلب ، وذلك للقضاء على الفوضى السياسية التى كانت بها، وباعتبارها أهم مركز فى شمال الشام يمكن اتخاذه نقطة انطلاق لمواجهة الصليبيين . يضاف الى ذلك أن حلب كانت فى يوم من الأيام تحت حكم والده آقسنقر الحاجب ، وبها قبره ، فلا غرو اذا كان الاستيلاء على حلب من أهم الاشياء عنده حسب قول ابن الاثير (٣) .

---

(١) الخابور : اسم لنهر كبير بين راسعين والفرات من ارض الجزيرة وبها بلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت اليه . انظر معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٤٥-٦٤٧ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٦-٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٣٤-٣٦ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٣٩ .

- وسنجار : بلد صغير يقع بالقرب من الموصل بارض الجزيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، القزوينى : اثار البلاد واخبار العباد ص ٣٩٣ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٧ ، انظر ابو الفدا ، المختصر جـ٢ ص ٢٣٩ .

وكانت حلب فى تلك السنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م يتنازعها كثير من الاهواء فابراهيم بن رضوان يحاول استعادة مجد أسلافه من سلالة رضوان ، وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار يحاول أن يفرض عليها سيطرة الاراتقة ، وبها أيضا من المماليك قومان ، وختلغ أبه وهما من مماليك عز الدين بن مسعود ابن آقسنقر البرسقى ، وكل منهما يحاول فرض سيطرته عليها ، فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد استضعفوا المسلمين ببلاد الشام ، وقوى طمعهم فى الاستيلاء على حلب التى بلغت حدا من الضعف لم تستطع معه دفع الصليبيين الذين كانوا يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان كما يقول ابن الاثير . (١)

وشعر صاحب منبج بما يدور فى حلب ، وحاول من قبله اصلاح مابين زعماء حلب من النزاع ولكنه لم ينجح ، فسير عماد الدين من قبله كلا من الامير سنقردراز والامير صلاح الدين حسن قراقوش ، وطلب منهما استدعاء المتخاصمين بحلب (بدر الدولة سليمان عبد الجبار بن أرتق وختلغ أبه) واحضارهما الى الموصل . فلما حضرا بالموصل سير من قبله صلاح الدين الياغيسيانى الى حلب " فصعد الى القلعة ورتب الامر بها وجعل فيها واليا "(٢) ، وكانت هذه هى الخطوة الاولى لاستيلاء عماد الدين على حلب أما الخطوة الثانية فهى مسير عماد الدين من الموصل الى حلب فى جيش عظيم من التركمان استطاع به الاستيلاء - فى طريقه - على منبج وبزاعه ، فلما

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٧ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٣٩ .
- وباب الجنان : باب من ابواب حلب ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥٠ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٤١ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٨ .

وصل الى حلب تلقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالا حد له فتم له بذلك الاستيلاء على حلب سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م (١) .

وكان استيلاء عماد الدين زنكى على حلب الخطوة الهامة فى سبيل توحيد بلاد الشام سواء أكان ذلك بأمر السلطان محمود بن محمد أم كان رغبة من عماد الدين زنكى فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة . ويمكن القول أن الاستقبال الذى قوبل به عماد الدين زنكى من سكان حلب كان دليلا واضحا على أن سكان حلب لا يزالون يذكرون تلك الايام التى عاشوها فى ظل حكم أقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى .

وفى حلب استطاع عماد الدين تصفية العناصر المعارضة له فقبض على ختلغ أبه وسلمه الى خصمه فضائل بن بديع رئيس حلب فقتله ، اما ابراهيم بن رضوان فقد هرب الى نصيبين ، فى الوقت الذى هرب فيه كل من سليمان بن عبد الجبار بن ارتق وفضائل بن بديع الى قلعة جعبر طرف صاحبها شهاب الدين مالك بن سالم العقيلى وجعل عماد الدين زنكى رياسة حلب لأبى الحسن على بن عبد الرزاق (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣٩ - ٤٠ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ص ٤٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ ،

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥٠ - ٦٥١ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٤٣ ، ابن القلانسى ، ص ٢١٨ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٣ .

أصبح عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب ، وجها لوجه مع الصليبيين خصوصا بعد أن فقدت دمشق زعيمها الكبير ظهير الدين طغتكين فى تلك السنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م . وعمل عماد الدين على تقوية روابطه بأهل حلب ، فتزوج من احدى بنات رضوان وبنى بها فى حلب سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م . ويبدو أن زواج عماد الدين من ابنة رضوان وغيره من الزواج باميرات من بنات حكام المناطق التى يطمع فى الاستيلاء عليها كانت من سياسته لاعطاء نفسه حق التدخل فى شئون الاسر الحاكمة او ليكتسب حق الوراثة فى الحكم فى تلك المناطق (١) .

وعلى الرغم من توثيق عماد الدين زنكى عرى الصداقة مع أسرة رضوان فى حلب ، فقد قدم اليه فى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م من دمشق أحد الامراء الذين تمرسوا على مواجهة الصليبيين وحروبهم بعد ان استوحش من تاج الملوك بورى خليفة طغتكين ، ذلك هو الامير سوار بن ايتكين الذى ولاه عماد الدين زنكى شحنكية حلب ، كما تولى مهمة مواجهة الصليبيين وغزوهم اثناء غياب عماد الدين زنكى عن حلب (٢) .

وفى حلب سمع عماد الدين زنكى بأنباء التحالف بين حسام الدين تمرتاشى صاحب ماردين وابن عمه داود بن سقمان وغيرهم من الامراء لاستعادة حران ونصيبين من عماد الدين زنكى ، فعاد على وجه السرعة من حلب

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٤٤-٢٤٥ ، شاكر ابوزيد ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ص ١٦٩ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٤٥ .

صوب الجزيرة ، فالتقى بالاراتقة فى دارا سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م ومعهم صاحب آمد سعد الدولة بن ابراهيم ومعهم عشرون الف فارس ، بينما كان عدد عسكر عماد الدين لا يزيد عن اربعة آلاف . واستطاع عماد الدين زنكى هزيمتهم عند دارا واستولى عليها وعلى سرجى الواقعة بين ماردين ونصيبين (١) .

وأدرك عماد الدين زنكى قوة الاراتقة بديار بكر وماردين واتحاد كلمتهم ضده ، فأحب التقرب اليهم لاحداث الشقاق بين كل من حسام الدين تمرتاش فى ماردين وابن عمه داود بن سقمان فى حصن كيفا ، ولما كان حسام الدين اكثر مرونة من داود بن سقمان ، فقد تقرب اليه عماد الدين زنكى ، واستعان به ضد صاحب آمد سعد الدولة بن ابراهيم ، حليف الاراتقة فى دارا ، فقاما بحصار دارا ، فأرسل صاحبها الى داود ابن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا يستنجده فأمده بمساعدة كبيرة الا أن الهزيمة كانت قد حلت بسعد الدولة بن ابراهيم صاحب آمد وبداود بن سقمان ووقع ابنه فى الاسر ، فعاد الى بلاده بينما ظل عماد الدين وحسام الدين تمرتاش محاصرين لآمد فترة من الزمن ، ولكنهما عادا عنها سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م "من غير بلوغ غرض" (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٦٤ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ . ودارا بلدة صغيرة بين نصيبين وماردين . وسروجى : حصن بين نصيبين وبلدة دنيسر ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١٣ ، انظر ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ ابن القلانسى ، ص ٢٤٣ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ص ٥١٢ ، عماد الدين الاصفهانى ، البستان الجامع ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ .

ولما أيس عماد الدين زنكى من الاستيلاء على آمد ، اتجه نحو قلعة الصور بديار بكر ، وكانت لداود بن سقمان فاستولى عليها فى تلك السنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٢ م ، وسلمها الى حسام الدين بن تمرتاشى ليزيد من حدة التوتر والشقاق بينه وبين ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن ارتق . ومن قلعة الصور سار عماد الدين زنكى الى طنزه ، واستولى عليها ولكنه لم يسلمها الى حسام الدين تمرتاشى بل استبقاها لنفسه (١) .

وعلى الرغم من انشغال عماد الدين زنكى بنزاع الاراتقة ، فقد استطاع سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م الاستيلاء على بعض المناطق التى كانت بيد حكام صغار كالرقة التى كانت بيد سعد الدولة المسيب بن مالك النميرى ، واستولى عليها وهو فى طريقه الى دمشق (٢) . وفى السنة التالية ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م استولى عماد الدين زنكى على جبل جور وبعض المواقع الجزرية وسلمها الى حليفه حسام الدين تمرتاشى (٣) . ولم يقف عند هذا الحد ، ففى السنة التالية ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م استولى على دقوقا الواقعة الى الشرق من بغداد (٤) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥٣-٢٥٤ ، ابن القلانسى ، ص ٢٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٥٤ ، ابن الاثير، الكامل جـ١١ ص ١٣ .
وطنزه بلد بجزيرة ابن عمر بديار بكر . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن ايبك ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٢٢ ، والرقة : مدينة مشهورة على الفرات كان بينها وبين حران ثلاثة ايام وهى معدودة من بلاد الجزيرة انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٥٤ ، وجبل جور اسم لكورة كبيرة بديار بكر من نواحى ارمينية بها قلاع وقرى كبيرة . انظر ياقوت معجم البلدان .

(٤) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٥٤ ، ودقوقا : مدينة فى جهة اربل بالعراق ، تقع بين اربل وبغداد . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، والحميرى ، الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ص ٢٤٤ .

ورغم أن عماد الدين زنكي كان يسعى الى تقوية روابط المودة بينه وبين حسام الدين تمرتاشى ، الا أن الخلاف قد استحكم بينهما سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م وذلك بسبب ماسعى اليه عماد الدين زنكي من الاستيلاء على بعض المدن والقلاع ، للتقوى بها ، تلك التى كانت بيد حليفه حسام الدين تمرتاشى (١) . ولكن عماد الدين زنكي لم يرغب فى توسيع هوة الخلاف بينه وبين حليفه صاحب ماردين ، فأرسل فى نفس السنة صلاح الدين محمد الياغيسيانى للتفاوض معه فى عقد الصلح بينه وبين عماد الدين زنكى ونجح الياغيسيانى فى مسعاه وأسفرت المفاوضات عن عقد الصلح بين عماد الدين وتمرتاشى ، على أن يسليم عماد الدين زنكى لتمرتاشى دارا .

ورغبة من عماد الدين زنكى فى توثيق عرا الصداقة بينه وبين حسام الدين تمرتاشى طلب الزواج من ابنه تمرتاش ، ومد عماد الدين لحسام الدين تمرتاشى يد المساعدة ضد ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق اذ أخذ عماد الدين زنكى فى مطاردة داود بن سقمان فى وسط بلاده ، وكاد أن يقضى عليه لولا شدة البرد التى أجبرته على العودة الى الموصل (٢) .

وفى سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩م توجه عماد الدين زنكى الى شهر زورالتى كانت تحت حكم قفجان بن ارسلان تاشى التركمانى ، وكان بها من التركمان مارغب عماد الدين فى الاستعانة بهم فى صد الصليبيين بالشام ، واستطاع

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٨٣ - ٨٤ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٧٦ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ١٢١ .

الاستيلاء عليها ، وحصل منها على ماكان يرغب فيه من الاستعانة بتركمانها المعروفين بالاقدام والشجاعة فى الجهاد (١) .

وعلى الرغم من ان عماد الدين زنكى قد نجح فى توطيد علاقاته بحسام الدين تمرتاش ، ومد له يد العون ضد ابن عمه ركن الدولة داود صاحب حصن كيفا ، فان الاراتقة بماردين وحصن كيفا قد شعروا بالخطر الذى يتهددهم من جانب عماد الدين ، فسعوا الى التفاوض فيما بينهم لعقد الصلح من أجل الوقوف فى وجه عماد الدين زنكى . وقد أسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهم فى سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١م ، ولكن عماد الدين زنكى الذى اشتهر بالفطنة والذكاء ، استطاع أن يتقرب من داود بن سقمان بن أرتق فشمله هذا الصلح الذى تم بين الاراتقة ومعهم صاحب آمد . وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر شروط هذا الصلح ، فانه لا يستبعد أن يكون قد نص على عدم اعتداء أى منهما على الآخر (٢) .

وعلى الرغم من ان هذا الصلح الذى تم بين الاراتقة وصاحب آمد وعماد الدين زنكى قد حد من توسعات عماد الدين زنكى على حساب الاراتقة وصاحب آمد ، فان صاحب آمد الذى كان يخشى من قوة عماد الدين زنكى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ، ص ٧٥-٧٦ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٧-٥٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ٦٥ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ص ٥٤ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ص ٢٠٦ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ٨ ص ١٨٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٥ هـ .
شهرزور : كورة واسعة فى الجبال بين اربل وهمذان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٨٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن الاثير ، الباهر ص ٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص٩٠ ، ابن ايبك ، كنز الدرر جـ٦ ص ٥٣٧ ، انظر ايضا عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ص ١٢٢-١٢٧ .

قد أعلن فى الخطبة ببلاده عن ولائه لعماد الدين زنكى (١) . كما أشار ابن العديم الى أن أولاد الاراتقة قد وصلوا لخدمة عماد الدين (٢) . كما أن هذا الصلح قد يسر لعماد الدين زنكى الاستيلاء على مزيد من الاراضى فى ديار بكر وهى التى لم تكن خاضعة للاراتقة . ففى سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م استولى على عدد من الحصون بديار بكر ، واستولى فى السنة نفسها على عانة والحديثة ، ونقل من كان بها من آل مهارش الى الموصل " ورتب بها أصحابه " (٣) .

ولما عزم عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م على المسير الى الرها لاستطلاع أحوالها ، توجه الى حانى ، واستطاع الاستيلاء عليها من قرا أرسلان بن داود بن سقمان الذى يتولى حصن كيفا عقب وفاة والده فى تلك السنة ، كما فرض عماد الدين سيطرته على كثير من مناطق امارة حصن كيفا بشمال ديار بكر (٤) .

وفى الوقت الذى استطاع فيه عماد الدين توسيع سلطانه باتجاه الشمال على حساب الامارات الارتقية وغيرها ، والى الغرب ناحية حلب ، والى الشرق ناحية العراق ، بقصد توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبى فى بلاد الشام والجزيرة ، فقد وجد أن المناطق الجبلية المحيطة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٨٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٠-٩٢ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٨٠ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢١٨ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ .
وحانى : مدينة بديار بكر ، انظر الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٥٣ ، وياقوت ، معجم البلدان .

بالموصل من الشمال والشرق ، لا تخلو من عناصر كردية غير خاضعة لنفوذه ، ورأى أن هؤلاء الاكراد - بحكم قربهم من الموصل - يعرفون مابها من القوة والضعف ، ولذلك قرر عماد الدين زنكى ضرورة اخضاع هؤلاء الاكراد لحكمه خصوصا وان عماد الدين زنكى صاحب المقالة التى نقلهاابن الاثير وهى :"ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها زالت الهيبة "(١) .

وكان عماد الدين زنكى قد شعر بخطر هؤلاء الاكراد فى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م حين انهزم أمام الخليفة المسترشد بالله وجيوشه بالعراق ولجأ الى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بتكريت وقدم له المساعدة حتى استطاع العودة الى الموصل ، ولولا مساعدة نجم الدين ايوب لما استطاع العودة الى بلده (٢) .

وفى طريقه الى الموصل سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ م استولى عماد الدين زنكى على بعض قلاع الاكراد الحميدية كقلعة شوش والعقر وبذلك أمن أهل الموصل من غارات هؤلاء الاكراد فى تلك القلاع . وما أنزله عماد الدين زنكى بالاكراد الحميدية فى العقر وشوش أزعج بقية الاكراد . فما ان سمع أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة أشب - أعظم قلاع الاكراد الهكارية - بتلك الاخبار حتى أرسل الى عماد الدين زنكى من حمل اليه مالا كثيرا واستحلفه لنفسه ولاصحابه . وبعد موت ابى الهيجاء بن عبد الله سار عماد الدين زنكى الى قلعة أشب سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م فملكها وقتل

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ص ٧٩ .
(٢) انظر طايلى ص

مقدمى الاكراد بها وعاد منها الى الموصل (١) . وفى السنة نفسها استولى عماد الدين زنكى من الاكراد الهكارية على بعض قلاعهم كقلعة الجلاب التى كان الاكراد قد أكثروا فيها الفساد . وكدليل على اخضاع قبائل الاكراد الهكارية قام عماد الدين زنكى ببناء قلعة العمادية على أنقاض قلعة أشب (٢) . هكذا يمكن القول بأن عماد الدين زنكى قد استطاع تحقيق المبدأ الذى رسمه لنفسه فى أن لا يبقى فى وسط بلاده ماهو لغيره حتى انه قد ذهب ضحية هذا الهدف كما سنرى فيما بعد .

أما عن موقف الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من عماد الدين زنكى بعد سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، فبعد أقل من سنة من ولاية عماد الدين زنكى الموصل سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تعرض لمحاولة عزله عن اتابكية الموصل ، ذلك أن دبيس بن صدقة أمير الحلة كان قد وصل الى السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وتقرب اليه وحسن له المسير الى العراق والاستيلاء عليه ، وقبل السلطان سنجر هذه المشورة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١٤-١٥ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ ، ٦٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٥٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ٨ ، والاكراد الحميدية هم احدى الطوائف الكردية التى كانت تسكن فى جبال الموصل الشرقية . انظر ياقوت : معجم البلدان ، القلقشندى صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ٣٧٣ .
والعقر : قلعة حصينة فى جبال الموصل تعرف بعقر الحميدية ، اهلها اكراد . وشوشى : قلعة عظيمة قرب عقر الحميدية من اعمال الموصل انظر ياقوت ، معجم البلدان . وقلعة اشب : لم يذكرها ياقوت فى معجمه . انظر ابن الاثير ، الباهر ص ٦٤ حاشية رقم ٣ .
والاكراد الهكارية : هم احدى الطوائف الكردية التى كانت تسكن قلعة اشب شرق الموصل . انظر المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١٥ ، ٩١ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٩٠ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ٨ ص ١٨٩ . وانظر ايضا عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ١٠٦ حاشية رقم ٢٦ .
والجلاب : قرية كانت تقع على نهر جلاب المار بمدينة حران . انظر ياقوت معجم البلدان .

وسار من خراسان حتى بلغ الرى حيث استدعى ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لتصفية الخلافات القائمة بينهما واصلاح مابين دبيس بن صدقة والخليفة العباسى المسترشد بالله فلبى السلطان محمود بن محمد طلب عمه سنجر وحضر الى الرى ، وبعد ان تم الاتفاق بينهما على ماطلبه سنجر عاد محمود الى عاصمته بهمذان وبصحبته دبيس بن صدقة (١) .

ولما كانت سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م قدم السلطان محمود بن محمد الى بغداد ومعه دبيس بن صدقة ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد بالله ، ولكن الخليفة امتنع عن الاجابة الى أن يولى دبيس بن صدقة شيئا من البلاد . ويضيف ابن الجوزى فى المنتظم أن السلطان محمود بن محمد أرسل الى عماد الدين زنكى يطلب منه التخلى عن منصبه فى الموصل لاجل تسليمه الى دبيس ابن صدقة (٢) . ووصل عماد الدين زنكى الى بغداد محملا بالهدايا الجليلة ، وأقام عند السلطان ثلاثة أيام سعى فيها الى اقناع السلطان محمود بضرورة ابقائه بالموصل ، واخيرا اقتنع السلطان بضرورة اعادة عماد الدين زنكى الى الموصل (٣) . ويبدو أن اقتناع السلطان محمود بن محمد باعادة عماد الدين زنكى الى الموصل يرجع الى رفض الخليفة العباسى لتولية دبيس بن صدقة ، ثم ماقدمه عماد الدين زنكى من الاموال الى السلطان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥١-٦٥٢ ، الذهبى ، العبر ، جـ٤ ص ٥٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٩٨ .
والرى : مدينة مشهورة من امهات المدن ، قصبة بلاد الجبال . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ١١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٤٣ .

محمود بن محمد فى مقابل العدول عن تولية دبيس بن صدقة للموصل . ويضيف ابن الاثير سببا آخر هو وفاة زوجة السلطان محمود بن محمد - ابنة السلطان سنجر - فى تلك السنة ٥٢٣ هـ ، وهى التى كانت تعنى بأمر دبيس بن صدقة وتدافع عنه . فلما ماتت انحل أمر دبيس(١) .

وساءت علاقة عماد الدين زنكى مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بعد وفاة السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م ففى تلك السنة أرسل عماد الدين زنكى الى الخليفة العباسى المسترشد بالله يطلب منه اقامة الدعوة فى الخطبة لالب أرسلان بن محمود ، الا أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجا بأن السلطان محمود قد أوصى بأن تكون السلطنة من بعده لابنه داود ، وأنه لن يبت فى الامر الا بعد موافقة السلطان سنجر بن ملكشاه ، سلطان سلاجقة خراسان وما وراء النهر باعتباره كبير الاسرة قائلا : " فانه عم القوم "(٢) .

اعتبر عماد الدين زنكى رفض الخليفة لطلبه اعلان اسم ألب أرسلان بن محمود بالخطبة ، اهانة له فساءت العلاقات فيما بينهما فى الوقت الذى قام فيه النزاع بين كل من الاخوين مسعود بن محمد وسلجوق شاه ابن محمد ، وكل منهما يريد السلطنة لنفسه . واستغل الملك مسعود بن محمد توتر العلاقات بين عماد الدين زنكى والخليفة العباسى المسترشد بالله ، فاستعان بعماد الدين زنكى ضد أخيه سلجوق شاه الذى كان قد وصل الى بغداد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٥٥ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٦٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٤٦ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ٢٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٤٤ . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ص ٧٦ .

وانضم الى الخليفة المسترشد . وتردد عماد الدين زنكى فى تقديم المساعدة لمسعود بن محمد . غير أن تنازل مسعود عن اربل لعماد الدين زنكى بلدة دفعه الى مساعدة مسعود ضد خصومه فخرج من الموصل صوب العراق ، بقصد نجدة مسعود ضد أخيه سلجوق والخليفة العباسى المسترشد بالله غير أن الهزيمة وقعت على عماد الدين زنكى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م مما دفعه الى العودة الى الموصل ولولا نجم الدين أيوب صاحب تكريت، لما استطاع عماد الدين زنكى العودة الى الموصل . (١)

ولما علم السلطان مسعود بهزيمة عماد الدين زنكى وعودته الى الموصل أرسل الى الخليفة العباسى يخبره بقدوم السلطان سنجر ووصوله الى الرى ، وأنه عازم على قصد العراق . وعرض فى الوقت نفسه على الخليفة الاتفاق للوقوف فى وجه سنجر فوافق الخليفة المسترشد بالله وترددت الرسل بينهما فى الصلح ، فتم الصلح على أن تكون السلطنة لمسعود ويكون سلجوق شاه ولى عهده ، وتحالفوا على ذلك (٢) . . غير أن السلطان سنجر حين سمع بهذا الترتيب تقدم الى العراق ومعه ابن أخيه الملك طغرل بن محمد ملكشاه ، فلقى طلائع جيش مسعود وسلجوق شاه قريبا من الدينور واستطاع ان ينزل بهما هزيمة ساحقة فى سنة ٥٢٦ هـ/١١٣٢ م ، استدعى على أثرها

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ،جـ١٠ ص ٦٧٥-٦٧٦ ، ابن الاثير، الباهر، ص ٤٣-٤٤ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ١٠ ص ٢٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ،جـ١٢ ص ٢٠٣ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٠٩ . وكان هذا اول اتصال بين الزنكيين والايوبيين .انظر، ابوشامة ،الروضتين ،جـ١ ق ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ،جـ١٠ ،ص ٦٧٦ .

السلطان مسعود وعفى عنه ، وأعاده الى كنجه واجلس الملك طغرل بن محمد فى السلطنة وخطب له فى جميع البلاد بينما عاد سنجر الى خراسان (١) .

أما عماد الدين زنكى ، فقد حاول أن يستغل هذه الاوضاع المتردية بين السلاجقة فى النيل من الخليفة المسترشد ، الذى كان قد رفض الدعوة لألب أرسلان بن محمود ، وليأخذ بثأره اثر الهزيمة التى لقيها على يد سلجوق شاه وقائده قراجه الساقى حليفى المسترشد بالله ، حين خرج نجدة لمسعود بن محمد. فخرج للمرة الثانية فى هذه السنة ٥٢٦ هـ/ الى العراق ومعه دبيس بن صدقة بقصد النيل من المسترشد بالله بحجة ان السلطان سنجر قد منح عماد الدين زنكى شحنكية بغداد ، بينما ادعى دبيس بن صدقة أن السلطان سنجر منحه ولاية الحلة . الا ان المسترشد بالله استطاع أن ينزل بهما هزيمة ساحقة بعقرقوف فى رجب من السنة المذكورة ، عاد بعدها عماد الدين الى الموصل بينما سار دبيس بن صدقة الى الحلة ، واستمر فى اثارة الفتن والقلاقل بالعراق (٢) .

وهكذا لم يستطع عماد الدين زنكى النيل من الخليفة العباسى المسترشد بالله فى الوقت الذى عاد فيه النزاع على أشده بين السلاجقة ، اذ برز

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٧٧-٦٧٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ٢٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ٦ .
والدينور : مدينة من اعمال الجبل وهى كثيرة الثمار والزروع .
وكنجة: كانت مدينة عظيمة بين خوزستان وأصبهان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ .
- وعقرقوف : قرية من نواحى دجيل ، كان بينها وبين بغداد اربعة فراسخ ، انظر ، ياقوت ، معجم البلدان .

داود بن محمود بن محمد منازعا لطغرل بن محمد بتأييد من الخليفة المسترشد بالله والسلطان سنجر بن ملكشاه . ولكن السلطان مسعود بن محمد كان يكنجه ، قدم الى بغداد فاستقبله الخليفة والسلطان داود بن محمود بن محمد وخطب له ولداود من بعده وخلع عليهما من قبل الخليفة. ولكن السلطان مسعود استطاع ان يتتبع خصومه من البيت السلجوقي حتى غدا سلطانا على سلاجقة العراق وفارس بموافقة عمه سنجر ، بعد وفاة منافسه في السلطنة طغرل بن محمد في سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م(١) .

غير أن عماد الدين زنكي لم يسع الى توثيق علاقاته بالسلطان مسعود ابن محمد ، بل على العكس سعى الى تشكيل الاحلاف للوقوف في وجهه لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك "(٢) . ومن هنا يمكن القول بأن عماد الدين زنكي قد خسر العلاقات الودية مع السلاجقة ، تلك العلاقة التي كان ينبغي عليه ان يحافظ عليها ، كما أنه أيضا سعى الى هدم علاقاته الودية مع الخليفة العباسي المسترشد بالله على الرغم من انه كسب شهرة عظيمة كأمير كبير له وزنه في النزاع بين السلاجقة أنفسهم او بينهم وبين العباسيين ، كما أنه خرج من تلك الأزمة بالتعرف على عائلة نجم الدين أيوب حيث أفسح لهم المجال في جهاد الصليبيين فيما بعد (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٨٢ - ٦٨٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم جـ١٠ ص ٢٩ ، ابن القلانسي ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ص ١٤٥ ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٥٠ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ص ٦٥ .

(٣) انظر عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص ٥٤ .

حاول عماد الدين زنكى بعد عودته الى الموصل الانصراف عن مشاكل بغداد والتفرغ لامر الجهاد ولكن الخليفة المسترشد لم ينس ما بدر من عماد الدين زنكى من مواقف عدائية سابقة ضده كالاستعانة بدبيس بن صدقة . لذلك استغل الخليفة العباسى المسترشد بالله انضمام عدد من الامراء السلاجقة اليه نتيجة للخلاف بين السلاطين السلاجقة وأرسل سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م الى عماد الدين زنكى أحد رجاله يتهدده ويتوعده على ما كان منه تجاه سديد الدولة ابن الانبارى كاتب الانشاء عند الخليفة ، والذى كان الخليفة قد ارسله الى دمشق سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م للتفاوض مع حكام دمشق من أسرة طغتكين فى أمر دبيس بن صدقة (١) ، ظنا من الخليفة بقوته وهيبته ، وقد زاد رسول الخليفة الى عماد الدين فى الاغلاظ والتشديد " فقبض عليه عماد الدين وأهانه ولقيه ما يكره " . فلما سمع الخليفة بذلك أرسل الى السلطان مسعود بن محمد ، يعرفه الامر الذى جرى من عماد الدين ويعلمه بعزمه على المسير الى الموصل لحرب زنكى . ويبدو أن السلطان مسعود قد وافق الخليفة على الامر ، اذ تجهز الخليفة بقواته التى بلغت نحو ثلاثين الف مقاتل خرج بها فى رمضان من السنة نفسها ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م الى الموصل (٢) .

ولما سمع عماد الدين زنكى بقرب وصول الخليفة الى الموصل ، بذل أموالا كثيرة ليرجع عنه ، فلم يقبل الخليفة ، فرأى عماد الدين زنكى أن الخروج من الموصل أنجع له من البقاء بها ، ففارقها وترك بها نائبه نصير الدين جقر بينما نزل هو بظاهر سنجار . غير ان الاستعدادات التى أعدها نصير الدين جقر فى سبيل مواجهة الخليفة أجبرت الخليفة على البقاء

---

(١) عن اسر دبيس بن صدقة بيد حكام دمشق انظر ما يلى ص
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٥ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٣٠ .

مدة ثلاثة شهور محاصرا لها " فلم يظفر الخليفة بشيء فعاد الى بغداد " (١) .
وكان سبب عودة الخليفة الى بغداد قبل الاستيلاء على الموصل ماذكره ابن الاثير فى التاريخ الباهر من أن الخليفة عجز عن الاستيلاء عليها " فلو رأى امارة ظفر وفتح ، لم يرحل " (٢) ، وأضاف ابن الاثير فى الكامل ومن نقل عنه من المؤرخين اضافة هى ان سبب عودة الخليفة مابلغه من ان السلطان مسعود عزم على قصد العراق (٣)

ولما عجز الخليفة العباسى المسترشد عن اقتحام الموصل سعى فى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م الى اقرار الصلح مع عماد الدين " ووقع الاتفاق مع زنكى ووصلت رسله بالحمل والهدايا " (٤) . ويبدو ان الصلح الذى تم بينهما جاء نتيجة لعداوة كل منهما للسلطان مسعود بن محمد . فقد ساءت العلاقات بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بسبب عدم تحمس الخليفة العباسى لقضايا السلطان ومحاربة المعارضين له .ثم أعقب ذلك لجوء كثير من أمراء الطرفين الى كل منهما ، وما احدثه هؤلاء الامراء من اثارة حقد كل منهما ضد صاحبه ، مما ادى الى اتساع شقة الخلاف بينهما ،

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٥٣ ، انظر ابوالفدا ،المختصر ، جـ ٣ ص ٧ .
(٢) ابن الاثير ،الباهر ،ص ٤٨ .
(٣) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ص ٦ ، انظر ايضا ابن الجوزى ، المنتظم جـ١٠ ص ٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٥٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٥٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٠٤ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٧ .

حتى اضطر المسترشد بالله الى قطع الخطبة باسم السلطان مسعود بن محمد من بغداد (١) . ولم يكتف الخليفة بهذا ، بل استدعى عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٥م وطلب منه الحضور الى بغداد لاعلان الدعوة في الخطبة لالب ارسلان بن محمود ، ولكن عماد الدين زنكي لم يستطع الحضور لانشغاله بحصار دمشق ولكنه أرسل نجدة عاجلة الى الخليفة ضد خصمهما المشترك السلطان مسعود بن محمد (٢) . ولكن هذه النجدة لم تحل دون وقوع الخليفة في أسر السلطان مسعود بن محمد في شهر رمضان سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٥م وقتله في ذى القعدة من السنة المذكورة خارج حدود بغداد (٣) . وبعد ان تخلص السلطان مسعود من الخليفة العباسي المسترشد بالله ، حاول التقرب من عماد الدين زنكي ليتمكن من القضاء عليه دون مشقة ، ولكنه فشل في الامر . وقد ذهب ضحية هذه المحاولة من قبل السلطان مسعود دبيس بن صدقة ، حيث قتله السلطان مسعود في السنة المذكورة ٥٢٩ هـ/١١٣٥م (٤) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ١٩ ، ٢٤ - ٢٥ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ١٠ ص ٤١ - ٤٤ ، الذهبى ، العبر ، جـ٤ ص ٧٥ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ١٠٧ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ٥٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤٩-٥٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٥-٢٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ٤٥-٥٠ ، ابن القلانسى ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ص ١٦٥-١٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ق ١ ص ١٥٤-١٥٧ ، عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ص ١٢٤ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٥٠ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ق ١ ص ١٥٢ .

حاول السلطان مسعود بن محمد ان يفرض سيطرته على خليفة بغداد الجديد (الراشد) مستغلا فى ذلك ماكان قد تم بينه وبين والده المسترشد بالله ، فتقدم فى السنة التالية ٥٣٠ هـ/١١٣٦م وطالب الخليفة الراشد بمبلغ أربعمائة الف دينار كان قد فرضها على والده فرفض الراشد تلبية رغبة السلطان مسعود تسليم المبلغ المذكور ، فما كان من السلطان الا أن أوعز الى شحنة بغداد بأن يقوم بهجوم على دار الخلافة ولكن الراشد استعد للموقف واستطاع اخراج الشحنة ومن معه من قوات السلطان " ونهب أهل بغداد دار السلطان "(١) .

ولما خاف الخليفة الراشد انتقام السلطان مسعود استدعى ولاة الاطراف ومنهم عماد الدين زنكى فى بغداد لمساعدته ضد السلطان مسعود ، فلما اجتمعوا فى بغداد سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م تشاوروا فى الامر بشأن مواجهة السلطان مسعود اذا قدم بغداد فاتفق رايهم على قتاله ، ولم يقف الخليفة عند هذا الحد بل قطع الدعوة فى الخطبة للسلطان مسعود (٢) . فلما بلغ السلطان مسعود ذلك سار الى بغداد وحاصرها مدة اثنين وخمسين يوما حتى ضاق الامر على من بها ، فخرج الراشد الى الجانب الغربى من بغداد وفيه عماد الدين زنكى ، وهناك حاول السلطان مسعود ان يضرب عصفورين بحجر واحد - خذلان الراشد وقتل زنكى - فقام بمكاتبة عماد الدين زنكى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٣٧ ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٥٤ .

(٢) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٦٤ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٥٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

سرا وحلف له أن يقره على بلاده اذا رجع اليها وترك الراشد . وكاتب في الوقت نفسه بعض الامراء ومناهم ورغبهم في أن من قتل عماد الدين زنكي سيعطيه بلاده ، غير أن عماد الدين زنكي عرف هذه المؤامرة ، فغادر العراق متوجها الى الموصل ومعه الخليفة الراشد (١) .

وما ان سمع السلطان مسعود بأنباء خروج الخليفة وعماد الدين زنكي من بغداد الى الموصل حتى تقدم ودخل بغداد في السنة نفسها ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، فجمع القضاة والفقهاء واستفتاهم في خلافة الراشد فأفتوا تحت ضغط من السلطان بخلعه من الخلافة ، بعد ان أمضى في الخلافة نحو احدى عشر شهرا ، وطلب السلطان مسعود ان يتولى الخلافة أحد أبناء البيت العباسي فتولاها بعد الراشد عمه المقتفي لامر الله في ذي الحجة من السنة المذكورة (٢) .

أما عماد الدين زنكي فانه بعد مسيره من بغداد الى الموصل اصطحب معه الخليفة الراشد بالله على الرغم مما كان قد بدر من الخليفة الراشد في حق بعض رجال عماد الدين ، فوصلاها ونزل الخليفة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٣٧-٤١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٥٩-٢٦٠ ، العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ ، ابن العبري ، مختصر الدول ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٤٢ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٣-٥٤ ، العماد الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ص ١٦٧ ، ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ق١ ص ٦٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢١٠ .

بظاهر الموصل (١) .

لم تدم اقامة الخليفة الراشد بالموصل طويلا ، اذ أن عماد الدين زنكى رأى أنه لابد من اعادة العلاقات الطيبة مع السلطان مسعود بن محمد فعرض على الراشد فكرة ارسال الرسل الى بغداد لتقصى حقائق الوضع هناك وانهاء حالة الحرب بين الطرفين ، فوافق الراشد وارسلا الرسل الى بغداد (٢) . فلما وصل رسل الموصل الى بغداد استقبل رسول عماد الدين زنكى كمال الدين الشهرزورى بينما اعرض عن رسول الخليفة الراشد وسمعت رسالة زنكى وابلغ بخلع الراشد ومبايعة المقتفى . وأعلن موافقته على ذلك مع اشتراطه على حكومة بغداد مايرضى به عماد الدين زنكى حيث قال " ولكن لابد لنا فى هذه الدعوة من نصيب لان امير المؤمنين قد حصلت له خلافة الله فى أرضه والسلطان قد استراح ممن كان يقصده ونحن بأى شىء نعود ؟ " فرفع قوله الى السلطان مسعود بن محمد فأمر الخليفة المقتفى بأن يعطى أتابك زنكى بعض المواقع الهامة بالعراق من خاص الخليفة ، وان يزاد فى القاب عماد الدين ، فأصبح بذلك لعماد الدين زنكى اقطاعات بالعراق (٣) .

ولما عاد الشهرزورى الى الموصل أبطل عماد الدين زنكى فى رجب من السنة التالية ٥٣١ هـ/١١٣٧م الدعوة للراشد وأعلنها للمقتفى بأمر الله ، فسدت الابواب فى وجه الراشد ، الذى لم يجد بدا من مفارقة

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٥٠-٥٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .
(٢) انظر عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ٦١ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٤٤-٤٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ .

الموصل فى شهر رمضان من السنة المذكورة متوجها الى خراسان ، حيث التحق بالسلطان داود بن محمود وظل ملازما له حتى توفى الراشد فى السنة التالية ٥٣٢ هـ/١١٣٨ م[1] . وبذلك اطمأن السلطان مسعود بن محمد الى هذه الاجراءات وطلب من الخليفة المقتفى ارسال الخلع والتشريفات الى عماد الدين زنكى خصوصا وانه فى تلك السنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ م استطاع صد محاولات الصليبيين والبيزنطيين للاستيلاء على حلب وغيرها من بلاد الشام[2] .

تحسنت العلاقات بين عماد الدين زنكى والسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية . ويرجع السبب فى ذلك الى أن الخليفة العباسى لم يكن شديد الطموح كما كان سلفاه المسترشد والراشد ، يضاف الى ذلك أن عماد الدين زنكى كان مشغولا بأمر الصليبيين فى الشام وبأمر استكمال توحيد قوى الشام والجزيرة . ورغم ذلك فان الشكوك كانت تراود كلا من عماد الدين زنكى والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد فى حسن نية كل منهما تجاه صاحبه ، ويدل على ذلك أن النجدة التى أرسلها السلطان مسعود بن محمد الى عماد الدين زنكى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨م ضد الصليبيين والبيزنطيين لم تجهز الا بعد محاولات مضنية بذلها كمال الدين الشهرزورى للسلطان مسعود . ولم يسمح عماد الدين زنكى لقوات السلطان بدخول

---

(١) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٢٦٣ .

(٢) انظر مايلى ، ص

بلاد الشام ، خوفا من أن يتخذ السلطان من هذه النجدة ذريعة للتدخل فى شئونه (١) .

وعندما فرغ السلطان مسعود بن محمد من بعض مشاغله ومشاكله سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤ م عزم على المسير الى عماد الدين زنكى بالموصل لتصفية مابينهما من احقاد وثارات قديمة بسبب الشكوك التى راودت السلطان مسعود من أن عماد الدين زنكى هو الذى دبر قتل الملك داود بن محمود من تلك السنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م . يضاف الى ذلك أن عماد الدين زنكى كان وراء كل المؤامرات التى كانت تحاك ضد السلطان من اصحاب الاطراف " وكان ظنه فيه صادقا ، فانه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد "(٢) .

ومن هنا وجد السلطان مسعود بن محمد مايوجب مسيره الى الموصل فتجهز فى تلك السنة بكثير من العساكر للانتقام من عماد الدين زنكى . غير أن أخبار مسير السلطان الى الموصل قد بلغت عماد الدين ، فأرسل رسله الى السلطان لعقد الصلح بينهما . وبعد مداولات ومشاورات تم الصلح بينهما على مائة ألف دينار تحمل الى السلطان مسعود من عماد الدين ، وحضور عماد الدين الى السلطان ليطأ بساطه ، ولكن عماد الدين زنكى اعتذر عن الشرط الاخير لانشغاله بأمر الصليبيين ، فعذره السلطان واشترط عليه فتح الرها (٣) . ويضيف ابن الاثير فى الباهر ان كثيرا من رجال

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٩٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٩٠ .

(٢) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦٢ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٧٩ ، ابن القلانسى ص ٢٧٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٩٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

السلطان قد نصحوه بعدم السير الى الموصل ، لانه لا يقدر على حفظهـا من الصليبيين " غير اتابكى زنكى "(١) . وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى قد نجح فى اقناع السلطان بعدم الوصول الى الموصل ، الا أنـه شك فى أن هذا سيمس كرامة السلطان ومكانته بين رعاياه ، ولذلـك فقد لجأ الى حيلة ذكرها ابن واصل ، استطاع بها ان ينال رضى السلطان تتلخص فيما يلى " كان ولده الاكبر سيف الدين غازى لا يزال فى خدمة السلطان مسعود سفرا وحضرا نائبا عن والده فى الخدمة فأرسل اليه يأمره بالهرب من السلطان مسعود الى الموصل وأرسل الى نائبه نصير الدين جقر بالموصل يأمره بمنع سيف الدين من الدخول الى الموصل فمنعه نصير الدين جقر من الدخول الى الموصل . ولما بلغ الخبر الى والده أرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول : ان ولدى هرب خوفا لما راى تغير السلطان على ، وقد أعدته الى الخدمة ولم اجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل هذا عند السلطان محلا عظيما "(٢) .

هكذا نجح عماد الدين زنكى فى تهدئة خواطر السلطان حتى ثنى عزمه عن السير الى الموصل سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م ولا يستبعد ان يكون عماد الدين زنكى وراء خروج اصحاب الاطراف على السلطان مسعود فى هذه السنة مما اضطر السلطان الى التنازل عن بقية المبلغ الذى كان قد تم عليه الاتفاق سابقا بينهما ، ثم مدارة السلطان لعماد الدين

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٠ . [illegible]
ابن الجوزى ...

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٩١ .

زنكى ليقف الى جانبه ضد الخارجين عن طاعته (١) . واخيرا فانه يمكن القول بأن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانتا من العوائق التى عرقلت نشاط عماد الدين زنكى لا فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فحسب بل وفى وقوفه أمام الصليبيين . ولم تقدم له اية مساعدات عسكرية اللهم الا النجدة التى أرسلها السلطان مسعود بن محمد مع كمال الدين الشهروزورى سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ م وقد رأى عماد الدين زنكى أن دخول هذه القوات الى الشام سيسبب له متاعب من السلطان مسعود ابن محمد فرفضها (٢) . واذا كانت هناك مبررات لعدم مد يد العون لعماد الدين زنكى أثناء قيام الفتن فى العراق سواء بين السلاجقة أنفسهم أو بين السلاجقة والخلافة العباسية فان خلافة بغداد المقهورة على أمرها والسلطنة السلجوقية المتدهورة غير محقين تماما فى عرقلة سياسة عماد الدين زنكى فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

أما عن موقف حكام دمشق من أسرة طغتكين تجاه بعث فكرة الجهاد الاسلامى زمن عماد الدين زنكى ، فمن المعروف أن ظهير الدين طغتكين أسس له ولاسرته من بعده حكما مستقلا فى دمشق عقب وفاة دقاق بن تتش سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣ م . وحكم طغتكين دمشق حتى وفاته سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨م ، بذل خلال تلك السنوات كثيرا من الجهد والوقت

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ص ٦٦ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٣ ص ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢١٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٥٨ .

لا فى سبيل مواجهة الصليبيين والدفاع عن دمشق ، بل وفى مساعدة الولاة الفاطميين بمدن الساحل وولاة السلاجقة فى الموصل وحلب الذين تزعموا بعث فكرة الجهاد الاسلامى قبل عماد الدين زنكى . غير أنه بموت ظهير الدين طغتكين سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م ظهر فراغ كبير فى دمشق خاصة وفى بلاد الشام عامة ، مما جعل خلفائه من بعده عرضة للاطماع الصليبية والقوى الاسلامية الاخرى . فبعد استيلاء عماد الدين زنكى على حلب سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م لم يعد مستبعدا ان تراوده فكرة الاستيلاء على دمشق وتوحيد قواها مع قوة حلب وبلاد الجزيرة ، ولكن الظروف التى أجبرت عماد الدين زنكى على العودة الى العراق سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م قد أخر أخرت تنفيذ المسير الى دمشق والبلاد التابعة لها كحمص وحماة وبعلبك وبصرى وبانياس(١) .

ولما عاد عماد الدين زنكى سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م من بغداد الى حلب بعد أن حصل على توقيع من السلطان محمود بن محمد بجميع البلاد الشامية ، انتهز فرصة وقوع بعض الحوادث السياسية التى قامت بها فرقة الاسماعيلية ومحاولتهم تسليم دمشق الى الصليبيين ، وقيامهم بتسليم بانياس الى الصليبيين فى تبرير تدخله فى شئون حكام دمشق (٢) ، ولكنه رأى أنه من الصعب توجيه ضربة يستطيع بها الاستيلاء على دمشق قبل الاستيلاء على المدن والقلاع المحيطة بها وخاصة مدينتى حماة وحمص الواقعتين على الطريق الرئيسى الى دمشق (٣) . وكانت حماة بيد سونج بن تاج الملوك بورى ، بينما كانت حمص بيد صمصام الدين خير خان بن قراجه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥٤ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١١٩ .
(٢) انظر ما سبق ، الفصل الاول ص
(٣) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ١١٩ .

الذى كان عماد الدين زنكى قد وطد علاقاته به منذ دخوله حلب سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م[1] .

وبدأ عماد الدين زنكى فى تنفيذ خططه ومناوراته فى الاستيلاء على دمشق ، فأظهر انه يعتزم القيام بجهاد الصليبيين فى بلاد الشام فكتب الى تاج الملوك بورى وطلب منه النجدة . ولما كان تاج الملوك بورى يخشى من غدر عماد الدين زنكى فقد ارسل اليه من اخذ له العهود والمواثيق بعدم الغدر فأعطاه . وجرد بورى من دمشق خمسمائة من عسكره مع جماعة من الامراء وكتب الى ولده سونج بحماه يأمره بالخروج بعسكره فساروا سنة ٥٢٤ هـ/١١٣٠ م حتى وصلوا الى مخيم عماد الدين زنكى بحلب " فأحسن لقاءهم وبالغ فى الاكرام لهم " ولكن عماد الدين زنكى غدر بسونج بن بورى وألقى القبض عليه وعلى جماعة من مقدمى عسكره وعسكر دمشق وسجنهم بحلب ثم سار عماد الدين من يومه الى حماه فاستولى عليها وسلمها الى صاحب حمص ابن قراجه الذى كان قد أشار على عماد الدين زنكى بالقاء القبض على سونج . ثم ألقى القبض على ابن قراجه وسار الى حمص ونازلها مدة أربعين يوما فلم يظفر منها بشىء وعاد الى حلب ومنها الى الموصل فى السنة نفسها ٥٢٤ هـ/١١٣٠ م وصحبته سونج بن بورى[2] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤٣ . ،
وتاج الملوك بورى بن طغتكين تولى أمر دمشق بعد وفاة والده فى صفر سنة ٥٢٢ هـ وكانت سيرته حسنة تتبع الاسماعيلية ومن ناصرهم بدمشق حتى قضى عليهم ، ظل حاكما لدمشق حتى مقتله سنة ٥٢٥ هـ . انظر صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العهد السلجوقى ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير ، ص ٢١ .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٢٨ ، انظر ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٥٨-٦٥٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٣٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٤١ ، ٤٢ ، =

وترددت الرسل بين عماد الدين زنكي وبوري بشأن اصلاق سراح ابنه سونج على أن يدفع لزنكي مبلغ خمسين الف دينار ، فلم يقبل عماد الدين . ولكنه حدث أن وقع دبيس بن صدقة اسيرا في يد تاج الملوك بوري سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١م حين كان سائرا الى صرخد فضل الطريق ووقع اسيرا بيد مكتوم بن حسان بن مسمار الكلبي زعيم بني كلاب الذي سلمه الى تاج الملوك بوري . ولما سمع عماد الدين زنكي خبر أسر دبيس عند حكام دمشق أرسل الى بوري في طلب تسليمه اياه مع الخمسين الف دينار المقررة سابقا ، واطلاق سراح سونج ومن معه أو المسير الى حصار دمشق اذا لم يلب طلبه " ففادى به تاج الملوك ابنه سونج لاتابك " وتم تبادل الاسرى بين الطرفين في الثامن من ذي القعدة سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١م في مكان يسمى قارا (١) .

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكي قد اقتطع حماه من املاك أسرة طغتكين حكام دمشق ، الا انه لم يستطع مواصلة التضييق عليهم وذلك بسبب تغير الاوضاع في العراق ، فالسلطان محمود بن محمد قد توفي سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م ، وعلاقة عماد الدين زنكي بالخليفة العباسي المسترشد

= العظيمي تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ، ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ص ٩٤ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ٣ .

(١) العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥٢٥ هـ ، انظر ابن القلانسي ص ٢٢٨ ، ٢٣٠-٢٣١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٦٥٩ - ٦٦٨-٦٦٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٥ .

- وصرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق وهي من البلدان ذات القلاع الحصينة .

- وقارا : قرية كانت على قارعة الطريق بين حمص ودمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

بالله قد شابها التوتر ، واضطر عماد الدين الى الانغماس فى الصراع الذى دار بين السلاجقة انفسهم وبين السلاجقة والخلافة العباسية عقب وفاة السلطان محمود . وافلتت من يد عماد الدين زنكى اكبر فرصة كان يمكن أن يستغلها للقضاء على أسرة طغتكين ، وتوحيد الجبهة الاسلامية وذلك عند موت تاج الملوك بورى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢م واستيلاء ابنه شمس الملوك اسماعيل على مقاليد الحكم فى دمشق (١) .

ولم يخسر عماد الدين زنكى تلك الفرصة فحسب ، بل ان حكام دمشق بزعامة اسماعيل بن بورى استطاعوا استعادة حماه منه فى السنة التالية سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣م نتيجة لانشغاله بأمر الخليفة العباسى المسترشد بالله ومدافعته ومنعه من الاستيلاء على الموصل (٢)... ولم يقف حكام دمشق عند هذا الحد من استعادة حماه بل استطاعوا استعادة بانياس من الصليبيين فى السنة نفسها (٣) . ولكن عماد الدين زنكى استطاع ان يسترد مكانته بعد أن فشل المسترشد بالله فى الاستيلاء على الموصل سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤م (٤) .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٣٣-٢٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٦٧٩-٦٨٠ ، الذهبى دول الاسلام جـ ٢ ص ٤٨ .

- وشمس الملوك اسماعيل بن بورى ولى أمر دمشق بعد مقتل والده بورى فى رجب سنة ٥٢٦ هـ . وكان شهما شجاعا استطاع استرداد بانياس من الصليبيين . ولكن سيرته ساءت بين رعاياه مما أجبر والدته على التخلص منه بمساعدة بعض رجال دمشق سنة ٥٢٩ هـ . انظر صلاح الدين المنجد ولاة دمشق فى العهد السلوجقى ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ص ٢٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٦-٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٣٧-٢٤١ ، الذهبى دول الاسلام جـ٢ ص ٤٨ .

(٤) انظر ماسبق ص

عاد عماد الدين زنكى مرة أخرى يفكر فى امر الاستيلاء على دمشق فى سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م مستغلا فى ذلك ان صاحب دمشق اسماعيل بن بورى قد ساءت سيرته بين سكان دمشق ، حتى انحل امره وضعفت دولته (١). ولما عرف شمس الملوك اسماعيل أن أمر دمشق سيفلت من يده سواء بيد كبار رجالات دمشق او بيد عماد الدين زنكى ، بادر الى مكاتبة عماد الدين زنكى فى السنة نفسها واطمعه فى تملك دمشق ، واستحثه ايضا على سرعة الوصول اليه واشترط عليه معاقبة كل من يكره بدمشق من الامراء والمقدمين والاعيان وحذره من انه سوف يسلم دمشق الصليبيين فى حالة تأخره عن الوصول الى دمشق (٢) .

ويبدو أن شمس الملوك اسماعيل كان يهدف من وراء هذا العمل الخطير الى معاقبة المعارضين له بدمشق الا انه ذهب ضحية هذا العمل بعد ان اكتشفه كبار الامراء بدمشق حيث اتفقوا فيما بينهم على مشاورة والدته فى الامر " فقلقت لذلك وامتعضت منه واستدعته وأنكرته .. فأمرت غلمانه بقتله ونودى بشعار أخيه شهاب الدين محمود بن بورى من بعده "(٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٤٥ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٨ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٤٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٢١ - ٢٢ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ١٢١ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٢١ - ٢٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٣ .

لم تكن هذه الحوادث بدمشق قد وصلت أخبارها الى عماد الدين زنكى الذى بعث برسله - حين عبر الفرات متوجها الى دمشق - لتقرير قواعد التسليم . ولكن رسله الذين أرسلهم الى دمشق وجدوا بها الامور على غير ماكانوا يتوقعونه ، فعادوا وأخبروا عماد الدين بالوضع الجديد ولكنه لم يحفل بذلك وحدثته نفسه بالاستيلاء عليها " ظنا منه بأن الخلف يقع بين الامراء والمقدمين من الغلمان " فسار اليها وشدد عليها الحصار مرارا متعددة فلم يظفر بطائل اذ وجد قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة من أهل دمشق واتفاقا على محاربته . وكان لمعين الدين أنر - مملوك ظهير الدين طغتكين ومدبر دولة أولاده من بعده - فى هذه النوبة قياما مشهودا فى الدفاع عن دمشق (١) .

ولما تعذر على عماد الدين زنكى الاستيلاء على دمشق عمد الى طلب الصلح من معين الدين أنر وأمراء دمشق والدخول فى طاعته (٢) . ولم يكتف بهذا بل طلب من أمراء دمشق ايضا ان يسمحوا لشهاب الدين محمود بن بورى بالخروج من دمشق ومقابلة ولد السلطان محمود بن محمد واسمه ألب ارسلان الذى كان مع عماد الدين زنكى هاربا من عمه مسعود بن محمد ، فلم يوافق شهاب الدين محمود على ذلك بل سمح لاخيه بهرام شاه بن بورى بالخروج الى عماد الدين زنكى (٣) . ويبدو أن غرض عماد الدين زنكى

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٤٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ٥٧ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٤٨ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٨ .

من طلب خروج شهاب الدين محمود اليه هو القاء القبض عليه ليكون فى يده ورقة رابحة يستطيع بها مفاوضة حكام دمشق على التسليم ، الا ان ذلك الامل لم يتحقق اذ أن حكام دمشق لم ينسوا وقتذاك مافعله عماد الدين زنكى بسونج بن بورى سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م .

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لم يستطع الاستيلاء على دمشق فقد ظل محاصرا لها حتى وصل مندوب من قبل الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤م لطلب النجدة منه ضد السلطان مسعود بن محمد ، وطلب منه الخليفة تسوية أموره مع حكام دمشق ورفع الحصار عنهم والعودة الى العراق ومناه باقامة الخطبة لالب ارسلان بن محمود ليزيد من عزم عماد الدين على الانضمام الى جانبه وترجيح كفته ضد خصومه السلاجقة (١) .

ولما ان وصل رسول الخليفة المسترشد بالله واسمه بشر بن كريم الجزرى الى عماد الدين زنكى وهو محاصر لدمشق حتى ضم اليه عماد الدين زنكى كمال الدين الشهرزورى وارسلهما الى دمشق لمفاوضة حكامها بخصوص طلب الخليفة المسترشد بالله فى اقامة الخطبة بدمشق لالب ارسلان بن محمود ، فوافق حكام دمشق "وخطب للسلطان ارسلان على المنبر بأمر أمير المؤمنين " ولما تم ذلك عاد عماد الدين زنكى الى حلب فى منتصف سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤م (٢) .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٤٣ .
(٢) ابن القلانسى ص ٢٤٨ ، انظر ابو الفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٩ .

ولما أيس عماد الدين زنكي من الاستيلاء على دمشق ، صرف همه الى استعادة حمص بعد الحوادث التي تجددت بها سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م، ففي تلك السنة استرد شهاب الدين محمود حمص من اولاد خير خان بن قراجه وسلمها الى الحاجب يوسف بن فيروز نيابة عن معين الدين أنر. فأوعز عماد الدين زنكي الى نائبه في حلب سوار بن اتيكين بالاغارة على حمص فشرع سوار في جمع الجيوش وطلب المعونة من أهل حماة وتابع بمن معه الغارات على حمص ورعي زرعها ، الا أن شهاب الدين محمود ارسل الى عماد الدين زنكي في طلب الصلح فجرت في ذلك مراسلات ومخاطبات اسفرت عن المهادنة والموادعة والمسالمة الى أمد معلوم وأجل مفهوم " كما يقول ابن القلانسي وبهذا الصلح كف سوار بن ايتكين عن مهاجمة حمص(١) .

غير أن رغبة عماد الدين زنكي في الاستيلاء على حمص ودمشق من أسرة طغتكين قد جعلها من اكبر المهام التي أراد تنفيذها . لذلك فانه بعد ان فرغ من مشاكل بغداد أقبل على تجهيز حملة عسكرية في شهر شعبان سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦م بقصد الاستيلاء على حمص التابعة لحكام دمشق . وسير عماد الدين زنكي صلاح الدين الياغيسياني الى حمص بعد أن حاصرها للتفاوض مع مستحفظها معين الدين أنر في أمر التسليم دون اراقة الدماء . ورفض معين الدين أنر التسليم بحجة كون حمص لشهاب الدين محمود ، على الرغم من تهديد عماد الدين زنكي له وسرعان ما تجمع الصليبيون في بعرين " نجدة لحمص وغيلة لاتابك ، فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بعرين " بقصد انتزاعها منهم ، ولكنه خشي من غدر حكام دمشق ، فأقدم على عقد

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ، انظر ايضا ابن الاثير، الكامل ، ج ١١ ص ٣٨ ،ابوالفدا ، المختصر جـ٣ ص ١٠ .

مهادنة وموادعة معهم لاجل مواجهة الصليبيين (١) .

وبعد أن انتهى عماد الدين زنكى من أمر الحملة البيزنطية الصليبية التى استهدفت الاستيلاء على حلب وشيزر وغيرها من مناطق شمال الشام سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧م (٢) ، عاد الى محاولة الاستيلاء على حمص ودمشق فسار فى السنة نفسها من حلب الى حماة ومنها الى بعلبك وملك حصن المجدل ، وكان تابعا لصاحب دمشق . وخاف والى بانياس من قبل حكام دمشق فراسل عماد الدين زنكى ووعده بتسليم بانياس اليه . وواصل عماد الدين مسيره الى حمص وشدد عليها الحصار ، وارسل الى شهاب الدين محمود للتفاوض معه فى تسليم حمص له وتعويض حكام دمشق عنها ببعرين والمكمة والحصن الشرقى ، وأن يتزوج بأمه ويزوجه ابنته معتقدا بذلك انه اذا تزوجها "كان ذلك طريقا الى تملكه دمشق" . فتزوج عماد الدين بوالدة شهاب الدين محمود وتسلم حمص مع قلعتها الا انه بعد زواجه منها خاب أمله فى الوصول الى دمشق عن طريق هذه الزيجة لان والدة شهاب الدين محمود بعد زواجها فقدت مكانتها وسطوتها لدى حكام دمشق (٣) .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣١ هـ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٥٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٧١ .
- وبعرين - اوبارين - بلد بين حمص والساحل . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) انظر مايلى ص

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٥٥ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٢ ص ٧٦-٧٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٦٢-٢٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ .
- وحصن المجدل : بلد طيب وحصين بالخابور . والمكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . انظر ياقوت - معجم البلدان .

وفى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م تم اغتيال شهاب الدين محمود بسبب سوء سيرته اذ اغتاله ثلاثة من غلمانه بدمشق ، ولكن القائمين بدمشق من الامراء كتبوا على وجه السرعة الى أخيه جمال الدين محمد بن بورى يستدعونه من بعلبك. فحضر الى دمشق واستولى على مقاليد السلطة ، وفوض أمر دولته الى أنر(١) .

ولا يستبعد ان يكون معين الدين أنر قد سعى الى تدبير اغتيال شهاب الدين محمود بن بورى ، بدليل الخطوة التى اتخذها جمال الدين محمد بن بورى فى تعيين أنر بعد دخوله الى دمشق مباشرة . يضاف الى ذلك ما سعى اليه أنر من ابعاد بهرام شاه أخى شهاب الدين محمود عن دمشق وانضمامه الى عماد الدين زنكى (٢) .

أدى حادث اغتيال شهاب الدين محمود الى تدخل عماد الدين زنكى فى شئون دمشق مرة اخرى والعمل على انتزاعها من يد معين الدين أنر وجمال الدين محمد بن بورى . وقد ذكر المؤرخون ان زوجة عماد الدين زنكى زمرد خاتون قد وجدت على ولدها شهاب الدين محمود وجدا شديدا وحزنت عليه ، وأرسلت الى زوجها عماد الدين زنكى وهو بالموصل تعرفه الحادثة وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطالب بثأر ولدها . فأقبل عماد الدين زنكى ، وفى مقدمته الامير الحاجب صلاح الدين محمد الياغيسيانى فسار

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٧٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ١٢٦ .

حتى عبر الفرات ، ودخل حلب فى اواخر سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨م ورحل منها الى حماه . فلما علم من بدمشق بهذا الامر احتاطوا واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولكن عماد الدين زنكى عدل عن المسير الى دمشق وتوجه إلى بعلبك ، وراسل معين الدين بشأن تسليم بعلبك فرفض انر تسليم بعلبك ، وضيق عماد الدين زنكى عليها بعد أن نصب عليها اربعة وعشرين منجنيقا ، حتى ضاق الامر على من بها فطلبوا الامان من عماد الدين زنكى فأمنهم وسلموا اليه القلعة فى شهر صفر من سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩م فلما نزلوا منها غدر بهم عماد الدين وملك بعلبك وجعل عليها نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الايوبى . وأدت سياسة عماد الدين تجاه أهل بعلبك وما انزله بهم من العقاب الى تصميم اهل المدن الاخرى على الدفاع عن بلادهم " لاسيما اهل دمشق فانهم قالوا : لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء ، فازدادوا نفورا وجدا فى محاربته "(١) . ولم يكتف معين الدين انر بالاستعدادات العسكرية فى الدفاع عن دمشق بل انه سعى ايضا الى ارسال أسامة بن منقذ الى الوزير الفاطمى رضوان بن الولخشى الذى كان قد لجأ الى عماد الدين زنكى وساعده على فتح بعلبك . واستطاع أسامة بن منقذ اقناع رضوان بمفارقة عماد الدين زنكى وحذره جانبه (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٦٨ ، ٦٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحليب جـ ٢ ص ٢٧٢ ، ابن القلانسى ص ٢٦٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٣٠ - ٣١ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ٩٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ - ٥٣٤ هـ .

أما عن سبب وصول الوزير الفاطمى رضوان بن الولخشى الى بلاد الشام فلان العلاقات قد ساءت بينه وبين الخليفة الحافظ مما اضطره الى الرحيل الى بلاد الشام والاستقرار طرف صاحب صرخد ، بقصد =

بعد أن انتهى عماد الدين زنكي من أمر بعلبك وترميم ماتشعث فيها سار الى دمشق فى السنة نفسها ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م فلما نزل قريبا من البقاع أرسل الى صاحب دمشق وعرض عليه تسليم دمشق وتعويضه عنها ببعلبك وحمص فلم يجبه الى ذلك ، فتقدم عماد الدين زنكي ونزل بظاهر دمشق وبدأت المناوشات بين الطرفين ثم تجددت المراسلات بين الطرفين فى الصلح وأجاب جمال الدين الى تسليم دمشق ولكنه حصل مالم يكن فى حسبان عماد الدين زنكي اذ اشتد المرض بجمال الدين محمد حتى ادى الى وفاته فى شعبان من السنة نفسها ٥٣٤ هـ/١١٣٩م مما أطمعه فى الاستيلاء على دمشق ، فعاود عماد الدين القتال مرة أخرى مستغلا فى ذلك وفاة صاحب دمشق وطمعا فى وقوع الاختلاف بين الامراء بدمشق . غير ان الامر كان بالضد اذ أن المقدمين فى دمشق سعوا الى تولية ابنه مجير الدين أبق بن محمد ، ووقفوا فى وجه عماد الدين بكل قوة وصلابة (١) .

ولما كانت حالة أهل دمشق قد بلغت حدا من الضعف والخوف من الوقوع فى يد عماد الدين زنكي لشدة الحصار المضروب عليهم من عماد الدين

= الاستعانة به ضد خصومه فى مصر . وقد حاول الانضمام الى عماد الدين زنكي ومساعدته من اجل الحصول على مساعدات من عماد الدين غير ان ذلك لم يتم بسبب السعي الذى سعى به أسامة بن منقذ بأمر من معين الدين انو صاحب دمشق . انظر المصادر السابقة .

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٧٠-٢٧١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٧٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢١٦ ، الذهبي ، العبر ، جـ ٤ ص ٩٣ ، رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٣٦٤ .

- ومجير الدين ابق هو ابو سعيد التركي المعروف بمضب الدولة ، ولد فى بعلبك وقدم الى دمشق مع ابيه محمد ، تولى حكم دمشق فى الثامن من شعبان سنة ٥٣٤ هـ عندما كان عماد الدين محاصرا لدمشق ، وكان ابق صغير السن حين تولى امر دمشق فظل تحت وصاية معين الدين =

ولصغر سن مجير الدين أبق لذلك كاتب معين الدين أنر الصليبيين وطلب منهم النجدة ضد عماد الدين على ان يسلمهم بانياس بعد استعادتها من زنكى ومبلغ عشرين الف دينار يؤديها لهم كل شهر . ولم يكتف بهذا بل انه خوف الصليبيين من عماد الدين زنكى وحذرهم من انه لو ملك دمشق فانه لن يبقى لهم معه فى الشام مقام . وعندما علم عماد الدين زنكى بما تم عليه الاتفاق بين أنر والصليبيين رفع الحصار عن دمشق وتوجه الى حوران فى رمضان من السنة نفسها للقاء الصليبيين قبل وصولهم الى دمشق ، غير أن الصليبيين حين علموا بتحركات زنكى ، لم يخرجوا من بلادهم فعاد عماد الدين الى حصار دمشق فنزل شمال دمشق واحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده (١) . وحدث أثناء حصار عماد الدين لدمشق أن خرج والى بانياس من قبل عماد الدين زنكى فى عدة وافرة من أصحابه للاغارة على الصليبيين بصور ، وكان صاحب أنطاكية قد خرج منها فى الوقت نفسه باتجاه دمشق نجدة لها من عماد الدين زنكى . والتقى صاحب أنطاكية بوالى بانياس فأسره وقتله . فلما سمع معين الدين أنر بذلك خرج الى بانياس وحاصرها وضيق عليها الحصار ومعه طائفة من الصليبيين " فأخذها وسلمها الى الفرنج " (٢) .

= أنر . انظر ، صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العهد السلجوقى نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير الحافظ ، ابن عساكر ، ص ٢٣ .

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٥ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٧٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٣-٢٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٦٤-٣٦٧ ، وحوران كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كبيرة ومزارع كثيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٧٣ ، انظر ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٨٨ .

وما ان بلغ عماد الدين زنكى نبأ تسليم بانياس الى الصليبيين حتى جمع جموعه وسار صوب بانياس لانتزاعها من يد الصليبيين . ولكنه اراد قبل ذلك الانتقام من حكام دمشق فخرج فى ذى القعدة من سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م ، وسار حتى بلغ دمشق وقرب من سور البلد ففرق عساكره وأمرهم بالاغارة على المناطق المحيطة بدمشق كالغوطة وحوران والمرج بينما سار هو مع مجموعة من خواصه فنازل بهم دمشق سحرا ولم يشعر به أحد الا ان الذعر الذى أصاب اهل دمشق حمسهم على قتال عماد الدين ولم يمكنوه من البلد واجبروه على الانسحاب الى مرج راهط لقلة من كان معه من الجند لان أغلب عساكره كان قد فرقهم فى البلاد المحيطة بدمشق . وفى مرج راهط اجتمع عماد الدين بأصحابه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ورحل عائدا الى بلاده(١) .

وهكذا لم يستطع عماد الدين الاستيلاء على دمشق حتى بعد أن جردها من البلاد التابعة لها كحمص وحماة وبعلبك وغيرها ، وذلك بسبب استماتة اهل دمشق فى الدفاع عنها ، يضاف الى ذلك مابذله معين الدين أنر فى سبيل الحفاظ عليها ومنعها من السقوط فى يد عماد الدين زنكى ، حتى أن معين الدين أنر لم يجد حرجا فى الاستعانة بالصليبيين ضد عماد الدين زنكى كما رأينا . ويمكن القول بان حكام دمشق من أسرة طغتكين قد وقفوا حجر عثرة فى وجه عماد الدين زنكى الذى كان يهدف الى توحيد الجبهة الاسلامية للوقوف فى وجه الصليبيين من أجل بعث فكرة الجهاد الاسلامى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٧٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ٨٩ ، ابوالفدا ، المختصر ج ٣ ص ١٥ .

- ومرج راهط مرج بنواحى دمشق وهو أشهر مروج بلاد الشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ضد الصليبيين والى تقويض الوجود الصليبى فى كل من الجزيرة وبلاد الشام [1].

عماد الدين والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١-٥٣٨ هـ/ ١١٢٧-١١٤٣م :

ما ان تولى عماد الدين زنكى الموصل سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م حتى أدرك مدى قوة الصليبيين وضعف المسلمين وتفرق كلمتهم. ولم يشأ أن يقاتلهم الا بعد أن يتم استعداده باستكمال توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة، ليوفر لرعاياه مزيدا من الطمأنينة حتى تكون جبهته الداخلية قادرة على تحمل ماسيقع من حوادث فى المستقبل سواء كانت نصرا ام هزيمة فوقع فى السنة المذكورة (٥٢١ هـ/ ١١٢٧م) هدنة مع جوسلين Joceline صاحب الرها لمدة سنتين وذلك من اجل التفرغ للاستيلاء على مزيد من الاقاليم فى بلاد الشام والجزيرة التى لم تكن تحت يد الصليبيين، وبهدف اصلاح ما افسده قادة الاتراك الذين كانت لهم مطامع شخصية، ثم تولية هذه الاقاليم فى بلاد الشام والجزيرة لامراء يختارهم بنفسه ويرى مدى قدرتهم وشجاعتهم على مواجهة الصليبيين. وفى ذلك يقول ابن الاثير " وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التى بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة يعلم انه يفرغ من الاستيلاء على مابقى من البلاد الشامية والجزيرية واصلاح شأنها والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم " [2].

---

(١) انظر سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية جـ١ ص ٥٥٧، حامد غنيم ابوسعيد، الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ١ ص ٢٥٤، عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى ص ١٦٦.

(٢) ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص ٣٧، انظر ابن الاثير، الكامل، جـ١٠ ص ٦٤٧، ابن واصل، مفرج الكروب جـ١ ص ٣٦.

وكان عماد الدين زنكى قبل توقيع الهدنة مع جوسلين قد تلقى نداء من أهل حران القريبة من الرها وسروج يطلبون منه القدوم الى بلادهم فخاف عماد الدين زنكى من أن يصطدم بجوسلين صاحب الرها فاضطر الى عقد الهدنة معه (١)، وكان جوسلين قد بلغ وقتذاك سنا لم يعد يسمح له بالمغامرات التى كان يقوم بها فى شبابه ، لذلك وافق على ماطلبه منه عماد الدين زنكى " فاستقرت قاعدة الصلح بينه (أى عماد الدين) وبين جوسلين على ما اختاره "(٢) على أن أهم نتائج هذه الهدنة مع جوسلين انها سهلت لعماد الدين زنكى مهمة الوصول الى حلب واستيلائه عليها فى السنة التالية ٥٢٢ هـ/١١٢٨م لان الاستيلاء على حلب والقضاء على مابها من فوضى كان أهم اهداف عماد الدين زنكى ، وقطع استيلاء عماد الدين زنكى على حلب حبل الامل امام الصليبيين فى الاستيلاء عليها مستقبلا (٣).

وبعد استيلاء عماد الدين زنكى على حلب سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨م غادر بلاد الشام الى بغداد لتسوية بعض الامور مع السلاجقة والخلافة العباسية عاد بعدها الى بلاد الشام فى سنة ٥٢٤ هـ/١١٣٠ م وأخذت أوضاعه فى الاستقرار خاصة بعد أن فرغ من أمر الامراء الارتقية بديار بكر والجزيرة وأمن ناحيتهم . كما قدم الى عماد الدين من دمشق احد الرجال الذين تمرسوا على حرب الصليبيين ذلك هو سوار بن ايتكين فولاه حلب وأعمالها .

---

(١) ابوشامة ، الروضتين جـ١ ق ١ ص ٧٧-٧٨.
(٢) ابن الاثير، الباهر ص ٣٧.
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٥٥٠ .

وكانت لابن ايتكين اليد الطولى فى حرب الصليبيين الى جانب عماد الدين زنكى (١) . وأخذت اوضاع الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة فى التدهور حيث أن جوسلين الثانى صاحب الرها لم تعد عنده القدرة الفائقة على القيام بمغامرات ، ثم ان بوهمند الثانى صاحب انطاكية قتل فى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م فى لقاء له مع سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى مخلفا فى حكم انطاكية زوجته اليس ابنة بلدوين ملك بيت المقدس ، فأبدت العداوة للصليبيين ووقفت فى وجه والدها بلدوين محاولة منعه من دخول انطاكية . الا انها لم تستطع الصمود أمامه ، فدخل انطاكية وعاقب كثيرا من أنصارها وعفى عنها من القتل غير أنه اخذ منها انطاكية ووهب لها جبلة واللاذقية بينما عاد هو الى بيت المقدس (٢) . وبوفاة بوهمند الثانى صاحب انطاكية يقول رنسيمان لقد انتهى دور الجيل القديم من زعماء الصليبيين وظهر جيل جديد من الرجال والنساء الذين لم يسعوا الا الى المحافظة على ما امتلكوه (٣) .

أما عماد الدين زنكى فانه بعد أن فرغ من أمر السلاجقة والخلافة العباسية وسيطر على بعض المدن والقلاع بمنطقة الجزيرة رأى انه لابد له

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٢٤ هـ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤٦-٢٤٧ الحريرى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ ١ ص ٥٠١ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ١٣٩ .

(٣) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٩٢-٢٩٧ . .

من مواجهة الصليبيين عسكريا خصوصا وان الهدنة التى بينه وبين جوسلين قد انتهت وان الصليبيين قد استولوا على حصن القدموس من المسلمين أواخر سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م [1] . وأدرك عماد الدين زنكى أهمية حصن الاتارب الواقع بين حلب وأنطاكية - وماكان يلقاه اهل حلب ممن به من الصليبيين . ويعلق ابن الاثير على ذلك بقوله " وكان اهل البلد (حلب) معهم (اى الصليبيين) فى ضر شديد وضيق كل يوم ، قد أغاروا عليهم ونهبوا أموالهم " . فأخذ عماد الدين زنكى فى الجمع والاحتشاد والتزود بكل انواع العتاد وخرج من حلب صوب الاتارب والصليبيون قد جمعوا به كل طاقاتهم حتى انهم اعتبروا ان هذه الوقعة مع عماد الدين زنكى سيكون لها مابعدها فأخذ فى حصار الاتارب ، ولم ينفرد بالرأى فى أمر المسلمين ، بل استشار رجاله فأشار عليه بعضهم بالعودة الى حلب واستدراج الصليبيين ومهاجمتهم بعد تفرقهم . ولكن عماد الدين زنكى اعتبر هذه المشورة هزيمة المسلمين وانها ستطمع الصليبيين فى المسلمين . وصمم على لقائهم فتم ذلك بين الطرفين قريبا من الاتارب فى سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م وكان النصر الى جانب المسلمين . واستولى عماد الدين زنكى على الاتارب ، ودك حصنها ، وحث رجاله على الفتك بالصليبيين " وقال : هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه فى قلوبهم ، ففعلوا ما أمرهم " فأحدث ذلك فى الصليبيين مقتلة عظيمة [2] .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١ ص ٦٦٢-٦٦٣ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٩-٤١ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٤٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ٣-٤ .

وهكذا تم تخريب حصن الاثارب فحقق عماد الدين زنكى أول انتصار له على الصليبيين . ومن الاثارب توجه عماد الدين زنكى الى قلعة حارم بالقرب من أنطاكية وهى بيد الصليبيين فضرب عليها حصارا شديدا حتى اضطر من بها من الصليبيين الى بذل نصف دخلها لعماد الدين زنكى . ولأن الكثيرين من رجال عماد الدين زنكى قد تضرروا من المعركة التى تمت فى الاثارب ، فقد وافق عماد الدين على الهدنة مع الصليبيين ومناصفتهم فى دخل حارم (١) . ولم يكتف عماد الدين زنكى بما حققه من نصر على الصليبيين فى الاثارب وما فرضه عليهم من مناصفتهم فى بلد حارم بل قام هو ومن معه من عساكره بالاغارة على بلد عزاز ومعرة مصرين وتل باشر . ولعل عماد الدين قد أراد من وراء هذه الغارات الخاطفة اظهار جانب قوة المسلمين أمام الصليبيين (٢) . وتأكد المسلمين فى بلاد الشام قرب النصر ، بما حققه عماد الدين زنكى من الانتصارات على الصليبيين حتى انهم ارسلوا البشائر الى معظم البلاد الاسلامية فى الوقت الذى اصبح فيه الصليبيون فى موقف المدافع بعد أن كانوا فى موقف المهاجم ضد المسلمين ، وعلموا عجزهم عن مواجهة عماد الدين زنكى " وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا فى ملك الجميع " (٣) . يضاف الى ذلك ان هذه الانتصارات مهدت لعماد الدين الطريق الى الاستيلاء على معظم بلاد الشام الواقعة فى أيدى الصليبيين .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤٢ .
وحارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٤٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ، ج١ ص ٤٠-٤٣ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٢٤ هـ .
وعزاز بليدة صغيرة تقع شمال حلب . ومعرة مصرين بليدة صغيرة وكورة بنواحى حلب وتعتد من اعمالها بينها وبين حلب خمسة فراسخ .
وتل باشر قلعة حصينة بشمال حلب بينها وبين حلب مسيرة يومان على الاقدام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص٦٦٣ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص٤٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج١ ص ٥٠١ .

وتجدر الاشارة الى انه على الرغم من الظروف التى تهيأت لعماد الدين زنكى بوفاة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠م وحصول الشقاق بين الصليبيين ، الا أنه لم يهتبل هذه الفرصة للقيام بحطيات عسكرية ضد الصليبيين الا فى وقت متأخر نظرا لانشغاله بالاوضاع التى تجددت فى بغداد عقب وفاة السلطان محمود بن محمد الذى توفى فى السنة نفسها ، ودخوله فى النزاع الذى نشب بين ابناء البيت السلجوقى على منصب السلطنة ، ثم تعرضه للحملة التى قام بها الخليفة العباسى المسترشد بالله على الموصل سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١م . كما أن عماد الدين زنكى قد انشغل فى تلك الفترة بتوسيع قاعدة حكمه فى بلاد الجزيرة وديار بكر (١) . الا أن عماد الدين زنكى الذى وضع نصب عينيه مهمة الجهاد ضد الصليبيين لم يهمل هذه الناحية بل أوعز الى نائبه فى حلب سوار بن ايتكين بالقيام بمهمة مواجهة الصليبيين فقام سوار فى سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٢م بغزو الصليبيين فى تل باشر فقتل منهم خلقا كثيرا (٢) . ولم يقف سوار بن ايتكين عند هذا الحد بل استغل تدفق كثير من التركمان الى بلاد الشام فى هذه السنة فوجههم الى الاغارة على امارة طرابلس الصليبية ، فاستطاعوا النيل منها وأوقعوا هزيمة ساحقة بالصليبيين بها . ولم تقتصر غاراتهم على امارة طرابلس بل استطاعوا هزيمة الصليبيين فى بعرين - فى تلك السنة - هزيمة كادت تؤدى الى سقوط هذا الحصن بأيديهم (٣) .

---

(١) انظر ما سبق فى الحديث عن عماد الدين فى صفحات متعددة .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٨ ، ابن القلانسى ص ٢٣٦ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٥١-٢٥٢ . العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢٠٤ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٧-٨ ، ابو الفدا ، المختصر جـ٣ ص ٨ .

ويمكن القول بان تدفق هؤلاء التركمان الى بلاد الشام قد جاء نتيجة لسماعهم بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبين فى الاثارب سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م وما وصلهم من اخبار الانشقاق الذى حصل بين الصليبين فى سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣م ، ثم رغبتهم الصادقة فى تلبية داعى الجهاد فى سبيل الله خصوصا وان هؤلاء التركمان قد عرفوا بتحمسهم الشديد للدفاع عن الدين ورغبتهم فى المغامرات والحصول على الغنائم والاسلاب(١) . كما لا يستبعد ان يكون مجئ هؤلاء التركمان الى بلاد الشام قد رفع الروح المعنوية لحكام دمشق حيث قاموا باستعادة بعض مناطق نفوذهم وانزلوا هزيمة بالصليبيين فى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤م فى عكا والناصرة ، وطبرية ، مما أدى الى انهاك قوى الصليبيين فى بيت المقدس وغيرها ، مما اضطرهم الى عقد هدنة مع شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق فى تلك السنة . على أن ما حصل بالصليبيين فى هذه السنة من انقسام داخلى وهزائم متلاحقة من المسلمين قد سهل لعماد الدين زنكى ونائبه فى حلب مهمة استعادة بعض المعاقل كالمعرة وكفرطاب وزردنا التى كانت تحول دون وصول غارات المسلمين الى انطاكية(٢) ولم يقف سوار بن ايتكين نائب عماد الدين فى حلب عند هذا الحد بل استطاع فى سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥م ان يجمع اكبر عدد من التركمان وغيرهم وقصد اللاذقية وهى بيد الصليبيين على غرة منهم ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة أسفرت على حد قول ابن العديم عن وقوع سبعة آلاف من الصليبيين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ١١-١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٥٤-٢٥٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ ، أبو الفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٨-٩ ، ابن قاضى شهبة الكواكب الدرية ص ٩٩ .

وزردنا بليدة صغيرة تقع شمال حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

أسرى فى يد المسلمين ومائة الف رأس من الماشية ، وتخريب ونهب أكثر من مائة قرية (١) .

وفى سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م وصل عماد الدين زنكى الى حلب قادما من الموصل بقصد الاستيلاء على حمص - التى كان شمس الملوك اسماعيل بن بورى قد استعادها من استحفظهم عماد الدين عليها سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م- (٢) وغزو الصليبيين واضعا فى اعتباره الاستيلاء على حصن بعرين الذى وصفه ابن الاثير بأنه " من أمنع معاقل الفرنج وأحصنها " (٣) . وكان الصليبيون قد خرجوا نجدة لاهل حمص من عماد الدين زنكى ، فلما علم بذلك رحل عن حمص واتجه الى بعرين فلما نزل عليها قاتلها فحشد الصليبيون فارسهم وراجلهم وساروا الى بعرين بقصد ترحيل عماد الدين زنكى عنها ، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال (٤) . وكان سوار بن ايتكين قد التقى بطلائع الصليبيين فأوقع بهم هزيمة ساحقة اسفرت عن وقوع ريموند صاحب طرابلس فى الأسر بينما سعى فولك ملك بيت المقدس وجموع كثيرة من الصليبيين الى دخول حصن بعرين وهم على غاية من الضعف والخوف . واستغل عماد الدين زنكى ذلك وضرب حول بعرين حصارا شديدا منع عن الصليبيين الذين بداخل القلعة كل شىء حتى الاخبار من بلادهم ، الى أن نفذ ماعندهم من القوت فطلبوا الامان من عماد الدين زنكى ولكنه رفض فى بادىء الأمر . غير أن أنباء حشود الصليبيين والبيزنطيين قد بلغته فاضطر الى اجابتهم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٦٠-٢٦١ ، انظر ابن القلانسى ، ص ٢٥٥ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٧١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٥١ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٧٣ .

الى عقد الصلح وشرط عليهم تسليم حصن بعرين وتقديم مبلغ خمسين ألف دينار فأجابوه الى ذلك لعلمهم بعدم قدرتهم على صده ، ويأسهم من نجدة تصلهم . وطلبوا من عماد الدين اطلاق سراحهم " فأطلقهم وتسلم الحصن منهم وخلع على الملك فولك وأكرمه " وعادت جموع الصليبيين التى خرجت لنجدة ملك بيت المقدس الذى كان محصورا فى بعرين بقيادة ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكيه عند سماعهم بسقوط بعرين فى يد عماد الدين زنكى (١) .

وهكذا استولى عماد الدين زنكى على حصن بعرين الذى كان من أضر البلاد على المسلمين اذ خرب أهله من الصليبيين البلاد الواقعة بين حماة وحلب . ولم تقتصر اهمية سقوط بعرين فى يد عماد الدين زنكى عند حد أسر زعماء الصليبيين بل أدى ذلك الى أن البلاد الواقعة بين حماة وحلب قد عمرت وعظم دخلها وأمن المسلمون على أنفسهم واموالهم على حد قول ابن الاثير (٢) .

أطماع الصليبيين فى انطاكية فانهمك عودة ريموند عقب فشله فى انقاذ الملك فولك ملك بيت المقدس ، واستعادة حصن بعرين من عماد الدين زنكى سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م ، فقد وجد [illegible] ولد الامبراطور البيزنطى حناكومنين قد نزل عليها وضايقها فى آخر تلك السنة .

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٥٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١-٢٦٢ ، والحاشية رقم (١) بنفس الصفحة ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٣٣ ، ٥١-٥٢ ، ابن الاثير ، الباهر ص ٥٩ ، ابو الفدا ، المختصر ج ٣ ص ١٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٣١ هـ ، الغزى نهر الذهب ج ٣ ص ٨٩-٩٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط ج ١ ص ٥١٢ ،

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢ .

ولكن ريموند لم يشأ أن يدخل فى حرب مع الامبراطور البيزنطى اذ لا يوجد بينهما تكافؤ فى القوات والعتاد . وأرسل ريموند الى الملك فولك ملك بيت المقدس يستشيره فى الأمر ، فأشار على ريموند بمصالحة الامبراطور البيزنطى حنا كومنين وعدم مجابهته وذلك من أجل الاستعانة به ضد عماد الدين زنكى فما كان من ريموند الا ان عقد صلحا مع الامبراطور البيزنطى (١) . ولم تشر المصادر التاريخية الاسلامية كابن القلانسى وابن الاثير وابن العديم الى بنود الصلح الذى تم بين ريموند صاحب أنطاكية والامبراطور حنا كومنين الا أن بعض المراجع الاجنبية والعربية قد أشارت الى بعض بنود هذا الصلح كالاعتراف بسيادة الامبراطور على أنطاكية والاتفاق على احتلال مدن شمال الشام كحلب وشيزر وحمص وحماه ومنحها اقطاعا لريموند دى بواتييه ، واعادة النظام الكنسى البيزنطى الى ماكان عليه بأنطاكية قبيل مجىء الصليبيين الى بلاد الشام (٢). وأصبح لزاما على الطرفين البيزنطى والصليبى بمقتضى هذا الصلح السير قدما لتنفيذ ماتم الاتفاق عليه من احتلال مدن شمال الشام على الرغم من أنهما قد عرفا مسبقا عجزهما عن استعادة بعرين من عماد الدين زنكى . حتى ان الامبراطور البيزنطى قبل أن يقوم بهجوم على املاك عماد الدين زنكى فى حلب أرسل فى آخر سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م رسلا اليه وهو مخيم بالقرب من حمص (٣). ويقول

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، رنشيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٦٧ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٦٨ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، Vasilieu, History of the Byzantine Empire, V.2, p.646.

(٣) ابن القلانسى ص ٢٦٢ .

رنسيمان عن هذه السفارة انها توجهت الى عماد الدين زنكى لتوهمه أن البيزنطيين ليسوا راغبين فى أن يبادروا الى مهاجمته (١) . غير أن عماد الدين زنكى أعاد رسول الامبراطور البيزنطى ومعه رسل يحملون الى الامبراطور هدية سنية عبارة عن فهود وبزاة وصقور ، فعاد رسول عماد الدين اليه ومعه مندوب من قبل الامبراطور يحمل خبرا لعماد الدين مفاده أن الامبراطور مشغول بحرب الارمن (٢) . وعلى الرغم من تبادل المراسلات بين عماد الدين والامبراطور البيزنطى ، تلك المراسلات التى لم تنم عن حسن نية من قبل الامبراطور البيزنطى فان نائب عماد الدين بحلب (سوار بن ايتكين) قد استطاع أن يوقع بسرية بيزنطية كانت قد أغارت على أطراف حلب فى أواخر سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م (٣) .

ومع أن المصادر التاريخية العربية كمؤلفات ابن العديم وابن القلانسى لم تذكر أن عماد الدين قد عقد هدنة مع الصليبيين ولا حتى مع البيزنطيين اثناء المراسلات التى تمت بينه وبين الامبراطور البيزنطى حنا كومنين سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م ، فان المصادر المذكورة قد ذكرت أن الصليبيين قد نقضوا الهدنة المعقودة بينهم وبين عماد الدين فى سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨م، وقبضوا على التجار والمسافرين من أهل حلب الموجودين بأنطاكية وبلاد الساحل وقد قدر عددهم ابن القلانسى بنحو خمسمائة رجل ، حتى لا تتسرب أخبار الحشود والاستعدادات التى حشدها الامبراطور والصليبيون بأنطاكية

---

(١) سيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣١ هـ . ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٦٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٣ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٣١ هـ .

ضد عماد الدين زنكى (١) . وما ان بلغت المسلمين أخبار القوات البيزنطية والصليبية وما أقدم عليه الامبراطور البيزنطى من الفتك برعايا المسلمين الموجودين فى أنطاكية وبلاد الساحل حتى تخوف أهل حلب من مباغتة الصليبيين والبيزنطيين لهم ، فشرعوا فى تحصين البلد بحفر الخنادق وتخزين المؤن استعدادا لما سيحل بهم من هجوم صليبى بيزنطى خصوصا وان عماد الدين زنكى بعيد عنهم (٢) .

وبعد أن استكمل الامبراطور البيزنطى كامل استعداداته وحشوده من البيزنطيين والصليبيين سار حتى بلغ قريبا من حلب فى شهر رجب سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م ونزل بمن معه على حصن بزاغة وضرب عليها حصارا شديدا . ولاستبسال اهلها فى الدفاع عنها ظل الامبراطور محاصرا لها مدة اسبوعين حتى اضطر من بها من المسلمين الى الاستسلام ، فغدر الامبراطور بأهلها واجبر بعضهم على اعتناق النصرانية . ولم يكتف بهذا بل ظل عشرة أيام أخرى يدخن على من بقى من سكانها فى المغارات حتى أهلكهم بالدخان (٣) . ويسرت المدة التى قضاها الامبراطور البيزنطى فى حصاره لحصن بزاغة لسكان حلب الاستعداد والتأهب للبيزنطيين والصليبيين خاصة وانه قد وصلهم بعض البيزنطيين الذين ضلوا طريقهم

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٦٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج١ ص ٥٦٩ ، رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص ٥٦ ، ابن الاثير ، الباهر ص ٥٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

فأخبروا اهالى حلب بقدوم الامبراطور اليهم ، فتحرز الناس وتحفظوا وكاتبوا عماد الدين زنكى حينما كان بحمص ، فسير اليهم نائبه بحلب سيف الدين سوار ومعه خمسمائة فارس فى اربعة من الامراء فقويت بذلك نفوس أهل حلب (١) .

ظن الامبراطور البيزنطى انه سيباغت حلب على غرة من أهلها ، فسار من بزاغة ومعه صاحب انطاكية والرها حتى وصل ارض الناعورة فى شهر شعبان من سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م ونزل على نهر قويق وبدأوا بشن هجوم واسع النطاق على حلب فتصدى لهم سوار بن ايتكين واهالى حلب فصدوهم ومنعوهم عن تحقيق مقصدهم وهو الاستيلاء على حلب . وأصيب من البيزنطيين فى هذا الحصار أحد قادتهم فانكفأوا الى مخيمهم وظلوا به أياما قليلة رحلوا بعدها الى الاثارب فخاف من بها من المسلمين وغادروها فسقطت بيد الصليبيين والبيزنطيين ووضعوا بها الاسرى الذين حصلوا عليهم من بزاغة (٢) . فنهض اليهم سوار بن ايتكين واستطاع اللحاق بهم واستخلص الاسرى الذين كانوا فى الاثارب " فسر اهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما " على حد قول ابن القلانسى (٣) . ولما علم الامبراطور البيزنطى حناكومنين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .
والناعورة بلدة صغيرة بين حلب وبالس .
ونهر قويق نهر كان يخترق مدينة حلب ويخرج من قرية سبتات يمتد من حلب الى قنسرين . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٣) ابن القلانسى ص ٢٦٥-٢٦٦ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ، ص ٥٦-٥٧ ، الاصفهانى ، البستان الجامع حوادث سنة ٥٣٢ هـ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ٦ ص ٥٢٨-٥٢٩ .

بهذه الخطوة الجريئة من سوار بن ايتكين توجه الى معرة النعمان ، فاستولى عليها فى الوقت الذى سار فيه عماد الدين زنكى من حمص الى حماة ومنها الى سلميه ليكون قريبا من حلب(١) .

وعلى ما يبدو فان الامبراطور البيزنطى قد تشكك فى قواته بعد أن فشل فى الاستيلاء على حلب ، وبعد ان وصلته أخبار استخلاص الاسرى المسلمين الذين كانوا فى الاثارب ، ولذلك رحل الامبراطور الى شيزر فى شهر شعبان من السنة نفسها ٥٣٢ هـ/١١٣٨م والتى كانت تحت حكم ابى العساكر سلطان بن على بن منقذ الكنانى (٢) . ونازل الصليبيون والبيزنطيون شيزر وهم فى قوات كبيرة من الفرسان والرجالة ، ومعهم من السلاح والكراع مالا يحصيه الا الله ، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا . وكان سبب مسير الصليبيين والبيزنطيين الى شيزر ما ذكره ابن الاثير " لانها لم تكن لزنكى فلا يكون له فى حفظها الاهتمام العظيم " غير ان امل هؤلاء الصليبيين والبيزنطيين قد خاب حين ارسل صاحبها الى عماد الدين زنكى يطلب النجدة والامداد ولكن عماد الدين زنكى لم يشأ ان يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين والصليبيين بسبب تفوقهم فى العدد والعدة ، ولذلك اكتفى بشن الغارات المباغتة على الصليبيين والبيزنطيين للنيل منهم وانهاك قواهم " وكان كل يوم يسير الى شيزر هو وعساكره ويرسل سراياه فتأخذ من ظفرت به منهم "(٣) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٦٦ .
وسلميه : بليدة صغيرة من اعمال حماه . انظر ياقوت ، معجم البلدان

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٦٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٥٧ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٦٤ ، اسامة ابن منقذ ، الاعتبار ص ١١٣-١١٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٧٩ .

ولم يكتف عماد الدين زنكى بشن الغارات على البيزنطيين والصليبيين بل سعى الى امداد شيزر بالرجال والسلاح وآلات الحرب لتقوية من بداخلها من المسلمين . وسعى عماد الدين زنكى أيضا الى تحطيم الروح المعنوية عند البيزنطيين والصليبيين ، فأرسل الى الامبراطور البيزنطى يقول له : " انكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وان ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها " . ولم يكن فى استطاعة عماد الدين مواجهة الصليبيين والبيزنطيين معا وانما كان يوهمهم بهذا القول وأشباهه ، فكان لهذه الخطة أثرها فى نفس الامبراطور البيزنطى الذى لم يصغ الى مشورة الصليبيين بلقاء عماد الدين زنكى خوفا من وصول نجدات له من الشرق الاسلامى (١) . وفى سبيل تفكيك وحدة الصليبيين والبيزنطيين لجأ عماد الدين زنكى الى حيلة أخرى سعى فيها الى اثارة الفرقة والتناحر بين صفوفهم حيث أخذ فى مراسلة الامبراطور البيزنطى حناكومنين وخوفه من انه لو فارق مكانه فى شيزر لتخلى عنه الصليبيون فى الوقت الذى أخذ فيه عماد الدين زنكى يرسل الرسل الى الصليبيين بالشام يخوفهم من الامبراطور وقال لهم : " ان ملك (اى الامبراطور) بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا ، فاستشعر كل من صاحبه" (٢) . ومن جهة أخرى فان عماد الدين زنكى لم يأل جهدا فى طلب النجدات العسكرية من شتى أنحاء العالم الاسلامى فأرسل الى السلطان مسعود بن محمد ، كمال الدين الشهرزورى يطلب منه نجدة ضد الصليبيين والبيزنطيين ، ولكن

---

(١) ابن الاثير، الكامل جـ١١ ، ص٥٧ ، انظر ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص٥٥ - ٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ٧٩ ، ابن قاضى ، شهبة الكواكب الدرية ص ١٠٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

السلطان مسعود لم يستجب لهذا الطلب فى بادئ الامر ، حتى لجأ مندوب عماد الدين زنكى الى السلطان ، باثارة حماس الناس فى بغداد وما بذله من أموال كثيرة حتى اضطر السلطان الى تلبية رغبة رعاياه باعداد حملة عسكرية سيرها الى بلاد الشام بقصد تقديم المعونة لعماد الدين زنكى (١) .

ولعل أنباء مسير هذه الحملة التى أعدها السلطان مسعود قد بلغت الامبراطور البيزنطى حناكومنين مع ما بلغه من أنباء تشير الى عبور قرة أرسلان ابن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا فى جيش كبير من التركمان بلغ عدده على حد تعبير العظيمى نحو عشرين ألف فارس نجدة للمسلمين بشيزر (٢) وكذلك أنباء نهوض عساكر دمشق ، ثم ما بلغه من أنباء غارات سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على قونيه واستيلائهم على أذنه بايحاء من عماد الدين زنكى حتى يتحول اهتمام الامبراطور الى تلك الجهات ففت ذلك فى عضده . (٣)

وهكذا فشل الامبراطور البيزنطى والصليبيين فى الاستيلاء على شيزر بعد حصار استمر أكثر من أربعة وعشرين يوما متواصلة بفضل الجهود الجبارة التى بذلها عماد الدين زنكى وما امتازت به شيزر من المناعة الطبيعية وبسالة المدافعين عنها وتخاذل المقاتلين الصليبيين الذين

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦٢ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٤٦ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ ١ ص ٥١٦ .
وقونية مدينة كانت من اعظم مدن الاسلام ببلاد الروم . واذنه بلد من الثغور الاسلامية قرب المصيصه . انظر ياقوت . معجم البلدان .

كانوا مع الامبراطور البيزنطى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها الامبراطور حناكومنين فى الاستيلاء على شيزر . واخيرا فى رمضان سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨م أمر الامبراطور البيزنطى برفع الحصار عن شيزر وتوجه عائدا الى أنطاكية غاضبا دون تحقيق غرضه تاركا كثيرا من آلات الحصار والحرب التى استولى عليها عماد الدين زنكى وأرسلها الى حلب [١] . ومع أن المصادر التاريخية العربية قد ذكرت انسحاب الامبراطور البيزنطى الى أنطاكية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م دون الوصول الى أى اتفاق بينه وبين أبى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى الا أن وليم الصورى قد ذكر انه حدث فى ٢٠ مايو من السنة ١١٣٨م أن أمير شيزر كان قد أرسل يعرض على الامبراطور مقابل الانسحاب عن شيزر ان يهديه أجود أفراسه واثوابا من الحرير واثمن تحفتين بحوزته وهما مائدة مرصعة بالذهب والجواهر وصليب مطعم بالياقوت ، والاعتراف بالامبراطور سيدا أعلى ، وان يؤدى له الجزية كل سنة . فماكان من الامبراطور الذى وصل حدا من الكراهية للصليبيين الا قبول هذه العروض مع المحافظة على كرامته وكرامة جيشه ، وقرر الانسحاب الى أنطاكية [٢] . وعلى أية حال فقد عاد الامبراطور الى أنطاكية يجر أذيال الخيبة لانه لم يحقق فى حملته هذه على بلاد الشام سوى ما حصل عليه من أموال ، وهدايا من امير شيزر ابوالعساكر سلطان بن منقذ [٣] .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٦٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٥٨ ، رشيمان تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٤٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٥١٦ .

(٢) William of Tyre, History of Deeds, Vol.2, pp.94-96,
انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٢٤٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١ ص ٥١٦ .

(٣) عليه الجنزورى ، أمارة الرها ، ص ٢٨٥ .

ويمكن القول بأن فشل الامبراطور البيزنطى والصليبيين فى الاستيلاء على شيزر كانت بداية النهاية للحطة العسكرية التى قام بها الامبراطور حناكومنين على بلاد الشام ، كما أدى هذا الفشل الى أن ذاع صيت عماد الدين زنكى وشهرته ، حتى أنه أعلن بعد رحيل الامبراطور الى أنطاكية أنه فى غير حاجة الى المساعدات العسكرية التى كان قد طلبها من السلطان مسعود بن محمد السلجوقى (١) . وكذلك بعث الى قرة أرسلان بن داود بن أرتق " يأمره بالعودة الى أبيه وانه مستغن ولن يلتفت اليه " (٢) .

وبعد انسحاب الامبراطور البيزنطى حناكومنين والصليبيين الى أنطاكية لم يقف عماد الدين زنكى مكتوف الايدى ، بل أرسل حاجبه صلاح الدين الياغيسيانى الى كفرطاب واستطاع الاستيلاء عليها كما سار هو الى حصن عرقه التابع للصليبيين واستولى عليه عنوة وقهرا . ومع بداية سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٩م سار عماد الدين زنكى الى حصن بزاغة فاستولى عليه وقتل بعض من به من الصليبيين والبيزنطيين واستطاع ان يستولى على الاثارب فى شهر صفر من السنة نفسها ومنها سار الى الموصل (٣) .

وخلال الفترة من ٥٣٤ هـ/١١٣٩م الى ٥٣٨ هـ/١١٤٣م انشغل عماد الدين زنكى باستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وخصوصا الاستيلاء على دمشق ولكن نائبه فى

---

(١) ابن الاثير، الباهر ، ص ٦٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٧٣ ، العريني ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ص ٥١٧ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٩-٢٧٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٨٣ .

حلب سوار بن ايتكين وابنه علم الدين بن سوار قد استطاعا مقارعة الصليبيين في بلاد الشام ، ففى سنة ٥٣٦ هـ/١١٤٢م قام الصليبيون بغارات على بلد سرمين وجبل السماق وكفر طاب ، ولكن علم الدين بن سوار استطاع ان يتصدى لهم وأغار على بلادهم حتى وصلت غاراته الى أنطاكية . كما استطاع لجه التركى - وهو أحد القادة الأتراك الذين نزحوا عن دمشق وانضموا الى خدمة عماد الدين زنكى - فى جمادى الاخرة سنة ٥٣٦ هـ/١١٤٢م ، ان يلحق بالصليبيين هزيمة ساحقة أسفرت عن قتل مالا يقل عن سبعمائة منهم (١) .

وفى سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٣م حاول ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية وجوسلين صاحب الرها استغلال انشغال عماد الدين زنكى بأمر استكمال توحيد الجبهة الاسلامية فقاما بهجوم على حلب ومزاغة غير ان سوار بن ايتكين استطاع ان يتصدى لهما ، فصد ريموند عن حلب وحال بينه وبينهما فى الوقت الذى عقد فيه مع جوسلين صاحب الرها صلحا غير الصلح الذى كان عماد الدين زنكى قد عقده معه سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م أتاح لعماد الدين زنكى الاستمرار فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية (٢) .

ولما كانت سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م استطاع عماد الدين زنكى المسير الى اقليم شبختان بالجزيرة وفتح به كثيرا من القلاع التى كانت بيد الصليبيين والاراتقة (٣) . وكان هدف عماد الدين زنكى من هذا العمل قطع الاتصال

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٧٥ .
وجبل السماق جبل عظيم من أعمال حلب الغربية . انظر ياقوت معجم البلدان

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٧ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٧ ، ابن القلانسى ص ٢٧٦ .

(٣) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٩٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ .

بين جوسلين صاحب الرها وبين الاراتقة فى ماردين وتكوين جبهة اسلامية على أنقاض الامارات والبلدان التى كانت بأيدى الصليبيين والامراء المسلمين الضعاف [١] .

كما استطاع النائب فى حلب سوار بن ايتكين مهاجمة معسكر للصليبيين عند جسر الحديد الى الشمال من أنطاكية . وفى السنة نفسها قام سوار بن ايتكين بمباغتة احدى القوافل التجارية الصليبية التى كانت تحمل كثيرا من الامتعة والاموال ، وتمكن من ابادة كافة أفراد الحامية التى خرجت لحمايتها [٢] .

ويمكن القول أن ما قام به عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار بن ايتكين سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤م قد مهد الطريق أمام عماد الدين زنكى للوصول الى الرها والاستيلاء عليها .

استيلاء عماد الدين زنكى على امارة الرها الصليبية ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م :

كانت امارة الرها الصليبية أولى الامارات التى تأسست فى الشرق الاسلامى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م بزعامة بلدوين الاول الذى استمر فى حكم هذه الامارة حتى سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠م حين انتقل الى حكم بيت المقدس عقب وفاة جودفرى ملك بيت المقدس [٣] . وقد تميزت الرها عن بقية

---

(١) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٤٩ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ص ٣٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٧٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ ، ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ج ٦ ، ص ٤٥٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٤١١ .

الامارات الصليبية بموقعها فى الحوض الاوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها فى وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذى اصاب السلاجقة فى بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م (١) .

ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجى وكونها خط الدفاع الاول عن بقية الامارات الصليبية فى بلاد الشام بل انها شكلت خطرا اساسيا على خطوط المواصلات الاسلامية بين بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة (٢) . ومما يوضح ذلك أن الحملة التى قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨م نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها فى محاولة لانتزاعها من بلدوين الاول (٣) . وعلى الرغم من أن الرها لم تقع فى نطاق الاراضى المقدسة فى فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية (٤) ، ومما زاد الرها أهمية موقعها فى اراضى خصبة كثيرة الخيرات وفيرة الثروات ساعدت امراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت امارة الرها الواقعة على ضفتى نهر الفرات من راوندان وعين تاب غربا الى مشارق حران شرقا ومن بهنسى وكيسوم شمالا الى منبج جنوبا (٥) . واكتسبت الرها اهمية بما تهيأ لها من

---

(١) عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٨٤ ، وانظر ماسبق الفصل الثانى ص

(٢) عليه الجنزورى ، امارة الرها ص ٣٤ .

(٣) انظر ماسبق الفصل الثانى ص

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦٦ ، ابوالهيجاء ، تاريخ ابوالهيجاء حوادث سنة ٥٣٩ هـ .

(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ٤٢٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١ ص ٤١٤ . وراوندان قلعة حصينة وكورة قريبا من حلب . وعين تاب قلعة حصينة بين حلب وانطاكية وكانت تعرف باسم دلوك . وبهنسى =

حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة استطاعت بهم الصمود فى وجه المقاومة الاسلامية ، على الرغم من أن الرها كانت تعانى من نقطتى ضعف واضحتين أحدهما الحدود الطبيعية اذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة ، وثانيهما عدم وجود تجانس بين سكانها اذ كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين (السريان والارمن واليعاقبة) ومن الصليبيين الغربيين ، فضلا عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بكاملها كسروج والبيرة التى خضعت للصليبيين (١) .

ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبى ، بل كانت فى نظر المسلمين من أهم المواقع التى يجب السيطرة عليها ، فقد ذكر ابن الاثير مكانتها فى بلاد الجزيرة ووصفها بانها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الاسلامية حصنها مما جعل القوى الاسلامية سواء فى العراق او الشام أو الجزيرة ترغب فى السيطرة عليها (٢) .

أدرك عماد الدين زنكى ـ كغيره من حكام الموصل والجزيرة ـ أهمية الراها وما تشكله من اخطار جسيمة على المسلمين فى الجزيرة وشمال العراق لذلك نجد عماد الدين زنكى على الرغم من انشغاله بتوحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ، وما تعرض له من صعوبات من الخلافة

= قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط . وكيسوم قرية من اعمال سميساط ، انظر ياقوت . معجم البلدان .

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٤٢٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٤١٤ ، رنشيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٢٤-٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦٦ ، ٦٧ .

العباسية والسلطنة السلجوقية تقوى رغبته فى الاستيلاء على الرها ، تلك غاية لم تغب عن باله . يقول ابن القلانسى " ولم يزل لها طالبا وفى تملكها راغبا ولانتهاز الفرصة فيها مترقبا لا يبرح ذكرها وجائلا فى خلده وسره وامرها ماثلا فى خاطره وقلبه "(١) . ولذلك استغل عماد الدين زنكى الظروف التى مر بها الصليبيون فى بلاد الشام وسخرها لصالحه فى الهجوم على الرها . وقد رأينا فى الصفحات السابقة أن الحلف الذى تم بين الامبراطور البيزنطى حنا كومنين وصاحب أنطاكية سنة ٥٣١ هـ/١١٣٨م للاستيلاء على مدن الشام بمساعدة الصليبيين فى الرها وبيت المقدس قد باء بالفشل نتيجة للموقف الشجاع الذى وقفه عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار ابن اتكين لصد الصليبيين عن حلب وشيزر ، ونتيجة للخلافات التى وقعت بين البيزنطيين والصليبيين (٢) . وبالاضافة الى ذلك فان خروج الامبراطور البيزنطى حنا كومنين سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٢م بقصد الاستيلاء على انطاكية وتحالفه مع جوسلين الثانى صاحب الرها ضد ريموند دى بواتييه صاحب الرها قد زاد من النفور بين الصليبيين فى انطاكية والرها حتى ان كلا من صاحب انطاكية والرها رغب فى القضاء على الآخر (٣) . ولم تقف اوضاع الصليبيين عند هذا الحد من التدهور والانحطاط ، فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى قد جرد امارة الرها من البلاد التابعة لها سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م ، فان أميرها جوسلين الثانى لم يتخذ من الاحتياطات ما يكفل له صد عماد الدين زنكى عن الامارة بل ركن الى الكسل والجبن والخداع والتآمر مع

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٧٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ١٦ .

(٢) انظر ماسبق ص

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٥٥ ، ٣٧٨ ، العرينى الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

ميله الى الانغماس فى الفجور والاستهتار ورغبته فى الدعة والراحة ، حتى انه اتخذ من تل باشر مقرا له - بخلاف من سبقه كجوسلين الاول وبلدوين دى بور - ليكون بعيدا عن الاضطرابات التى يثيرها أعداؤه بالرها (١) . ومما زاد الصليبيين فى شمال الشام والرها ضعفا ونفورا فيما بينهم خلو بيت المقدس من ملك قوى الشخصية يستطيع ان يفرض سيطرته على صاحبى الرها وانطاكية ويصلح مابينهما لان وفاة فولك الانجوى ملك بيت المقدس سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م وتولى مقاليد السلطة فى بيت المقدس زوجته ميلزاند كوصية على ابنها القاصر بلدوين الثالث يعد نقطة تحول فى تاريخ التكتل الصليبى لانصراف تلك الزوجة الى عمل كل ما من شأنه ابقاء السلطة فى يديها والاستئثار بها دون ولدها وتغلب مطامعها الشخصية على المصالح الصليبى العام (٢) . يضاف الى ذلك عدم قدرتها على حسم النزاع القائم بين الامراء الصليبيين سواء فى أنطاكية والرها او فى غيرهما (٣) . ومن الحوادث التى طرأت على الصليبيين فى بلاد الشام وكان لها أثر كبير عليهم وفاة الامبراطور البيزنطى حنا كومنين ٥٣٨هـ/١١٤٣م . وشعر الصليبيون بموجة من الفرح لهذا النبأ ، ولكن عماد الدين كان اشد فرحا وسرورا اذ انه اطمأن الى عدم وصول نجدات للصليبيين من قبل الدولة البيزنطية (٤) . يضاف الى ذلك ان الانقسام كان قد نشب بين صفوف

---

(١) انظر رشيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٧٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١ ص ٤٣٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٧٧ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ٩٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٧٥ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٣٢ .

(٣) العرينى ، الشرق الاوسط جـ١ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٥٩ .

الفرسان الصليبيين بالرها خصوصا وانهم كانوا يشعرون بعدم الاستقرار لميل جوسلين الثانى الى الارمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين لان أمه كانت أرمينية (١) . كل هذه الظروف ساعدت عماد الدين زنكى على اقتحام الرها فيما بعد .

ومن الطبيعى أن يستغل عماد الدين زنكى انصراف السلطان مسعود عن التفكير فى المسير الى الموصل سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م بعد ان بذل له عماد الدين زنكى كثيرا من الاموال بلغت على حد قول ابن الاثير مائة ألف دينار ، واشترط السلطان السلجوقى على عماد الدين فتح الرها (٢) ويمكن القول بأن هذا الشرط الذى اشترطه السلطان سعود على عماد الدين زنكى شجع عماد الدين على المسير الى الرها ليدرأ بذلك وصول السلطان مسعود بن محمد الى بلاده كما استغل عماد الدين زنكى الحلف الذى قام بين جوسلين الثانى أمير الرها وقرة ارسلان بن داود امير حصن كيفا سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م ذلك الحلف الذى قام أساسا فى وجه عماد الدين زنكى بعد ان جرد عماد الدين تلك الامارتين من بعض ممتلكاتهما (٣) .

أراد عماد الدين زنكى أن ينزل ضربته بالرها ، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع اقتحام الرها اذا كان جوسلين وقواته بها ، خشية ان يجتمع بها من يناصره ، ولذلك لجأ عماد الدين الى خدعة حربية خدع بها أمير

---

(١) عماد الدين زخليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٥١ .
(٢) انظر ماسبق ، ص
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٧٦-٢٧٩ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٨٩ .

الرها جوسلين الثاني " فعدل الى اعمال الحيل والخداع " وأظهر أنه يريد الاستيلاء على ديار بكر وآمد في الوقت الذي بث جواسيسه في الرها لاستطلاع اخبارها اولا بأول . فلما رأى جوسلين انشغال عماد الدين بحرب اهل ديار بكر " ظن انه لا فراغ له اليه وانه لا يمكنه الاقدام عليه ففارق الرها الى بلاده الشامية " الواقعة غرب الفرات للراحة والاستجمام وتفقد احوالها ، بعد ان اطمأن الى أن عماد الدين زنكي اصبح مشغولا عن امارته . وكان هدف عماد الدين زنكي أن يوهم جوسلين والصليبيين بالرها انه مشغول عن التفكير في محاربتهم في الوقت الذي لا يزال فكره مشغولا بفتح الرها " فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم "(١).

ووافى الجواسيس الذين أوكل اليهم عماد الدين زنكي مهمة مراقبة تحركات جوسلين الثاني بأخبار رحيل صاحب الرها الى تل باشر غربي الفرات سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م مع معظم قواته " في جل رجاله واعيان حماته وابطاله" تاركا الرها دون مدافعين بل اوكل مهمة الدفاع عنها الى أهلها والى بعض الجنود المرتزقة (٢) . حينئذ أمر عماد الدين زنكي بمكاتبة طوائف التركمان المتطوعة وامر عساكره بالتجهيز والسير صوب الرها ، وهدد كل من يتخلف عنه في المسير الى الرها ، وأعلن انه لا يقبل عذر من اعتذر (٣) ، فانهالت عليه جموع المسلمين من كل حدب وصوب وبادر بارسال كتيبة من جيشه بقيادة صلاح الدين الياغيسياني . ومع ان المصادر العربية لم تذكر شيئا عن

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٦٧ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٣ ، النويري ، نهاية الارب جـ ٢٥ ، حوادث ٥٣٩ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، عليه الجنزوري ، امارة الرها ، ص ٢٩٩ .

(٢) ابن القلانسي ص ٢٧٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٣٧٩

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٧٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٣ .

هذه الكتيبة فان رنسيمان يذكر ان صلاح الياغيسيانى قد ضل الطريق فى ليلة غزيرة المطر فلم يبلغ الرها الا بعد ان وصل اليها عماد الدين زنكى بجيشه الكثيف فى جمادى الاخرة ٥٣٩ هـ/ نوفمبر سنة ١١٤٤م (١) .

ولما تكاملت قوات عماد الدين زنكى سار بها الى الرها واحاط بها من جميع الجهات وحال بين من فيها وبين ما يصل اليها من المسيرة والاقوات من خارجها . وشدد عليها الحصار حتى صور لنا ابن القلانسى ان الطير فى السماء كان لا يستطيع الطيران فوق الرها خوفا من السهام . ولما شعر الصليبيون بالرها بخطورة الموقف استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن عماد الدين زنكى أدرك أن من بها لن يستطيعوا الوقوف امام جيوشه الجبارة فأخذ فى مراسلة من بها من الصليبيين باذلا لهم الامن على نفوسهم واموالهم مقابل تسليم الرها ، ورغبة منه فى عدم اراقة دماء المسلمين ولتسليم البلد دون خراب ودمار ، ولكن من بها من الصليبيين رفضوا التسليم "وامتنعوا عن الاذعان" لانهم كانوا يأملون فى وصول نجدات اليهم من اخوانهم الصليبيين فى أنطاكية وبيت المقدس او تل باشر (٢) .

أمر عماد الدين زنكى رجاله بتشديد الحصار على الرها وطلب من رجاله الحلبيين العارفين بأسوار الرها البدء فى نقب الاسوار وهدمها فنقبوا عدة مواضع عرفوا أمرها الى أن وصلوا تحت الاسوار التى عليها الابراج وطلبوا من عماد الدين مشاهدة ما عملوه فأذن لهم بحرقها فوقعت الابراج بمن

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٧٩ ، عليه الجنزورى امارة الرها ، ص ٣٠١ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ص ٣٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٧٩ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٩ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠٢ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ص ٣٤-٣٥ .

فيها من المدافعين ، ودخلت جيوش عماد الدين البلد فملكه عنوة وقهرا ، وذلك يوم السبت ٢٦ جمادى الاخرة ٥٣٩ هـ/ ٢٣ ديسمبر ١١٤٤ م بعد حصار عنيف استمر ثمانية وعشرين يوما (١) .

وهكذا سقطت الرها أولى الامارات الصليبية بالشرق الاسلامى فى يد عماد الدين زنكى . فلما ملكها شرع رجاله فى النهب والسلب والقتل حتى امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم والاسرى . ولكن عماد الدين زنكى على حد قول ابن الاثير أمر رجاله باعادة ما أخذ من أهلها من اثاث ومال وسبي ورجال وأطفال " فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر " ولما كان عماد الدين زنكى قد أسف على خراب الرها فقد أمر بعمارة ما انهدم منها ورممه " (٢) .

أما جوسلين الثانى أمير الرها الذى كان موجودا بتل باشر غرب الفرات فلم يذكر المؤرخون المسلمون كابن القلانسى وابن العديم الاجراءات التى اتخذها لانقاذ الرها ، الا ان ابن الاثير ومن نقل عنه قد ذكر ان جوسلين عاد عند سماعه الخبر الى شرق الفرات لعله يجد فرصة للوصول الى الرها ، او يرسل نجدة يحافظ بها على الرها من السقوط بيد عماد الدين زنكى " فحيل بينه وبين ذلك " (٣) .

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٥ حوادث سنة ٥٣٩ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٩٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، ابو الفدا ، المختصر جـ ٣ ص ١٧ ، الاصفهانى دولة آل سلجوق ص ١٨٧ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ص ٢٠٦ ، الحرينى ، الشرق الاوسط جـ ١ ص ٤٣٢ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٤ .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٦٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

حاول جوسلين فى يأس قطع الامدادات التى تصل الى عماد الدين زنكى من حلب فلم يستطع ، فركن الى ماسيبذله جيرانه من الصليبيين من مساعدات ، حيث أرسل على الفور الى أنطاكية وبيت المقدس يطلب المساعدة غير أن هذه المساعدات التى طلبها لم تستطع الوصول الى الرها ، اذ أن النجدة التى أرسلتها ميلزاندا الوصية على بلدوين الثالث صاحب بيت المقدس قد استطاع عماد الدين زنكى أن يرسل لها قوة من المسلمين هزمتها قبل وصولها الى الرها . اما ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية فلم يقدم اية مساعدة لجوسلين صاحب الرها مما مكن عماد الدين زنكى - الذى كانت امداداته تصله من كل جهة - من استرداد الرها . (١)

واذا كان هذا موقف الصليبيين فى أنطاكية وبيت المقدس ، فان أهل حران من المسلمين ورئيسهم جمال الدين ابو المعالى فضل الدين ماهان ، قد قاموا بدور رئيسى فى مساعدة عماد الدين زنكى للاستيلاء على الرها ، لما كان يلقاه اهل حران من شدة عظيمة وحصار مستمر من أهل الرها الصليبيين (٢) . ولما تم لعماد الدين زنكى تصفية العناصر التى لا يرغب فى وجودها بالرها عين عليها قائده المشهور زين الدين على كوجك ، وسار هو لاستكمال مابقى من البلاد التابعة للرها كسروج وغيرها فاستولى عليها ، بعد ان هرب منها كل من كان بها من الصليبيين (٣) . ولشدة ما أصاب الصليبيين فى الرها

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٨٠ ، رشيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ، ص ٣٨٠-٣٨١ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٧ .
(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ، رشيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ص ٣٨٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط ج١ ص ٥٢٧ .

من الذعر والخوف من عماد الدين زنكى فقد ذكر ابن القلانسى انه ما من بلد يمر به عماد الدين زنكى بعد سقوط الرها الا سلم اليه فى الحال (١) . ولاستكمال ما بقى من البلاد التابعة للرها ، توجه عماد الدين زنكى فى السنة نفسها ٥٣٩هـ/١١٤٤م الى البيرة - وهى من امنع الحصون شرق الفرات - وكانت تابعة لجوسلين الثانى ، وضيق عليها وقارب فتحها ولكن أنباء مقتل نائبه فى الموصل نصير الدين جقر قد حالت بينه وبين فتحها ، اذ عاد عماد الدين زنكى على وجه السرعة الى الموصل. غير أن أهل البيرة قد استبد بهم الخوف من عماد الدين زنكى فراسلوا حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وسلموها اليه فى أواخر السنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م . ومهما يكن من أمر فانها خرجت من يد الصليبيين الى المسلمين " خوفا من الشهيد عماد الدين ان يعود اليهم " كما يقول ابن الاثير (١) . ويبدو ان هدف الصليبيين من الاقدام على هذه الخطوة ان يوقعوا بين عماد الدين زنكى وحسام الدين تمرتاش (٢) . ولم يبق بيد جوسلين صاحب الرها غير عدد من الحصون المتناثرة غرب الفرات ببلاد الشام (٣) .

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٧٠-٧١ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ١٠٢ ، حسن حبشى ، نور الدين محمود والصليبيون ص ٣٠ ، الاصفهانى رحلة آل سلجوق ، ص ١٨٧-١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٩٦ .

(٢) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٧١ حاشية رقم (١) .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٨٥ ، ارنست بارك ، الحروب الصليبية ص ١٥٧ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ص ٣٠٨ .

وفى سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م عزم عماد الدين زنكى على المسير الى دمشق للاستيلاء عليها لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وللوقوف فى وجه التحالف البيزنطى الصليبى الذى تم بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين وريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية . غير ان أهالى الرها قد حاولوا القيام بفتنه للاطاحة بحكم عماد الدين زنكى والعودة مرة اخرى الى حظيرة الصليبيين ولكن عماد الدين زنكى سار الى الرها من الموصل وعاقب كل من كانت له يد فى هذه المؤامرة " بالقتل والصلب والتشريد فى البلاد "(١) .

ان استيلاء عماد الدين زنكى على امارة الرها - اولى المعاقل الصليبية فى الشرق الاسلامى - والحصون التابعة لها شرق الفرات يعد من أهم اعماله البطولية التى قام بها ضد الصليبيين لما لهذا النصر من أصداء فى الشرق والغرب . فقد تجدد الامل عند المسلمين بعد ان تحطمت أولى الامارات الصليبية التى قامت فى قلب العالم الاسلامى حتى اعتبر ابن الاثير ان فتح الرها من اعظم الفتوح حيث يقول "ولم ينتفع المسلمون بمثله" اعاد لهم الثقة فى أنفسهم وأوضح للصليبيين مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية فى الشرق الاسلامى ، وبداية النهاية لبقية الامارات الصليبية فى الشرق الاسلامى (٢) . ومن ناحية أخرى فقد رفع هذا النصر من مكانة

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٨٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ١ ص ٥٢٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٨٤-٣٨٥ .

(٢) ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ص ٢١٩ .

عماد الدين زنكى عند المسلمين حتى جعل منه هذا النصر اماما للمسلمين ومدافعا عن الدين ومجاهدا فى سبيل اعلاء كلمة الله ، فمدحه الشعـــراء وأرسل له الخليفة العباسى المقتفى لامر الله الخلع والهدايا وزاد فـــى ألقابه ونعوته كالملك المظفر وقاهر الكفرة المتمردين فزادت شهرته حتـــى طار فى الافاق ذكره ، ودارت عنه الاحاديث فى شتى المحافل (١) .

أما بالنسبة للصليبيين فان سقوط الرها قد أدى الى اضعاف الـــروح المعنوية عندهم ، بالاضافة الى أن سقوط الرها كان اول ضربة عطية ضـــد القوة الصليبية فى الشام ودلت على ان "عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسـخ وامورها تنتسخ ومعاقلها تفرع ، وعقائلها تفترع" بعد أن انهارت دعامـــة من دعائم الصليبيين فى الشرق ، بعد أن كانوا يصولون ويجولون فى منطقـــة الجزيرة ، فتحطمت بذلك الحواجز التى أقامها الصليبيون فى تلـــك المنطقة . والى جانب ماسببه سقوط الرها من اضعاف الروح المعنوية عنـــد الصليبيين ، تحقق افتقاد الثقة بين صفوفهم جميعا ، مما حدا بريمونـــد دى بواتييه صاحب أنطاكية الذهاب الى القسطنطينية لطلب المساعدة مـــن الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين خوفا من أن يحل به ما حل بالرهـــا . ولم تقتصر هذه الصدمة التى ألمت بالصليبيين فى الشرق عليهم بـــل تعدتها الى المسيحيين فى غرب أوربا فنهضت حركة تدعو الى حملة صليبيـــة ثانية ، ومن ناحية اخرى فان الصليبيين لم يستطيعوا القيام بعمل مـــن

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٨٤ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٧٠-٧١ ،
العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٢٧ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠٩ .

شأنه استعادة الرها بسبب تدهور أوضاعهم الداخلية (١) .

وبعد أن قضى عماد الدين زنكي على المؤامرة التى قامت فى الرها ضد المسلمين سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م ساوره الشك فى عودة التحالف بين جوسلين الثانى امير الرها السابق وبين الاراتقة فى ديار بكر ، فعزم على مهاجمة الاراتقة فانتزع منهم بعض المواقع الهامة لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وقطع حبل الامل أمام الصليبيين فى وجود حليف لهم فى الجزيرة . وعندما تأكد عماد الدين زنكى من عدم عودة التحالف بين الاراتقة والصليبيين فى سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م سار الى قلعة جعبر (دوسر) الواقعة على نهر الفرات . وكان صاحبها عزالدين على بن مالك بن سالم بن مالك العقيلى كثير التلون والميل الى الصليبيين رغبة منه فى الاستيلاء عليها حتى لا يبقى فى وسط بلاده ماهو ملك لغيره ، حتى وان كان قليل الاهمية ، للحزم الذى عنده والاحتياط (٢) .

من هنا عزم عماد الدين زنكى على الاستيلاء على قلعة جعبر فأقام عليها وشدد حصاره عليها فى اواخر سنة ٥٤٠/ ١١٤٥م . ولما رأى عماد الدين حصانة هذه القلعة كتب الى عزالدين على بن مالك صاحبها فى معنى تسليم قلعة جبر ، وقد فوض عماد الدين زنكى حسان المنبجى صاحب منبج فى ان يضمن لعلى بن مالك العقيلى الاقطاع الوافر والعطاء الكثير

---

(١) عماد الدين الاصفهانى ، دولة آل ساجوق ص ١٨٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ص ٣٨ ، رشيطان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٣٨٣-٣٨٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ١ ص ٥٢٢ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٥٧ .

(٢) ابن الاثير، التاريخ الباهر ص٧٣ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ص ١٨٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١٠٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٥٢٩ .

مقابل التسليم . ولكن صاحب قلعة جعبر رفض التسليم ،فعاد حسان واخبر عماد الدين زنكي بهذا فواصل حصاره للقلعة حتى شهر ربيع الاخر من السنة التالية ٥٤١ هـ/١١٤٦ م . وبينما عماد الدين نائم ذات ليلة دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه بزعامة يرنقش الزكوى الذى يذكر ابن القلانسى انه من أصل افرنجى ، وفر هو ومن معه الى قلعة جعبر التى استبشر اهلها خيرا باستشهاد زنكى وأتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا (١) . وباستشهاد عماد الدين زنكى تلك السنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م افتقد العالم الاسلامى فى ذلك الحين شخصية من أهم الشخصيات التى تزعمت حركة بعث الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، والذى توج هذه الحركة بالاستيلاء على الرها . ولشدة مصاب المسلمين فى فقد عماد الدين فقد قيل انه بمقتل عماد الدين قتل المسلمون جميعا . وكان على ابنه نور الدين محمود ان يسير على خطى والده العظيم فى متابعة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . وهو موضوع الفصل الرابع .

—•—

---

(١) ابن القلانسى ،ص ٢٨٢-٢٨٥ ، انظر ايضا ،ابن الاثير ، التاريخ الباهر، ص ٧٤-٧٥ ،ابن الاثير،الكامل،ج١١،ص ١٠٩ ،ابن واصل ، مفرج الكروب،ج ١،ص ٩٩-١٠٠ ،ابن العديم ،زبدة الحلب،ج٢،ص ٢٨١-٢٨٢ ،المقريزى ، السلوك ج١ ق ١ ص ٢٨ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ،ج٨،ص ١٩٠ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة،ج ٥ ، ص ٢٧٨ ،رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية،ج٢،ص ٣٨٥ ، العرينى، الشرق الاوسط ج١،ص ٥٢٩-٥٣٠ .

الفصل الرابع

الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م)

- تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الإسلامى
- نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ/١١٤٨
- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣-٥٦٥هـ/١١٤٨-١١٦٩م)
- نور الدين محمود وتوحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة
- استيلاء نور الدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى- (٥٥٩-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٣م)

((الفصل الرابـــــع))

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود

٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٣ م

- تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى .
- نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية .
- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣ - ٥٦٥ هـ / ١١٤٨-١١٦٩م).
- نور الدين محمود وتوحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة .
- استيلاء نور الدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى (٥٥٩ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٣ - ١١٧٣م).

—•—

الفصل الرابع

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود

(٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م ٠)

تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى :

فى الوقت الذى كان فيه عماد الدين زنكى ملازما لاقسنقر البرسقى صاحب حلب والموصل ، وبالتحديد فى سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م رزق بابنه نورالدين محمود . وفى تلك السنة توفى السلطان محمد بن ملكشاه ، وقام النزاع بين أولاده محمود ومسعود ، مما أدى الى دخول عماد الدين زنكى هذا النزاع(١).

وعلى الرغم من انشغال عماد الدين زنكى فى الفترة مابين سنتى ٥١١-٥٢١ هـ/ ١١١٧-١١٢٧م بالعديد من الاعمال السياسية والعسكرية التى قام بها بأمر من صاحب الموصل آقسنقر البرسقى ، فان كل ذلك لم يشغله عن تربية أولاده ، فقد خصص لتربيتهم على بن منصور السروجى الذى اشتهر ببراعته فى الادب وقرض الشعر وحسن الخط (٢) .

ونشأ نور الدين محمود -الذى كان والده يقدمه على اخوته لما رأى فيه من مخايل النجابة - تحت رعاية والده وتعلم القرآن الكريم والفروسية ، فنشأ على الخير والصلاح ، كما كان نورالدين محمود ملازما لوالده فى حله وترحاله .

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٥ ، ص ١٨٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢١٤ ٠

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٧١ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٨ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٧٢ ٠

ولا شك أن ملازمة نور الدين محمود لوالده وهو فى مقتبل العمر قد أدت الى تكوين شخصيته منذ البداية تكوينا حسنا ، وجعل منه ذلك الرجل القوى الذى استطاع أن يخيب آمال الصليبيين ، حينما فكروا فى استرداد ما كان قد استولى عليه والده عماد الدين زنكى " فلما رأوا من نور الدين الجد فى أول أمره علموا بعد ما أملوه " كما يقول ابن العديم(1). واذا كانت ملازمة نور الدين محمود لوالده عماد الدين قد ساعدته على ان يكمل ما رسمه والده ، ليس فقط فى جهاد الصليبيين ، بل وفى توحيد الجبهة الاسلامية ، فان دراسته للفقه والحديث على مذهب أبى حنيفة لم تصرفه عن تعزيز مكانة المذهب السنى ، فهو ملتزم به من غير تعصب منه ولا تمييز " بل الانصاف سجيته فى كل شي " . واذا كان نور الدين محمود حنفيا على مذهب ابى حنيفة ، فان المذهب الشافعى قد حظى فى عهده بالتعزيز والرعاية ، حيث أنشأ فى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧م مدرسة للشافعية بدمشق ، وفى العراق شرع سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م فى بناء مدرسة للشافعية (2) . ويبدو ان نور الدين محمود كان يهدف من وراء ذلك الى كسب ولاء العساكر التركمانية المتعصبة للمذهب السنى بالاضافة الى كسب رضى الخلافة العباسية التى كانت ترى فى تشجيع المذهب السنى ما يعزز مكانتها امام خلافة الفاطميين الشيعية بالقاهرة .

---

(1) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٩١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٧١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٩ .

(2) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٩٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٩ ، عماد الدين خليل ، نورالدين محمود ، ص ١٣٢ .

وعقب وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م حدث انقسام بين صفوف المسلمين فى دولته ، فقد أخذ ألب أرسلان بن محمود بن محمد السلجوقى مجموعة من العساكر حاول العودة بها الى الموصل للاستيلاء عليها من زين الدين على كوجك نائب عماد الدين بالموصل . غير أن كلا من جمال الدين محمد الاصفهانى رئيس ديوان عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى امير حاجب عماد الدين أخلصا اشد الاخلاص فى تثبيت الملك لاولاد عماد الدين زنكى . وتناسا مابينهما من خلافات شخصية " وحلف كل واحد منهما لصاحبه " على الاخلاص فى تثبيت الملك لاولاد عماد الدين زنكى وكتبا الى زين الدين على كوجك وطلبا منه استدعاء سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى ، الذى كان موجودا بشهرزور ليتولى أمر الموصل ففعل فى الوقت الذى أوعزا فيه الى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بالمسير الى حلب ، فاصطحب أسد الدين شيركوه وسارا الى حلب فملكها نور الدين محمود . أما جمال الدين الاصفهانى وصلاح الدين الياغيسيانى فقد ظلا بصحبة الملك ألب أرسلان ، وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ، ولكنهما كانا يخافان منه ، فعرضا عليه فكرة مسير أحدهما الى حلب " لئلا يطمع الفرنج فى شيء منها " فوافق الملك ألب أرسلان على تسيير صلاح الدين الياغيسيانى الى حلب ، بينما ظل جمال الدين الاصفهانى الى جانب الملك ألب ارسلان . ولم يكتف الاصفهانى ببقائه الى جانب السلجوقى بل هون عليه امر البلاد الشامية وحسن له المسير الى سنجار للاستيلاء عليها وذلك بهدف ابعاده عن مناطق نفوذ دولة زنكى ، فسار الملك الى سنجار بينما عاد جمال الدين الاصفهانى الى الموصل فجعله سيف الدين غازى وزيرا له .(١)

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ص ٨٥-٨٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١١٢-١١٣ ، ابن القلانسى ص ٢٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ص ١١٩-١٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٨٩-٢٩٠ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ، ص ١٨-١٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٣٠ .

وهكذا نجح كل من صلاح الدين الياغيسياني وجمال الدين الاصفهانى فى خداع ألب أرسلان بن محمود ، وابعاده عن املاك عماد الدين زنكى التى قسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى اتخذ الموصل عاصمة له وحكم القسم الشرقى من املاك والده ، فى حين اتخذ نور الدين محمود حلب عاصمة له وحكم القسم الغربى من دولة عماد الدين زنكى . وأدى هذا التقسيم لدولة عماد الدين الى أن اصبح نورالدين محمود مواجها للصليبيين فوقع على عاتقه مهمة جهاد الصليبيين فى بلاد الشام ، بالاضافة الى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة والتى كان والده عماد الدين زنكى قد بذل جل وقته وجهده وماله فى تحقيقها (١)

واذا كان نور الدين محمود بن زنكى قد تحمل بحكم الموقع الجغرافى لدولته مهمة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام بالاضافة الى توحيد الجبهة الاسلامية ، فان موقع دولة اخيه سيف الدين غازى فى الموصل لا تقل اهمية عن ذلك ، فقد تحمل سيف الدين غازى عبء مواجهة القوات المتطلعة للوثوب على شرق المملكة الزنكية التى ورثها هو واخوه عن والدهما ، كالاكراد المقيمين حول الموصل ، والاراتقة فى ماردين وحصن كيفا ومطامع الخلافة العباسية فى بغداد والسلطنة السلجوقية . ويمكن القول ان هذا التقسيم لدولة عماد الدين زنكى قد اتاح لنورالدين محمود فى حلب وسيف الدين غازى فى الموصل فى ان يتخصص كل منهما فى عمل معين استطاعا به الحفاظ على تركة والدهما ، فسيف الدين غازى ورث عن والده الحروب والمشاكل

---

(١) عماد الدين الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧-١٩٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٠٩ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٥ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٢ ص ١٦ .

الواقعة فى الجزيرة مع الارانقة والاكراد ، بينما استطاع نور الدين محمود أن يركز جهوده ونشاطه لا فى جهاد الصليبيين فحسب ، بل وفى توسيع مملكته على حساب الامارات الصليبية بعد ان أخذ طغيان الصليبيين فى التداعى عقب سقوط الرها (١) .

- نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية : ٥٤٣هـ/١١٤٨م :

بعد أن استقر نور الدين محمود بن زنكى فى حكم حلب فى ربيع الثانى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م أخذ أعداء والده عماد الدين فى التطلع الى استرجاع مافقدوه من املاك على يده ، سواء منهم المسلمين اوالصليبيين ظنا منهم بضعف نور الدين محمود (٢) . وكانت اولى الاخطار التى تعرض لها نور الدين محمود من جانب الصليبيين ، هى من جوسلين الثانى صاحب الرها الذى كان مقيما بتل باشر غرب الفرات ، فما ان سمع بوفاة عماد الدين زنكى حتى راسل اهل الرها - ومعظم اهلها من الارمن - وحطهم على عصيان المسلمين وتسليم البلد اليه ، فأجابوه الى ذلك ، وسار فى عساكره الى الرها فى جمادى الاخرة من نفس السنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م واستطاع بمن معه من الصليبيين ان يتسلق أسوار المدينة فى الليل . وبذلك تمكن من الاستيلاء عليها . ولكنه عجز عن الاستيلاء على القلعة التى كانت بيد الحامية الاسلامية ، على الرغم من ان جوسلين ومن معه من الارمن والصليبيين قد

---

(١) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ،ص ٤١-٤٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ ،ص ٥٩٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،جـ١ ،ص ٥٣٤ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٠ .

(٢) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،جـ١ ،ص ٥٣٥ .

فتكوا بكثير من أهلها الذين استبسلوا فى الدفاع عنها (١) . أما الخطر الثانى الذى تعرض له نورالدين محمود من جانب الصليبيين فقد كان من جانب ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية ، فقد استغل هو الاخر وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م وقام بغارة على البلاد التابعة لحلب ولكن نورالدين محمود استطاع صد المعتدين على حلب مستعينا فى ذلك بأسد الدين شيركوه الذى خرج لمطاردة الصليبيين بمن كان بحلب من العساكر الاسلامية (٢) . ولما تمكن نورالدين محمود وقائده اسد الدين شيركوه من ابعاد خطر الصليبيين عن حلب ، طلب منهم التوجه معه الى الرها فى شهر جمادى الاخرة من نفس السنة لاستعادتها من جوسلين الثانى . واجتمع معه من العساكر مايقرب من عشرة الاف فارس من التركمان يتقدمهم سيف الدين سوار ، فاغزوا السير صوب الرها قبل ان تصل الى جوسلين الثانى نجدة من الصليبيين . ولشدة رغبة نورالدين ومن معه من المسلمين للوصول الى الرها فى اقرب وقت ممكن ذكر ابن القلانسى ان الدواب التى كانوا يركبونها قد وقفت فى الطريق من شدة التعب (٣) . ولما اشرف نور الدين محمود

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٩٠ ، اما المؤرخون اللاتين ومن نقل عنهم فانهم يذكرون ان اهل الرها هم الذين راسلوا جوسلين الثانى وطلبوا منه القدوم الى الرها وتسليمها اليه . انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٨٧ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٢-٧٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ٥٩٨ ، العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٣٦ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها الصليبية ، ص ٣١٥ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ١ ، ص ١٢٣-١٢٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٨٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

على أبواب الرها التقى بجوسلين (١) الثانى ورجاله من الارمن وغيرهم ، فأوقع المسلمون بهم ، ووقع جوسلين بين شقى الرحى ، بين القوات الاسلامية فى قلعة الرها ، وقوات نورالدين محمود التى تحاصر المدينة من الخارج . وأدرك جوسلين انه لاسبيل له الى النجاة الا أنه استطاع بعد الحصار المرير الذى فرض عليه من التسلل ليلا الى خارج المدينة ، وولى هاربا الى تل باشر غرب الفرات ، بينما قتل بلدوين صاحب مرعش وكيسوم وكل من ظفر به المسلمون من نصارى الرها . وأخيرا تقرر اخراج كل سكان الرها المسيحيين وابعادهم الى المنفى جزاء لهم على خيانتهم وتعاونهم مع جوسلين "فخلت منهم ولم يبق بها الا القليل "(٢) . وهكذا استطاع نورالدين محمود استعادة الرها من جوسلين الثانى فى شهر جمادى الاخرة من سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م، فقطع بذلك على الصليبيين ماكانوا يأملونه عقب وفاة عماد الدين زنكى . ولم تتوقف اهمية استعادة نورالدين محمود للرها من الصليبيين على انها قطعت آمالهم حبل الامل فى العودة مرة اخرى الى منطقة الجزيرة ، بل أدت الى رفع معنوية نورالدين محمود بين رعاياه من المسلمين فى بلاد الشام بالاضافة الى انها مكنته من الحصول على منطقة نفوذ بالجزيرة التى كانت رائدة فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . (٣)

(١) جوسلين الثانى (Joscelin II.) تولى امارة الرها بعد وفاة ابيه جوسلين الاول سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١م وظل فى حكم امارة الرها حتى سقوطها بيد عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م . انظر: ابوشامة، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص ١١١ ، انظر ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٨٧ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ١١٤ ، ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٨٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ١ ص ٥٣٦ ، علية الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣١٦-٣١٧ . ومرعش: مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٥٣٧ ، علية الجنزورى ، امارة الرها الصليبية ، ص ٣٣٠ .

لم يتوقف نورالدين محمود عند حد استعادة الرها من الصليبيين سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م ، بل رأى فى نفسه القدرة والكفاية ما جعله يفكر بغزو الصليبيين فى عقر دارهم مستغلا فى ذلك الخلافات التى حصلت بين حكام بيت المقدس الصليبيين ، وحكام دمشق من اسرة طغتكين ، فقام فى السنة التالية ٥٤٢ هـ/١١٤٧م بمحاربة الصليبيين ، وصرف همه الى منازلة ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية فاستطاع الدخول الى بلادهم ففتح ارتاح بالسيف ونهبها ، وفتح بعض الحصون التابعة لانطاكية وبذلك جرد انطاكية من البلاد التابعة لها من الشرق ، فتحول المد الى جانب نورالدين محمود ، وظهر بذلك فشل السياسة التى سار عليها ريموند صاحب انطاكية بعد ان فقد كثيرا من ممتلكاته التى سقطت بيد نورالدين محمود (١) .

وكان سقوط الرها بيد عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م قد أثار ثائرة الصليبيين لا فى بلاد الشام فحسب بل وفى اوربا ، لما كان للرها من اهمية فى نفوس الصليبيين من الناحية الاستراتيجية والدينية ، بالاضافة الى انها اول امارة صليبية قامت فى الشرق الاسلامى . واعتبروا سقوطها ايذانا بانهيار البناء الذى بناه الصليبيون طيلة نصف قرن من الزمان (٢) . ولما كانت اوضاع الصليبيين فى بلاد الشام عقب سقوط الرها بيد عماد الدين زنكى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٢٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٩١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١١٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ص ١٩٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ١٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٣٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٣٩٢ .
وأرتاح : حصن منيع من اعمال حلب . انظر ياقوت . معجم البلدان .
(٢) انظر ماسبق ، ص

لا تسمح لهم باستعادتها والوقوف فى وجه عماد الدين زنكى لما بينهم من الخلافات ، فانهم لم يستكينوا بل أرسلوا فى سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥م رسلهم الى اوربا لاستنفارها وتاليب قواها لاسترداد الرها والقضاء على الزنكيين فكان نتيجة ذلك خروج الحملة الصليبية الثانية على راس اثنين من زعماء اوربا هما كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ولكن هذه الحملة لم تصل الى بلاد الشام الا بعد وفاة عماد الدين زنكى واستعادة نورالدين محمود للرها فى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م (١) .

وعلى اية حال فان وجود اكبر ملوك اوربا على راس هذه الحملة يدل على قوة الصدمة التى تعرضت لها اوربا على اثر سقوط الرها بيد المسلمين ، وعلى قوة التأثير التى قام بها دعاة هذه الحملة أمثال القديس برنارد والبابا يوجينوس(٢) . غير ان هذه الحملة على الرغم من كونها حملة نظامية ، فانها قد تعرضت لكثير من المتاعب والمشاكل قبل وصولها الى الشام لتحقيق هدفها وهو استعادة الرها والقضاء على الزنكيين . فروجر ملك صقلية اراد استغلال هذه الحملة لتحقيق مآربه فى أنطاكية واستعادتها من ريموند دى بواتييه فأدى ذلك الى رفض لويس السابع ملك فرنسا قبول العرض الذى تقدم به روجر ملك صقلية من تقديم المؤن والسفن لنقل الصليبيين الى الشام وذلك للقرابة بين ريموند صاحب انطاكية وزوجة لويس السابع . وأدى ذلك الى تغيير مسار الحملة الى القسطنطينية ومنها الى آسيا الصغرى فبلاد الشام(٣) . اما الامبراطور

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٣٨٧-٣٩٧ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٠٦ .

(٢) انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٤٠٩-٤١٦ .

(٣) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٠ .

البيزنطى مانويل كومنين فلم يكن بأقل تحمسا من صاحبه ملك صقلية فى استعادة نفوذه على شمال بلاد الشام ، وهذا ما دعاه الى فرض مطالبه على زعماء الحملة الصليبية الثانية بوجوب اعادة سيطرته على شمال الشام ولم يقف عند هذا الحد من فرض هيمنته وارادته على زعماء الحملة الصليبية الثانية بل عقد مع السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم فى تلك السنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م اتفاقا للتعاون بينهما وحسن الجوار (١) . وأدى ذلك الى عدم قيام الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين بتقديم المساعدات لكونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا حين تعرضا لهجوم عنيف من سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، مما أدى الى فناء كثير من رجالهما (٢) .

هكذا خدمت الظروف نورالدين محمود خاصة والمسلمين فى بلاد الشام عامة ، بما وقع لهذه الحملة من فناء وتشريد الكثير من رجالها المحاربين على يد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، بالاضافة الى ما حصل بين زعماء هذه الحملة والامبراطور البيزنطى مانويل كومنين من اختلاف حول السيادة على بلاد الشام ، أدى الى ان كلا منهما اساء الظن فى صاحبه قبل وصول الحملة الى بلاد الشام . وقد تأكد سوء الظن هذا لدى زعماء الصليبيين حينما وقف الامبراطور البيزنطى موقف المتفرج حيال ما جرى للصليبيين من ضربات قاصمة على يد سلاجقة

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٩٧ ، تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، ص ٦٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٦ .

الروم (١) . واذا كانت الظروف التى تعرض لها زعماء الحملة الصليبية الثانية قد خدمت نور الدين محمود ، فان سكان بلاد الشام الذين كانوا يرتجفون خوفا من مصيرهم المحتوم على يد زعماء الحملة الصليبية الثانية قد غمرهم الفرح والسرور وسكنت نفوسهم من الخوف عند سماعهم بما حل على هذه الحملة من الفناء والدمار على يد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على حد تعبير ابن القلانسى (٢) .

وأخيرا وصل لويس السابع ملك فرنسا وزوجته الى انطاكية فى أواخر سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م عن طريق آسيا الصغرى ، فقوبل كل من لويس وزوجته فى انطاكية بالتهليل والفرح العظيم ، اذ رأى ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية فى هذه الحملة اداة طيبة فى استرداد اراضيه التى فقدها على يد نور الدين محمود ، وكان نور الدين محمود شديد الرغبة فى الاستيلاء على انطاكية او اضعافها حتى لا تكون مركز انطلاق للصليبيين والبيزنطيين للاغارة على املاكه فى حلب وشمال الشام (٣) . ولشدة حماس ريموند صاحب انطاكية فى استغلال هذه الحملة لصالحه فقد أخذ يعدد لزعيمها لويس السابع ملك فرنسا ما يهدد الامارات الصليبية من جراء وجود نورالدين محمود

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٥٥٨ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٩٧ ، انظر ايضا ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٢ ١-١٣٤ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٤٤٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٢ - ٦١٧ .

فى حلب وشمال الشام وسيطرته على الطرق المؤدية الى أنطاكية وبيت المقدس . واعتمادا على ما ذكره وليم الصورى حول هذا الموضوع فقد ذكر أحد الباحثين المحدثين أن ريموند صاحب انطاكية كان محقا فى تفكيره الى حد بعيد ، لان الحملة الصليبية الثانية انما أتت الى بلاد الشام لاسترداد الرها والقضاء على القوة الزنكية فى شمال العراق والشام وبالتالى تامين الاوضاع الخاصة بامارة الرها وانطاكية (١) . ورفض لويس السابع ملك فرنسا تلبية رغبة ريموند صاحب انطاكية ومهاجمة نور الدين محمود فى حلب خشية ان يزج بنفسه وجيوشه فى مغامرة لا يضمن نتائجها (٢) . ولذلك فقد تنفس لويس السابع الصعداء حين وصل الى انطاكية بطريرك بيت المقدس فولشر فى ابريل من سنة ١١٤٨م لاعلام الملك لويس السابع بوصول الامبراطور كونراد الثالث الى بيت المقدس . وطلب البطريرك من الملك لويس السابع التوجه الى بيت المقدس ، فأعلن الملك الفرنسى صراحة لريموند صاحب أنطاكية انه انما حمل الصليب والسلاح دفاعا عن مملكة بيت المقدس وزيارة اماكنها المقدسة . وسار الى بيت المقدس دون ان يستأذن ريموند صاحب أنطاكية فوصلها فى سنة ٥٤٣ هـ/ ابريل ١١٤٨م وهناك وجد الامبراطور الالمانى كونراد الثالث فى انتظاره ، فتغيرت وجهة الحملة الصليبية الثانية واصبح نورالدين محمود بعيدا الى حد ما عن خطر هذه الحملة ، خصوصا وانه قد قتل من أفرادها أعداد كثيرة .(٣)

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦١٢ .

(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٣ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٤٤٩ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٩٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٤٤٩ .

وفى بيت المقدس اجتمع لويس السابع مع كونراد الثالث مع مضيفهم الملك القاصر بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا . على أن تغيير وجهة مسار الحملة الصليبية ووصول زعمائها الى بيت المقدس قد أدى الى انقسام الصليبيين فى بلاد الشام الى قسمين : القسم الاول ويمثله زعماء هذه الحملة مع ملك بيت المقدس ووالدته ، وهدف هذا القسم الاستيلاء على دمشق من أسرة طغتكين ، بهدف توسيع ممتلكات بيت المقدس وتعويض الصليبيين عما كانوا قد فشلوا فى تحقيقه سابقا ، رغم ان حكام دمشق من أسرة طغتكين كانوا حلفاء لملك بيت المقدس . أما القسم الثانى ويمثله صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وجوسلين الثانى صاحب الرها سابقا وهم يرون مواجهة نورالدين محمود فى حلب وشمال الشام والجزيرة أولى من الدخول فى مغامرات بجنوب الشام خصوصا وان خطر المسلمين بهذه المنطقة لا يساوى خطر الزنكيين فى الشمال ، بسبب مسالمة حكام دمشق وضعف الفاطميين"(١) ، غير أن القسم الاول قد تغلب فى وجهة نظره على القسم الثانى وكان هذا من العوامل التى أدت الى فشل الحملة الصليبية الثانية . فما ان قضى الصليبيون القادمون من اوربا مفروض حجهم وعاد منهم من عاد الى بلاده ، دعت الملكة ميلسندا فى السنة نفسها ٥٤٣ هـ/١١٤٨م زعماء الحملة الى عقد اجتماع فى عكا للتشاور فى امر الخطة التى يجب السير عليها لاستغلال جموع الصليبيين فى توسيع رقعة مملكة بيت المقدس .وبعد مناقشات ومداولات واختلاف

---

(١) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ،ص ٥٤ - ٥٥ ،ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص ٧٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٥٦٢.

فى الآراء استقر امرهم اخيرا على منازلة دمشق (١) .

وشرع الصليبيون فى شن هجومهم على دمشق فى ربيع الاول من سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م حيث قصدوا المنزل المعروف بمنازل العسكر ، فوجدوا به الماء مقطوعا فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء وشددوا الحصار على اهل البلد حتى ضعف امر المسلمين فتقدم الصليبيون بقيادة كونراد الثالث الى المكان المعروف بالميدان الاخضر (٢) . فاستظهر الصليبيون على المسلمين فى اليوم الاول من القتال وهو يوم السبت السادس من ربيع الاول من السنة المذكورة . وقتل من المسلمين قرابة المائتين من رجال العلم والدين . وانتشر الصليبيون فى البساتين المحيطة بدمشق ، وشرعوا فى قطع الاشجار للتحصن بها وحاولوا فى اليوم الثانى شن هجوم مباغت على المسلمين ، ولكن معين الدين أنر ورجاله ابلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن دمشق حتى استظهر المسلمون على الصليبيين (٣) . ولم يقتصر دفاع

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٩٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ق١ ، ص ١٣٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ص ١٩٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١ ص ٥٦٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص ٤٥٢ . أما رواية ابن الاثير فهى لاتذكر شيئا عن اختلاف اراء الصليبيين بل ذكر ان كونراد الثالث قد امر الصليبيين بالمسير الى دمشق ظنا منه بنفسه وقوته وكثرة رجاله . انظر ابن الاثير الكامل ، ج١١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٩٨-٢٩٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ١٢٩- ١٣٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ١٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٢٩١ .
والمزة : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان . ومنازل العسكر : منطقة فسيحة كانت تتجمع فيها الجيوش التى تريد مهاجمة دمشق جنوبى دمشق . انظر ابوشامة ، الروضتين ج١ ، ص٢٩٩ ق١ ص ٢٩٩ حاشية رقم ٦ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ١٦٠ .

المسلمين عن دمشق على العساكر النظامية بل اشترك فى الدفاع عنها كل الرجال حتى الزهاد منهم والعباد ورجال الدين والعلماء المتطوعة الذين لا رغبة لهم فى ذلك سوى الدفاع عن دمشق او الاستشهاد فى سبيل الله (١) .

لم تقتصر خطة معين الدين انر - وزير جمال الدين ابق بن محمد بن بورى - ولا رجال دمشق المشهورين فى الدفاع عن دمشق على المواجهة العسكرية بل عملوا على طم الابار الواقعة امام الصليبيين بالاضافة الى ما بذله معين الدين انر من الاموال والجوائز المغرية لكل من يحضر راس أحد من الصليبيين ، وما قام به من ارسال الرسل الى اصحاب الاطراف يستصرخهم ويطلبهم النجدة . فوصل من جهة البقاع امدادات كثيرة من المسلمين أدت الى رفع الروح المعنوية عند المدافعين ، اجبرت الصليبيين على التراجع قليلا بعد مقتل كثير منهم (٢) . غير ان معين الدين انر وزير ابق خاف ان يكون تراجع الصليبيين مكيدة له فارسل الى سيف الدين غازى صاحب الموصل يستغيث به ويستنجده على الصليبيين ويسأله القدوم اليه ، فجمع سيف الدين غازى جيوشه وسار بها الى حمص ومعه اخوه نور الدين محمود صاحب حلب (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٩٩ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٤ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٩٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .
والبقاع : جمع بقعة ، موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق وهو ارض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ - ٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٨ .

ولما كان معين الدين أنر وجمال الدين ابق قبل هجوم الصليبيين على دمشق حلفاء لحكام بيت المقدس، فان سيف الدين غازى قد ساورته الشكوك فى حسن نية معين الدين أنر الحاكم الفعلى لدمشق ، فأرسل من قبله رسولا الى دمشق يخبر معين الدين أنر باستعداده لقتال الصليبيين ، على ان يتولى امر دمشق رجل من قبله على ان يردها اليه بعد احراز النصر على الصليبيين . ولكن معين الدين أنر اخذ يماطل سيف الدين غازى ولم يسارع الى تلبية رغبته خشية ان يستولى سيف الدين غازى على دمشق "لينظر مايكون من أمر الفرنج"(١). وعلى اية حال فقد أشاع خروج سيف الدين غازى وأخوه نورالدين محمود الى حمص نجدة لمعين الدين أنر الرعب بين صفوف الصليبيين ، لان سيف الدين غازى ارسل الى الصليبيين يهددهم ان لم يرحلوا عن دمشق ، فى الوقت الذى ارسل فيه معين الدين انر الى الصليبيين بالشام ينذرهم بحضور سيف الدين غازى ويقول لهم محذرا " باى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون انهم ان ملكوا مدينة دمشق اخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا ان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين غازى ، وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام بالشام "(٢) . ويضيف أبوشامة فى كتابه الروضتين ان معين الدين انر بذل للصليبيين بالشام

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ ، انظر ايضا ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص١٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ص ١١٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٦٧ ، اما مؤرخ دمشق ابن القلانسى فلم يشر الى المراسلة التى تمت بين سيف الدين غازى ومعين الدين أنر ولا حتى عن مماطلة معين الدين أنر التى اتبعها تجاه سيف الدين غازى صاحب الموصل .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١١٣ ، انظر ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٣١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٦٧ .

أن يسلم اليهم بانياس ان رحلوا الامبراطور الالماني عن دمشق " فاجابوه الى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده وانه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم مقام بالساحل فأجابهم الى الرحيل عن دمشق . فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين أنر وبقى معهم حتى فتحه نورالدين محمود رحمه الله"(١) .

هكذا وجدت رسالة معين الدين أنر صدى فى نفوس صليبيى بلاد الشام الذين لم يحصلوا على ماكانوا يرغبون فى تحقيقه باستعادة الرها والقضاء على الزنكيين ، مما دعاهم الى التهاون فى أمر مساعدة الامبراطور الالمانى فى حصاره لدمشق ، وهذا على ما يبدو ما أجبره فى اليوم الخامس من حصاره لدمشق الى الانسحاب عنها فى العاشر من ربيع الاول سنة ٥٤٣ هـ / الموافق ٢٨ يوليو سنة ١١٤٨م الى بيت المقدس هو وجموعه فى أسوأ حال وقلة رجال ، حيث أنزل المسلمون بهم قبل الانسحاب وبعده مذبحة هائلة اشار اليها ابن القلانسى ، على ان روايح جيفهم تكاد تصرع الطير فى الجو(٢) .

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٣٨ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ، انظر ايضا سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٩٨ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٦٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٥٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦١٨ ، العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٧٠ .

وبالاضافة الى اثر رسالة معين الدين أنر فى نفوس الصليبيين وما أدت اليه من تراجع الصليبيين عن مواصلة الحصار لدمشق ، فهناك عدة اسباب : منها ما اشار اليه المؤرخون امثال ابن القلانسى حيث ذكر ان انسحاب الصليبيين عن دمشق جاء نتيجة الصمود الذى ابداه معين الدين أنر ، وما وصله من الامدادات وما تواتر لدى الصليبيين من أخبار العساكر الاسلامية "بالخفوف الى جهادهم والمسارعة الى استئصالهم ، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار" ، ثم ما حصل بين زعماء الصليبيين من شقاق حول مستقبل دمشق بعد الاستيلاء عليها (١) . أما السبب الثانى عن تراجع الصليبيين عن حصار دمشق فهو ما ذكره بعض الباحثين نقلا عن المصادر الاوربية من ان بعض زعماء الحملة الصليبية الثانية المحاصرة لدمشق قد تلقى نصائح من بعض البارونات الشرقيين الذين تلقوا رشاوى مالية من معين الدين أنر تدعو الى الانسحاب بعيدا عن دمشق ، ثم وقوع الشجار فى المعسكر الصليبى حول مستقبل دمشق بعد الاستيلاء عليها فبينما طمع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا فى ان تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة لمملكة بيت المقدس اذا ببعض الامراء الصليبيين يؤيدهم لويس السابع يطمعون فى الفوز بدمشق ليقيموا فيها امارة صليبية جديدة (٢) . وبالاضافة الى ذلك فقد بذل ريموند دى بواتييه صاحب

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ٢٠ ، ابن ايبك ، كنزالدرر ، جـ٦ ، ص ٥٥١ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ٦١٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٦٨ - ٥٧٠ .

أنطاكية جهودا كبيرة كيما تحل الهزيمة بلويس السابع ملك فرنسا لعدم تلبيته رغبة ريموند فى توجيه الحملة الصليبية ضد نور الدين محمود زنكى فى حلب وشمال الشام حين قدومه الى انطاكية فى السنة الماضية(١) .

وفى الحقيقة ان زعماء الحملة الصليبية الثانية قد فشلوا فى تحقيق ادنى حد من هدفهم حين سعوا الى تحقيق رغبة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا بالهجوم على دمشق اذ أتاحوا لنور الدين محمود ابن زنكى فرصة ملائمة للتفكير الجدى فى السعى الى ضم دمشق فيما بعد ، بالاضافة الى أنهم فقدوا اكبر حليف لهم فى بلاد الشام ، والممثل فى أسرة طغتكين بدمشق . ولم تقف آثار فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق عند حد تدخل نورالدين محمود فى شئون دمشق بل ادت الى بث روح الشقاق بين الصليبيين والبيزنطيين من ناحية وبين الصليبيين فى بلاد الشام من ناحية اخرى (٢) .

ولم تقتصر نتائج فشل الحملة الصليبية عند حد عدم تحقيق هدفها الاساسى فى استعادة الرها والقضاء على الزنكيين بل ان الصليبيين فى بلاد الشام قد تعرضوا لمطامع بعض زعماء الحملة الصليبية الثانية مما دعى صليبيى بلاد الشام الى الاستعانة بنورالدين محمود ، ومعين الدين أنر ذلك ان معين الدين أنر بعد انسحاب الصليبيين عن دمشق توجه الى بعلبك ليكون قريبا من نور الدين محمود الذى كان موجودا بحمص ، فتم

---

(١) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٦ .
(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ٦١٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٢ - ٤٦٣ .

فتم اللقاء بينهما فى أواخر شهر ربيع الاخر من سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م وعند اجتماعهما وصل اليهما كتاب من ريموند الثانى صاحب طرابلس يطلب منهما النجدة ضد برتراند (١) بن الفنسو صاحب طليطلة الذى تغلب على حصن العزيمة واظهر انه يريد الاستيلاء على طرابلس ، فسارا اليه مجدين وكتبا الى سيف الدين غازى وهو بحمص يطلبان منه المدد فأمدهما بفرقة عسكرية مع احد اصدقائه فحاصروا الحصن وبه ابن الفنسو ووالدته . وبعد حصار شديد استطاع المسلمون اقتحامه بعد تخريبه ووقع برتراند ووالدته فى أسر نورالدين محمود بن زنكى ونقلهما الى حلب (٢) .

ويمكن القول ان استيلاء نورالدين محمود على حصن العزيمة كان آخر لقاء بين المسلمين وبقايا الحملة الصليبية الثانية التى خرجت الى بلاد الشام ، وفتحت بذلك صفحة جديدة لنورالدين محمود بن زنكى لا فى جهاد الصليبيين فحسب بل وفى التدخل الفعلى فى شئون دمشق التى كانت تخضع لحكام من اسرة ظهير الدين طغتكين منذ سنة ٤٩٧ هـ/١١٠٣م .

- جهاد نورالدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية :
(٥٤٣ - ٥٦٥ هـ/١١٤٨ - ١١٦٩م) .

أدى فشل الحملة الصليبية الثانية وعودة زعماء اوربا الى بلادهم خائبين الى تصميم نورالدين محمود على مواصلة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

---

(١) برتراند هو حفيد ريموند التولوزى Raymond of Toulouse.
انظر ابوشامة ، الروضتين جـ١ ، ق١ ، ص ١٣٣ حاشية رقم (٤) .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٣٠٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٩٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ص ١٤٢-١٤٣ .

ولكنه رأى ان اعادة الوحدة بين المسلمين لن تعود الا بتعزيز المذهب السنى فهذا خير وسيلة لتحقيق النصر على الصليبيين (١) . ولذلك فقد قام بعد عودته الى حلب عقب فشل الحملة الصليبية الثانية وبالتحديد فى شهر رجب من سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م بابطال " حى على خير العمل" ومنع سب الصحابة وانكر ذلك انكارا شديدا فى حلب ، والبلاد التابعة لها . وساعده على ذلك جماعة من اهل حلب السنيين . وقد عظم هذا الامر على الاسماعيلية واهل التشيع وضاقت له صدورهم (٢) . ولذلك وجد ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية الفرصة مواتية للاتصال بزعيم الاسماعيلية فى أفامية على بن وفا الكردى للنيل من نورالدين محمود بن زنكى (٣) . وقد استطاع ريموند فعلا ان يصد نورالدين محمود وان يمنعه من التدخل فى الاراضى التابعة لامارته بعد ان كان نورالدين محمود قد ظفر بعدة من الحصون والمعاقل الصليبية (٤) . ولم يقف صاحب انطاكية عند هذا الحد بل جمع الصليبيين وقصد نورالدين محمود على حين غفلة منه فنال من من عسكره وأمتعته وانهزم نورالدين محمود وعسكره " وعاد الى حلب سالما فى عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير " (٥) . ولكن نورالدين محمود استطاع ان يأخذ بثأره فى نفس السنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) حيث التقى بجموع الصليبيين

---

(١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٤٩ .
(٢) ابن القلانسى ، ص ٣٠١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٩٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٤٧ .
(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٢٤ .
(٤) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

الذين كانوا يريدون قصد حلب والبلاد التابعة لها ، فالتقى بهم عند بغراس وانزل بهم هزيمة ساحقة انجلت عن قتل كثير .. منهم واسر جماعة من مقدميهم ، بعث بعدها بكثير من الغنائم والاسرى الى اخيه سيف الدين غازى بالموصل والى الخليفة العباسى المقتضى بالله والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه . وقد اكثر الشعراء من مدح نورالدين على أثر هذه الموقعة (١) .

ويمكن القول ان نورالدين محمود بن زنكى اتخذ انطاكية هدفا لجهاده فمع مطلع سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م عقد مع جوسلين الثانى صاحب تل باشر هدنة مؤقتة لكى يتفرغ لامر انطاكية ، فى الوقت الذى بعث فيه نورالدين محمود الى معين الدين انر يعلمه ان صاحب انطاكية قد جمع الصليبيين بقصد الغارة بهم على حلب والبلاد التابعة لها وانه اى نورالدين قد

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٤ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٩١-٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠-٢٩٢ ، ابوشامة الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٤-١١٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ ، وبغراس مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب ، انظر ياقوت ، معجم البلدان . ومما مدح به نورالدين محمود عقب هذه الوقعة قول الشاعر ابن القيسرانى حيث قال :

وكيف لا نثنى على عيشنا المحمود ... والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثنى ... الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة ... الا ونورالدين موجود
وكم له من وقعة يومها ... عند الملوك الكفر مشهود

انظر ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٤ .

برز فى عسكره الى ظاهر حلب للقاء صاحب أنطاكية ، وان الحاجة ماسة الى مساعدته . وجهز معين الدين أنر فرقة من رجاله لنجدة نورالدين محمود بالاضافة الى ماوصله من امدادات كثيرة من التركمان بالجزيرة وغيرها ، فتوجه نورالدين محمود بهذه الجموع التى بلغت اكثر من ستة الاف فارس الى انطاكية وقصد حصن حارم وهو للصليبيين ، فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب حيث دارت هناك معركة بين المسلمين والصليبيين فى العاشر من شهر صفر من سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م اسفرت عن هزيمة الصليبيين وسقوط ريموند دى بواتييه صريعا فى هذه المعركة التى اظهر نورالدين فيها من الشجاعة والصبر ماتعجب الناس منه على الرغم من حداثة سنه (١) . وكان ريموند صاحب انطاكية كما وصف فى كتب المؤرخين المسلمين عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم مع اشتهاره بالهيبة وكثرة السطوة والتفانى فى الشر . وبموته خلت انطاكية من اشهر زعمائها وخلفه ابنه بوهمند الذى أطلق عليه اسم بوهمند الثانى غير ان والدته كونستانس تزوجت بأحد المغامرين الصليبيين الذى عرف فى كتب المؤرخين المسلمين باسم أرناط وهو المغامر رينو دى شاتيون الذى لعب دورا كبيرا فى عهد صلاح الدين الايوبى (٢) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩١-٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٩٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ص ١٤٩-١٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١١٤-١١٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٢٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٥٢٦ .
وأنب : حصن من اعمال عزاز من نواحى حلب ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢١ ، العماد الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ص ٢٠٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٢٢ ، ٦٣٢ .

لم يكتف نورالدين محمود بما أنزله بالصليبيين فى أنب وأنطاكية من أسر وقتل زعماء الصليبيين بل تقدم فى نفس السنة الى أفامية واستولى عليها وعاد منها الى أرتاح وحارم وشحنها بالذخائر والمقاتلين . ولما اطمأن نور الدين محمود الى استتباب الامن والاوضاع فى البلاد التى استولى عليها من الصليبيين أسرع عائدا الى انطاكية التى خلت من زعمائها المدافعين عنها ، الا ان الحال اقتضت مهادنة وموادعة من بها من الصليبيين . وتقرر أن يكون ما قرب من الاعمال الحلبية لنورالدين محمود وما قرب من انطاكية يكون للصليبيين ثم رحل عنها نورالدين الى جهة اخرى (١) . وبهذه الانتصارات التى احرزها نورالدين محمود على الصليبيين فى بغراس وانب جعلت منه فى نظر المسلمين بالشام المدافع الاول عن حقوق المسلمين فى تلك البلاد . وأدرك هو نفسه هذه الحقيقة ، ورأى انه لابد له فى المرحلة القادمة من الاعتماد على قاعدة صلبة تمكنه من مواصلة سيره الى توحيد قوى الشام والجزيرة وتصفية القوى المعارضة له فعمل على تشجيع المذهب السنى الذى يدين به كثير من التركمان الذين يشكلون اكبر قوة فى جيشه ، فبالاضافة الى تشبث الاسماعيلية فقد عمل على بناء المدارس السنية التى تقربه من قلوب الناس ، كما اهتم بالعلماء والشعراء الذين عملوا فى نفس الوقت على تأليب الناس ضد معارضيه فى دمشق وغيرها (٢) .

وفى سنة ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠ م وجه نورالدين محمود اهتمامه الى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ١ ص ١٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٢٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ١ ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ١ ص ٥٧٧ .

وفى سنة ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م وجه نورالدين محمود اهتمامه الى جوسلين الثانى صاحب تل باشر لانتهاء الهدنة المعقودة بينهما فى الوقت الذى تعرض فيه جوسلين لهجوم من الملك مسعود سلطان سلاجقة الروم وذلك بهدف الاستيلاء على بلاده الواقعة شمال حلب كتل باشر وعين تاب وغيرها من الحصون . فجمع نورالدين محمود عساكره وسار الى بلاد جوسلين فالتقى به " فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر " . ولكن نورالدن محمود عزم على ان يأخذ بثأره وثأر رجاله ، فأخذ يفكر فى حيلة يستطيع بها القضاء على جوسلين خصوصا وانه ان قصده احتمى فى حصونه فاحضر نور الدين بعض أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب من الاموال ان ظفروا بجوسلين فترصدوا له فلما خرج ذات مرة للصيد وذلك فى المحرم من السنة نفسها (٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م) استطاع التركمان أسره ، وقد حاول ان يهبهم ما يطلبونه من الاموال فى مقابل اطلاق سراحه ورغبوا الى ذلك ، ولكن نائب نورالدين محمود فى حلب ارسل لهم مجموعة من رجالة فكبسوهم واخذوا جوسلين حيا ، وحملوه الى نورالدين بحلب حيث قتل . ثم سار نور الدين محمود الى قلاعه فاستولى على عزاز ، وتل باشر وغيرها من الحصون التى كانت خاضعة لجوسلين (١) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ابوشامة ، الروضتين جـ ١ ، ق ١ ص ١٨١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٢٣ ، العماد الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٧٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢٧ .

وعلى أية حال فان أسر جوسلين وقتله والاستيلاء على قلاعه وحصونه كان من اعظم الفتوحات التى حققها نورالدين محمود على الصليبيين ، فالى جانب حصول نورالدين محمود على مزيد من الحصون فان مقتل جوسلين الذى وصفه ابن الاثير بانه "كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج" لا يقل أهمية عن ذلك(١) . وبالاضافة الى ذلك فان تخلص نورالدين محمود من جوسلين الثانى قد جعل منطقة الجزيرة تحت حوزة المسلمين فى الوقت الذى خلت فيه منطقة شمال الشام من اشهر زعماء الصليبيين الذين ظلوا فترة من الزمن يصولون ويجولون ، دون ما رادع لهم ، مما رجح كفة المسلمين على الصليبيين(٢) .

وقد يتساءل الباحث عن موقف الصليبيين فى بلاد الشام بعد مقتل اشهر زعماء الصليبيين (ريموند دى بواتييه ، صاحب انطاكية وجوسلين الثانى صاحب تل باشر) . وللاجابة على هذا السؤال يمكن القول ان عبء الدفاع عن الصليبيين فى بلاد الشام قد انتقل الى مملكة بيت المقدس حيث انعقدت الامال على بلدوين الثالث ووالدته ميلسندا خاصة ان امارة طرابلس الصليبية والخاضعة لريموند الثانى لم تستطع مد يد العون للصليبيين فى شمال الشام . فما كان من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الا ان جمع جموعه من الصليبيين فى سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م وسار بها نحو نورالدين محمود بدلوك حيث جرت بين الطرفين معركة انهزم فيها الصليبيون وقتل منهم واسر اكثرهم وعاد من سلم منهم الى بلادهم . ولم يكتف نور الدين محمود بما حققه فى دلوك واستيلائه على

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٢ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٢٤ .

هذا الحصن ، بل توجه الى حصن انطرطوس فافتتحه وقتل من كان فيه من الصليبيين (١) .

وعلى الرغم من ان نورالدين محمود استطاع ان يجرد امارة انطاكية من البلاد التابعة لها ، بالاضافة الى استيلائه على ما تبقى من الحصون والقلاع التى كانت بيد جوسلين ، فانه قد خشى من الاستيلاء على انطاكية حتى لا يؤدى ذلك الى تكاتف الصليبيين فى بلاد الشام والوقوف فى وجهه صفا واحدا . كما لا يستبعد ان يكون نورالدين محمود قد حرص على عدم الاحتكاك بسلاجقة الروم بزعامة السلطان مسعود بن قلج ارسلان الذين حصلوا على نصيب وافر من البلاد التى كانت تابعة لامارة الرها ، مع افساح المجال للاراتقة فى حصن كيفا وماردين بالاستيلاء على بعض البلاد التى كانت تابعة لامارة الرها كسميساط ، وكركر ، وذلك بهدف الاستعانة بهم فى جهاده ضد الصليبيين من ناحية ومن ناحية اخرى قد يكون قصد من وراء ذلك الى الا يقوم الاراتقة وسلاجقة الروم بتقديم المساعدة لحكام دمشق من أسرة طغتكين حيث انصرف نورالدين فى السنتين التاليتين (٥٤٨-٥٤٩) الى محاولة الاستيلاء على دمشق ، حتى تم له ذلك فى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٣م (٢) . وأدى

(١) ابن القلانسى ، ص ٣١٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥-٢١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٢٥ .
- ودلوك : بليدة صغيرة من نواحى العواصم قريبا من انطرطوس . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٢) عن سقوط دمشق بيد نورالدين محمود سنة ٥٤٩ هـ انظر ما يلى ص

استيلاء نورالدين على دمشق الى انقطاع الامل امام الصليبيين فى استعادة ما أصبح بحوزته من الاراضى التى كانت تابعة لامارة الرها وانطاكية ، خصوصا وانه اصبح يسيطر على بلاد فسيحه تمتد من منطقة الجزيرة مرورا بشمال الشام الى وسطها بالاضافة الى انه ضيق عليهم حتى حصرهم تقريبا فى داخل المنطقة الجبلية الواقعة الى الغرب من الارد ن ونهر العاصى (١) .

ومن الملاحظ انه على الرغم من الصدمة النفسية التى منى بها الصليبيون على اثر سقوط دمشق بيد نورالدين محمود ، فانه لم يقم باعمال عسكرية لاقتطاع بعض الاراضى التابعة لامارة انطاكية او مملكة بيت المقدس ، بل انصرف الى الاهتمام بالامور الادارية والحضارية والسعى لتعزيز المذهب السنى وعمارة الاستحكامات واسوار المدن (٢) . ولم يكتف نورالدين محمود بهذا بل سعى سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦م الى تقرير الموادعة والصلح مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث لمدة سنتين . ويبدو ان نورالدين محمود قد لجأ الى الموادعة فى تلك السنة بسبب خوفه من أن يغدر به أهل دمشق خصوصا وانهم حديثو عهد بحكمه بالاضافة الى انه حصل فى بعلبك ما اوجب عليه ارسال قوة عسكرية اليها لعزل الوالى بها واستبداله بوال آخر (٣) .

---

(١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٩ .

(٢) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٠١ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٣٣١ ، ابوشامة الروضتين جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٢٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ .

وفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م سار نورالدين الى قلعة حارم التابعة لامارة انطاكية الصليبية ، فضيق الخناق على من بها من الصليبيين حتى اضطرهم الى مراسلته طالبين منه عقد صلح معه . وترددت المراسلات بين من بها من الصليبيين ونورالدين الى أن تم عقد الصلح على نصف اعمال حارم تدفع اليه (١) . وعلى مايبدو فان لجوء نورالدين محمود الى عقد الصلح مع الصليبيين على نصف اعمال حارم كان بهدف الحصول على اموال ينفقها على مشاريعه فى حلب ودمشق وتسديد ماكان مقررا لبلدوين الثالث ملك بيت المقدس على دمشق من قطيعة يأخذها ، اذ أن نورالدين محمود وافق -على مضض - على دفع مبلغ ثمانية الاف دينار لبلدوين الثالث ملك بيت المقدس وهو المبلغ الذى كان مقررا على حكام دمشق السابقين من أسرة طغتكين (٢) .

حاول الصليبيون التطاول على نورالدين محمود ، وظنوا ان استمراره فى مواصلة عقد الهدنة معهم انما هو عن ضعف واستكانة فجرتهم هذه الامانى الى نقض الهدنة مع نورالدين محمود واغاروا فى اواخر سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦م على مجموعة من الرعاة التركمان والعرب الذين كانوا يرعون قطعان كثيرة من الاغنام والمواشى فى سهول بانياس فاستاقوها واسروا بعض رعاتها من التركمان والعرب وعادوا بها وبهم الى بلادهم " ظافرين غانمين آمنين "(٣) . ويضيف

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ،ص ٢٠٨ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص ١٠٩ ، ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ص ٣٠٥-٣٠٦ ، ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ١ ص ١٢٧-١٢٨ ،ابوشامة ،الروضتين ، جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٢) ابن القلانسى ص ٣٣٦-٣٣٧ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ،جـ٢ ، ص ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٣) ابن القلانسى ،ص ٣٣٧ ،انظر ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق ١ ، ص ٢٥٨ ، العرينى ،الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،جـ١ص ٦٠٤ .

ابوشامة ان سبب نقض الصليبيين للهدنة التى بينهم وبين نورالدين محمود انما كان بحكم وصول اعداد كثيرة من المراكب التى تحمل ايضا اعدادا كثيرة من الصليبيين القادمين من اوربا (١) . غير ان نورالدين محمود صاحب الروح المتوثبة لقتال الصليبيين ما ان وصلته اخبار هذه الحادثة وهو ببعلبك حتى قرر الاخذ بثأر المسلمين من الصليبيين ومما شجعه على ذلك ما وصله من انباء تفيد بان اخاه ناصرالدين امير ميران ويلقب ايضا نصرة الدين ، قد ظفر بقوة من الصليبيين قدر عددها بنحو سبعمائة فارس كانوا فى طريقهم الى بانياس فى ربيع الاول من سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧م بمكان يسمى رأس الماء . وبالاضافة الى ذلك فقد وصلت لنورالدين محمود بشرى ثانية تفيد بان اسد الدين شيركوه قد اوقع بالصليبيين فى شمال الشام وهو فى طريقه الى دمشق بقصد الاجتماع بنورالدين محمود والاغارة على بانياس" والمضايقة لها والجهاد فى افتتاحها "(٢) .

وهكذا توفر لنورالدين محمود من الاسباب ما شجعه على الاخذ بثأر المسلمين والاغارة على بانياس والاستيلاء عليها سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م . فلما وصل أسد الدين شيركوه الى دمشق قادما من شمال الشام توجه نورالدين محمود بعد ان كثر جمعه من العساكر ومنهم العلماء ورجال الدين المتطوعة ، فنزل بهم على بانياس وضايقها حتى اضطر صاحبها الهمفرى Hanphary

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) ابن القلانسى ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ . وراس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ١ ص ٢٦٨ . حاشية رقم ٤ .

ومن معه من الصليبيين الى الالتجاء داخل قلعتها . وحاول نورالدين محمود اقتحام القلعة ولكن نجدة صليبية وصلت الى بانياس من بيت المقدس " فاقتضت السياسة الاندفاع عنها " . ولكن الملك بلدوين الثالث قائد النجدة الصليبية لبانياس بعد ما شاهده من الخراب والدمار النازل بها اضطر الى التراجع عنها الى قرية الملاحة بين طبرية وبانياس . وهناك قابل نورالدين محمود ورجاله الصليبيين الذين تجمعوا مع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس . ودارت بين نورالدين والصليبيين معركة استطاع فيها المسلمون هزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة استطاعوا بعدها الاستيلاء على بانياس . وكان لهذه الوقعة اهميتها فقد بينت للصليبيين قوة نورالدين محمود وغيرت نظرتهم اليه . ثم انها رفعت من مكانته بين رعاياه وزادت من شهرته حيث مدحه الشعراء وتناقل المسلمون اخبار هذه الموقعة فى المشرق والمغرب(١) .

لم ينعم نورالدين محمود بهذا النصر الذى حققه على الصليبيين قريبا من بانياس بسبب ما أصاب بلاد الشام تلك السنة من زلازل شديدة اضطرته الى العودة الى دمشق . وعقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث بهدف التفرغ لاصلاح ما خربته الزلازل التى كان اشدها فى حمص وحماة وشيزر(٢) . ولكن الصليبيين الذين اعرفوا بالغدر والمكيدة ونقض العهود والمواثيق استغلوا ما أصاب البلاد الاسلامية من اضرار كبيرة من جراء الزلازل التى اصابتها ، فسعى بلدوين الثالث الى نقض الهدنة المعقودة بينه وبين

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٤٠-٣٤٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٣٠٨ ، ابوشامة ، الروضتين جـ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٣٤٣-٣٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٢٠-٢٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢٨ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ، ص ٦٨ .

نورالدين محمود وسعى الى جمع الصليبيين من أنطاكية وطرابلس فى محاولة منه للاستيلاء على ماكان نورالدين محمود قد اقتطعه من ايديهم ،غيران نورالدين محمود على الرغم مما اصاب بلاده من خسائر فادحة نهض فى عساكره للتصدى للصليبيين الذين أغاروا على بلدتى حمص وحماه فأوقع بهم وهزمهم . فأدى ذلك الى رفع الروح المعنوية عند المسلمين للتصدى للصليبيين (١) .

ومع بداية سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م طمع الصليبيون فى الاستيلاء على حارم ، فشرعوا فى مضايقتها الى ان ملكوها بالسيف مستغلين فى ذلك ما اصاب المسلمين من اضرار عقب الخراب الذى اصاب البلاد الاسلامية من جراء الزلازل التى حدثت فى السنة الماضية ، بالاضافة الى انشغال نورالدين محمود بتوطيد مركزه واصلاح أمور حلب . ولكن نورالدين لم يغفل ما اقدم عليه الصليبيون ، فشد الرحال على وجه السرعة من حلب الى دمشق ليكون قريبا من اعدائه الصليبيين بعد ان زاد عبثهم وفسادهم فى الاعمال الحورانية ، وداريا ، فوصلها فى ربيع الاول من السنة " وشرع فى تدبير امر الاجناد والتأهب للجهاد "(٢) .

وعلى ما يبدو فان ما شجع نورالدين على التأهب لامر الجهاد بهذه السرعة ما وصله من اخبار الحملة العسكرية التى خرجت من مصر ، وما أنزلته بالصليبيين من هزيمة ساحقة بعسقلان فى عهد الوزير الفاطمى الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك . ومما يؤكد ذلك تلك القصيدة التى بعث

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق١ ،ص ٢٧٣ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق١ ،ص ٢٨٨ ، انظر ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ،ص ٣٠٩ .وداريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . انظر ياقوت . معجم البلدان .

بها الوزير الفاطمي الى اسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار الذى كان موجودا بدمشق يشرح فيها ما حققته الحملة الفاطمية من انتصار ساحق على الصليبيين ويطلب من أسامة ان يحرض نورالدين على قتال الصليبيين (١) .

وحاول نورالدين ان يفيد من هذه الوقعة فتوجه الى احدى معاقل الصليبيين باقليم السواد فالتقى بالصليبيين على جسر الخشب جنوب دمشق بينها وبين منازل العسكر ، واتفق ان وقع الاختلاف بين بعض عساكره مما اضطر بعضهم الى التراجع والتفرق بعد الاجتماع وبقى نورالدين ثابتا بمكانه في عدة يسيرة من شجعانه وغلمانه وابطال خواصه ولكنه اضطر اخيرا الى الانسحاب "وعاد الى مخيمه سالما في جماعته ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدى الافرنج "(٢) .

ورأى ملك بيت المقدس بلدوين الثالث أن الفرصة سانحة لان يفرض على نورالدين محمود ما يوده من شروط عقب خسارة نورالدين في الحملة التي قام بها

---

(١) وهذه ابيات من القصيدة التي بعث بها طلائع بن زريك الى اسامة بن منقذ بدمشق :

فقولوا لنورالدين لا فل حده ... ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز الى ارض العدو ولا تهن ... وتظهر فتورا ان مضت منك حازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ... ونحلف جهدا اننا لا نسالم

انظر ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٣٥٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٦١٢ .

على الصليبيين فى اقليم السواد فراسل نورالدين محمود فى طلب الصلـح والمهادنة " وترددت المراسلات بين الفريقين " فى هذا الشأن ، فلم يصـغ نورالدين محمود الى ماطلبه منه بلدوين الثالث بل اقام فترة من الزمن فـى محاولة منه للنيل من الصليبيين ولكنهم لم يعودوا الى منازلته مما اضطره الـى العودة الى دمشق فوصلها فى شعبان من سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م(١) .

ولما لم يجد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس سبيلا الى فرض سيطرتـه على نورالدين محمود ولا حتى استرجاع مافقده الصليبيون على يده وجـه انظاره الى الاستعانة بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين (٥٣٧ - ٥٧٦ هـ / ١١٤٣/ ١١٨٠م) للاستعانة به فى استعادة مافقده الصليبيون ببـلاد الشام فوافق الامبراطور على هذه الدعوة من ملك بيت المقدس ظنا منه باستعادة مكانته فى انطاكية وشمال الشام(٢) . ولم تنته سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م حتى وصـل الامبراطور البيزنطى بالعدد الكبير من الرجال الى مرج الديباج (٣) واستطـاع ان يفتتح عددا من الحصون بعد ان عجز الاتراك السلاجقة عن صـده على الرغم من الخسائر الفادحة التى انزلوها به . اما نورالدين محمـود فانه ما ان بلغته اخبار وصول الامبراطور البيزنطى الى انطاكية فى شهـر ذى الحجة من السنة المذكورة حتى شرع فى مكاتبة " ولاة الاعمال والمعاقـل لاعلامهم ما حدث من الروم ويحثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهـاد فيهم

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٥٢ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص٣٠٠ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ - ٦٥٥ .

(٣) مرج الديباج من المناطق الواقعة عند الحدود الاسلامية قريبا مـن المصيصة وهذا المرج من اشهر الوديان الواقعة بين الجبال . انظـر ياقوت . معجم البلدان .

فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر به منهم "(١) .

وفى أنطاكية تم اللقاء بين الامبراطور البيزنطى وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، وتم عقد تحالف بين الطرفين ضد المسلمين فى أوائل سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م عرف باسم تحالف المصيصة(٢) . وعلى الرغم من هذا التحالف الذى تم بين الصليبيين والبيزنطيين للوقوف فى وجه المسلمين الا أن الامبراطور البيزنطى بد لا من القيام باية عملية عسكرية ضد نورالدين محمود ، فقد أرسل اليه فى السنة نفسها ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩م هدية وتحفا من اثواب وديباج فعاد رسول الامبراطور الذى ارسله الى نورالدين محمود بمثلها حمل واكثر . ولا يستبعد ان تكون الهدية التى ارسلها الامبراطور البيزنطى الى نورالدين محمود خدعة له واستجلاء لموقفه بدليل ما ذكره ابن القلانسى ، أن الاخبار وردت عقب ذلك الى دمشق تفيد بعزم الامبراطور على اجتياح شمال الشام كحمص وحماه وشيزر مما دعا نورالدين محمود للتوجه الى هذه البلاد " لاينا س اهلها من استيحاشهم من شر الروم والافرنج " ولكن نورالدين محمود لم يرد من الامبراطور البيزنطى ماينم عن رغبته فى الهجوم على البلاد المذكورة فتوجه الى حلب فى جمادى الاخرة من سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م حيث قدم عليه هناك ولاة الاطراف وقدموها لمجاهدة احزاب الكفر والضلال " من الروم والافرنج "(٣) . واخيرا بفضل من الله عز وجل لم يحدث لقاء بين المسلمين

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٥٤ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ٣٠٤ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٥-٨٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ١ ص ٦١٥-٦١٦ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ص ١٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، والمصيصه مدينة من مدن ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .

من جهة والصليبيين والبيزنطيين من جهة اخرى حيث عقدت المهادنة والموادعة مع الامبراطور البيزنطي "بحسن راى ملك الروم ومعرفته ماتؤول اليه عواقب الحروب" بعد ان اشترط اطلاق سراح زعماء ومقدمى الصليبيين الذين في حبس نورالدين محمود ، ثم رحل الامبراطور البيزنطى عقب الهدنة مع نورالدين عائدا الى بلاده مشكورا محمودا ،لم يؤذ احدا من المسلمين . فاطمأنت نفوس المسلمين بعد انزعاجها (١) .

وعلى اية حال فان عودة الامبراطور البيزنطى الى بلاده دون الاشتباك مع المسلمين جاءت تصديقا لما ذكره رنسيمان بان خروج الامبراطور البيزنطى الى بلاد الشام وعودته دون الاشتباك مع المسلمين فى معركة حاسمة انما كان بهدف استعراض قواته امام الصليبيين فى بلاد الشام ، الذين كانوا قد بلغوا درجة من الضعف لا تمكنهم من استعادة مافقدوه على يد نورالدين محمود ففت ذلك فى عضد الصليبيين (٢) . اما بالنسبة للمسلمين فقد عدوا عودة الامبراطور البيزنطى الى بلاده دون الاشتباك معهم عين الحكمة والصواب من جانب الامبراطور وقد عبر ابن القلانسى عن الشعور الذى ساد المسلمين عقب عودة الامبراطور الى بلاده بقوله " فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها وآمنت عقيب خوفها وفرقها " (٣) .

وهكذا فشل المسعى الذى سعى اليه بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بقصد التحالف مع الامبراطور البيزنطى للنيل من نورالدين محمود فى حلب ،

---

(١) ابن القلانسى ،ص ٣٥٨ ،انظر ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،جـ١ ،ص ٥٧٢ .

(٣) ابن القلانسى ،ص ٣٥٨ .

ودمشق وشمال الشام ، كما فشلت قبل ذلك الحملة الصليبية الثانية ٥٤٣ هـ/١١٤٨م . وعلم الصليبيون فى بلاد الشام انه لابد لهم من الاعتماد على انفسهم فى سبيل مواجهة نورالدين محمود والاستعانة بما عسى أن يقذفه البحر من حمم الصليبيين القادمين من اوربا الى بيت المقدس، لاداء فريضة الحج (١) .

وفى سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م وجد الصليبيون الفرصة سانحة للاغارة على حوران والبلاد التابعة لدمشق مستغلين فى ذلك وجود نورالدين محمود فى حلب . فقام بلدوين الثالث بغارات على دمشق ، ولكن نورالدين محمود عاد الى دمشق لما بلغه من افساد الصليبيين فى بلد حوران وبصحبته أسد الدين شيركوه . فلما وصل نورالدين محمود الى دمشق فى السنة نفسها جهز اسد الدين شيركوه فى فرقة من العسكر للقيام بعملية مضادة على الصليبيين فسار اسد الدين ومعه اخوه نجم الدين بن ايوب الى صيدا " ولم يشعر الفرنج الا وهو قد عاد فى بلد صيدا وقتل واسر عالما عظيما "(٢) . وفى اطار جهاد نورالدين محمود ضد الصليبيين فقد قام مجد الدين بن الداية نائب نورالدين محمود فى حلب بغارة لغزو الصليبيين فى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م فلقى جوسلين دى كورتناى صاحب الرها الذى يطلق عليه ابن العديم اسم " جوسلين بن جوسلين " فأخذه اسيرا الى حلب(٣) . وفى السنة التالية

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٥٧ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص٣٠٦ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣١١ .

٥٥٦ هـ / ١١٦١م استطاع نائب نورالدين محمود فى حلب مجدالدين ابن الداية ان ينصب كمينا لريجنالد شاتيون (ارناط) صاحب انطاكية فى الجومة عندما كان عائدا من غارته التى قام بها على المسلمين التركمان فى عين تاب بين مرعش ودلوك ، فوقع فى الاسر حيث حمله ابن الداية الى حلب ، وبقى بها اسيرا مدة ستة عشر عاما (١) .

هكذا كانت محاولات الصليبيين فى استعادة بعض ما اخذه نورالدين محمود من ايديهم فاشلة ، فبدلا من ان يستعيدوا شيئا من اراضيهم فقدوا اثنين من زعمائهم ، جوسلين كورتناى ، وريجنالد شاتيون حيث وقعا فى الاسر ، فخلت انطاكية وشمال الشام من زعمائها واصبحت مكشوفة تماما لنورالدين محمود . غير انه لم يقم ضدها بغارات حربية من اجل الاستيلاء عليها، وانصرف نورالدين عن الهجوم على انطاكية فى ذلك الوقت خشية ان يستعدى ملك بيت المقدس بلدوين الثالث . وكان الملك بلدوين الثالث قد اصبح له حق الدفاع عن انطاكية وشمال الشام بعد وقوع صاحب انطاكية فى أسر المسلمين . ولما كانت بلدة حارم بين مد وجذر بين المسلمين والصليبيين فقد وجد نورالدين محمود الفرصة سانحة للاستيلاء عليها ، فجمع جموعه فى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢م وسار صوبها وضرب الحصار حولها وجد فى قتال من بها من الصليبيين الا انهم قد امتنعوا عن التسليم . ولما علم الصليبيون فى انطاكية وغيرها بما فرضه نورالدين محمود على حارم ، جمعوا فارسهم وراجلهم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٣١٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٦٥-٥٧٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٦٢٠ . والجومة : بلدة صغيرة من نواحى حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وساروا نحو حارم . فلما قاربوها طلب منهم نورالدين محمود اللقاء ، فلم يجيبوه " وراسلوه وتلطفوا الحال معه ،فلما رأى انه لا يمكنه اخذ الحصن عاد الى حلب"(١) .

ولما لم يتمكن نورالدين محمود من الاستيلاء على حارم في سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م ، فقد صمم في السنة التالية ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م على ان يتوغل في بلاد الصليبيين فنزل بالبقعة تحت حصن الاكراد على قصد المسير ومنازلة الصليبيين بطرابلس . غيران الصليبيين الذين كانوا متيقظين لتحركات نور الدين محمود قد اجتمعوا وأنزلوا بالمسلمين - على غرةمن نور الدين محمود - هزيمة انسحب بعدها نورالدين محمود الى حمص ، بعد ان كثر القتل والاسر في المسلمين وخصوصا السوقة والغلمان . وأقام نورالدين محمود في مكان قريب من مكان الوقعة ، على الرغم من معارضة بعض اصحابه ، ولكنه رفض الابتعاد عن الصليبيين وقال :" والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأرى "(٢) .

ومن حمص ارسل نورالدين محمود رسله الى دمشق وحلب لاحضار الاموال والدواب والاسلحة وسائر ما تحتاج اليه العساكر وعاد لمنازلة الصليبيين الذين تقهقروا عن التقدم الى حمص قائلين "انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ما يمنعنا " ، ولذلك وجدوا ان مهادنة نورالدين محمود خيرا من منازلته ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٥٨ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٣١٢ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ص ٣١٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٣٤-١٣٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٦٢١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٢٩٤-٢٩٥ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٤٦ .

فراسلوه وطلبوا منه المهادنة (فلم يجبهم اليها فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا الى بلادهم)(١) . أما نورالدين محمود فقد عاد الى حلب بعدما عجز الصليبيون عن منازلته . وعلى ما يبدو فان عودة نورالدين محمود الى حلب لم تكن للاستكانة والابتعاد عن الصليبيين ، بل كانت عودته الى حلب للاستعداد للاخذ بثأره وثأر المسلمين ، بدليل قيامه فى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣م بالمسير الى بلاد الصليبيين لانتزاع حارم من ايديهم والاخذ بثأره ، مستغلا فى ذلك خلو بلاد الصليبيين منهم ، لان اكثرهم كان قد سار مع **عمورى الأول** ملك بيت المقدس الذى سار الى مصر ، نجدة لشاور ضد **أسد** الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبى . فأرسل نورالدين محمود الى اصحابه بحلب والموصل وغيرهما واستنجد بهم ، فاجتمعوا عنده بحلب . ولما بلغت اخبار المسلمين واجتماعهم بحلب الى الصليبيين اجتمعوا هم ايضا " فى حدهم وحديدهم وعدهم وعديدهم " يتقدمهم بوهمند الثالث صاحب انطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس وعامل بيزنطة على قليقيه " وجمعوا ما لا يقع عليه الاحصاء " ، وساروا صوب حارم التى وصلها نورالدين محمود . فلما وصل الصليبيون الى حارم انسحب نورالدين محمود الى ارتاح استدراجا لهم فى مكان فسيح ، فرحلوا خلفه حتى بلغوا قرية "عم" وهى قرية بين حلب وانطاكية وفيها التقى الجمعان ، ودارت رحى معركة عنيفة اسفرت عن هزيمة الصليبيين تكبدوا خلالها ما يزيد عن عشرة آلاف قتيل ، ووقوع اعداد كثيرة من الاسرى فى ايدى المسلمين منهم صاحب انطاكية بوهمند الثالث وريموند الثالث صاحب طرابلس وعامل

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٣١٩-٣٢٠ ، انظر ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٥-١٣٧ .

بيزنطة على قليقية وابن جوسلين (١) . ثم سار نورالدين محمود الى حارم فطلكها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م فى الوقت الذى بث نورالدين محمود سراياه الى انطاكية وواصلت سيرها حتى بلغت اللاذقية والسويداء . وقد احتفظ نورالدين محمود بجميع اسراه الذين أسرهم عدا يوهمند الثالث صاحب انطاكية فقد باعه نورالدين بمبلغ جزيل من المال وفكاك أسر جماعة من الاسرى المسلمين (٢) . وعقب هذه الهزيمة التى منى بها الصليبيون والارمن والبيزنطيون ، أشار اصحاب نورالدين محمود عليه بالهجوم على انطاكية ولكنه رفض المسير اليها خشية ان يستعين من بها من الصليبيين بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ويسلموها اليه فعندئذ يصعب على المسلمين منازلة الصليبيين فى اى مكان كان من بلاد الشام . وقال لاصحابه :" ان مجاورة بيمند أحب الى من مجاورة ملك الروم "(٣) . وعلى مايدو فان هذا القول الذى قاله نورالدين محمود لاصحابه كان وراء اطلاق سراح يوهمند الثالث صاحب انطاكية من الاسر كما سبق ذكره .

هكذا استطاع نورالدين محمود ان يأخذ بثأره وثأر المسلمين لما نزل بهم فى البقيعة تحت حصن الاكراد فى السنة الماضية سار بعدها نورالدين محمود الى دمشق - بعد ان اذن لعساكر الموصل وديار بكر بالعودة الى بلادهم -

---

(١) هو ثوروس الثانى (Thoros II) صاحب ارمينية ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٣٣٩ ، حاشية رقم (٤) .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ، ص ٣٠١-٣٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣١٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٩-٣٤٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢٤٨ . والسويداء : بلدة مشهورة من نواحى حوران ، دمشق على البحر المتوسط . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢ ، حاشية رقم (٢) .

وبصحبته اخوه ناصر الدين أمير ميران الذى حضر معه وقعة حارم. ولما وصل نورالدين محمود الى دمشق جمع عساكره وسار بها صوب بانياس فى السنة نفسها ٥٥٩ هـ/١١٦٣م لعلمه بقلة من فيها من الصليبيين فنازلها وضيق عليها وقاتلها حتى فتحها عنوة وقهرا فى السنة التالية ٥٦٠ م / ١١٦٤م ، ولم يكتف نورالدين محمود بهذا بل شاطر الصليبيين على أعمال طبرية ، وقرروا له على الاعمال التى لم يشا طرهم عليها مالا يدفعونه كل سنة (١) .
ويلاحظ ان هذه الانتصارات التى حققها نورالدين محمود فى بلاد الشام بحارم وبانياس لم تقتصر على اضعاف الصليبيين بالشام بل اجبرت ملك بيت المقدس عمورى الاول على عقد الصلح مع اسد الدين شيركوه فى مصر بقصد العودة الى الشام لمنع نورالدين محمود من الاستيلاء على بانياس ولكن الصليبيين لم يصلوا الى بلاد الشام الا وقد ملكها نورالدين محمود (٢).

واذا كان نورالدين محمود قد استطاع اجبار الصليبيين على العودة من مصر بطريق غير مباشر ، وذلك بما انزله باخوانهم فى بلاد الشام ، فانه لم يتوقف عن هذا الحد من منازلة الصليبيين فى وسط بلادهم ، ففى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م استطاع الاستيلاء على حصن المنيطرة بالقرب من طرابلس(٣) . وقد عمد نورالدين محمود فى المرحلة التالية الى المباغتة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٣٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٢١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣١٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٤٣-١٤٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٥٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٣٢٢ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٥١ .

فى حروبه التالية مع الصليبيين ، دون ان يترك لهم المجال فى الاستعداد وملاقاته فى ميادين فسيحة . وبهذه الطريقة التى اتبعها نورالدين محمود فى حروبه مع الصليبيين استطاع فى السنة التالية ٥٦٢ هـ/١١٦٦م التوغل فى بلاد الصليبيين واستولى على كثير من حصونهم وخرب بلادهم . ثم سار الى بانياس وقصد قلعة هونين وهى للصليبيين من قلاعهم المنيعة قرب بيروت . فلما لم يستطيعوا الدفاع عنها احرقوها وخرجوا منها فوصلها نورالدين محمود واراد الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلف اوجب التفرق فعاد الى حمص (١) . وبالاضافة الى ذلك فقد اجبرت انتصارات نورالدين محمود فى سنتى ٥٦١ هـ/١١٦٥م و ٥٦٢ هـ/١١٦٦م عمورى الاول ملك بيت المقدس على الانسحاب مرة اخرى من مصر فى الوقت الذى كان فيه فى مركز من القوة بحيث كان يمكنه الاستيلاء على الاسكندرية من صلاح الدين وأسد الدين شيركوه ، ولكنه اضطر الى قبول عقد الصلح معهما ليعود الى بلاد الشام لتدارك الاوضاع . وحين اشتدت وطأة الصليبيين والبيزنطيين فى حصارهم لدمياط سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩م اوغل نورالدين محمود فى تخريب بلاد الصليبيين فى الشام ، بالاضافة الى مازود به صلاح الدين من امدادات عسكرية يتلو بعضها بعضا ، اجبرت الصليبيين على العودة الى بلادهم لتفقدها (٢) . ويمكن القول ان ماقام به نورالدين محمود من اعمال عسرية فى اطار جهاد الصليبيين فى الفترة من ٥٥٩هـ/١١٦٣م حتى ٥٦٥هـ/١١٦٩م لا يخرج عن كونه ضغط على زعماء بيت المقدس فى مجال التسابق بينه وبينهم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٧٤-٣٧٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) انظر مايلى ، ص

فى الاستيلاء على مصر ، وقد نجح نورالدين محمود فعلا فى هذه السياسة التى كانت من اكبر العوامل على تراجع الصليبيين عن مصر .

- نورالدين محمود وتوحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة :

اذا كان نورالدين محمود بن زنكى قد ورث عن والده مقاومة الصليبيين فى بلاد الشام فقد ورث ايضا عبء ضم دمشق الى حلب لاستكمال توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة . ولما كان حكام دمشق قد عانوا الامرين من عماد الدين زنكى قبل وفاته سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م فقد وجدوا الفرصة سانحة عقب ذلك وقاموا بحملة على بعلبك التى كان بها نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الايوبى ، نائبا عن عماد الدين زنكى . وبعد حصار شديد اضطر نجم الدين الى التسليم ، وفى مقابل ذلك اشترط نجم الدين ايوب على حكام دمشق من اسرة طغتكين اعطاءه اموالا كثيرة وقرى عديدة من اعمال دمشق فوافقوا على ذلك وتسلموا منه بعلبك . ولم ينزعج نورالدين محمود لهذه الخطوة التى قام بها حكام دمشق تجاه بعلبك وذلك لانشغاله بامر الصليبيين فى الرها واستعادتها منهم كما سبق ذكره . ولم يحاول نورالدين محمود ان يجابه حكام دمشق ويعاديهم منذ بداية حكمه ، بل نراه فى شوال من سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م يسعى الى توطيد علاقاته بهم . وقد توج ذلك بالزواج من ابنه معين الدين أنر المحرك الرئيس لسياسة دمشق . (٢) . واذا كان

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٨٧-٢٨٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ص ١٢٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

معين الدين أنر يرى انه صرف انظار نورالدين محمود عما قام به حكام دمشق تجاه بعلبك التى كانت فى يد عماد الدين زنكى قبل وفاته ، فان نورالدين محمود قد وجد فى هذا الزواج سبيلا الى التدخل مستقبلا فى شؤون حكام دمشق عن طريق هذه الزيجة ، خصوصا وان العلاقات بين معين الدين أنر والصليبيين قد تدهورت عقب نقض بلدوين الثالث ملك بيت المقدس للهدنة التى بينه وبين معين الدين أنر . ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل قدموا المساعدة لصاحب بصرى وصرخد المعروف باسم التونتاش ، فاضطر معين الدين أنر الى طلب المساعدة والنجدة من نورالدين محمود ضد الصليبيين فى أواخر سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م(١) .

لم يقف معين الدين أنر وزير مجير الدين ابق صاحب دمشق عند حد الاستعانة بنورالدين محمود ضد الصليبيين وضد الخارجين عليه فى بصرى وصرخد ، بل تعداه الى ان معين الدين أنر طلب المساعدة فى سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م من نورالدين محمود واخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ضد الصليبيين حينما قرروا مهاجمة دمشق والنيل منها (٢) . على أن فشل سياسة معين الدين أنر تجاه الصليبيين ساعدت نورالدين محمود على التدخل فى شئون دمشق ، ففى سنة ٥٤٤ هـ /١١٤٨م عقد معين الدين أنر مهادنة مع الصليبيين لمدة سنتين . ولما كان الصليبيون قد اتصفوا بالغدر والخيانة فقد استغلوا وفاة معين الدين أنر فى السنة نفسها (٥٤٤هـ/١١٤٨م) ووقوع الفتنة التى وقعت بدمشق عقب ذلك ، فطمعوا فى التدخل فى شئون دمشق

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ١٢٩-١٣٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٦٠٣-٦٠٤ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٦-١٧ .

والافساد في الاعمال الحورانية بالنهب والسلب(١) .

ووجد نورالدين محمود الفرصة سانحة للتدخل في شئون دمشق مستغلا الفتنة التي وقعت بدمشق وماقام به الصليبيون من الاغارة على اطراف البلاد التابعة لدمشق فاراد ان يختبر نوايا حكام دمشق - مجير الدين ابق بن محمد بن بوري ووزيره مؤيد الدين بن الصوفي - فبعث اليهما يخبرهما انه على قصد الصليبيين ويطلب منهم امداده بالف من عساكر دمشق . ولم ينتظر نورالدين محمود الرد من حكام دمشق بل سار صوب الصليبيين بالاعمال الحورانية القريبة من دمشق في الوقت الذي اختار فيه حكام دمشق بين تقديم المساعدة لنورالدين محمود الذي لا يؤمن جانبه على دمشق وبين الاعراض عن ذلك بناء على المعاهدة التي بينهم وبين الصليبيين . فأخذوا في مغالطة نورالدين محمود ، ولما عرف ذلك رحل ونزل غرب دمشق بينما ترك بقية قواته بحوران بقصد مضايقة دمشق وغزو الصليبيين . فأشار عليه بعض اصحابه بالعودة الى حلب وطلب المساعدة من اصحاب الاطراف ، وذلك لما بين حكام دمشق والصليبيين من الاتفاق على الوقوف في وجهه . ولكن نورالدين محمود لم يحفل بهذا كله وقال " لا أنحرف عن جهادهم " ولم يقف عند هذا الحد من التصميم على جهاد الصليبيين وخذلان حكام دمشق له ، بل عمد الى الامر على عساكره بعدم العبث والفساد في الضياع التابعة لدمشق ، وأمر رجاله بالاحسان الى الفلاحين استمالة لقلوبهم ، فاستبشر الناس خيرا بنورالدين خصوصا وان الامطار قد هطلت على بلاد الشام التي كانت مجدبة وقالوا :

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٠٤-٣٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٤٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢ .

" هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته "(١) . وبهذه الطريقة التى اتبعها نورالدين محمود تجاه رعايا حوران والضياع التابعة لدمشق ، عرف انه أحدث فجوة بين حكام دمشق ورعاياهم ، فتقدم الى دمشق ونزل على جسر الخشب جنوب دمشق فى ذى الحجة من السنة ٥٤٤ هـ/١١٤٨م وارسل الى مجير الدين أبق ، والى وزيره مؤيد الدين بن الصوفى واخبرهما بهدفه من الوصول الى دمشق وما يرمى اليه من جهاد الصليبيين . ولكنهما ردا على نورالدين محمود ردا قبيحا حيث قالا له : " ليس بيننا وبينك الا السيف " وهدداه بالاستعانة ضده بالصليبيين الذين كانوا بزعامة بلدوين الثالث قد ساروا الى جنوب فلسطين لعمارة غزة المواجهة للحامية المصرية فى عسقلان (٢) .

وعلى الرغم من تأكيد نورالدين محمود على حكام دمشق بتقديم المساعدة له لجهاد الصليبيين والسعى الى ترحيلهم عن غزة ، فانه لم يشأ ان يدخل معهم فى حرب لاراقة دماء المسلمين فى الوقت الذى يذكر ابن القلانسى الى جانب ذلك ان نورالدين محمود قد ترك الزحف على دمشق بسبب كثرة الامطار التى هطلت عليها وما اتصل به من اخبار دعته الى ذلك ، مع مابذله حكام دمشق من الطاعة واقامة الخطبة له على منابر دمشق بعد الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، وضرب اسمه على السكة " ووقعت الايمان على ذلك " وكافأ نورالدين محمود مجير الدين ابق وخلع عليه خلعة كاملة وعلى وزيره مؤيد الدين بن الصوفى وجماعة من الاجناد والخواص وعاد الى حلب فى

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٣٠٨-٣٠٩ ، انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ص ٦٢-٦٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ص ٥٨٧ .

المحرم من سنة ٥٤٥ هـ/١١٤٩م "بعد احكام ما قرر وتكميل ما دبر "(١) .

هكذا نجح نورالدين محمود في فرض سيطرته على حكام دمشق دون اراقة دماء المسلمين بالاضافة الى ما حصل عليه من عطف الكثيرين من رعايا وعساكر دمشق ، نتيجة مابذله من العطايا والهبات وما ابداه من معاداة للصليبيين ونخوه تجاه المسلمين (٢) . وعلى ما يبدو فان نورالدين محمود لم يكتف بما بذله له حكام دمشق من الطاعة بل اراد التحرش بهم لاختبار نواياهم من ناحية واظهار عجزهم امام رعاياهم من جهة اخرى فسمح في السنة نفسها ٥٤٥ هـ/١١٤٩م لمجموعة من عساكر التركمان بالقيام بغارة عسكرية على بصرى وصرخد التابعتين لحكومة دمشق (٣) .

وانشغل نورالدين محمود بامر الصليبيين في انطاكية والرها وشمال الشام عن القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على دمشق بقية سنة ٥٤٥ هـ/١١٤٩م ، ولما دخلت سنة ٥٤٦ هـ/١١٥٠م سار نورالدين محمود بقواته صوب دمشق في محاولة منه للحصول على موافقة من مجير الدين ابق ووزيره مؤيد الدين بن الصوفي على انضمامهما معه في جهاده ضد الصليبيين . ونزل قريبا من دمشق فاستغل رعاع الناس واوباشهم كثرة عساكر نورالدين محمود واخذوا في احداث الفوضى والافساد في زروع الناس وبساتينهم ، فحصدوها واستأصلوها . ولما رأى

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٠٩-٣١٠ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٨ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٠٦ ، حسن حبشي ، نورالدين محمود والصليبيون ، جـ ١ ص ٦٥ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٨٩ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣١١ .

نورالدين محمود ما حل بأهل دمشق أخذ فى مراسلة بعض سكان دمشق البارزين بقصد الحصول منهم على موافقة بالانضمام اليه فى جهاده ضد الصليبيين " فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ويوافق مبتغاه ". فأخذ فى الزحف حتى قرب من البلد ، وبدأ مناوشة عساكر دمشق ومطاردتهم دون الاذن لعساكره بالالتحام معهم " تحرجا من اراقة الدماء " ولكن جهل حكام دمشق وغرورهم قد حملهم على الاستعانة ببلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، فوصل الى دمشق فى قوة صغيرة فى الوقت الذى أخذ نورالدين محمود فى التراجع عن دمشق الى ناحية الزبدانى " استجرارا لهم " . ولم تكن نجدة الصليبيين التى وصلت الى دمشق من القوة والكثرة بحيث يطمئن حكام دمشق على مواجهة نورالدين محمود ، فتقرر الامر بين الصليبيين وحكام دمشق على مواصلة السير والنزول على حصن بصرى للاستيلاء عليه واستغلال أعماله (١) .

هكذا لم يجد حكام دمشق فى النجدة التى طلبوها من الصليبيين ما يشفى غليلهم فى الايقاع بنورالدين محمود ، بل جنى هؤلاء الحكام على أنفسهم وعلى رعاياهم ما اثقل كاهلهم من النفقات والاموال التى قطعوها على انفسهم للصليبيين كما ادت هذه الاستغاثة بالصليبيين الى سخط الكثيرين من الاجناد والاحداث الذين لم ينضموا الى العساكر الدمشقية النظامية ضد نورالدين محمود حين نازل دمشق فى ربيع الاول سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥٠م " فلم يظهر منهم الا اليسير ممن كان يخرج اولا " . وعلى الرغم من الموقف المتخاذل الذى وقفه حكام دمشق تجاه نورالدين محمود واستنجادهم ضده بالصليبيين فانه لم يقم ضدهم بغارة حربية لاقتحام دمشق

---

(١) ابن القلانسى ص ٣١٢ - ٣١٤ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

والقضاء عليهم بل عمل على القيام بمناوشات " من غير زحف ولا شد ولا محاربة" كما يذكر المؤرخ المعاصر ابن القلانسى (١) . ولا شك ان عدم قيام نورالدين محمود بغارة عسكرية شديدة على دمشق انما كان رغبة منه فى عدم اراقة دماء المسلمين حيث قال : " لا حاجة الى قتل المسلمين بايدى بعضهم بعضا " ورأى ان الاحتفاظ بهذه العساكر الدمشقية اولى من سحقها " ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين " . فلما شعر من بدمشق بهذه النية الحسنة من نورالدين محمود ترددت المراسلات بينهم وبين نورالدين محمود فى عقد الصلح بين الطرفين حتى تم فى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الاخر من السنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥٠م . وعلى الرغم من ان ابن القلانسى صاحب هذه الرواية قد أشار الى أسماء الاشخاص الذين قاموا بالمفاوضات بين الطرفين فانه لم يذكر شيئا عن الشروط التى تم الاتفاق عليها . ولكن يتضح من سياق حديث ابن القلانسى والحوادث التى جرت عقب ذلك ان من ضمن شروط الصلح التى تم الاتفاق عليها طاعة حكام دمشق لنورالدين وان يكون مجيرالدين ابق نائبا عن نورالدين محمود فى دمشق . وان يسير ابق الى حلب لاظهار حسن الطاعة والنيابة عن نورالدين محمود فى دمشق ، فتم ذلك فى رجب سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥٠م (٢) .

كانت غارات نورالدين محمود على دمشق ومحاولاته الاستيلاء عليها لا تتم الا عن مقصد واحد وهو الاستعانة بعساكر دمشق ضد الصليبيين وقطع الصلة بين حكام دمشق وحكام بيت المقدس الصليبيين . فلما كانت سنة

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣١٥ .
(٢) ابن القلانسى ، ص ٣١٧ .

٥٤٨ هـ / ١١٥٣م تذرع نورالدين محمود بعدة اسباب جعلته يفكر جديا في الاستيلاء على دمشق والقضاء على اسرة طغتكين التي طالما تحالفت مع الصليبيين (١) . ومن الاسباب التي دفعت نورالدين محمود الى ذلك ، أن دمشق وقفت حجر عثرة في وجه نورالدين محمود ، ومنعته من تقديم المساعدة للفاطميين بعسقلان حيث استنجدوا به ضد الصليبيين عندما حاصروها حصارا شديدا مما ادى الى سقوطها بايديهم سنة ٥٤٨ هـ . (٢) وقد ذكر أسامة بن منقذ في مذكراته العذر الذي كان نورالدين محمود قد اعتذر به في عدم قدرته على الذهاب الى عسقلان حيث قال نورالدين محمود لاسامة بن منقذ " يافلان اهل دمشق اعداء والافرنج اعداء ما آمن منهما اذا دخلت بينهما " (٣) . ولذلك فان نورالدين محمود قد تأسف اشد الاسف على عدم قدرته في نجدة الفاطميين بعسقلان حيث يقول ابن واصل " وكان نورالدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف اذ لا يمكنه الوصول اليهم ومنعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم " (٤) . اما السبب الثاني الذي تذرع به نورالدين محمود للاستيلاء على دمشق فهو شعوره بالمسئولية تجاه رعايا دمشق من المسلمين ، فقد فرض الصليبيون على اهل دمشق قطيعة يأخذونها منهم كل سنة خصوصا بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان . واخيرا فان نورالدين محمود خاف ان تسقط دمشق بايدي الصليبيين لما بلغه مجير الدين أبق من المهانة والاحتقار عند رعاياه حتى انهم حبسوه هو ووزيره مؤيد الدين

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ص٦٤٢ .
(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ص ٢٢١ .
(٣) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٤ .
(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢٦ .

الصوفى (١) . فلما رأى نورالدين محمود ذلك خاف ان يملك الصليبيون دمشق " فلا يبق حينئذ للمسلمين بالشام مقام " (٢) . وصمم على القيام بالاستيلاء على دمشق ، ولكنه عرف انه لن يستطيع الاستيلاء عليها بالقوة لكثرة عساكرها واعوانها . وخاف نورالدين محمود من استعانة صاحبها مجيرالدين ابق بالصليبيين فيصعب حينئذ الاستيلاء عليها . من هنا لجأ نورالدين محمود الى اعمال الحيلة فى الامر ، ففرض على دمشق حصارا اقتصاديا ، منع عنها كل مايصلها من المؤن والغلات من شمال الشام فزادت الاسعار ، وخلا البلد من الخلق الكثير وكثر الموت فى الناس . عندها سعى نورالدين محمود الى استغلال هذه الاوضاع المتردية بدمشق فأخذ فى مراسلة مجيرالدين ابق واستماله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق به . ولم يقف نورالدين محمود عند هذا الحد ، بل سعى الى اشعال نار الفتنة بين مجيرالدين وكثيرا من امراء دمشق حتى تخلص ابق من بعض رجاله المخلصين (٣) . فلما لم يبق عنده احد من الامراء سوى عطاء بن حفاظ السلمى وكان شهما شجاعا فوض ابق اليه امر دولته فسعى بينهما نورالدين محمود حتى تخلص منه مجيرالدين ابق فى سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م . وبهذه الطريقة نجح نورالدين محمود فى الايقاع بين مجيرالدين ابق ورجال دمشق حتى تخلص منهم ابق واصبح وحيدا عرضة للاخطار . (٤)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٩٧ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١٠٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص٣٠٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص١٩٧ .

(٣) ابن القلانسى ، ص٣٢٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ، ص٣٠٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ، ص١٢٧ ، سعيد عاشور ، الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص١٥٣ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١٠٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٠٥ ، ابو شامة ، الروضتين جـ١ ، ق١ ص٢٣٨ .

والى جانب ماقام به نورالدين محمود من حسن السياسة والتدبير مع امراء دمشق فقد أوعز الى قائده المشهور اسد الدين شيركوه بمراسلة نجم الدين ايوب بدمشق ، وحرضه على مساعدته فى الاطاحة بمجير الدين أبق وتسهيل فتح دمشق . ولم يكتف نورالدين محمود بهذا بل سعى الى استمالة احداث دمشق وزناطرتها (١) وطلب منهم تسليم البلد اليه فأجابوه (٢) . الا أن نورالدين محمود على الرغم من استكماله لجميع الاجراءات التى تكفل له الاستيلاء على دمشق فقد ارسل من قبله سفارة الى دمشق على راسها أسد الدين شيركوه ولكن ابق اهمل الخروج اليه ،لانه راى فى هذه السفارة اهانة له "وقال : ماهذه رسالة ، هذه مكيدة "(٣) .

ولما ان بلغ نورالدين محمود مالقيه اسد الدين شيركوه ومن معه من العساكر النورية من مجير الدين ابق ورجاله حتى عزم على المسير الى دمشق فسار اليها بعد ان انضم اليه اسد الدين شيركوه . ونزل يوم الاحد الثالث من صفر سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م شرق دمشق بجميع عساكره فخرج اليهم رجال دمشق ووقع القتال بين الطرفين . فلما كان يوم الاحد العاشر من صفر ثار اهل البلد لما نزل بهم من الغلاء وقلة الاقوات وانقطاع الواصلين بالغلات وفتحوا الباب الشرقى ودخله نورالدين محمود فسر الناس كافة بدخوله لماهم عليه من الجوع والخوف من منازلة الصليبيين الذين كان مجير الدين ابق

---

(١) الزناطرة : طبقة من سكان المدن كانت مولعة بتحريك الفتن والقلاقل . انظر ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق ١ ص ٨٥ حاشية رقم هـ .

(٢) ابن الاثير ،الكامل جـ١١ ،ص ١٩٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ١ ص ١٢٧ ، ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ، ق ١ ،ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٣) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق ١ ، ص ٢٣٩ ،انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ ،ص ٦٤٥ .

قد أرسل اليهم لطلب النجدة ضد نورالدين محمود ، ووعدهم بتسليم بعلبك اليهم ان هم اجبروا نورالدين محمود على الانسحاب عن دمشق . فالسو أن اجتمعوا وجاءوا بلغهم استيلاء نورالدين محمود عليها فعادوا بخفى حنين أما مجير الدين أبق فقد التجأ بقلعة دمشق وراسله نورالدين محمود وبذل له الاقطاع الكثير من جملته مدينة حمص . فلما احس ابق بالهزيمة وافق على تسليم القلعة وخرج الى نور الدين محمود فطيب قلبه ودخل نورالدين محمود القلعة وسقطت دمشق بيده ونادى بالامان لاهل البلد ، وأمر عساكره بعدم القيام بنهب الدور وغيرها (١) . وفى دمشق احسن نورالدين محمود معاملة اهل دمشق وقدم لاماثل الرعية والفقهاء ماسرهم " وزاد فى ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر اليهم " فاكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله على ماصاروا فيه . ولم يقف عند هذا الحد من الانعام على اهل دمشق والبلاد التابعة لها بل سعى الى ابطال المكوس المفروضة على بعض حاصلاتهم الزراعية واطلاق سراح من كان فى سجن ابق من رجالات دمشق المشهورين (٢) .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٣٠٥ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٢٧ ، المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٨ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٨ .

اما مجير الدين ابق فقد تجهز وسار الى حمص وظل بها حتى حدثته نفسه بمراسلة اهل دمشق فى محاولة منه للعودة اليها . فلما علم نور الدين محمود نقله الى بالس فلم يرض بها ورحل عنها الى بغداد حيث ظل بها حتى توفى هناك سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م . انظر ابن الاثير فى التاريخ الباهر ص ١٠٨ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ، ص ٢٧٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٣٨١ .

(٢) ابن القلانسى ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ٢٤١ ، الصفدى ، امراء دمشق فى الاسلام ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ٢٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٥ - ٦٤٦ .

هكذا استطاع نورالدين محمود الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م دون اراقة دماء المسلمين بحسن سياسته . وبسقوطها فى يده انقطع ملك بيت آل طغتكين بعد ان استمر فى حكم دمشق ماينوف عن ثلاث وخمسين سنة ، فحقق نورالدين محمود حلم والده عماد الدين زنكى . واسقط فى ايدى الصليبيين الذين كانوا يكرهون سقوطها بيده على حد قول ابن الاثير " وكان ابغض الاشياء الى الفرنج ان يملك نورالدين محمود دمشق "(١) . وباستيلاء نورالدين محمود على دمشق اصبح جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية تحت سيطرته عدا شيزر التى اسقطت بعد ذلك(٢) . والواقع ان استيلاء نورالدين محمود على دمشق كان نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية اذ اتحدت بلاد الشام مع الجزيرة واصبحت تحت سيطرته . واذا كان استيلاء الصليبيين على عسقلان سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م قد ادى الى سيطرتهم على ساحل بلاد الشام فان سقوط دمشق بيد نورالدين محمود فى السنة التالية ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م قد جعل له السيطرة على وسط وشرق بلاد الشام والجزيرة وجعل الصليبيين على شفى حفرة من الانهيار . والى جانب ذلك فقد حقق نورالدين محمود باستيلائه على دمشق ماكان والده قد سعى الى تحقيقه ، بالاضافة الى ان ذلك قد اتم جانبا كبيرا من توحيد الجبهة الاسلامية التى كان والده قد استشهد فى سبيلها سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م والتى كان قيامها بمثابة ضربة مميتة للصليبيين فى بلاد الشام ، لان سقوط دمشق بيد نورالدين محمود قد حطم الحاجز الذى كان يفصل بين حلب وبيت المقدس ،

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ق١ ص ٢٣٧ . ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج ٦ ص ٥٦١ .

(٢) انظر مايلى ، ص

أو بالاحرى بين شمال الشام وجنوبه فاصبحت مملكة بيت المقدس فى متناول يد نورالدين محمود وتحت رحمته كما كانت الرها من قبل تحت رحمة حكام الموصل ، ومما زاد من اهمية سقوط دمشق بيد نورالدين محمود فى هذه الاونة ان الامارات الصليبية لم تكن بينها رابطة كتلك الرابطة التى حققها نورالدين محمود بين صفوف المسلمين فى الشام والجزيرة (١) .

ولم تقف اهمية سقوط دمشق بيد نورالدين محمود عند الصدمة النفسية التى منى بها الصليبيون وقطع الصلة بين اماراتهم بل تعدتها الى ان بعض البلاد التى كانت بايديهم قد سلموها الى نورالدين محمود عن طواعية خوفا من مسيره اليهم كما فعل الصليبيون الذين كانوا فى قلعة تل باشر سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م (٢) .

ولم يبق فى بلاد الشام من المدن الاسلامية ماهو خارج عن سلطة نورالدين محمود بعد سقوط بعلبك فى يده سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م سوى شيزر التى ظلت بيد بنى منقذ الكنانيين على الرغم من الظروف والتغيرات التى حصلت فى بلاد الشام اثناء الحروب الصليبية واختفاء الكثير من الاسر الحاكمة لبعض البلاد الاسلامية لشدة التماسك الذى كان يربط زعماء هذه الاسرة بالاضافة الى المناعة الطبيعية التى تمتعت بها شيزر (٣) .

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٤٦-٦٤٧ ، العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٩٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص ٥٥١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٩٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٢٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٢٠ ، ابوشامة ، الروضتين جـ١ ، ق١ ص ٢٥٠ .

ولم يلق نورالدين محمود بالا فى اول الامر لشيزر تلك الامارة المنيعة وذلك لانشغاله بامر الصليبيين والاهتمام بامر دمشق والاستيلاء عليها وعلى البلاد التابعة لها . والدليل على ذلك ان سلطان بن منقذ الملقب بابى العساكر حين طرد ابناء اخيه مرشد عقب وفاته سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م لجأ بعضهم فى وقت متأخر الى نورالدين محمود ، وطلبوا منه أن يأخذ لهم بثأرهم من عمهم سلطان الا ان نورالدين محمود لم يستجب لهم " لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج " . ولكن سلطان بن منقذ كان من الحنكة والسياسة ما جعله يحافظ على امارته من السقط بيد الصليبيين فى الوقت الذى انصرف فيه عن الاصطدام بنورالدين محمود الذى كان فى نفسه منه أثر كما يذكر ابن الاثير(١) . الا ان وفاة ابوالعساكر سلطان ابن منقذ سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م وتولى ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد الامر من بعده قد دعاه خوفه من نورالدين محمود الى مراسلة الصليبيين ، فبلغ ذلك نورالدين محمود ، فاشتد غيظه لصاحب شيزر وانتظر الفرصة المواتية للاستيلاء عليها ، ولكنه انشغل عنها فى تلك السنة بامر دمشق(٢) .

ولما كانت سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧م استغل نورالدين محمود ما أحدثته الزلازل فى حمص وحماه وشيزر من اضرار جسيمة كان اشدها فى شيزر التى انهدمت على صاحبها تاج الدولة ناصر الدين محمد وافراد اسرته . فأسرع

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١١٢ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٠ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١١٢ .

نورالدين محمود اليها وملكها واضافها الى بلاده وعمرها وعمر أسوارها [1] .
وباستيلاء نورالدين محمود على شيزر اصبحت بلاد الشام الاسلامية في حوزته واكتمل توحيد القوى الاسلامية ، وقطع بذلك الامل على الصليبيين والبيزنطيين الذين كانوا يودون تثبيت نفوذهم وقوتهم في حماة وحمص وشيزر بعد قدوم الامبراطور البيزنطي الى بلاد الشام في اواخر سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م [2] .
اما عن علاقة نورالدين محمود بالارتقة في حصن كيفا وماردين فانه لبحكم تقسيم مملكة عماد الدين زنكي بين ولديه سيف الدين غازي ونورالدين محمود فقد تحمل سيف الدين غازي عبء استرجاع ما استولى عليه الارتقة من املاك والده ولم يقف عند هذا الحد بل استطاع حصار ماردين نفسها "وفعل بها الافاعيل العظيمة" ، مما اضطر حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الى طلب عقد الصلح بينه وبين سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م . كما استغل سيف الدين غازي ضعف قرا ارسلان صاحب حصن كيفا واستعاد منه بعض الممتلكات التي كان قد استولى عليها عقب وفاة والده عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م [3] .

وبدأت علاقة نورالدين محمود بالارتقة عقب وفاة سيف الدين غازي سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م ، فعندما حاصر نورالدين محمود سنجار

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢١٩-٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٠٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ، ص ٢٢٩ . وكان اسامة بن منقذ قد رثى افراد اسرته حين تهدمت عليهم سيزر بابيات من الشعر كلها شعور طيب . انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص ، ص ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ص ٢٦٦ .
(٢) انظر ما سبق ص
(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٠-٩١ ، انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ، ص ٢٠٣ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ١٣١-١٣٢ .

فى تلك السنة (٥٤٤ هـ) طلب المساعدة من فخرالدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا ، فاجابه قرا ارسلان وسار على راس قواته الى سنجار مع رجحـ كفة نورالدين محمود ضد حكام الموصل (١) . اما صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش فقد وقف موقفا محايدا من النزاع الذى قام بين نورالدين محمود واخيه قطب الدين مودود حول سنجار التزاما بالصلح الذى كان قد تم بينه وبين مودود سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م (٢) .

ويمكن القول ان العلاقات الودية التى تمت بين نورالدين محمود وقرا ارسلان صاحب حصن كيفا قد سهلت له العمل على توسيع امارته والحصول على نصيبه من تركة امارة الرها الصليبية . فقد استطاع فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م الاستيلاء على بلدة كركر وبعض الحصون الاخرى فى الوقت الذى استطاع فيه حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الاستيلاء على سميساط فى السنة المذكورة (٣) .

لم تقف علاقة نورالدين محمود بالاراتقة عند حد الاستعانة بهم ضد اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل ولا حتى السماح لهم بتوسيع اماراتهم على انقاض الصليبيين فى الرها ، بل تعدتها الى ان الاراتقة انفسهم قد بذلوا من نفوسهم بالتضحية مع نورالدين محمود فى جهاده ضد الصليبيين ووضع كل امكانياتهم تحت تصرفه . ففى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م قدم

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٥-٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١١٨-١٢٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ١٧٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٢) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٣١٥ ، عصام الدين عبدالرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٨ .

قدم فخرالدين قرا ارسلان الى حلب عقب سقوط دمشق بيد نورالدين محمود فى السنة الماضية لتهنئته نورالدين محمود بذلك ، فوقع ذلك منه موقعا حسنا وقدم له ماجل قدره من الهدايا (١) . واذا كانت هذه الخطوة من قبل قرا ارسلان تجاه نورالدين محمود بمثابة النجاح لنورالدين محمود فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فان الاستاذ عمادالدين خليل قد عدها ايضا بمثابة اخراج امارة حصن كيفا من العزلة الطويلة تجاه ماكان يجرى فى بلاد الشام زمن عماد الدين زنكى (٢) . ولا يستبعد بعد هذه الخطوة التى خطاها صاحب حصن كيفا تجاه نورالدين محمود ان يكون قرا ارسلان من ضمن اصحاب الاطراف والمعاقل الاسلامية التى كاتبها نورالدين محمود سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧م بالاستعداد الى الوقوف صفا واحدا الى جانبه لجهاد الصليبيين . غير ان مرضه هذه السنة ووقوع الزلازل ببلاد الشام قد حال دون قيام نورالدين محمود بمنازلة الصليبيين وتحقيق غرضه (٣) .

وفى اطار تحسن العلاقات بين نورالدين محمود والارتقة فانه لما عزم فى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣م على الأخذ بثأره من الصليبيين عما وقع عليه تحت حصن الاكراد فى العام الماضى ٥٥٨هـ/١١٦٢م ، بعث الى فخرالدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا ونجم الدين البى صاحب ماردين (٤) وطلب

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٣٢ .
(٢) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٩٥ .
(٣) ابن القلانسى ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(٤) كان حسام الدين تمرتاش قد توفى سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م بعد حكم استمر نيفا وثلاثين سنة فتولى امارة ماردين من بعده ابنه نجم الدين البى بن حسام الدين تمرتاش . انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٣ ، ابن القلانسى ، ص ٣٢٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

منهما المساعدة والمعاضدة ضد الصليبيين فقدما عليه وانضما الى قواته بحيث استطاع نورالدين محمود بمن معه من المسلمين هزيمة الصليبيين والاستيلاء على حصن حارم وغيره من بلاد الصليبيين (١) .

على ان العلاقات بين نورالدين محمود وفخرالدين قرا أرسلان لم تتأثر بمحاولة بعض الخصوم العمل على قطعها ، ففى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣م ، استغل ناصرالدين امير ميران شقيق نورالدين محمود العلاقات الطيبة بين نورالدين محمود وقرا ارسلان ، فلجأ ناصر الدين الى قرا ارسلان واستجار به من اخيه نورالدين محمود فأجاره ، ولكنه لم يشجعه على عصيان اخيه بل سعى فخرالدين قرا ارسلان الى اصلاح مابين الاخوين ، وعملا سويا على فتح بانياس هذه السنة (٢) . ويمكن القول انه لولا رحابة صدر نورالدين محمود ورغبته الاكيدة فى لم شعث المسلمين لسعى الى الانتقام من فخرالدين قرا ارسلان واخيه ناصر الدين امير ميران ، ولكنه قبل شفاعة حليفه قرا ارسلان فى أخيه .

واذا كانت العلاقات بين نورالدين محمود وقرا ارسلان صاحب حصن كيفا قد زادت اواصرها وتعمقت من اجل الوقوف فى وجه الصليبيين فانها قد تعدت الى اكثر من ذلك . ففى سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦م وحين اشتد مرض الموت بفخر الدين قرا ارسلان ارسل الى نورالدين محمود واوصاه بابنه نورالدين محمود بن قرا ارسلان . فلما توفى قرا ارسلان هذه السنة قام نورالدين محمود بنصرة ولده والدفاع عنه حتى ان قطب الدين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٠٨-٣١٩ ، عصام عبدالرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢٥٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١٣٠ ، حاشية رقم (٤) .

مودود صاحب الموصل حينما حاول مهاجمة حصن كيفا بغية الاستيلاء عليها ، أرسل اليه نورالدين محمود بن زنكى وهدده فى حالة قيامه بهجوم على حصن كيفا ، فتراجع قطب الدين مودود عن الهجوم على حصن كيفا خوفا من أخيه (١) .

وعلى الرغم من وفاة حسام الدين تمرتاش سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م وفخر الدين قرا ارسلان سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٦م فان علاقة نورالدين محمود بالاراتقة لم تنقطع ولم تقتصر عليهما ، ففى سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩م قام شهاب الدين الياس بن ايلغازى صاحب البيرة بمساهمة فعالة فى جهاد الصليبيين حيث سار شهاب الدين هذه السنة على راس قوة من رجاله نحو المائتين من الرجال بقصد الاجتماع بنورالدين محمود وهو بعشترا (٢) ، فصادف فى طريقه ثلاثمائة من الصليبيين بالقرب من بعلبك قد خرجوا من حصن الاكراد للاغارة على البلاد الاسلامية فى البقاع ، فتم اللقاء بينهما واقتتلوا قتالا شديدا ، وقع فيه عدد كبير من القتلى من الجانبين الا ان النصر كان حليف المسلمين حيث وقع بايديهم الكثير من الاسرى والغنائم ، ولم تقف هذه الحادثة حجر عثرة فى وجه شهاب الدين بن ايلغازى عن مواصلة سيره ومقابلة نورالدين محمود ، فقد سار الى نورالدين محمود بعشترا فاحسن استقباله وسر بالنصر الذى حققه على الصليبيين (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٢٩-٣٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ، ص ١٥٣-١٥٤ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ

(٢) عشترا : موضع بحوران من اعمال دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان ص ١٢٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٥٣-٣٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ، ص ١٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١-٤٧٢ .

وكما كان فخرالدين قرا ارسلان حليفا مخلصا لنورالدين محمود مد له يد العون سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م ضد حكام الموصل عقب وفاة سيف الدين غازى فقد سار ابنه على نفس السياسة حيث انضم الى جانب نورالدين محمود سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠م عندما توجه نورالدين محمود الى الموصل على اثر وفاة اخيه قطب الدين محمود سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م وذلك بهدف تصفية مشاكل الموصل وضمها الى جانبه ، وكان لانضمام نورالدين ابن قرا ارسلان الى جانب نورالدين محمود فى حملته على الموصل اثر فى ترجيح كفته على خصومه الذين اضطروا الى طلب الصلح واعلان الطاعة لنورالدين محمود بن زنكى . بعدها عاد نورالدين محمود الى حلب . بينما سار حليفه ابن قرا ارسلان الى مقر امارته فى حصن كيفا (١) .

وهكذا قدم الاراتقة فى حصن كيفا وماردين وحصن البيرة لنورالدين محمود بن زنكى كل مساعدة ممكنة ليس ضد الصليبيين فحسب بل وضد خصومه من البيت الزنكى فى الموصل ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل شكلوا فى عهد نورالدين محمود خط الدفاع الثانى او بالاحرى مركز الامدادات على حد قول احد الباحثين المحدثين ، فقد قدموا لنورالدين محمود المساعدات المالية والعسكرية خلال قتاله مع الصليبيين ، وغيرهم كحلفاء مخلصين وليسوا كاتباع خاضعين . (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٢-١٥٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٣٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٨٥ .

(٢) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٩٣ .

على أن نورالدين محمود لم يتحرج -على اثر ما حققه من انتصارات عسكرية على الصليبيين وما حققه من توحيد للجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة - فى ان يطلب من الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م تقليدا له بما تحت يده من البلاد كمصر والشام وبلاد الجزيرة والموصل وما فى طاعته كديار بكر التى هى فى حوزة الاراتقة ، ولذلك فانه لم يحصل من الاراتقة على معارضة (١) . بل نراهم فى السنة التالية ٥٦٩ هـ/١١٧٣م يلبون دعوة نورالدين محمود الى الوقوف الى جانبه لغزو الصليبيين فى بلاد الشام ومواصلة السير معه الى مصر (٢) .

اما عن علاقة نورالدين محمود بحكام الموصل فقد تمثلت بوجه عام فى محاولة خلق جبهة اسلامية متحدة الاركان قوامها الموصل وحلب واعتبرنفسه مسئولا عن ذلك لانه ورث عن والده فى حلب مشكلة جهاد الصليبيين ، وهذا لا يتم بنجاح الا بتوحيد الجبهة الاسلامية . ولكن اخاه سيف الدين غازى صاحب الموصل بحكم كبر سنه رأى انه لابد من فرض السيطرة على حلب الخاضعة لنورالدين محمود . ولذلك فقد سعى نورالدين محمود الى توطيد علاقاته باخيه سيف الدين غازى واجتمع به فى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م على الخابور وتم الاتفاق بينهما على المحافظة على مملكة والدهما عماد الدين زنكى (٣) . وقد ظلت العلاقات حسنة بين سيف الدين غازى ونورالدين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٣٩٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١٦٢ . كان الخليفة العباسى المستضئ بامر الله قد حكم فى بغداد ما بين سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠م حتى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وفى خلافته انقضت الدولة الفاطمية فى مصر ، انظر السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٤-٤٤٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٢ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٢ .

محمود لم تشبها أية شائبة حتى وفاة سيف الدين غازى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م وتولى الامر من بعده فى الموصل اخوه قطب الدين مودود وهو أصغر سنا من نورالدين محمود (١) .

وجد نورالدين محمود الفرصة مواتية للاستيلاء على بعض البلاد التابعة للموصل ، بقصد الحصول على اموال لتحسين اوضاعه الاقتصادية من ناحية ومساومة قطب الدين مودود على الانسحاب من البلاد التابعة له فى الشام كحمص والرحبة من جهة اخرى . وقد استطاع نورالدين محمود تحقيق ذلك حينما قام فى نفس السنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) بحملة عسكرية استطاع بها الاستيلاء على سنجار التى كانت كمخبأ لاموال والده التى خلفها عقب استشهاده سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م . ولم تقف اهمية استيلاء نورالدين محمود على سنجار عند حد حصوله على الاموال والذخائر بل تعدتها الى انه استطاع مساومة حكام الموصل بها على الانسحاب من حمص والرحبة فى بلاد الشام فحقق نورالدين محمود بذلك اهدافه التى سعى من أجلها فى حملته على سنجار (٢) .

ظلت العلاقات حسنة بين نورالدين محمود واخيه قطب الدين مودود فى الموصل ، ولم تمدنا المصادر التى بين ايدينا مايدل على حصول اصطدام بينهما ، او حتى استعانة اى منهما بالاخر الا ماذكران نورالدين

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٢٤، ١٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١١٥ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٩٢ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٨٦ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٢٠ .

(٢) انظر ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ٩٤-٩٨ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١١٨-١٢٠ .

محمود حين الم به المرض في اواخر سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م كتب الى أخيه قطب الدين مودود واخبره انه قد اختاره لان يتولى امر المسلمين من بعده (١) . وفي سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م لبى قطب الدين مودود داعي الجهاد ضد الصليبيين والبيزنطيين حين كتب نورالدين محمود الى اصحاب الاطراف في تلك السنة ، ولم يقف قطب الدين عند حد تلبية الدعوة ، بل سار من الموصل الى حلب . غير ان الهدنة التي عقدها نورالدين محمود مع الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين حالت دون الاشتباك الفعلي بين نورالدين محمود ومن انضاف اليه من القوات الاسلامية من جهة والصليبيين من جهة اخرى (٢) . ولذلك فان نورالدين محمود قد اكرم وفادة اخيه وجميع العساكر الاسلامية التي قدمت الى بلاد الشام ، ووهبهم من الهدايا الكثيرة والخيول العربية والبغال الشيء الكثير (٣) .

الواقع ان الاخوين نورالدين محمود وقطب الدين مودود قد سارا في طريق واحد وهو الوقوف في وجه الصليبيين ، فلم ير نورالدين محمود اية غضاضة في الاستعانة باخيه قطب الدين وعساكر الموصل للاخذ بثأره وثأر الاسلام بعد الهزيمة التي لحقت به سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م تحت حصن الاكراد . ولهذا فقد قدم قطب الدين مودود على راس عساكره وانضم تحت لواء اخيه نورالدين محمود ، حيث استطاعا في السنة التالية ٥٥٩ هـ/١١٦٣م انزال هزيمة ساحقة بالصليبيين استطاعا بعدها الاستيلاء على حارم من

---

(١) ابن القلانسي ص ٣٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٠٨ .
(٢) انظر ما سبق ، ص
(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٥٨ .

الصليبيين (١) . ولما كانت سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٥م عاد قطب الدين مودود الى حلب مرة اخرى لمساعدة نورالدين محمود وقد استطاعا فعلا اجتياح الكثير من بلاد الصليبيين ، عاد بعدها قطب الدين مودود الى الموصل وعرج قبل عودته اليها على الرقة واخذها بعد ان تنازل له نورالدين محمود عنها (٢) .

وهكذا ظلت العلاقات حسنة بين نورالدين محمود واخيه قطب الدين مودود حتى وفاة الاخير سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٨م مما صرف نورالدين محمود عن التفكير فى امر الموصل او المسير اليها للاستيلاء عليها ، لان قطب الدين مودود على حد قول ابن الاثير " كان حسن الاتفاق مع اخيه الملك العادل نورالدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وامواله . وكان يخطب له فى بلاده باختيار من غير خوف " (٣) . وكان قطب الدين مودود قد اوصى بالملك من بعده لابنه الاكبر عماد الدين ، ولكنه عدل عن ذلك - تحت ضغط فخرالدين بن عبد المسيح ووالدة سيف الدين غازى ابن قطب الدين مودود - الى ابنه الاصغر سيف الدين غازى ، لان عماد الدين بن قطب الدين مودود كان طوع عمه نورالدين محمود ، وكان نورالدين محمود يكره فخرالدين بن عبد المسيح فما كان من عماد الدين

---

(١) انظر ما سبق ، ص

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٤٧٣ ، عصام عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٨ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٥ .

الا ان رحل الى عمه نورالدين مستنصرا به لاخذ الملك لنفسه ، فسار نورالدين محمود في المحرم من سنة ٥٦٦ هـ/١١٦٩م وعبر الفرات واستعاد في طريقه الرقة والخابور ونصيبين ، وحاصر سنجار وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن قطب الدين مودود . وعبر دجلة الى الجانب الشرقي ونزل على حصن نينوى فارسل فخرالدين عبدالمسيح الى نورالدين محمود بشأن تسليم بلد الموصل اليه على أن يقره بيد سيف الدين غازي ، وان يمنحه نورالدين محمود الامان له ولاهله ، فأجابه نورالدين محمود الى ذلك ، واشترط نورالدين على فخرالدين عبدالمسيح ان يسير معه الى بلاد الشام ، فوافق وتسلم نورالدين محمود الموصل ، ودخل القلعة وامر بعمارة الجامع النوري وسلمها الى سيف الدين غازي على أن يكون سعد الدين كمشتكين نائبا عنه في الموصل ، وأمر سيف الدين غازي بعدم التفرد بالامر عن سعد الدين كمشتكين ، عاد بعدها نورالدين محمود الى حلب بعد مضي اكثر من عشرين يوما وبرفقته فخرالدين عبدالمسيح (1) .

---

(1) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٥٥ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٨ - ١٩٦ ، البنداري ، البرق الشامي ، جـ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ .

نينوى : كانت قرية من قرى الموصل ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

هكذا استطاع نورالدين الاستيلاء على الموصل فى الوقت المناسب دون اراقة دماء المسلمين . ولم يقف عند هذا الحد بل جعل من بها من الامراء طوع اختياره ، فأصبحت أملاك نورالدين محمود تمتد من الجزيرة فبلاد الشام الى مصر . وما يدل على خضوع الموصل لنورالدين محمود انه فى سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م عزم على غزو الصليبيين فى بلاد الشام والمسير الى مصر لتأديب صلاح الدين الايوبى ، فأرسل الى ابن أخيه فى الموصل وطلب منه القدوم الى حلب لمساعدته ، فما كان منه الا الموافقة على ذلك وخرج على راس عساكر الموصل وبصحبته سعدالدين كمشتكين ، الا أن خبر وفاة نورالدين محمود فى تلك السنة قد بلغه فعاد من طريقه الى الموصل (١) .

أما عن موقف الخلافة العباسية من جهود نورالدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر، وجهاد الصليبيين فقد حرص نورالدين منذ البداية على أن تكون علاقته بالخلافة علاقة طيبة ، وكانه فى حاجة ماسة الى مساندة الخلافة العباسية له . وتجنب سياسة والده عماد الدين زنكى فى استعداء الخليفة العباسى من اجل استرضاء السلاطين السلاجقة . ويمكن القول ان تجنب نورالدين محمود لسياسة والده عماد الدين زنكى تجاه الخلافة العباسية يرجع ايضا الى ضعف السلطنة السلجوقية وانتعاش الخلافة العباسية فرغب نورالدين محمود . فى

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر، جـ ٣ ، ص ١٢٨ .

استرضاء جانب الخلافة لاضفاء روح الشرعية على اعماله العسكرية فى الشام والجزيرة (١) .

ولما كان نورالدين محمود قد رسم لنفسه سياسة تجاه الخلافة العباسية فلايستبعد ان يكون قد ادرك ان الخلافة العباسية قد بدأت عهدا جديدا وخصوصا فى عهد الخليفة العباسى المقتفى لامر الله (٥٣١ - ٥٥٥ هـ / ١١٣٦ - ١١٦٠م) الذى وصفه السيوطى بانه كان مبدأ صلاح الدولة العباسية حيث بدأت تهتم بشكل واضح بامر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بالاضافة الى انها املت فى نورالدين محمود مايحقق رغبتها فى الاطاحة بخلافة الفاطميين التى انتابها الضعف والتدهور فى منتصف القرن السادس الهجرى بعد ان كانت قد نازعت الخلافة العباسية سياسيا ومذهبيا فترة زمنية طويلة (٢) .

وهكذا وافقت رغبة الخليفة العباسى المقتفى لامر الله اهداف نورالدين محمود فى توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ومواجهة الصليبيين ولذلك فقد تقرب نورالدين محمود من الخليفة العباسى ، فبعد ان هزم الصليبيين فى بغراس سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م ارسل الى الخليفة العباسى جملة من الغنائم والاسرى التى حصل عليها . ولم يكتف بهذا ، بل أرسل فى السنة التالية ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م جمجمة وذراع ريموند صاحب انطاكية بعد ان سقط

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٨ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٣٨-٤٣٩ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٤ .

صريحا في معركة أنب(١) .

وعلى الرغم من اتفاق رغبة الخلافة العباسية مع اهداف نورالدين محمود ، فان سياسة الخلافة العباسية تجاه نورالدين محمود في الشام كانت تتصف بنوع من الحذر خوفا من السلطان مسعود بن محمد ، ولكن وفاة الاخير سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م كان ايذانا باضمحلال امر السلاجقة وبدأ الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ربيدي اهتمامه بامر الشام ومصر حتى ان السيوطي قد ذكر بان سبب استيلاء نورالدين محمود على دمشق سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م كان بأمر من الخليفة العباسي المقتفي لامر الله(٢) . وأرسل الخليفة المقتفي الى نورالدين محمود عقب استيلائه على دمشق عهدا ببلاد الساحل ومصر واعمالها ، وأمره بالمسير الى مصر ولقبه بالملك العادل نورالدين (٣) .

لم يستطع نورالدين محمود تحقيق ما طلبه منه الخليفة العباسي المقتفي لامر الله بالتوجه الى مصر بعد استيلائه على دمشق لانشغاله بامر الصليبيين ، واستكمال توحيد القوى الاسلامية في الشام والجزيرة ، بينما ظلت العلاقات بين نورالدين محمود والخلافة العباسية طيبة لم تشبها اية شائبة ، حتى أن نورالدين محمود لم يتحرج في ان يطلب من الخليفة

---

(١) انظر ما سبق ، ص

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣ ، انظر ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ١٠٩ ، حسين امين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ١٢٥

(٣) عماد الدين الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ص ٢١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠١ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، ص ٦٦ .

المستنجد بالله النفقات والاسلحة لسد الثلمة ودفع الطمة على اثر الزلازل التى اجتاحت بلاد الشام سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩م(١) .

وظلت علاقة نورالدين محمود بالخلافة العباسية على مايرام فى عهد الخليفة العباسى المستنجد بالله الذى خلف اباه المقتفى فى خلافة بغداد سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م واستمر فى الخلافة حتى وفاته سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ولما توفى الخليفة العباسى المستنجد بالله سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م سعى نور الدين محمود الى توطيد علاقته بخليفته المستضئ بامر الله وحاول كل من الخليفة المستضئ ونورالدين محمود الاستفادة من الجانب الاخر ، فالخليفة العباسى استغل وصول نورالدين محمود سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م الى الموصل ، فارسل اليه رسالة يعرفه فيها بخلافته ويطلب منه المبايعة فرحب نورالدين بهذا وارسل من جانبه احد رجاله ليكون عند الخليفة العباسى نائبا عنه فى الخدمة الشريفة العزيزة(٢) . ويبدو ان ترحيب نورالدين محمود برسل الخليفة العباسى وموافقته على المبايعة للخليفة العباسى المستضئ بامر الله بهذه السرعة كان مرده الخوف من ان الخليفة العباسى سيعارض مشاريع نورالدين محمود التوسعية فى الموصل عقب وفاة اخيه قطب الدين مودود سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩م . وقد تحققت مخاوف نورالدين محمود هذه عندما شدد حصاره على الموصل سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٥٤-٣٥٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٤ ، ق ١ ص ٩٦-٩٧ ، محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والادارية فى عهد الفاطميين والاتابكية والايوبية ص ٢١٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٨٦ .

فقد بلغه ان الخليفة المستضئ بامر الله قد عزم المسير الى الموصل نجدة لسيف الدين غازى ، فما كان من نورالدين محمود الا ان بعث برسالة الى الخليفة يعرفه فيها ان سبب قدومه الى الموصل هو لاقرار الاوضاع بها باعتباره كبير العائلة الزنكية الحاكمة فى الموصل وحلب . فلما تأكد للخليفة العباسى حسن نية نورالدين محمود فى القضاء على الفوضى التى حصلت بالموصل عدل عن عزمه على المسير اليها بل رغب فى ان يتقرب من نورالدين محمود وارسل اليه وهو يحاصر الموصل خلعة تكريما له واعترافا بقدره فلبسها نورالدين محمود ولكنه خلعها على ابن اخيه سيف الدين غازى بعد ان سلم اليه الموصل (١) . ولاشك ان الحاح نورالدين محمود على صلاح الدين بالاسراع فى الاطاحة بالخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م واعلانها باسم الخليفة كان استجابة لرغبة الخلفاء العباسيين السنيين (٢) . ولم تنقطع علاقة نورالدين محمود بالخلافة العباسية بعد تحقيق ماكان يرغب فيه خلفاء بنى العباس فى الاطاحة بالفاطميين ، بل ظل وفيا للخلافة العباسية ببغداد ، ففى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م ارسل الى الخليفة العباسى جملة من الهدايا والاسرى التى حصل عليها من البيزنطيين والصليبيين فى شمال الشام مع رسالة يبشر فيها الخليفة العباسى المستضئ بامر الله بما حققه من انتصارات على الصليبيين والبيزنطيين فى شمال الشام

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٤ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٥٤ ، ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٦٦ .

(٢) انظر مايلى ، ص

وما حققه قائده صلاح الدين من فتوحات فى بلاد النوبة بجنوب مصر (١) .

وهكذا يمكن القول بأن نورالدين محمود بهذه العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية وما سعى اليه فى تحقيق رغبتها قد ساعده فى تحقيق توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة دون اية معارضة بل انه استطاع ان يضفى على أعماله العسكرية صبغة شرعية مكنته من مواصلة انتصاراته ضد خصومه سواء من الصليبيين او القوى الاسلامية المعارضة له . ولا شك فى أن الخلافة العباسية كانت وراء استكمال نورالدين محمود لتوحيد الجبهة الاسلامية فى مصر والشام والجزيرة ، بحيث استطاع فى النهاية وضع الصليبيين بين شقى الرحى بما كانت تشحذ به نورالدين محمود من قوة معنوية فى الاطاحة بالدولة الفاطمية الشيعية فى مصر .

استيلاء نورالدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى :

سبق ان استعرضنا فى الفصل الثانى مظاهر واسباب ضعف الفاطميين فى مصر وبلاد الشام فيما بين سنتى ٤٩٢-٥٢١ هـ/١٠٩٨-١١٢٧م عند الحديث عن القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية ، الا ان الدولة الفاطمية سارت الى الهاوية من سيء الى أسوأ فى منتصف القرن السادس الهجرى . وقد تمثلت مظاهر ضعف الفاطميين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٨٧-٣٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٤٧-٥٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٣٧ ، محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والادارية فى العهود الفاطمية ، والاتابكية الايوبية ، ص ٢١٣-٢١٤ .

فى العداء المستحكم بين الخلفاء ووزرائهم ، بسبب تسلط الوزراء على الخلفاء بطريق العنف ، مع اهمال الوزراء شؤون النص فى الامامة ، ولم يراعوا التعاليم الاسماعيلية فى تولية الخلفاء ، بل اصبح اختيار الخليفة فى يد الوزير ، ولم يكتف بعض الوزراء بهذا بل عطوا على احياء المذهب السنى (١) وعلى سبيل المثال فالوزير رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى كان سنيا حسن الاعتقاد استبد بالوزارة وتحكم فى أمور الخليفة مما دعا الحافظ الى التخلص منه سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م بعد حروب طاحنة ذهب ضحيتها الكثير من الرعايا المصريين (٢) .

ولم يتوقف تسلط الوزراء واستبدادهم عند هذا الحد ، فبعد وفاة الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩م تولى الخلافة الفاطمية ابنه الظافر بأمر الله بوصية منه (٣) . وفى خلافة الظافر التى لم تدم اكثر من اربع سنوات وسبعة اشهر تعاقب على منصب الوزارة ثلاثة وزراء كان اولهم نجم الدين بن مصال الذى لم تدم وزارته اكثر من اربعين يوما ، اذ ظهر له منافس اخر هو على بن السلار من اصل كردى ، اتى الى القاهرة من الاسكندرية ومعه ابن لزوجته يدعى عباس ابن ابى الفتوح الصنهاجى . وقد استطاعا اخراج ابن مصال من مصر فهرب الى صعيد مصر فى شعبان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٤٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ص ١٨٤ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ٩٩ ، محمد حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء ص ١٤١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٤٨-٤٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ١٤٢ ، ابن ظافر الازدى ، الدول المنقطعة ص ١٠٢ .

سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م وتولى ابن السلار وزارة الظافر وتلقب بالملك العادل شرف الاسلام (١) ، وكان الخليفة الظافر كما يقول ابن الاثير " منحرف عنه كاره له مضمر له الشر" وهذا ما دعاه الى محاولة التخلص منه فى سنة ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م بسبب استبداده بالامور دونه بالاضافة الى اعتناقه للمذهب السنى وتشجيع أهله (٢) . ولما لم يستطع الخليفة الظافر التخلص من ابن السلار فانه لم يعدل عن تدبير المؤامرات ضده حتى استطاع فى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م تدبير مؤامرة ادت الى الفتك بابن السلار بمساعدة عباس الصنهاجى ربيب بن السلار الذى كان بدوره يتحين الفرص لتولى الوزارة الفاطمية، وفعلا تقلدها بعد قتل ابن السلار ، وتلقب بلقب المظفر ركن الاسلام (٣) . ويبدو أن اقدام الخليفة الفاطمى على هذه الخطوة وهى التآمر على ابن السلار وتولية الوزارة لربيبه عباس انما كان بهدف اصطناع رجل يمكن ان يكون طوع اختياره ولكن عباس لم يكن عند توليه الوزارة باحسن من سابقيه - فقد استبد بالامور عن الخليفة ، وفى عهده سقطت عسقلان بيد الصليبيين سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م وسقوطها لم يبق للفاطميين ببلاد الشام اية ممتلكات ذات اهمية ولم يعد للفاطميين اى خطر على الصليبيين ، بعد ان اصبحوا فى درجة من الضعف والانحلال .

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٢-١٤٣ ، الازدى ، الدول المتقطعة ، قسم الفاطميين ص١٠٦-١٠٧. ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٣ ، ص٤١٦-٤١٧ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٢ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٣٢٠ ، ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٨-١٩ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢٠١ .

وحرم الفاطميون من القاعدة البحرية فى عسقلان التى ظلوا يتمسكون بهما على الرغم من الضعف الذى انتابهم ، الامر الذى جعل الخليفة الظافر يتذمر منه ويسعى الى تدبير مؤامرة للاطاحة به (١) . ولكن عباس اطلع على المؤامرة التى كان الخليفة الظافر يدبرها ضده مع ابنه نصر بن عباس فأسرع هو وفتك بالخليفة فى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م . ولم يقف الوزير عباس عند هذا الحد بل اقدم على قتل اثنين من اخوة الخليفة هما يوسف ، وجبريل متهما اياهما بقتل الخليفة الظافر . واحضر عباس ابنا للظافر صغير السن له من العمر خمس سنوات اسمه عيسى ولقبه الفائز بنصر الله ودعا له ومكنه من الخلافة (٢) .

أما الوزير عباس وابنه نصر اللذان ادميا قلوب اهل القصر فانه قد فسد مابينهما وبين الاسرة الفاطمية مما شجع بعض نساء القصر الفاطمى والمتعاطفين معهن من المصريين الى استدعاء طلائع بن رزيك والى الاشمونين فى صعيد مصر فسارع بن رزيك الى نجدتهم . وشعر عباس وابنه نصر بموقفهما الحرج ازاء غضب المصريين عامة وانه لا قبل لهما بالوقوف فى وجه طلائع ابن رزيك ولم يجد لهما وسيلة للنجاة غير الهرب من القاهرة . فتأهبا وخرجا من القاهرة الى بلاد الشام وبصحبتهما اسامة بن منقذ مؤلف كتاب الاعتبار بقصد الاستنجاد بنورالدين محمود ولكنهم وقعوا فى كمين نصبه لهم الصليبيون

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٧-١٠ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٣٥٧ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ص ٢٠١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ١٩١-١٩٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٩-٢٨ ، الازدى ، الدول المنقطعة ص ١٠٥-١٠٦ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٣ ، ص ١٢٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٣١ ، عبدالله سعيد الغامدى ، استرداد بيت المقدس فى عصر صلاح الدين ، رسالة ماجستير لم تطبع ص ٢٦ .

الذين القوا القبض على عباس وابنه نصر وقتلوا الوزير عباس وبعثوا بابنه نصر الى القاهرة حيث قتل بايدى نساء القصر الفاطمى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م(١) .

أما طلائع بن رزيك فانه بمجرد خروج عباس وابنه نصر من مصر ، سارع الى دخول القاهرة فخلع عليه الخليفة خلعة الوزارة وتلقب بلقب الملك الصالح فارس المسلمين . ولم يكن باعلى همة عمن سبقه فى ان يترفع عن التنكيل برعايا الفاطميين ، فقد اقدم على قتل وابادة كبار قادة الفاطميين وذوى الرأى فيهم . ولم يقف ابن رزيك عند هذا الحد ، فقد كان على غير مذهب العلويين الفاطميين ، فلم يرع النظم والتقاليد المتبعة فى اختيار الخليفة عند الفاطميين ، فعند وفاة الخليفة الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، احضر العاضد لدين الله وبايعه بالخلافة ولم يكن عمره يتجاوز الحادية عشرة . (٢) .

لم يكتف طلائع بن رزيك باستبداده بالامر والاحتقار الذى كان يعامل به افراد القصر خاصة والمصريين عامة - حيث قال عندما سمع ضجة الناس وفرحتهم بتولية العاضد " وماعلموا اننى كنت منساعة استعرضهم استعراض الغنم " على حد قول ابن الاثير . (٣) وسعى الى احكام قبضته على الخليفة فزوجه من ابنته فاصبح وزيره وصهره (٤) . وكان طلائع ابن رزيك يهدف

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٣٣٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٩٣ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٢٣-٢٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ٢٢٠-٢٢١ ، الازدى ، الدول المنقطعة ص ١٠٩ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٣٣ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١١ ص ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤-٢٧٥ ، الازدى ، الدول المنقطعة ص ١١١-١١٢ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٧٥ .

(٤) ابوالفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٧ .

من وراء هذا الزواج على طابيد وان تنجب ابنته ابنا من الخليفة العاضد يكون بعده خليفة فتستمتع لبنى زريك الخلافة مع الملك (١) .

ظل طلائع بن رزيك فى الوزارة على هذا الاستبداد والتسلط حتى ظهر له بعض الامراء الذين ضجروا مما هم فيه من القهر والتسلط واستطاعوا قتله فى سنة ٥٥٦ هـ/١١٦٠م . وتقلد ابنه رزيك منصب الوزارة فخلع عليه العاضد ولقبه بالملك العادل مجد الاسلام فى نفس السنة ولكن وزارته لم تدم طويلا حيث ثار عليه ابوشجاع شاور بن مجير السعدى الذى كان واليا على الصعيد . وكان سبب ثورة شاور على زرزيك ان الاخير حاول عزله عن ولاية الصعيد مخالفا بذلك وصية والده بعدم التعرض لشاور خوفا منه (٢) .

وجد شاور الفرصة مواتية لتحقيق طموحاته فسار على راس قوة من رجاله صوب القاهرة ، وما ان علم بها بن رزيك حتى شعر بالفشل وخيبة الامل فلم يجد له بدا من الهرب خارج القاهرة . ودخل شاور القاهرة بعد فشل رجال رزيك فى صده . وحضر بين يدى الخليفة العاضد ، فخلع عليه الوزارة ولقبه بلقب امير الجيوش فى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م ، وأمر رجاله بمطاردة الوزير رزيك بن طلائع بن رزيك فاحضره وقتله بالقاهرة (٣) .

---

(١) جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٦ .
(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١١ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٢٧٤-٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩-٤٤٣ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٣١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤-٢٥٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ .

لم يكن شاور هذا احسن حالا من غيره ، فقد أساء السيرة وعامل الخليفة باعمال قبيحة وتسلط على كبار الامراء واضطهدهم خوفا من منافستهم له. ولم تقف سوء سيرته عند حد تسلطه على الخليفة والامراء الفاطميين بل تعدتها حتى أخذ امر مصر في وزارته في الادبار على حد قول المقريزي (١) . وهذا مادعا بعض الولاة الفاطميين - وعلى راسهم ابوالاشبال ضرغام بن عامر المنذرى - الى التآمر على شاور وابعاده عن الوزارة . وقد استطاع ضرغام بعون انضم حوله من الجند الكارهين لشاور اخراجه من القاهرة في شهر رمضان سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م . ولكن شاور لم يخرج من القاهرى الى احدى الولايات المصرية لطلب النجدة ضد ضرغام بل خرج من مصر الى بلاد الشام لطلب النجدة من نورالدين محمود ، الذى كان يسعى الى توحيد الجبهة الاسلامية في بلاد الشام للوقوف في وجه الصليبيين . ولذلك فقد وجد نورالدين محمود الفرصة مواتية للتدخل في شئون مصر وضمها الى الجبهة الاسلامية ، فسارع الى تلبية طلب شاور ووعده بالمساعدة على ضرغام خصوصا وان نورالدين محمود ادرك مدى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية في مصر من تفكك وانحلال (٢) . اما ابوالاشبال ضرغام فانه لم يكن باحسن حال من شاور ، فانه ما ان تولى الوزارة الفاطمية حتى استبد بالامر وقتل عددا من الامراء المصريين في وليمة اعدها لهم ليخلو له الجو من منافس ومنازع " فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن ايديهم " (٣) .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٩١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢ ص ٤٤٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٢٩٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٢٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

هكذا أدى ضعف الخلافة واستبداد الوزراء وتعاقبهم ولجوء شاور الى نورالدين محمود بالشام الى تدخل نورالدين محمود والصليبيين فى شئون مصر الداخلية فكأن الاقدار يسرت لنورالدين محمود التدخل فى شئون مصر لتحقيق وحدة اسلامية بين الشام ومصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى كما سنرى فيما بعد .

ولم يقتصر ضعف الفاطميين فى مصر على استبداد الوزراء وضعف الخلفاء وتسلط هؤلاء الوزراء عليهم بل كانت هناك اسباب اخرى أدت الى ضعف الدولة الفاطمية ، فالازمات الاقتصادية التى كانت تحدث بين حين وآخر أدت الى اثارة الفوضى والشغب داخل البلاد والتى كانت تحدث من جراء انخفاض ماء النيل ومايصاحبها من غلاء فاحش كما حدث فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله(١) . وعلى اية حال فان الازمات والكوارث التى كانت تحل بمصر لاتكاد تنفك حتى تعود ، فماكادت مصر تخرج من المجاعة التى حصلت فى عهد الخليفة الحافظ حتى وقعت مرة اخرى فى ازمة اقتصادية اخرى فى عهد الخليفة الفائز حيث ارتفعت الاسعار وقلت السلع فلحق الناس من جراء هذه الازمة شدة عظيمة(٢) .

ومما لاشك فيه ان هذه الازمات والمجاعات لم تقتصر على عامة الناس ولم يقتصر اثرها على مايصيب المصريين من جرائها من اضرار كبيرة بل كانت

---

(١) المقريزى ، اغاثة الامة ، ص ٢٦-٢٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ١٦٨ ، ١٧٦-١٧٧ .

(٢) ابن القلانسى ص ٣٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٢٢٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ .

تؤدى الى تزايد اطماع القوى المجاورة لمصر كالصليبين فى بيت المقدس ، ونورالدين محمود فى دمشق (١) . ولم تتوقف اسباب ضعف الفاطميين عند حد ماذكر بل ان فرق الجيش التى كان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ينشئونها لا تفتأ ان تقومهينها الحروب والفتن . وقد وصف اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار - عند قدومه الى مصر سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م - ماكان هناك، من فتن وحروب بين فرق الجيش كالجيوشية نسبة الى بدر الجمالى ، والريحانية التى تنسب الى الخليفة الحافظ دون ان يكون للخليفة قدرة على حسم الموقف او حتى التدخل بين هذه الفرق لانهاء النزاع بينها (٢) .

ولم يفطن القائمون على السلطة فى مصر وقتذاك ما وصلت اليه بلادهم من الضعف والتدهور ولم يضعفوا فى الحسبان ما حل بمعاقلهم فى بلاد الشام من دمار ادى الى خروجها من ايديهم الى الصليبيين . ولم يدرك الخلفاء ولا حتى الوزراء الذين عرفوا بالاستبداد وحب التسلط اهداف نورالدين محمود الذى كان يدرك مالمصر من اهمية فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية حتى اصبحت الامور تسير فى مصر الى الهاوية (٣) .

وفى الحقيقة فان ضعف الفاطميين فى مصر لم يكن السبب الوحيد الذى حرك عند نورالدين محمود الرغبة فى غزوها بل كان يراقب عن كثب مطامع الصليبيين فى الاستيلاء عليها بعد ان راى امرهم اى الفاطميين ، فى بلاد الشام قد أخذ فى الانحسار . ولذلك فقد كان حريصا على ان يكون

---

(١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ،ص ٢٤٩ .
(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ،ص ٧٠٦ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص ٣٧ .

له حق السبق فى المسير اليها وقطع حبل الامل على الصليبيين خصوصا وانه كان قد تلقى من الخليفة العباسى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م عهدا له ببلاد الشام ومصر (١) . فمن هنا اخذ نورالدين محمود يتطلع جديا الى الاستيلاء عليها لاتمام توحيد الجبهة الاسلامية من ناحية ومن ناحية اخرى، الى احكام السيطرة على الصليبيين فى بيت المقدس وساحل بلاد الشام حيث قال : " وما قصدنا بفتحها الا فتح الساحل وقلع الكفار منه " (٢) . وبالاضافة الى ذلك فان من الاسباب التى دفعت نورالدين محمود الى الرغبة فى غزو مصر ، العامل المذهبى فكما هو معلوم ان نورالدين محمود كان مذهبه مذهب الخلافة العباسية التى كانت تدين بالمذهب السنى ، فى حين أن الخلافة الفاطمية كانت شيعية ، وهذا بلاشك كفيل بدفع نورالدين محمود الى التفكير فى غزو مصر والقضاء على هذه الخلافة الشيعية لازالة الفرقة التى كانت تنشأ عن هذا الاختلاف المذهبى من ناحية ، والتقرب الى الخلافة العباسية السنية التى كانت قد منحته الحق فى ارض مصر سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م (٣) من ناحية أخرى .

وفى هذه الظروف التى كان نورالدين محمود يتطلع فيها الى غزو مصر ، وصل اليه بدمشق سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م الوزير الفاطمى شاور بن مجير السعدى طالبا النجدة من نورالدين محمود على من سلب منه منصبه

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٠٢-١٠٣ .
(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص ٣٣٦ .
(٣) سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الايوبيين والمماليك ، ص ١٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

قهرا . ووعده مقابل مساعدته له ثلث دخل بيت المال الفاطمى سنويا بعد دفع رواتب الجند . وان يكون نائبا عن نورالدين بمصر اذا ماساعده فى التغلب على ضرغام (١) . ولم يكن نورالدين محمود بالرجل المتسرع المتهور الذى ينساق وراء الامانى والطموحات الزائفة ، بل كان عنده من الحنكة وبعد النظر ما جعله يتريث قليلا " يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر اخرى " حتى استخار الله فى الامر على ما هنالك من اخطار جسيمة ممثلة فى الصليبيين فى الساحل وبيت المقدس بالاضافة الى شكه فى اخلاص شاور. (٢)

وعلى أية حال فقد جهز نورالدين محمود لهذا الغرض قائده أسد الدين شيركوه وامره بالمسير الى مصر بقصد نجدة شاور واعادته الى منصبه والتعرف على مصر واحوالها فسار شيركوه وشاور على راس الجيش فى جمادى الاولى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م وسار معهم نورالدين محمود الى اطراف بلاده مما يلى الصليبيين بقصد اشغالهم عن التعرض لجيشه الذاهب الى مصر على الرغم من ان نورالدين محمود كان قد انهك الصليبيين فى بلاد الشام حتى لم يعد لهم مطامع هناك غير حفظ ما بأيديهم من البلاد (٣) . أما الوزير

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ص ٢٩٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٢١ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٣٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، ٣٣٢- ٣٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٣٨ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٠٤-١٠٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٦٧ .

الفاطمى ضرغام الذى وصلته انباء الحشود التى حشدها نورالدين محمود لاعادة شاور الى الوزارة فقد عرف عجزه عن دفع شيركوه وشاور فلجأ الى عمورى ملك بيت المقدس وطلب منه المساعدة لصد شيركوه وشاور عن مصر . واعلن ضرغام لعمورى عن استعداده بابقاء رهائن من قبله فى بيت المقدس فى مقابل الوفاء بما تعهد به من الاموال للصليبيين . ولكن الملك الصليبى عمورى لم ينهض لنجدة ضرغام بسبب ماتعرضت له بلاده من هجمات عنيفة من نورالدين محمود . ولذلك فقد عاد الى القاهرة صفر اليدين لم يحصل على ماكان يرغب فيه ، فى الوقت الذى اخذ فيه شيركوه وشاور مسيرهما الى مصر حتى وصلا بلبيس . وهناك لقيهم ناصر الدين اخو ضرغام على راس جيش كبير من المصريين . ودارت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار شيركوه ، سار بعدها الى القاهرة فدخلها فى جمادى الاخرة من السنة نفسها (٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م) بعد مغادرة ضرغام لها [(١)] .

وهكذا تمكن اسد الدين شيركوه وشاور من القضاء على الوزير الفاطمى ضرغام ودخول القاهرة . وبدخول شاور القاهرة منتصرا تولى الوزارة فى رجب سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م فى الوقت الذى اقام فيه شيركوه بظاهر القاهرة طالبا ماكان شاور قد تعهد به على نفسه لنورالدين محمود . ولكن شاور ما ان تمكن من الوزارة حتى تنكر لعهده وطلب من اسد الدين شيركوه مغادرة مصر ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٩٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٣٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٣٨-١٣٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٦٦-٢٧٠ .
وبلبيس : مدينة بمصر على طريق الشام بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ ، انظر ياقوت . معجم البلدان .

ولم يكتف بهذا بل هدد شيركوه بالصليبيين . ولكن شيركوه لم يجبه الى ذلك وكرر مطالبته بالاموال التى تعهد بها لنورالدين محمود ، فى الوقت الذى ارسل فرقة من جيشه الى بلبيس للاستيلاء عليها لتكون ورقة رابحة يستطيع بها مساومة شاور على دفع ماكان قد تعهد به لنورالدين محمود ولما علم شاور بذلك ادرك انه لن يستطيع اخراج شيركوه وابن اخيه صلاح الدين الايوبى اللذين اتخذا من بلبيس قاعدة انطلاق للهجوم على مصر ، لجأ الى الصليبيين فى بيت المقدس وطلب منهم النجدة ضد شيركوه ، كما فعل ضرغام ، ووعد الصليبيين باكثر مما كان ضرغام قد وعدهم به . ولم يكتف شاور بما طلبه من نجدة عسكرية ضد شيركوه بل انه خوف الصليبيين من نورالدين محمود وحذرهم من امتلاكه مصر فسارعوا الى اجابته . وكان الصليبيون قد خافوا حينما وصلتهم انباء وصول قوات نورالدين محمود الى مصر " وايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها " على حد تعبير ابن الاثير. (١)

فرح الصليبيون بالطلب الذى وصلهم من شاور ، واعتبروه بمثابة دعوة للاستيلاء على مصر ، تلك التى كانوا قد اكتشفوا ضعفها فسارعوا الى تلبية شاور وطمعوا فيها بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور على مال كثير يعطه اليهم ، ان اخرجوا نورالدين وعساكره عن مصر (٢) . ولما تم الاتفاق بين شاور والصليبيين على ما تعهد به شاور ، تجهز عمورى الاول ملك بيت المقدس مستعينا بما وصله من الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس وسار هو بقواته الى مصر ، ولم يثنهم ما قام به نورالدين محمود من غارات على

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٢٩٩ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٣٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٦٦٩ .

اطراف بلادهم "لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر " واتجهوا صوب بلبيس وضربوا عليها حصارا استمر ثلاثة اشهر عجزوا بعدها عن الاستيلاء عليها من اسد الدين شيركوه "وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جدا وليس لها خندق يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا " كما يقول ابن الاثير (١) . وفى الوقت نفسه بلغ عمورى الاول والصليبيين انتصارات نورالدين محمود فى حارم وبانياس "فحينئذ سقط فى ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها " فراسلوا اسد الدين شيركوه فى الصلح ، وتسليم مابيده لشاور ومفارقة مصر ، فاجابهم الى ذلك لانه على مايبدو لم يكن يعلم مافعله نورالدين محمود بالصليبيين فى بلاد الشام بالاضافة الى نقص الذخائر والاقوات عنده وضعف التحصينات فى بلبيس . وخرج من بلبيس فى ذى الحجة سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م وعاد الى بلاد الشام سالما فى نفسه وعسكره رغم ماتعرض له من اخطار جسيمة سواء من الصليبيين او الفاطميين وتبعه عمورى عائدا الى بلاد الشام بايام قليلة (٢) .

أما شاور الذى تقلد وزارة العاضد فانه لم يكن بالرجل الحصيف الذى يدرك ان خروج جيش شيركوه والصليبيين من مصر لم يكن محض ارادته وانما كان بسبب خوف كل منهما من الاخر . ولم يعمل على رتق ما انفتق فى مصر ، بل سعى الى الظلم وسفك الدماء - وكان كما وصفه ابوالمحاسن "خبيثا سفاكا للدماء " - بالاضافة الى استبداده بالسلطة حتى انه لم يبق للعاضد معه امر ولا نهى مما اضطر العاضد الى الاستعانة ضده بنورالدين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٠٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٠٠ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ٢٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١٤٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣١٧ .

سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م(١) . ولذلك فان النجدة التى طلبها العاضد من نورالدين محمود قد لقيت صدى فى نفسه لادراك نورالدين محمود ان ثروة مصر ربما يفيد منها الصليبيون خصوصا وانهم قد كشفوا مصر وعرفوها من حيث عرفها نورالدين محمود من ناحية الضعف والتفكك بالاضافة الى ان نورالدين محمود كانت فى قلبه من شاور حزازة لكونه غدر باسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالصليبيين (٢) .

وهكذا توفر لنورالدين محمود واسد الدين شيركوه ما اطمعهما فى العودة اليها مرة اخرى ، فرغبة شيركوه الاكيدة فى العودة الى مصر والاستيلاء عليها اتفقت مع هدف نورالدين محمود فى القضاء على الخلافة الشيعية فى مصر التى طالما كان نورالدين محمود يلقى التأييد على ذلك من الخلافة العباسية السنية فى بغداد وذلك لتطويق الصليبيين فى بلاد الشام (٣) .

وعلى الرغم من توفر العوامل المساعدة على تسيير حملة جديدة الى مصر ، فان نورالدين محمود كان كارها لذلك ، خوفا من حادث يتجدد على المسلمين فيضعف الاسلام . الا ان اصرار اسد الدين شيركوه على المسير الى مصر قد حرك همم نورالدين فى اعداد حملة جديدة بلغ عدد رجالها ألفى فارس مع عدد من الامراء كان فى مقدمتهم صلاح الدين الايوبى . وغادرت الحملة

---

(١) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٤٧-٣٤٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٣٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ص ١٦٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٢٤ ، انظر سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ص ٢٠٧ .

دمشق في ربيع الاول من سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧م بقيادة اسد الدين شيركوه (١) . ولما كان اسد الدين شيركوه يخشى لقاء الصليبيين فقد سلك الطريق البرى وترك بلاد الصليبيين عن يمينه على الرغم من المتاعب التى تعرض لها . ودخل ارض مصر ولكنه لم يهاجم شاور بالقاهرة - لعلمه بمقدم الصليبيين - ولذلك فقد واصل سيره حتى وصل اطفيح ثم عبر النيل ونزل بالجيزة مقابل الفسطاط وعسكر بها (٢) .

أما شاور فانه لما علم بقدوم اسد الدين شيركوه الى مصر ، ارسل الى ملك بيت المقدس عمورى الاول يطلب منه النجدة ضد اسد الدين شيركوه فلم يتردد عمورى الاول فى اجابة شاور حيث اتى بجموعه من الصليبيين الى مصر على الصعب والذلول . فلما وصلوا الى مصر لقيهم شاور وانزلهم بالقاهرة ، وعلى الرغم من ان الصليبيين كانوا يطمعون فى السيطرة على مصر وابعاد نور الدين محمود عنها ، فان عمورى الاول لم يكن متحمسا بدرجة كبيرة الى نجدة شاور بقدر ما كان يرغب فى الحصول على تعويضات مالية لتغطية خسارته فى هذه الحملة ، خصوصا وانه قد اوجس خيفة من شاور ، ولذلك فقد طلب عمورى من شاور الاتفاق على ما سيدفعه شاور لهم من المال قبل القيام باية عملية عسكرية ضد شيركوه ، فوافق شاور على ابرام اتفاق تمت

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٣٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٣٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٥٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٥٠ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٧ .
واطفيح : بلد بالصعيد الادنى من ارض مصر على شاطئ النيل الشرقى . انظر ياقوت . معجم البلدان .

بموجبه الموافقة على اعطاء الصليبيين اربعمائة الف دينار يدفع النصف منها مقدما وما تبقى يؤدى فى موعد يجرى تحديده فيما بعد (١) .

أما اسد الدين شيركوه فقد مكث بالجيزة مايقرب من خمسين يوما ينتظر ماعسى ان يقوم به الصليبيون وشاور . فلما علم ماتم عليه الاتفاق بين الصليبيين وشاور وماهم عليه من الكثرة ، اختبر نوايا اصحابه لمعرفة مايمكن ان يقدموه اذا اشتبك مع الفاطميين والصليبيين . فعرف ان اكثر رجاله لايرغبون فى اللقاء فى الوقت الذى اظهر فيه بعض رجاله مايوافق هواه بالالتحام مع الصليبيين والفاطميين لاطمعا فى هزيمة العدو والاستيلاء على مصر ، وانما خوفهم من نور الدين محمود ان يجردهم من اقطاعاتهم فى بلاد الشام (٢) .

من هنا اختار اسد الدين شيركوه طريقا وسطا ، فلم يوافق الذين لا يرغبون فى اللقاء ويرغبون فى العودة الى الشام ولم يوافق القلة الذين يرغبون فى اللقاء خوفا على اقطاعاتهم فى بلاد الشام وسار بجيشه متجها الى الصعيد حتى وصل الى مكان يعرف بالبابين وفى اثره شاور والصليبيون ولحقوا به هناك فى جمادى الاخرة من سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧م . ودارت بين الطرفين معركة عنيفة اسفرت عن هزيمة شاور والصليبيين ووقع عدد من الصليبيين فى الاسر ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٤٩-١٥٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٠٢-٦٠٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٧٨-٦٧٩ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٣٢٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤-٣٦٥ .

على الرغم من قلة عساكر شيركوه وكثرة عدوه ، حتى قال ابن الاثير فى هذا الصدد " وكان اعجب ما يؤرخ به ان ألفى فارس يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل "(١) .

لم يحاول اسد الدين شيركوه أن يغتنم هذه الفرصة ليعود الى القاهرة لمطاردة فلول الصليبيين والفاطميين ، بل اتجه شمالا صوب الاسكندرية التى وصفت بانها كانت مركز المعارضة للحكم الفاطمى لكثرة أنصار المذهب السنى بين سكانها . فما ان وصلها اسد الدين شيركوه حتى سلمها اهلها اليه " لميلهم الى مذهب السنة وكراهتهم لراى المصريين " ، فاستناب بها ابن اخيه صلاح الدين الايوبى بينما عاد هو الى الصعيد بجزء من جيشه (٢) . ويبدو ان أسد الدين خاف من قيام الصليبيين وشاور بهجوم مباغت له ، ولذلك راى الا يحصر نفسه فى مكان ضيق ، يمكن معه القضاء عليه فى يسر وسهولة ، ورأى ان موارد الاسكندرية يمكن ان تنقطع فى حالة قيام الصليبيين وشاور بحصارها ، وهذا ما حصل فعلا . فبعد عودة الصليبيين وشاور الى القاهرة عقب وقعة البابين زحفوا نحو الاسكندرية ، وحاصروها برا ، فى الوقت الذى كان فيه الاسطول الصليبى قد شرع فى حصارها بحرا ، الامر الذى أجبر صلاح الدين الايوبى على طلب النجدة من عمه اسد الدين شيركوه ، فما كان من الاخير الا ان ترك الصعيد وعاد على وجه السرعة الى الاسكندرية نجدة لابن اخيه صلاح الدين الذى كان

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٥١ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١٥ .

قد ظهر منه واهل الاسكندرية الصبر والمثابرة فى حمايتها من السقوط بيد شاور والصليبيين (١) .

واخيرا استجاب كل من شيركوه والصليبيين لظروفه الخاصة ، فشيركوه الذى تفرقت عساكره بين الشمال والجنوب ، بالاضافة الى ما تعرض له رجاله فى الاسكندرية من قلة الاقوات نتيجة للحصار الذى فرض عليهم اكثر من اربعة شهور ، قد استجاب لعقد الصلح حين عرض عليه من قبل الصليبيين الذين كانوا هم الاخرين قد منوا بخسائر فادحة فى وقعة البابين . اما شروط الصلح التى اتفق عليها فتنص على : اولا رفع الحصار عن الاسكندرية واعادتها الى الفاطميين . ثانيا : يدفع شاور لاسد الدين شيركوه مبلغ خمسين الف دينار مضافة الى ما أخذه من البلاد التى استولى عليها . ثالثا : الا يقيم الصليبيون فى البلاد المصرية والا يتملكوا فيها قرية واحدة . ولما تمت موافقة الطرفين على شروط الصلح عاد اسد الدين شيركوه وصلاح الدين الى بلاد الشام فوصلاها فى ذى القعدة من سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧م (٢) .

ولما كانت ميول شاور مع الصليبيين فانه بعد ان غادر شيركوه ارض مصر اتفق شاور معهم على ان يبقى لهم بالقاهرة شحنة او مندوبا ، وان تبقى لهم حامية صليبية فى القاهرة لحراستها من نورالدين محمود ، وان يقدم شاور

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٣٣-١٣٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١-١٥٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٨١ ، جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦-٣٢٧ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦-٣٧٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ ١ ، ص ١٥١-١٥٢ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١٦ .

للصليبيين مبلغا وقدره مائة وستون الف دينار كتعويض عن خسائرهم . هذا والخليفة العاضد لا يعلم شيئا من الامور ، لان شاور قد حجب عليه ومنعه من الامور كلها (١) .

ومرة اخرى يمكن القول ان خروج اسد الدين شيركوه والصليبيين من مصر جاء نتيجة خوف كل منهما من الاخر ، بالاضافة الى ان كلا منهما قد خرج من مصر بفكرة واحدة وهى ضعف مصر والرغبة فى الاستيلاء عليها . ومما شجع الصليبيين على العودة الى مصر انهم حصلوا قبل عودتهم الى الشام سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧م على امتيازات جعلت من مصر شبه محمية لهم . الا أن هذا دفع نورالدين محمود واسد الدين شيركوه معا الى التفكير جديا فى الاستيلاء عليها وفى ذلك يقول ابوشامة " وقد انضم الى قوة الطمع فى البلاد ، شدة الخوف عليها من الفرنج "(٢) .

وعلى ما يبدو فان شدة خوف نورالدين محمود على الديار المصرية من الصليبيين هو علمه بوجود حامية لهم بمصر ، تلك الحامية التى كانت قد ارسلت الى الملك عمورى الاول تستدعيه لدخول مصر . ولكن الملك عمورى الاول الذى وصفه ابن الاثير" بانه لم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء " ، رفض فى بادئ الامر تلبية طلب

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ص ١٥٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٥٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ١ ، ق ٤ ، ص ١٩ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٤ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢١٠ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٣٦٧ .

الحامية الموجودة بمصر (١) . ولكن عمورى عاد الى اجابة طلبهم حيث قالوا : " ان مصر لا مانع لها ولا حافظ والى ان يصل الخبر الى نورالدين محمود ويجهز العساكر ويسيرهم الينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتمنى نورالدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم امرها فاجابهم الى ذلك على كره شديد " (٢) . ومما تجدر ملاحظته ان الملك عمورى الاول رفض تلبية الدعوة فى الدخول الى ارض مصر فى بادئ الامر لانه كان قد تلقى من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م ماينم عن رغبة الاخير فى تقديم المساعدة للصليبيين والحصول على موضع قدم فى ارض مصر . فما كان من عمورى الاول الا ان رد على الامبراطور البيزنطى يخبره عن رغبته فى الحصول على مساعدات عسكرية والموافقة على اقتسام ارض مصر (٣) . ولكن الملك عمورى الاول الذى وقع تحت ضغط كثير من رجاله لم ينتظر وصول نجدة الامبراطور البيزنطى ، بل تعجل بالمسير الى مصر حيث سار اليها على راس جيش كبير فنزل بلبيس واستولى عليها فى صفر من سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨م ثم سار منها الى القاهرة طمعا منه فى الاستيلاء عليها ، الا ان الصليبيين قد واجهوا موقفا صلبا اعجزهم عن الاستيلاء عليها ، وكان اهلها قد استبسلوا فى الدفاع عنها خوفا من

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٣٣٥ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ٢ ص ٣٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٥٦ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦١٢-٦١٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢١١ .

التعرض للمصير الذى تعرض له اهل بلبيس(١) . وعلى أية حال فـان مسير الملك عموري الى مصر دون انتظار لما كان قد وعد به من مساعدات عسكرية من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، كان فى صالح نورالدين محمود ، اولا لانه لن يسكت على مسيرهم الى مصر ، لما كان يعقده عليها من امال فى تحقيق توحيد القوى الاسلامية فى الشام ومصر . ثانيا فبدلا من أنه كان سيواجه على ارض مصر الصليبيين والبيزنطيين فانه بعد هذه الخطوة من جانب الصليبيين فلن يواجه سوى الصليبيين فقط(٢) .

أما شاور الذى لم يكن على علم بمقدم الصليبيين حتى وصلوا ارض مصر ، فقد وقع فى موقف حرج امام رعاياه المصريين ، بسبب عدم قدرته على صد العدوان ، ولذلك فقد امر باشعال النار فى الفسطاط بعد ان نقل أهلها الى القاهرة(٣) . وعلى مايبدو فقد كان شاور يهدف من وراء هذه الخطوة الى حرمان الصليبيين من اموال وغنائم اهل الفسطاط بالاضافة الى رغبته فى وقوف اهل الفسطاط الى جانب سكان القاهرة للدفاع عنها ، وقد فت ذلك فى عضد الصليبيين عن مواصلة السير قدما(٤) .

وعلى الرغم من الخطوة التى اتخذها شاور فى صد الصليبيين عن الفسطاط الا ان موقفه قد وصل حدا من الضعف والخوف ، فلجأ الى اعمال الحيلة فى الامر ، وارسل الى الملك الصليبى عمورى ، وذكره بالمودة التى

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧-١٣٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٥٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٠-٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ص ١٢٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٩١ .

(٤) انظر ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٥٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٢٤ .

كانت بينهما ، واوضح شاور انه على الرغم مما ارتكبه الصليبيون فى بلبيس فانه لا يزال على محبته له ، ولولا خوفه من نورالدين محمود والمصريين لسلم البلاد اليه . ولم يكتف شاور بهذا ، بل اقترح على نفسه بذل مائة الف دينار لعمورى الاول وان يعقد بينهما صلحا ، فوافق عمورى الاول على ذلك ، وطلب من شاور تعجيل بعض المال الذى تعهد بدفعه ، ففعل شاور واستقرت بينهما القاعدة على ذلك . وقال الصليبيون : " نأخذ المال فتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنورالدين محمود "(١) .

شعر الخليفة العاضد - الذى لم يبق له من الخلافة سوى الاسم والخطبة على قول أبى المحاسن - بالمسئولية حين راى ما تتعرض له مصر من حصار شديد من الصليبيين ، وما قام به شاور من احراق البلاد وارهاق الناس بما لا طاقة لهم بدفعه من اجل ما تعهد به للصليبيين(٢)، فارسل الى نورالدين محمود يستعين به ويعرفه ضعف المسلمين عن مقاومة الصليبيين . ولم يكتف العاضد بهذه الاستغاثة ، بل وعد نورالدين محمود بثلث دخل بيت مال مصر ، وان يسمح لاسد الدين شيركوه بان يقيم نائبا عنه فى مصر خلاف ما يستوجب لاسد الدين شيركوه وعساكره يكون خارجا عن الثلث المقرر لنورالدين محمود . ولم يتردد نورالدين محمود فى تجهيز قوة عسكرية كبيرة بقيادة اسد الدين شيركوه ، وابن اخيه صلاح الدين الايوبى . وزود الحملة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣٧ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج١ ، ق ٤ ، ص ٢٥ .

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ٣٥٠ .

بكل ماتحتاجه من الحال والثياب والدواب والاسلحة . ولما تكامل تجهيز الحملة فى حلب بكل ماتحتاجه خرج بها نورالدين محمود الى دمشق فوصلت فى نهاية شهر صفر من السنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨م . وفى دمشق خرج نورالدين محمود لتوديع اسد الدين شيركوه الذى واصل مسيره الى القاهرة، فوصلها فى ربيع الثانى حيث رحب به المصريون والتفوا حوله ، مما اضطر شاور الى التنكر لما كان قد شرطه على نفسه للصليبيين من اموال . فلما لم يجد عمورى ملك بيت المقدس ماكان يتوقعه من حلفائه الفاطميين ،أدرك فشله فعاد الى الشام يجر اذيال الخيبة(١) .

وهكذا نجح اسد الدين شيركوه فى الوصول الى مصر التى فرح به اهلها ، واجريت عليه الجرايات العظيمة والاقامات الوافرة ، واستطاع الاجتماع بالخليفة العاضد ، الذى خلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور فى ربيع الاخر سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م مما زاد من هيبته فى نظر اعدائه .(٢)

وعندما سمع نورالدين محمود بعودة الصليبيين الى بلاد الشام بدمشق امر بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الافاق ، مبشرين بخروج الصليبيين من مصر التى اعتبر نور الدين محمود فتحها فتحا

---

(١) ابن الاثير، الكامل ،جـ١١ ،ص ٣٣٨ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص ١٣٩ ،ابوشامة ، الروضتين ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٩١-٣٩٢، ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ،ص ٣٢٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ،ص ٢٩٩-٣٠٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٤ ، ق ١ ،ص ٢٨-٣٠ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق ٢ ،ص ٣٩٦-٣٩٧ .

جديدا وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها (١) .

أما شاور فقد كتم مافي نفسه من غيظ لاسد الدين شيركوه وحاول الايقاع بينه وبين الصليبيين ، حيث طلب منه اللحاق بهم قبل وصولهم الى بلاد الشام ، لا حبا في الانتقام من الصليبيين وانما بقصد ضرب الصليبيين بأسد الدين شيركوه ورجاله لاضعافهما معا . غير ان اسد الدين شيركوه رفض هذه الفكرة وعدها نوعا من الجنون . ومما زاد حنق شاور وغيظه لاسد الدين شيركوه ماعلمه من ان هوى العاضد قد مال عنه الى شيركوه ولكنه لم يتجاسر على اظهار مافي نفسه من الغيظ ، لعلمه بعجزه عن مقاومة اسد الدين شيركوه ولذلك فقد اخذ يماطل فيما كان قد تقرر وبذل لنورالدين محمود وعساكره وماكان قد وعد به الجند من اقطاعات . واخذ يتردد على اسد الدين شيركوه كل يوم وقد عزم على ان يقيم وليمة يدعو اليها شيركوه والامراء الذين معه ومن ثم يقبض عليهم ، غير ان ابنه الكامل بن شاور قد نهاه عن ذلك وقال : " والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه " فترك ماكان عزم عليه (٢) .

ولما لم يجد شاور سبيلا للنيل من اسد الدين شيركوه ارسل الى الصليبيين يستدعيهم مرة اخرى لمساعدته ولكن محاولته هذه باءت بالفشل فماد يعمل على تدبير المؤامرات للقضاء على شيركوه وكبار رجاله . ولكن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٨-٣٣٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

شيركوه عرف طبيعته له شاور من خيانة وامر رجاله الذين صمموا على قتله من الاقدام على هذه الخطوة . ولعل السبب فى ذلك خوف شيركوه من قيام فتنة فى مصر قد تؤدى الى اضاعة جهوده (١) . غير ان رجال شيركوه الذين أصبحوا على قناعة من ان شاور هو سبب فساد الديار المصرية ، القوا القبض عليه ، واحضروه الى شيركوه حيا ، فلما علم العاضد بالامر طلب من شيركوه قتله ، فقتله وانفذ راسه الى قصر الخليفة العاضد فى ربيع الاخر سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م (٢) . وبمقتله انتهت حياة اخر وزير من الوزراء الفاطميين الذين جلبوا على مصر الكثير من المتاعب ، ولم يعد للصليبيين فى مصر من يناصرهم . ودخل شيركوه القاهرة فى موكب عظيم بعد مقتل شاور وسمع منشور الوزارة الذى اعلنه العاضد ، ففرح به شيركوه غاية الفرح ، ومضى الى دار الخلافة ولكن وزارة شيركوه للعاضد الخليفة الفاطمى لم تستمر سوى شهرين وخمسة ايام ، حيث توفى فى شهر جمادى الاخر سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م ، وخلفه ابن اخيه صلاح الدين الايوبى . (٣)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٩٩-٧٠٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٣٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، ج٧ ، ص ٣٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٧٠٥ ، وقد اورد ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٥٣ ، نصا لمنشور الوزارة الذى تلى على شيركوه .

وما هو جدير بالملاحظة فى وزارة شيركوه للخليفة الفاطمى العاضد ، ان نورالدين محمود الذى كان قد فرح فرحا شديدا بخروج الصليبيين من مصر ودخول اسد الدين شيركوه اليها ، قد كره تولى شيركوه لهذا المنصب ولم يستطع ان يخفى ذلك على اصحابه حيث ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وقد برر ذلك ابوشامة ، حيث يقول : " وانما اقلقه ذلك كون اسد الدين وزير للعاضد فخاف من ميله الى القوم والى مذهبهم، وان يفسد جنده عليه بذلك السبب " (١) .

اما عن وزارة صلاح الدين الايوبى للخليفة العاضد ، فقد تولاها عقب وفاة عمه اسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م على غير رغبة من الامراء النورية الذين كانوا مع اسد الدين شيركوه فى مصر ، بينما مالت الامراء الاسدية الى صلاح الدين ، الا ان رغبة وموافقة الخليفة العاضد على توليه صلاح الدين الايوبى ، قد حسمت الموقف حين احضر صلاح الدين وقلده الوزارة ولقبه بالملك الناصر فى الخامس والعشرين من شهر جمادى الاخرة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م ، ظنا من الخليفة العاضد الفاطمى ان صلاح الدين سيكون تحت سيطرته . لكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة، حتى خيب آمال الخليفة العاضد ، والامراء الذين كانوا يكرهونه (٢) .

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٤٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، البندارى ، سناء البرق الشامى ، جـ ١ ، ص ٨١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ .

وعلى أية حال فان صلاح الدين قد تقلد وزارة العاضد كنائب عن نور الدين محمود فى مصر ، وصارت الخطبة فى مصر للخليفة العاضد ، ومن بعده نورالدين فصلاح الدين . ولم ينظر نورالدين محمود الى صلاح الدين على انه اعلى مرتبة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر ، حتى أن نورالدين محمود لم يفرده فى أى مكاتبة من المكاتبات التى كان يبعث بها اليه بمصر ، بل كان يكتب اليه بمصر مع جملة من الامراء . (١)

ولما كان كثير من الامراء النورية قد غادروا ارض مصر ضنا بنفوسهم عن خدمة صلاح الدين الايوبى ، فقد استغل هو الاخر شعور المصريين الذين احبوه فامر بالغاء المكوس الفاطمية التى كانت مفروضة عليهم . ولعل مما زاد الناس حبا له وتعلقا به ، ما قام به من تأسيس المدارس وتحصين المدن والموانى (٢) . على الرغم من هذا فقد كانت هناك بعض العناصر التى استاءت من سياسة صلاح الدين الايوبى وما يقوم به فى ارض مصر ، فقد قام الطواشى المعروف باسم مؤتمن الخلافة بالاتصال بالصليبيين ، وطلب منهم مهاجمة مصر، الا ان صلاح الدين استطاع ان يكتشف هذه المؤامرة قبل تدبيرها فى اواخر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م وقبض على زعيم هذه المؤامرة وعلى أتباعه من السودان بحيث لم يبق منهم الا القليل (٣) .

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، ص ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤١-٤٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) ابن الاثير، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٦-١٧٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢١ ، ومؤتمن الخلافة كان احد خصي القصر الفاطمى ومن المتحكمين فيه ، قيل ان اسمه جوهر، (انظر ابوشامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠) .

أما عن موقف صلاح الدين الايوبى - نائب نورالدين محمود فى مصر - من الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فانه لم يتهاون فى أمره - على الرغم من انه وزير لخليفة مصر ، وما يتطلبه هذا المنصب من مداراة الاعداء المحدقين به لأنه يعتبر نفسه قائدا لجيوش نورالدين محمود فى مصر ، ذلك البطل الذى أخذ على عاتقه مهمة الجهاد الاسلامى واخراج الصليبيين من مصر .
ولما كان الصليبيون قد عجزوا عن الحصول على موطيء قدم بمصر ، فقد شعروا بالخطر المحدق بهم من الشمال والجنوب وعرفوا عجزهم عن اخراج جيش نورالدين محمود من مصر ، مما اضطرهم الى ارسال سفارات الى ملوك اوربا والامبراطور البيزنطى لطلب المعونة العسكرية لاخراج جيش نور الدين محمود من مصر (١) .

لم يستطع ملوك اوربا تقديم اية مساعدة لعمورى الاول ملك بيت المقدس نظرا للخلافات والمنازعات التى كانت قائمة بينهم (٢) . اما الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، فقد اغتنم فرصة استنجاد الملك عمورى به فلبى الدعوة بهدف تحقيق ماكان يصبوا اليه من رغبة فى الحصول على جزء من ارض مصر . خصوصا وانه عرف ان عمورى الاول ملك بيت المقدس لم يفقد الامل فى استرداد مصر . فأمد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الصليبيين فى الشام بالمساعدات الكثيرة سواء من المال اوالرجال اوالعتاد ، وهذا على مايبدو ماعناه ابن الاثير حين قال : " فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح " (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٥١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣١٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٢٠-٦٢١ .
(٢) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٣٥ .
(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .

ولم يكتف الامبراطور البيزنطى بما ارسله من المساعدات ، بل وجد الفرصة سانحة لتحقيق اطماعه فى مصر والشام والنيل من نورالدين محمود وجيوشه فى مصر التى وضعت الصليبيين بين شقى الرحى ، فاعد حملة بحرية وصلت الى صور فى اواخر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م حيث قابل رجالها ملك بيت المقدس عمورى الاول وجرى بينهم الاتفاق على المسير الى مصر حيث يقول ابن الاثير : " واتسعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم انهم يملكونها ويتخذ ونها ظهرا يملكون به ديار مصر "(١) .

ولما تم الاتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين ، سار الاسطول البيزنطى من صور الى عكا فى اواخر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م ومنها واصل مسيره الى دمياط فوصلها فى صفر سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م . فى الوقت الذى سار فيه عمورى ملك بيت المقدس عن طريق الساحل حتى بلغ الفرما ومنها واصل سيره الى دمياط بواسطة السفن البيزنطية . وكان الصليبيون والبيزنطيون قد اختاروا النزول على دمياط لسهولة وصول القاصد اليها من البر والبحر ، ولعلمهم انه اذا تم لهم الاستيلاء عليها حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه (٢) .

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .
ودمياط : مدينة قديمة تقع بين تنيس ومصر بين البحر المتوسط ونهر النيل وصفها ياقوت بانها ثغر من ثغور الاسلام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ، ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٨٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٣ . والفرما : مدينة على ساحل البحر المتوسط من ناحية مصر بها حصن على ضفة البحر . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

أما صلاح الدين الايوبى فلم يقف مكتوف الايدى تجاه مايجرى في دمياط من الصليبيين والبيزنطيين . ولذلك فقد جهز حملة عسكرية كبيرة، بقيادة قطب الدين خسرو الهذبانى ،وكان مقداما مقدما في جيش صلاح الدين الايوبى وامره بالمسير الى دمياط بعد ان زوده بالمال والسلاح والرجال مع ماكان قبله من قوات عسكرية بقيادة ابن اخيه تقى الدين عمر، وخاله شهاب الدين محمود الحارمى (١) . اما صلاح الدين فلم يخرج الى دمياط بل ظل في القاهرة ولعل سبب عدم خروجه الى دمياط خوفه من انقلاب يقوم به بعض خصومه الكارهين له ، ولذلك ارسل الى نورالدين محمود يقول :" ان تاخرت عن دمياط ملكها الفرنج ،وان سرت اليها خلفنى المصريون فى اهلها واموالها بالشر ،وخرجوا عن طاعتى وساروا فى اثرى ، والفرنج من امامى ،فلايبقى لنا باقية ، فسير نورالدين العساكر اليه ارسالا يتلو بعضها بعضا ،ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها ، واستباحها ،فوصلت الغارات الى مالم تكن تبغله من قبل" (٢) . ونتيجة لتضافر جهود نورالدين - تلك الجهود التى تمثلت فى المساعدات والامدادات التى ارسلها لصلاح الدين ،وما قام به من غزو الصليبيين فى بلاد الشام ونزوله على الكرك محاصرا له - مع ماقام به صلاح الدين الايوبى من امدادات عسكرية متواصلة ، اجبرت الصليبيين والبيزنطيين على التراجع عن دمياط (٣).

(١) ابوشامه ، الروضتين ،جـ١ ،ق ٢ ،ص ٤٥٩ .

(٢) ابن الاثير، الكامل ،جـ١١ ،ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، انظر ابوشامة ،الروضتين جـ١ ، ق ٢ ،ص ٤٤٩ - .

(٣) ابن الاثير،التاريخ الباهر ،ص ١٤٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ،ص ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، المقريزى ،اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ،ص ٣١٦ .
والكرك : قلعة حصينة فى طرف بلاد الشام على جبل عال بين ايلة والبحر الاحمر وبيت المقدس. انظر ياقوت . معجم البلدان .

وقد احسن ابن الاثير الوصف حين وصف الصليبيين والبيزنطيين بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين (١) .

سر نور الدين محمود والمسلمون بهذا النصر الذى منحهم الله اياه على الصليبيين والبيزنطيين فى مصر وارسل الى الخليفة العاضد يهنئه برحيل الصليبيين والبيزنطيين عن مصر ، ويثنى على الاتراك ، الذين كان العاضد قد شكا اليه شدة وطأتهم بالقاهرة ، ويعلمه "انه ما ارسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بان قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك وان الفرنج لا يرغبون الا منهم ولولا هم لزاد طمعهم فى الديار المصرية وتحصلوا منها على الامنية "(٢) .

الواقع ان عودة الصليبيين والبيزنطيين سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م خائبين فى الامر الذى قصدوا ، لم يقتصر على ما لحق بهم من اضرار جسيمة فى الاموال والارواح ، بل تعدى ذلك الى انه وضع الصليبيين حقيقة بين شقى الرحى وقطع الامل عليهم فى العودة الى مصر زمنا طويلا . فصلاح الدين الايوبى

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ ، والقنطاريات : جمع قنطارية ، وهو نوع من السلاح على شكل رمح ، يصنع من الخشب. ويعرف باليونانية باسم Kontariou انظر ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص ١٨٣ ، حاشية رقم ٢ .

ل
لم تشغله الاوضاع الجديدة فى مصر عن سد الثلمة التى اشغلت نورالدين محمود سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠م فى الموصل عن مواصلة الجهاد ، تلك السنة ، فقد خرج صلاح الدين الايوبى على راس قوة عسكرية كبيرة ،هاجم بها الطرف الجنوبى لمملكة بيت المقدس. فأغار على عسقلان والرملة ،وحصن الداروم ، الواقع فى اقصى الجنوب على ساحل البحر المتوسط ،وهجم على ربض غزة ونهبه . وهناك صادف الملك الصليبى عمورى الاول الذى سار الى هذه البلاد بقصد طرد صلاح الدين ، ونشبت بينهما معركة اشرف فيها عمورى على ان يقع اسيرا فى يد صلاح الدين ، الا ان كلا منهما عاد الى بلاده . ولم يكتف صلاح الدين الايوبى بهذه الخطوة الجريئة فى التوغل فى ارض الصليبيين ، بل امر بعد عودته الى مصر بعمل مراكب بحرية حملها على الجمال فى البر حتى وصل بها الى أيلة ، فجمع قطع المراكب والقاها فى البحر ، وحصر ايلة برا وبحرا حتى فتحها فى ربيع الاخر سنة ٥٦٦/١١٧٠م " واستباح اهلها وما فيها وعاد الى مصر " فى السادس والعشرين من جمادى الاولى من تلك السنة (١) .

وبعد أن أتم نورالدين محمود استكمال توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة بالاستيلاء على الموصل سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م عقب

---

(١) ابن الاثير، الكامل ،جـ١١ ،ص ٣٦٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١٩٩ ، ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ، المقريزى ،اتعاظ الحنفا ،جـ٣ ،ص ٣٢٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،جـ٢ ،ص ٦٣١ .

وفاة أخيه قطب الدين مودود شرع فى ضم مصر الى حظيرة الخلافة العباسية وذلك بسبب الحاح الخليفة العباس المستنجد بالله سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م بالاسراع فى اعلان الخطبة العباسية بمصر. ولذلك فقد ارسل نورالدين محمود الى صلاح الدين بمصر يخبره برغبته فى الاطاحة بالخلافة الفاطمية الشيعية . وقد عبر عن سبب رغبته هذه بقوله: " وهذا امر تجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وامام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم امنيته "(١). ولكن صلاح الدين الذى لم يكن اقل تحمسا من سيده نورالدين تردد فى الاسراع بخلع العاضد خوفا من ان يصادف ذلك مقاومة داخلية فى مصر ، ولذلك فقد سار بخطى بطيئة فى الاطاحة بالخليفة العاضد واعادة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية. فبدأ بتكوين جيش خاص يعتمد عليه لا فى جهاد الصليبيين فحسب ،بل وفى القضاء على الفتن الداخلية ، كما سعى الى عزل قضاة مصر الشيعة ، وعين مكانهم قضاة شافعية(٢) . كما سعى الى نقل ماكان بيد الفاطميين من الاقطاعات ومنحها لعساكره الشاميين ، ليزيد من ولائهم له فى المستقبل.(٣) كما سعى الى ابطال المكوس والمظالم التى كانت تؤخذ من الناس وماكان يفرض على الحجاج من الضرائب ، كما غير بعض الدور التى كانت سجونا الى مدارس للشافعية والمالكية وقطع من الاذان " حى على خير العمل " وشرع

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق٢ ،ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) النويرى ، نهاية الارب ،جـ٢٦ ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ ، المقريزى ، الخطط ،جـ١ ،ص ٣٥٨.

(٣) ابن الاثير، الكامل ،جـ١١ ، ص ٣٦٦.

فى تمهيد اسباب الخطبة لبنى العباس ، فاندرس بذلك مذهب الاسماعيلية بالكلية من الديار المصرية ، ولم يبق احد من اهل البلاد يمكنه التظاهر به (١) . ومع ذلك فان صلاح الدين لم يستجب لامر نورالدين محمود وظل متخوفا من الاقدام على اسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، معتذرا لنورالدين محمود فى ذلك بخوفه من ان يثور عليه الفاطميون الذين يميلون الى المذهب العلوى . ولكن يبدو ان سبب تخوف صلاح الدين من الاقدام على هذه الخطوة الكبيرة هو حرصه على ابقاء الخلافة الفاطمية فى صورتها الشكلية لاحساس صلاح الدين بتغير شعور نورالدين محمود نحوه فاراد ان يكون العاضد الى جانبه حتى اذا قصده نورالدين محمود امتنع عنه بالعاضد وباهل مصر (٢) . الا ان نورالدين محمود لم يصغ الى اعذار صلاح الدين بل شدد عليه فى سرعة الاطاحة بالفاطميين " والزمه الزاما لافسحة فيه " ولا موجب لمخالفته (٣) .

واخيرا تجمع عند صلاح الدين الايوبى من الاسباب ما جعله يوافق على اعلان الخطبة فى القاهرة باسم المستضىء بأمر الله ، بعد ان خلت مصر من معاند ومنابذ . فلما كانت اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٤٨٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٩٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٣٣ ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٠-٣١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ، ص ٢٦٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٩٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص ٣٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٦٨-٣٦٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٣٣٣ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢١٥ .

دعى للمستضىء بأمر الله على منابر القاهرة . ولما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضىء بامر الله العباسى ففعلوا ذلك " ولم ينتطح فيها عنزان "(١) . هذا فى الوقت الذى كان فيه الخليفة العاضد قد اشتد به مرضه ، ولم يخبره أحد من اهله بما فعله صلاح الدين الايوبى وقالوا : " ان عوفى فهو يعلم ، وان توفى فلا ينبغى ان نفجعه بمثل هذه الحادثة " . فمات بعد ثلاثة ايام من اعلان الخطبة العباسية فى القاهرة فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م . وبموت العاضد انقرضت الدولة الفاطمية بمصر بعد قرنين من الزمان (٢) .

ولما تم لصلاح الدين تنفيذ مطالب نورالدين محمود فى الاطاحة بالفاطميين سير المبشرين الى بلاد الشام لاخبار نورالدين محمود . فلما وردت البشائر على نورالدين محمود بدمشق سر بذلك سرورا عظيما وكتب الى سائر الاطراف بالبشارة ، وندب القاضى شهاب الدين بن ابى عصرون بهذه البشرى العظيمة الى بغداد فوصل اليها فى اواخر شهر المحرم من السنة نفسها ، فظهر فى بغداد من الفرح والسرور ما لا حد له ، فرد الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله من جانبه بارسال الخلع

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥٦ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٤٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٧٢٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٩ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢٠١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٤-٢٦٥ ، ابن ظهيره ، الفضائل الباهرة ص ٤٢ .

والتشريفات والاعلام السود الى نورالدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، وللخطباء بالديار المصرية (١) .

وفى الحقيقة فان عودة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية أعادت للعالم الاسلامى وحدته المذهبية ، وغدت خلافة بغداد السنية هى السلطة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بالولاء المذهبى ، وعادت للمسلمين وحدتهم بعد ان طال الشقاق بينهم زمنا طويلا ، وصاروا يدا واحدة لمواجهة الصليبيين (٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الصليبيين الذين كانوا يظنون انه لابقاء لهم بالشام بعد ان عادت للعالم الاسلامى وحدته المذهبية ، اصبحوا فى منأى عن الخطر الذى كانوا يتوقعونه من نورالدين وصلاح الدين ، وذلك بسبب تجدد الخلاف السياسى بينهما وهو ماعبر عنه المؤرخون كابن الاثير وابن واصل بالوحشة بين نورالدين وصلاح الدين (٣) . ويبدو ان اسباب هذه الوحشة هى اختلاف وجهات النظر بين نورالدين وصلاح الدين ، فنورالدين محمود اعتبر ان بلاد الشام الموضع الاساسى الذى يجب ان تجرى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، البندارى ، سنا البرق الشامى ، جـ ١ ، ص ١١٥-١١٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٧ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٥ .

(٢) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٩ سعيد عاشور ، مصر والشام زمن الايوبيين والمماليك ، ص ٢٨-٢٩ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧١-٣٧٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .

على ارضه منازلة الصليبيين ،وان مصر يجب ان تكون مصدر الدخل الذى يسد نفقات الجهاد فى الوقت الذى يرى فيه صلاح الدين باطنا انه لابد من تكوين قوة عسكرية فى مصر لتكون مركز الانطلاق الثانى فى مواجهة الصليبيين (١) .

وكان مبدأ الوحشة بينهما سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م ،ففى تلك السنة ارسل نورالدين محمود الى صلاح الدين يأمره باعداد حملة عسكرية والمسير بها الى الصليبيين فى بلاد الشام ، وقد حدد نورالدين محمود لصلاح الدين المكان الذى تجب محاصرته وهو حصن الكرك ، واخبر نورالدين محمود صلاح الدين بانه سيعد حملة عسكرية من قبله بقصد الاجتماع هناك على حرب الصليبيين والاستيلاء على بلادهم (٢) . ولما لم يستطع صلاح الدين رفض ماطلبه منه نورالدين محمود ،فقد برز فى العشرين من محرم سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م ، واخبر نورالدين محمود بذلك . فلما اتى الخبر الى نورالدين وهو بدمشق رحل عنها الى الكرك ، واقام هناك ينتظر صلاح الدين .وبينما هو على هذه الحال أتاه كتاب صلاح الدين يعتذر فيه عن الوصول اليه بسبب اختلاف الاوضاع الداخلية بمصر " وانه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها "(٣) . ولكن نورالدين محمود لم يقبل عذر صلاح الدين هذا وعده من باب الاهمال فى جهاد الصليبيين ، وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها . فلما بلغ صلاح الدين الايوبى ماعزم عليه نورالدين محمود

---

(١) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،جـ١ ،ص ٧٢٧-٧٢٨ .
(٢) ابوشامة ، الروضتين ،جـ١ ،ق ٢ ،ص ٥١٨ .
(٣) ابن الاثير،التاريخ الباهر ،ص ١٥٨ .

جمع اهله وكبار رجاله واستشارهم فى الامر ، فمنهم من اشار عليه بالوقوف فى وجه نورالدين محمود اذا قدم الى مصر ، ومنهم من اشار عليه بضده ، والتقرب الى نورالدين محمود ، ومنهم والده نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمى ، حيث قالا له : " فاذا سمع نورالدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك اهم اموره واولاها بالقصد " ، وطلبا من صلاح الدين أن يكتب الى نورالدين محمود ففعل ما اشارا به عليه " فلما راى نورالدين الامر هكذا عدل عن قصده "(١) .

وعلى اية حال فان صلاح الدين قد وعد نورالدين محمود على لسان مندوبه الذى ارسله الى دمشق سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م بغزو الصليبيين " فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نورالدين محمود من دمشق " . فلما استقرت بينهما القاعدة خرج صلاح الدين فى شوال من سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م وقصد بلاد الصليبيين فوصل الى الكرك وحاصره . وعندما سمع صلاح الدين بان نورالدين وصل الى قريب من الكرك ساورته الشكوك منه وخافه هو وجميع اهله ، واتفق رايهم على العودة الى مصر وترك الاجتماع بنورالدين خوفا منه . فلما عاد صلاح الدين الى مصر ، أرسل الى نورالدين يوضح له عن سبب رحيله عن الكرك وعودته الى مصر بانه كان قد استخلف اباه على البلاد ، وانه مريض ويخاف ان يحدث على والده حادث الموت ، فتخرج البلاد عن ايديهم . ولكن نورالدين محمود عظم عليه ذلك ، وعلم المراد من العود ، الا انه لم يظهر لرسول صلاح الدين

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٩ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ١ ق ٢ ، ص ٥١٨ - ٥١٩ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٤٨-٤٩ .

تأثره بل قال له : " حفظ مصر أهم عندنا من غيرها "(١) .

هكذا أدت عودة صلاح الدين للمرة الثانية عن الكرك دون الاجتماع بنورالدين أوعلى الاقل حصار الصليبيين حسب الاتفاق الذى كان قد تم بينه وبين نورالدين محمود الى بعد الشقة بين الطرفين . فلما كانت سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م عزم نورالدين محمود على المسير الى مصر لانتزاعها من يد صلاح الدين ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها مع ابن اخيه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود فى بلاد الشام لحمايتها من الصليبيين ، ويسير هو الى مصر . الا ان نور الدين محمود قد توفى قبل مسيره الى مصر تلك السنة ٥٦٩هـ/مايو ١١٧٤م وبذلك صار الميدان خاليا لصلاح الدين (٢) .

وكان على صلاح الدين أن يسير قدما على طريق عماد الدين زنكى ونورالدين محمود فى توحيد الجبهة الاسلامية والجهاد ضد الصليبيين وقد اصاب المؤرخ ابوشامة عندما قال : " ولوعلم نورالدين ما ادخره الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده ، لقرت عينه فانه بنى على ما أسسه نورالدين محمود من جهاد المشركين ، وقام بذلك على اكمل الوجوه واتمها "(٣) .

...

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .

(٢) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٦١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ١ ، ص٥٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٧١١ ، سعيد عاشور ، مصر والشام ، زمن الايوبيين والمماليك ، ص ٢٩ .

(٣) أبوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ .

الخاتمة

((الخاتمـــة))

بفضل من الله وتوفيقه انتهى موضوع الرسالة التى قامت بدراســـة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة فى عصـر الاسرة الزنكية . وقد توصلت الدراسة الى كثير من الحقائق التاريخيـــة، يأتى فى مقدمتها ان من اسباب نجاح الصليبيين فى تاسيس اماراتهـــم الاربع فى بلاد الشام والجزيرة هو عدم فهم المسلمين فى تلك البـــلاد لطبيعة الحركة الصليبية فى مبدأ أمرها وان مما ساعد على سوء هــــذا انشغال السلاجقة - بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م - بالفتن والمؤامرات والتنافس على النفوذ فى بلاد الشام والجزيرة ، اضافـة الى انهيار نفوذ القبائل العربية التى كانت تشكل معظم القوة الضاربة فـى بلاد الشام ، تلك القبائل التى لم تعد تهتم فى مبدأ وصول الصليبييـــن الى بلاد الشام باى غزو جديد طالما وقد فقدت نفوذها السياسى فى الشام والجزيرة لحساب الاتراك السلاجقة . ويضاف الى ذلك ان النزاع المذهبـى بين السنة والشيعة فى بلاد الشام كان من العوائق التى أعجزت زعمـــاء السلاجقة والفاطميين عن الوقوف صفا واحدا فى وجه الغزو الصليبى .

كما برهنت الدراسة على أن طائفة الاسماعيلية أو الباطنية كانـــت عائقا قويا امام حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بما اقدمت عليه هذه الطائفة المارقة من قتل واغتيال زعماء المسلمين الذين اخذوا على عاتقهـم بعث فكرة الجهاد الاسلامى وحمل راية لوائه ضد الصليبيين ، أمثـــال شرف الدولة مودود صاحب الموصل سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣م وآقسنقـــر

البرسقى صاحب الموصل سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م .

وأوضحت الدراسة أن الخلافة العباسية التى كانت تمثل رمز وحدة المسلمين السنيين فى ذلك الوقت كانت محط انظار المسلمين فى الشام والجزيرة ، بدليل الاستغاثات التى انطلقت تباعا من بلاد الشام الى بغداد مطالبة باسترداد بيت المقدس من براثن الصليبيين وحماية المسلمين الذين تعرضوا لمذابحهم . غير أن الخلافة رغم ذلك ، ورغم مكانتها الروحية لم تكن تملك من الامكانيات المادية والطاقات البشرية والعسكرية مايجعلها تبادر الى نجدة المسلمين وتحرير مقدساتهم . لذلك كانت الخلافة تحيل تلك الاستغاثات الى سلاطين السلاجقة ، ذوى القدرات العسكرية . وتجدر الاشارة هنا الى أن الخليفة العباسى المسترشد بالله بذل جهودا كثيرة للنهوض بالخلافة العباسية واعادتها الى مكانتها اللائقة بها فى نفوس المسلمين ، غير انه ذهب ضحية محاولاته على يد السلاجقة ومن يدور فى فلكهم .

ومن الحقائق التاريخية التى توصلت اليها الدراسة ان الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر وعلى راسها الوزير الافضل بن بدر الجمالى لم تفهم طبيعة الحركة الصليبية شأنها فى ذلك شأن بقية القوى الاسلامية ، مما دعى هذا الوزير الى الاتصال بالصليبيين فى محاولة منه على اقتسام بلاد الشام مع الصليبيين ولم تشعر الخلافة الفاطمية بخطر الصليبيين وحقيقة أهدافهم الا بعد فوات الاوان ، الامر الذى أدى الى فشل جميع المحاولات التى بذلها الافضل فى سبيل وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام . وفقدت

الخلافة الفاطمية جميع معاقلها ومدنها وموانئها فى سواحل بلاد الشام لحساب الصليبيين . كما ان الانقسام المذهبى بين الفاطميين وبقية القوى الاسلامية فى بلاد الشام والعراق حال كما سبق ذكره دون قيام تحالف اسلامى بين الجانبين للوقوف فى وجه الصليبيين صفا واحدا .

وأوضحت الدراسة بالدلائل التاريخية ان فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قد انبعثت لاول مرة من منطقة الجزيرة دون سواها من بلدان الشرق الاسلامى ، لأسباب كثيرة منها ان التركمان اصبحوا فى تلك الفترة يشكلون السواد الاعظم لجيوش الامراء المسلمين فى منطقة الجزيرة مع ماعرف عنهم من البراعة والفروسية والحماس الدينى . بالاضافة الى أن منطقة الجزيرة تعرضت قبل غيرها للخطر الصليبى عندما تأسست بها اولى الامارات الصليبية وهى امارة الرها الصليبية وما اشتهرت به الجزيرة من موارد اقتصادية ضخمة ساعدت على مد المجاهدين بكل متطلبات القتال .

وأثبتت الدراسة ان اطماع الصليبيين فى بلاد الشام لم تقتصر عند حد تأسيس اماراتهم الصليبية فى الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، بل امتدت اطماعهم الى التوسع فى بلاد المسلمين . ومما يدل على ذلك محاولتهم الفاشلة فى الاستيلاء على حران سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م ، بهدف السيطرة على كل منطقة الجزيرة والعراق . ومحاولاتهم المتكررة للاستيلاء على حلب ودمشق . وقد أدت تلك الاطماع التوسعية للصليبيين الى بعث حركة الجهاد الاسلامى بعد ان شعر المسلمون بمدى الخطر الذى شكله الوجود الصليبى فى بلاد الشام والجزيرة .

وأوضحت الدراسة ايضا انه قد ظهر قبل عماد الدين زنكى العديد من القادة الذين عملوا على احياء فريضة الجهاد الاسلامى فى نفوس المسلمين وعلى رأس اولئك القادة جكرمش صاحب الموصل ، وسقمان بن أرتق ، اللذان استطاعا احباط اطماع الصليبيين عند حران سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م عندما حاولوا التوسع فى منطقة الجزيرة .

كما برهنت الدراسة على ان القائد التركمانى شرف الدولة مودود بن التونتكين كان على ما يبدو اول زعيم ادرك اهمية توحيد القوى الاسلامية فى الجزيرة والشام ضد الصليبيين . ومن اجل ذلك عمل جاهدا على تحقيق ذلك الهدف وحاول الاستيلاء على الرها فى سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٦م ومقارعة الصليبيين فى وسط بلاد الشام سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣م . كما عمل نجم الدين ايلغازى فى سبيل توحيد القوى الاسلامية بالاستيلاء على حلب واتخاذه اياها مركز انطلاق ضد الصليبيين .

وبرهنت الدراسة على ان عماد الدين زنكى نشأ وتربى فى مجتمع عسكرى اخذت فيه فكرة الجهاد ضد الصليبيين تنمو بفضل ملازمته اولئك القادة امثال جكرمش ، ومودود وغيرهما ، بالاضافة الى انه وجد فى بلاد الشام والعراق والجزيرة فى عهده شعورا اسلاميا ينادى بضرورة اقامة جبهة اسلامية موحدة لاستخلاص المقدسات الاسلامية وحماية البلاد من خطر الصليبيين . وساعد ذلك عماد الدين زنكى على تحقيق طموحاته ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين . ومما اوضحته الدراسة أن نشأة عماد الدين زنكى فى كنف العديد من زعماء قادة بعث فكرة الجهاد الاسلامى امثال كربوقا ، وآقسنقر البرسقى وملازمته لهم قد افادته سواء من خبراتهم أو أخطائهم

مما أدى الى نجاحه فيما أخفق فى تحقيقه الزعماء السابقون ، وعلى سبيل المثال لم يدخل عماد الدين - كما فعل غيره من قادة الموصل - فى نزاع مباشر مع الصليبيين قبل تقوية جيوشه وتوطيد نفوذه فى منطقة الجزيرة ، فقد هادن عماد الدين زنكى الصليبيين فى بادىء الامر ووجه جهوده لتنظيم دولته وبناء جيوشه وتوسيع رقعة مملكته . كما انه عمل على اضفاء طابع الشرعية على فتوحاته فى بلاد الشام والجزيرة بما حصل عليه من تفويض وتقليد رسمى من السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية قبل استيلائه على حلب سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م والبلاد التابعة لها .

ومن النتائج التى توصل ء اليها البحث معرفة مدى ماكان يتمتع به عماد الدين زنكى من دهاء وحنكة سياسية لا فى اختيار الرجال الصالحين لادارة دولته فقط بل وفى معاملة خصومه من المسلمين . فمثلا عندما عجز عن اخضاع الاراتقة فى ماردين وحصن كيفا لجأ الى تفريق كلمتهم وتفتيت صفوفهم ، فدخلوا فى نزاع مع بعضهم البعض ، واصبح كل فريق يتقرب الى عماد الدين ، فأمن شرهم واستعان بهم لمحاربة الصليبيين . كما أن تقرب عماد الدين زنكى الى كثير من الاسر ذات النفوذ فى بلاد الشام والجزيرة عن طريق المصاهرة ، ساعده على التدخل فى شئون هذه الاسر فى محاولة منه للقضاء عليها وضمها تحت لوائه .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث ان عماد الدين زنكى عمل على توفير جميع الشروط اللازمة لتحقيق النصر على الصليبيين واسترداد الرها . فبالاضافة الى اختياره الوقت المناسب الذى كان فيه صاحب الرها جوسلين

الثانى بعيدا عنها مع كثير من اشهر رجاله البارزين فقد ارسل عماد الدين الجواسيس لمعرفة ادق التفاصيل عن الصليبيين فى الرها ، مثل معرفة تحركاتهم وعدد قواتهم واسلحتهم ومؤنهم وغير ذلك . كما حشد الكثير من التركمان ذوى الخبرة فى فنون الفروسية فضلا عن استخدام الخرسانيين والحلبيين لخبرتهم فى معرفة مواضع النقوب فى القلاع وحفر الخنادق واضرام النيرات فى تحصينات العدو .

واخيرا استرد عماد الدين زنكى مدينة الرها وقضى على تلك الامارة الصليبية مما أعاد للمسلمين ثقتهم بانفسهم وزرع فيها الامل باسترداد بقية بلاد الشام من براثن الصليبيين .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث انه على الرغم من انقسام مملكة عماد الدين زنكى عقب وفاته سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م بين ولدين نورالدين محمود فى حلب وسيف الدين غازى فى الموصل ، فان ذلك الانقسام لم يؤد الى نشوب النزاع بينهما كما حصل بين رضوان ودقاق ابنى تتش سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م بل خدم فى نهاية الامر قضية الجهاد ضد الصليبيين ، فتفرغ سيف الدين غازى لمشاكل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية والاراتقة فى ماردين وحصن كيفا ، بينما ركز نورالدين محمود كل جهوده فى حمل راية الجهاد ضد الصليبيين ، بالاضافة الى جهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية .

وبرهنت الدراسة على ان فشل الحملة الصليبية الثانية يعود بالدرجة الاولى الى تغيير زعماء هذه الحملة لمسارها الذى خرجت من اجله وهو استرداد

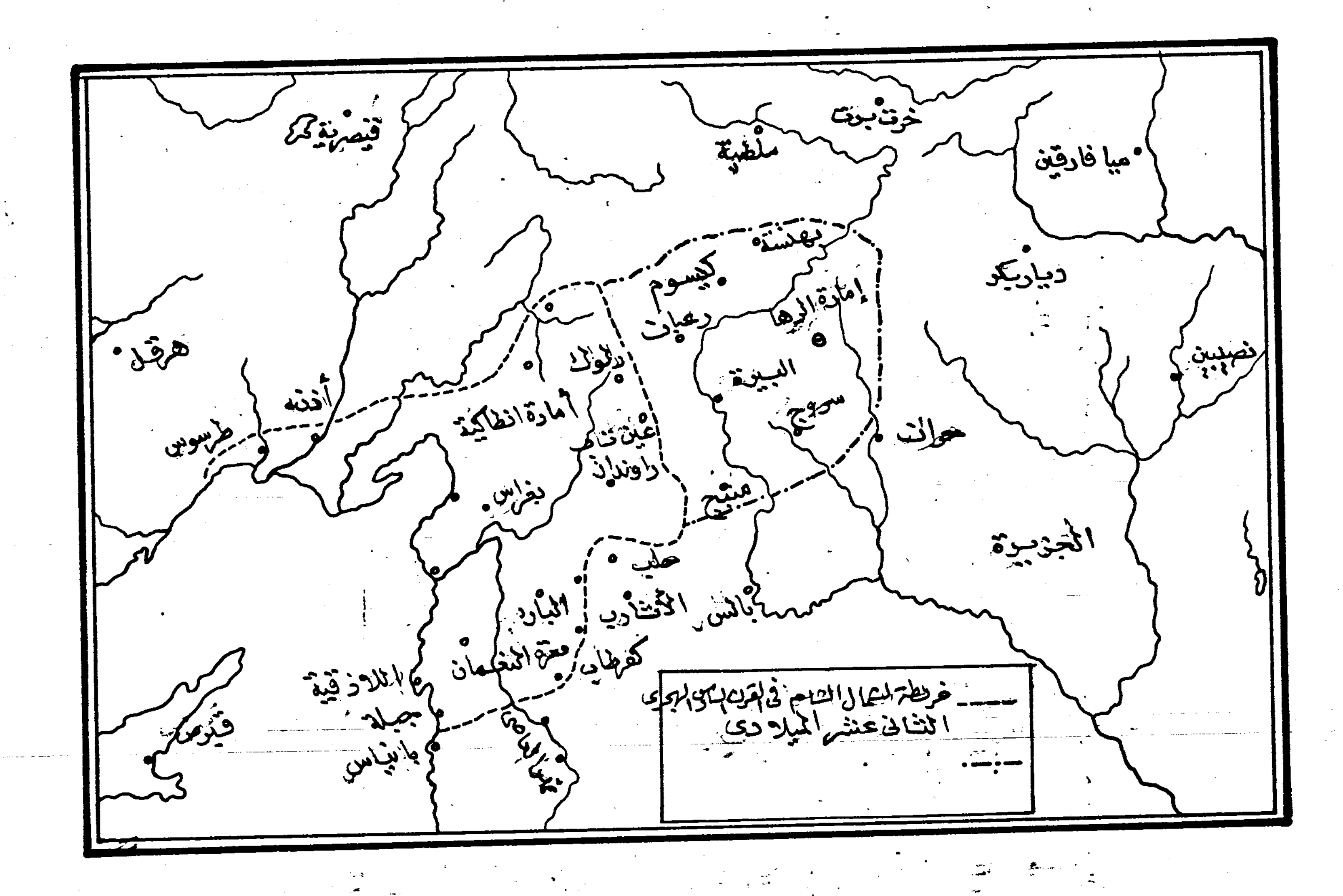
الرها والقضاء على نورالدين محمود ، اذ اتجهت الحملة الصليبية للاستيلاء على دمشق من حلفاء طغتكين الذين كانوا فى تحالف مع الصليبيين بدلا من الاتجاه الى حلب مركز الجهاد الاسلامى فى بلاد الشام ، ولم يقتصر فشل الحملة الصليبية الثانية على عودة زعمائها الى اوروبا يجرون أذيال الخيبة بل نبه نورالدين محمود الى أهمية الاستيلاء على دمشق وضمها الى مملكته وتمكن نورالدين محمود بن زنكى من اقامة جبهة قوية ضد الصليبيين فى بلاد الشام بعد استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٣م ، واعادة توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام مع الجزيرة بعد انقسام دام فترة من الزمن . وترتب ايضا على استيلاء نورالدين محمود على دمشق سيطرته على جميع الحصون والقلاع الواقعة شرق نهر العاصى التى كانت خاضعة للصليبيين ، وتكوين جبهة اسلامية قوية فى بلاد الشام والجزيرة .

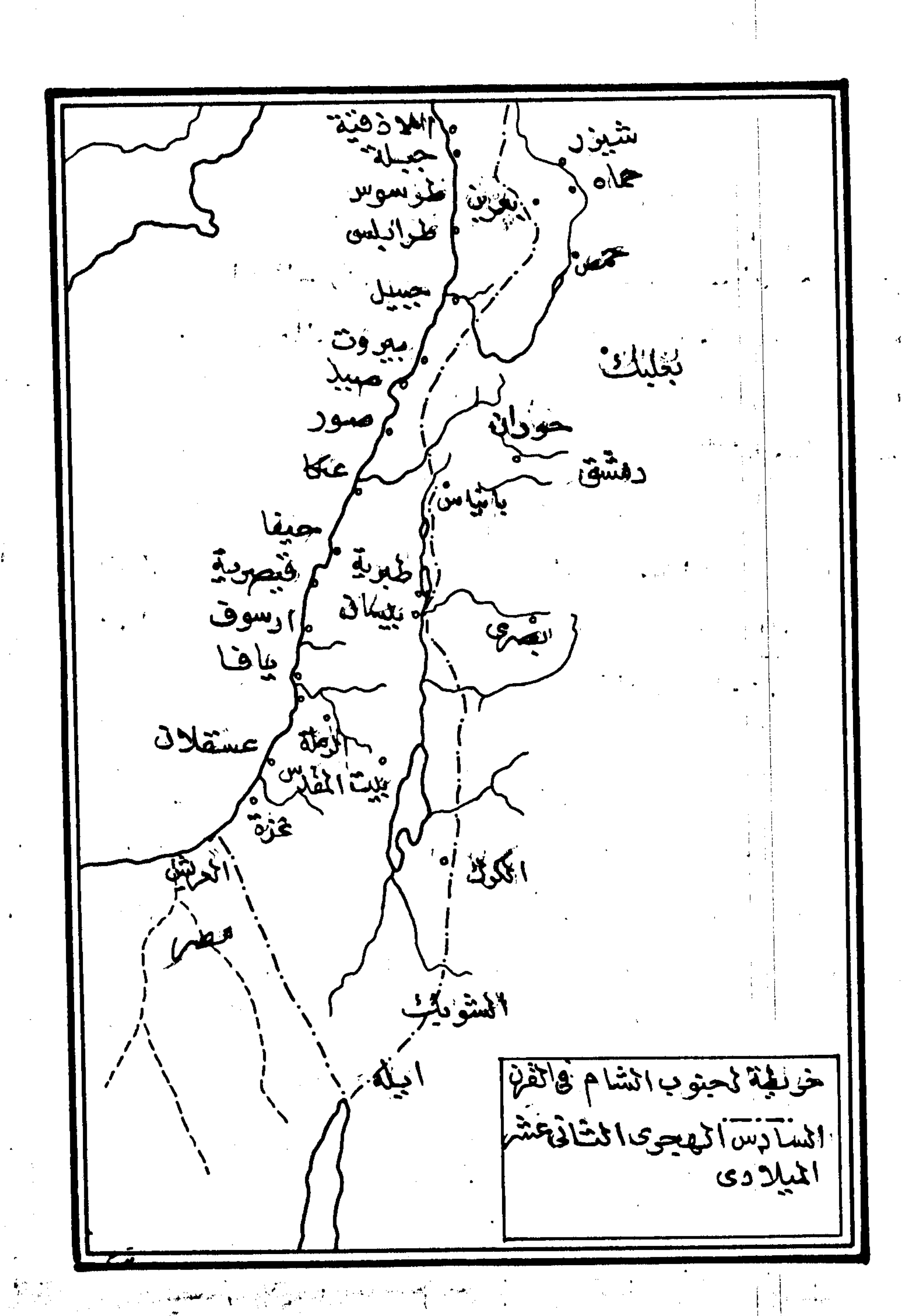
واخيرا فقد اتضح من الدراسة ادراك نورالدين محمود من البداية لاهمية موقع مصر ، وما تمثله من قوة بشرية واقتصادية سوف تكون عاملا حاسما فى مستقبل الجهاد ضد الصليبيين . لذلك بادر نورالدين محمود باحباط خطط الصليبيين للاستيلاء على مصر بارسال أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين فى حملات حربية متتابعة حتى تم لهما الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م واعادة الوحدة المذهبية للمسلمين ووضع الصليبيين بين شقى الرحى .

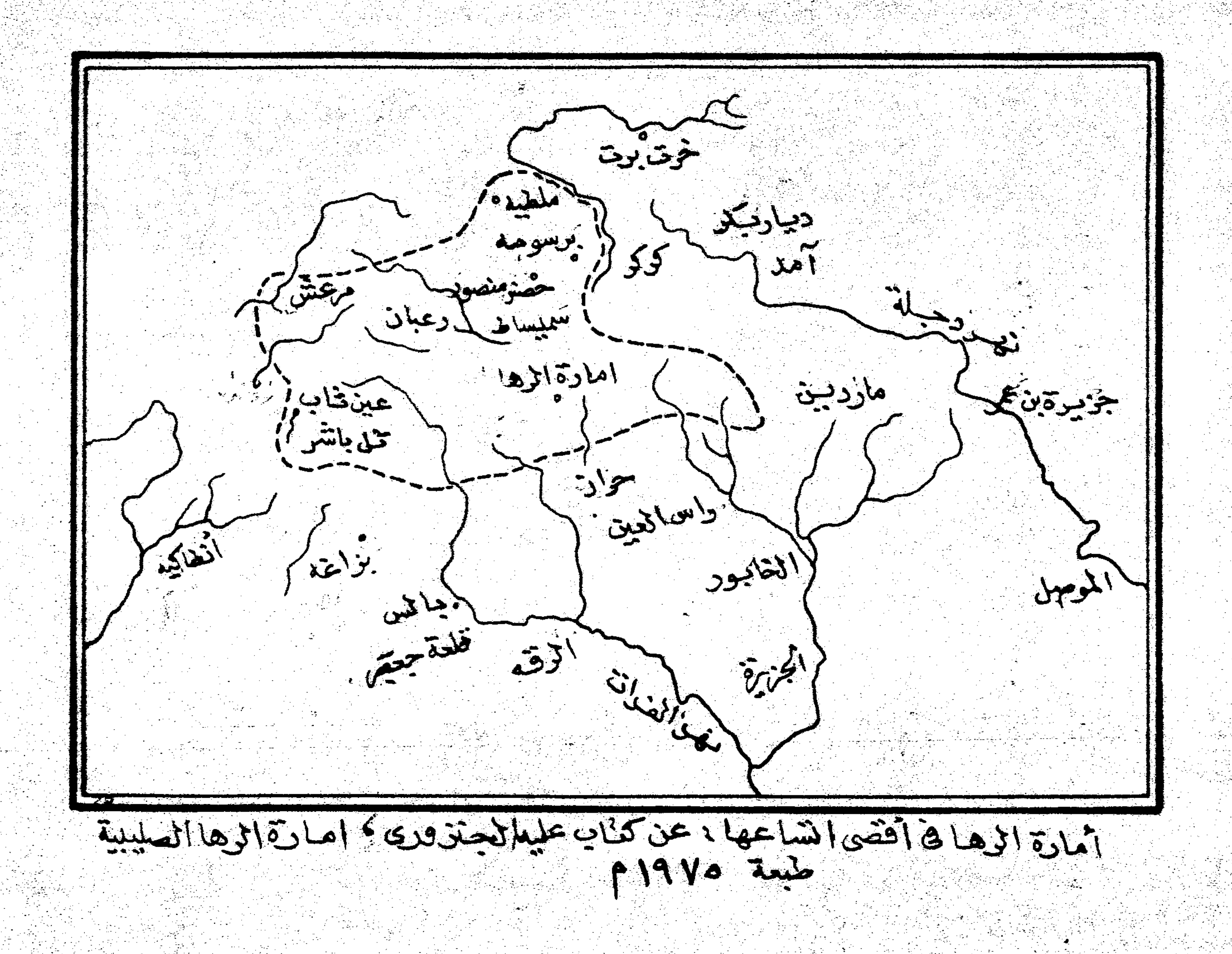
ومن النتائج التى توصلت اليها الدراسة ان استيلاء نورالدين محمود على مصر لم يتوقف عند حد القضاء على الخلافة الشيعية بها وقطع الامل على الصليبيين فى العودة اليها بل كان ذلك بمثابة القاعدة التى انطلق منها صلاح الدين الايوبى لتصفية الوجود الصليبى فى بلاد الشام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

—•—


خريطة لشمال الشام في القرن السادس الهجري
الثاني عشر الميلادي
قيصرية
ملطية
خرتبرت
ميافارقين
هرقل
أذنه
طرسوس
بهسنة
كيسوم
رعبان
إمارة الرها
ديار بكر
نصيبين
دلوك
أمارة انطاكية
عين تاب
راوندان
البيرة
سروج
حران
منبج
بغراس
حلب
الأثارب
بالس
البارة
معرة النعمان
كفرطاب
اللاذقية
جبلة
بانياس
قبرص
الجزيرة


اللاذقية
جبلة
طرسوس
طرابلس
جبيل
بيروت
صيد
صور
عكا
حيفا
قيسارية
ارسوف
يافا
عسقلان
الرملة
بيت المقدس
غزة
العريش
مصر
طبرية
بيسان
بانياس
دمشق
حوران
بعلبك
شيزر
حماه
بعرين
حمص
بصرى
الكرك
الشوبك
ايله
خريطة لجنوب الشام في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي



أمارة الرها في أقصى اتساعها، عن كتاب عليه الجنزوري «امارة الرها الصليبية» طبعة ١٩٧٥م

(الملحق الاول)

ترجمة عماد الدين زنكي (١)

(٤٨٠-٥٤١ هـ / ١٠٨٧-١١٤٦م)

زنكي بن أق سنقر ابوالمظفر التركي ز، وقيل آق سنقر بن القرغان من قبيلة "سابايو" وقيل ان أق سنقر كان مملوكا للسلطان ملكشاه .

ويعرف زنكي "بأتابك بن قسيم الدولة" لانه كان عنده ولدان للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، بالموصل يربيهما وكان مولده بحلب في أيام ولاية أبيه سنة ٤٨٠ هـ ، فربى بها ، وكان في أول أمره مضافا الى أق سنقر البرسقي ، والبرسقي شحنة بغداد ، وولاه البصرة ، فلما عزل البرسقي عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، فاكرمه ، وأقطعه البصرة ، وأعاده اليها في سنة ٥١٨ هـ ثم ترقت به الحال الى أن ملك الموصل في سنة احدى وعشرين وخمسمائة .

وكان ختلغ أبه بحلب وأساء السيرة مع أهلها فحصروه وبالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق ، فأجمع رأى ختلغ أبه وسليمان على أن يسيرا الى أتابك زنكي ويحكماه فيما يفعل ، فلم يوقع لواحد منهما بحلب ، وتوجه اليها فقدمها . وكان له أتراب بحلب ، من الحلبيين قد تربى بينهم فكانوا يميلون اليه لذلك ، فسلموا الى نائبه حلب في شهر رمضان سنة احدى وعشرين وخمسمائة وتوجه اليها فتسلمها في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة في جمادى الآخرة . وتوجه بعد ذلك الى السلطان محمود وعاد في سنة

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، التراجم الخاصة بالسلاجقة ، نشر وتحقيق على سويم ، ص ٢٥١ - ٢٧٢ ، انظر ايضا ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ، ورقة ٢٠٦ أ - ٢١٥ أ.

ثلاث وعشرين ، ومعه توقيع مجدد بولايته الجزيرتين ، والشام ، وحلب ، والشط ، وملك حمص وحماه ، وبعلبك ، والرقة ، ودارا ، وحران ، ورأس عين ، واشتغل بمحاربة الفرنج ، ففتح من أيديهم معرة النعمان ، وكفرطاب ، وبارين ، والأثارب ، وزردنا ، وتل اغدى ، وبزاغا ، وسروج ، والرها ، وكان له أثر عظيم فى نصرة الاسلام . وكف عادية الفرنج ، ومهد لمن بعده فتح البلاد ، بعد أن كان الفرنج قد ضايقوا مدينة حلب واستولوا على حصونها وأخذوا المناصفة من المسلمين الى بابها فأغاثهم الله بزنكى ، وولده من بعده .

وكان زنكى ملكا عظيما شجاعا جبارا ، كثير العظمة ، والتجبر ، وهو مع ذلك يراعى أحوال الشرع وينقاد اليه ويكرم أهل العلم . وبلغنى (اى العظيمى) أنه كان اذا قيل له : "أما تخاف الله ؟" خاف من ذلك ويتصاغر فى نفسه فأظهر الله تعالى سره المحمود فى ولده محمود .

• • •

(الملحق الثاني)

استيلاء عماد الدين زنكي على حصن بعرين(١)
(٥٣١هـ / ١١٣٦م)

وفي شعبان منها ورد الخبر بأن عماد الدين أتابك بن آقسنقر توجه في عسكره من ناحية الموصل ، وقطع الفرات في العشر الاول منه ، ووصل الى حمص ، وكان تقدّمه اليها صلاح الدين (الياغيسياني) في أوائل العسكر ، ونزلا عليها وضايقاها ، وفيها الامير معين الدين أنر واليها ، فراسله في تسليمها فاحتج عليه بأنها للأمير شهاب الدين ، وأنه نائبه فيها ، فنصب الحرب عليها والمضايقة لها أياما ، ولم يحظ منها بطائل فرحل عنها في العشرين من شوال من السنة ، ونزل على الحصن المعروف ببعرين لينتزعه من أيدى الافرنج . فلما عرفوا ذلك تجمعوا ونزلوا قريبا لحمايته ومعونة من فيه منهم ، فحين عرف عماد الدين خبرها كمن لهم كمينا والتقى الجمعان ، فانهزم فريق من الاتراك بين أيدى الافرنج ، وقتلوا منهم جماعة وافرة عند عودتهم الى منزل مخيمهم ، وظهر عليهم عماد الدين في من كمن لهم من الكمناء ، ووافق الرجالة وملك الاثقال والسواد ، وحين قربوا من المخيم وشاهدوا ما نزل عليهم وحل بهم انخذلوا وفشلوا ، وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلا وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير من الكراع والسواد والاثاث ، وعاد عماد الدين الى حصن بعرين . وقد انهزم اليه ملكهم كندايا جور ومن يجامعه من مقدمي الافرنج وهم على غاية من الضعف والخوف ، فنزل عليهم وحصرهم في الحصن المذكور ، ولم يزالوا على هذه الحال في المضايقة والمحاربة الى أن نفد ما عندهم من القوت فأكلوا خيلهم .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

وتجمع من بقى من الافرنج فى بلادهم ومعاقلهم وانضموا الى ابن جوسلين ، وصاحب أنطاكية ، واحتشدوا وساروا طالبين نصرة المخذولين المحصورين فى حصن بعرين وتخلصهم مما هم فيه من الشدة والخوف والهلاك ، فحين قربوا من عسكر أتابك وصح الخبر عنده بذاك اقتضت الحال أن أمنهم وعاهدهم على ما اقترحه عليهم من طاعته ، وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها اليه ، وأطلقهم وتسلم الحصن منهم ، وعاد من كان اجتمع لنصرتهم .

• • •

(الملحق الثالث)

استيلاء عماد الدين زنكي على أمارة الرها الصليبية (١)
(٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م)

فى جمادى الاخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضى الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين (٢) عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد أذعن له بالنهاية فى الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هى من أشرف المدن عند النصارى ، وأعظمها محلا ، وهى احدى الكراسى عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية والقسطنطينية ، والرها ، وكان هذا فتح الفتوح حقا وأشبهها ببدر حقا، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائى (٣) لعلم أنه أولى بقوله : السيف أصدق أنباء من الكتب ، لان ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم اليها جسيم . اذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم ، واشتدت على أهلها وطأتهم ، فملكوا من نواحى ماردين الى الفرات - على طريق شبختان - عدة حصون ، كسروج ، والبيرة ، وجملين ، والموزر ، والقراوى ، وسن بن عطير وغير ذلك . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين ، والرقة . أما حران فكانت معهم فى الخزى ، كل يوم قد صبحوها بالغارة ، فلما رأى الشهيد

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٦-٧٠ .

(٢) هو جوسلين الثانى ابن جوسلين الاول .

(٣) هو الشاعر ابو تمام الطائى ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٧ ، حاشية رقم ٣ .

الحال هكذا ، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضا ، ولا يمكنه أن يميل جوهر الكفار بها عرضا ، مادام بها جوسلين ، وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه ، فعدل الى أعمال الحيل والخداع ، اذ كان أنجع فى هذه الحادثة من المصاع ، والرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى . فعدل عن قصدها الى ما جاورها من ديار بكر التى بيد المسلمين ، كحانى ، وجبل جور ، وآمد على ماتقدم ذكره ، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا فى ارتقاء ، فهو يخطبها على غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لافراغ له اليه ، وأنه لا يمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها الى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظة وحاميه فحينئذ أمر بالنداء فى العساكر بالتجهيز والتشمير والجد فى السير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره والسيل الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو اقباله ، سرى الرعب فى أحشائهم ، واختلط الخوف بدمائهم وسقط فى أيديهم ، ورأوا انهم قد ضلوا وقالوا : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١) ، فأبى الله الا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ،

---

(١) سورة الاعراف ، آية ١٤٩ .

ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، جزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه اليهم عقابا ، فضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبته رؤسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعديده ، ومواكبه المنصورة وجموعه المحشوره ، وبنوده المنشورة .... وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الارض تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون الى البوار ، يتهافتون الى القتال تهافت الفراش في النار ، أخذا بقول من يقول :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفس حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الامان ، والامن ، ليسلموه سليما من اخراب أسواره ، واخلاء دياره ، ضنا منه على مثله ان يصبح خاويا على عرشه ، وان يلتحق سماؤه بفرشه فأبوا قبول الامان ، وامتنعوا عن الاذعان ، فاستخار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ، ونصب المجانيق ، وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه . وبلغ الخبر الى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات ، وعاد جوسلين عند سماعه الخبر الى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل اليها ، او يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحيل بينه وبين ذلك ، وأنى يكون مايريد وخصمه الشهيد أتابك . ولم يزل الشهيد يزحف الى البلد مرة بعد اخرى حتى وصل النقابون الى سورها ، فنقبوه فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا وشرا ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه قتيل وأسير ، وجريح وكسير ، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي من كل مال نفيس وغلام رائق ، وبكر كالظبي عاتق ،

وأصابهم من النكال ماهو لهم عتيد ﴿ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد ﴾(١) . ثم انه دخل البلد فراقة منظرة وشاقة مخبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وان يستولى عليه فى ملكه البوار والتباب ، ورأى ان أخربه وأخلاه من أهله غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبى ورجال وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد ان كان داثرا ، وآهلا وآمنا بعد أن كان للذئاب والخامع(٢) مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم وأراح أهلها من كيدهم ، وحزهم ، واصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدى الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون أدبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون فى الهرب خوف العطب ، وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادى : جاء الحق وزهق الباطل . وألقى الاسلام بهذه البلاد جرانه وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله فى قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض ﴾(٣) . فهى لهم الى يوم العرض. وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار فى الافاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل فى الافاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والاولياء ، واستبشر به الابرار والاصفياء . حكى لى جماعة أعرف صلاحهم انهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ ابا عبدالله بن على بن مهران الفقيه الشافعى، وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ، ذكروا عنه أنه غاب عنهم فى زاويته يوم ذلك ، ثم

---

(١) سورة هود ، آية ١٠٢ .

(٢) الخامع هو الضبع ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، حاشيه رقم (٥) .

(٣) سورة النور ، آية رقم ٥٥ .

خرج عليهم مستبشر مسرور عنده من الارتياح مالم يروه أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض اخواننا ، أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معها فتحها يومنا هذا ، ثم قال : مايضرك يا زنكي مافعلت بعد اليوم، وبقي يردد هذا القول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم ان نفرا من الاجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا ، وحكى لي أيضا بعض العلماء بالاخبار والانساب - وهو أعلم من رأيت بها - قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها قد سير هذا ملك الفرنج جيشا فى البحر الى أفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الاخبار الى الملك وهو جالس، وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس وهو شبه النائم فأيقظه الملك ، وقال له : يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت ، أين كان محمد عن نصرهم . فقال : كان قد حضر فتح الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لاتضحكوا ، فوالله ماقال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك . فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية . وحكى أيضا غير واحد ممن أثق به أن رجلا من الصالحين قال : رأيت الشهيد بعد مقتله فى المنام فى أحسن حال ، فقلت له : مافعل الله بك . فقال : غفر لى فقلت : بماذا ؟ . فقال : بفتح الرها .

• • •

(الملحق الرابـــع)

الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م (١)

وأولها يوم الجمعة الحادى والعشرين من أيار ، والشمس فى الجوزاء . وفى أوائلها تواترت الاخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج المقدم ذكرهـم الى ساحل البحر ، وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية ، صور وعكا واجتماعهم مع من كان بها من الافرنج ، ويقال انهم بعد مافنى منهم بالقتل والمـرض والجوع تقدير مائة الف عنان . وقصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجهم ، وعاد بعد ذلك من عاد الى بلادهم فى البحر . وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقى الملك اكبر ملوكهم ومن هو دونه ، واختلفت الاراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية ، والاعمـال الشامية الى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق ، وحدثتهـم نفوسهم الخبيثة بملكتها وتبايعوا ضياعها وجهاتها . وتواصلت الاخبار بذلك وشرع متولى امرها معين الدين أنر فى التأهب والاستعداد لحربهم ، ورفـع شرهم وتحصين مايخشى من الجهات وترتيب الرجال فى المسالك والمنافـذ وقطع مجارى الميرة الى منازلهم وطم الآبار وعفى المناهل ، وصرفوا أعنتهـم الى ناحية دمشق فى حشدهم وحدهم وحديدهم فى الخلق الكثير على مايقـال تقدير الخمسين من الخيل والرجال ومعهم من السواد والجمال والابقـار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ، وقصدوا المنزل المعروف بمنـازل العساكر فصادفوا الماء معدوما فيه مقطوعا عنه ، فقصدوا ناحية المزة فخيمـوا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم . ووقف المسلمون بازائهـم فى يوم السبت السادس من شهر ربيع الاول سنة ٤٣ ونشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الأجناد والاتراك القتال واحداث البلد والمطوعة ، والغزاة الجم الغفير ، واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد والعدد وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلـد

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٩٧ - ٣٠١ .

وحصلوا منه بمكان لم يتمكن احد من العساكر قديما ولا حديثا منه . واستشهد في هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوى المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم ، وترك الرجوع عنهم اتباعا لاوامر الله تعالى في كتابه الكريم ، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى .

وشرعوا في قطع الاشجار والتحصين بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال ، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور ، وباكروا الظهور اليهم في غد ذلك اليوم وهو يوم الاحد تاليه ، وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم ، واكثروا القتل والجراح فيهم . وأبلى الامير معين الدين أنر في حربهم بلاء حسنا ، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره ، بحيث لا يني في ذياتهم ولا يفثى عن جهادهم ، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم ، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم الى أن تتهيأ الفرصة لهم الى أن مالت الشمس الى الغروب ، وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم الى مكانه ، وبات الجند بازائهم وأهل البلد على اسوارهم للحرب والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم .

وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ والاستنجاد ، وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجاله الاطراف تتتابع . وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم وزال روعهم . وثبتوا بازائهم ، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجراح ، بحيث تتبع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل .

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة ، فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة ، وانفصل كل فريق الى مستقره هذا اليوم وباكروهم من غدة يوم الثلثاء كالبزاة الى تعاقيب الجبل والشواهين الى قطار الحجل وأحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجثمهم ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها

رشقا بالنشاب وحذفا بالأحجار . وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ، ولم يظهر منهم أحد وظن بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبرون حيلة ، ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفا من المهاجنة الى أن يجدوا لحملتهم مجالا أو يجدون لفرهم احتيالا ، وليس يدنو منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة ، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضياع ، وجعلوا يرصدونهم فى المسالك وقد انثنوا ، فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير .

وتواترت اليهم أخبار العساكر الاسلامية بالخفوف الى جهادهم والمسارعة الى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا الاراء بينهم ، فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التى حصلوا فيها والهوة التى القوا بنفوسهم اليها غير الرحيل سحرا يوم الاربعاء التالى مجفلين ، والهرب مخذولين مفلولين ، وحين عرف المسلمون ذلك وبانت لهم آثارهم فى الرحيل بروزا لهم فى بكرة هذا اليوم وسارعوا نحوهم فى آثارهم بالسهام ، بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ، ووجد فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وفاخر خيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه ، بحيث لها أرائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور فى الجو ، وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودة فى تلك الليلة ، واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من اجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدة فلله على ذلك الحمد والشكر .

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نورالدين صاحب حلب عند قرية من دمشق للانجاد لها فى أواخر شهر ربيع الاخر من السنة ، وأنهما قصدا الحصن المجاور لطرابلس المعروف ... (١) وفيه ولد الملك الفنش أحد ملوك الافرنج المقدم ذكرهم . كان هلك بناحية عكا ومعه والدته وجماعة وافرة من

---

(١) وفى الكامل لابن الاثير : حصن عريمة . انظر ابن القلانسى ، ص ٣٠٠ ، حاشية رقم (٢) .

خواصه وأبطاله ووجوه رجاله ، فأحاطوا به وهجموا عليه ، وقد كان وصل الى العسكرين النورى والمعينى فريقة تناهز الالف فارس من عسكر سيف الدين غازى ابن أتابك ، ونشبت الحرب بينهم ، فقتل أكثر من كان فيه وأسر وأخذ ولد الملك المذكور وأمه ونهب مافيه من العدد والخيول والاثاث ، وعاد عسكر سيف الدين غازى الى مخيمه بحمص ونور الدين عائدا الى حلب ومعه ولد الملك وأمه ، ومن أسر معهما وانكفأ معين الدين الى دمشق .

...

(الملحق الخامس)

من سيرة نور الدين محمود بن زنكـــي[1]

(٥١١ - ٥٦٩ هـ / ١١١٧-١١٧٣م)

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر بها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه . وقد تقدم من أحواله فى مملكته مايستدل به على ماذكرناه . ونحن نذكر ههنا ماتعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أمة لافتخرت به ،فكيف فى بيت واحد .

فأما زهده وعبادته وعلمه ، فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ مايحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة . ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر ، زوجة نور الدين ووزيرها . قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس فى المكان المختص به ، وتقوم فى خدمته لاتتقدم اليه الا أن يأذن لها فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذى يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر ، ص ١٦٣ - ١٦٦.

رقاع أصحاب الاشغال ، أ مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه . وكان يصلى فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فاذا جاء الليل رصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة .

قال : وانها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ماكان قد قرره لها ، فأرسلتينى اليه اطلب منه زيادة فى وظيفتها فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ، ان كانت تظن ان الذى بيدى من الاموال هى لي فبئس الظن ، انما هى أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها . ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها اياها فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الا بنية حسنة . كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع الى قوله ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ، فبلغه ان نور الدين يد من اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ماكنت أظن انك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملنى على اللعب بالكرة ، واللهو والبطر ، انما نحن فى ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس اذ يقع الصوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها ايضا بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله هو الذى يبعثنى على اللعب بالكرة . فانظر

الى هذا الملك المعدوم النظير ، الذى يقل فى اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فان من يجئ الى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات واكثر القربات ، يقل فى العالم مثله ، وفيه دليل على انه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهى افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكى لى عنه ، أنه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبينما هم معه فى حديثها واذا قد جاءه رجل صوفى فأمر بها له ، فقيل له انها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو اعطى غيرها لكان انفع له . فقال : اعطوها له ، فانى أرجو ان اعوض عنها فى الاخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار أميرى او سبعمائة دينار ، أنا أشك انها كانت تساوى أكثر .

وحكى لنا الامير بهاء الدين على بن الشكرى رحمه الله تعالى - وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط - قال : كنت معه يوما فى الميدان بالرها نسير والشمس فى ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه فقال لى : اتدرى لأى شئ أجرى فرسى والتفت ورائى قلت : لا . قال قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها . وكان رحمه الله يصلى كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ولا يزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه   ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالقصة على مذهب الامام أبى حنيفة ، ليس عنده فيه تعصب ، بل الانصاف سجيته فى كل شئ . وسمع الحديث وأسمعه طلبا للاجر . وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع اوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ،

واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . " ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة " فان قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى اليه الاموال الكثيرة ، فليذكر نبى الله سليمان بن داود عليه السلام مع اتساع ملكه وهو سيد الزاهدين فى زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن ، والحجاز ، وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين . وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها .

وأما عدله فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة لا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعا ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه . وكان المكس فى مصر يوخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره . وكان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير ، فلا جرم أن سار ذكره فى شرق الأرض وغربها .

. . .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

اولا : المصادر المخطوطة والمطبوعة

- ابن أبى الدم الحموى (ابواسحاق ابراهيم بن عبد الله ، ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م)
التاريخ المظفرى . مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٩٦٦ تاريخ .

- ابن ابى الهيجاء (ت ٥٨٩/١١٩٣م)
تاريخ ابن ابى الهيجاء ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٩٤٥ .

- ابن الاثير الجزرى (ابو الحسن بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .
١- الكامل فى التاريخ ، ط ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م .
٢- التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية . تحقيق عبد القادر طليمات ، ط . القاهرة ١٩٦٣م .

- ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن على ، ت ق ٤ هـ/١٠م)
صورة الارض ، ط ليدن ، ١٩٣٩م .

- ابن ايبك الداوادارى (ابوبكر عبد الله بن ايبك ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
١- كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس وعنوانه الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط . القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م .
٢- درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، مخطوط بالمكتبة السليمانية ، باستانبول ، برقم ٩١٣ .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو الحسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) .
١- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الاجزاء ٥ ، ٦ ، ط القاهرة ، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م .
٢- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى بجامعة ام القرى بمكة المكرمة .

- ابن جبير (أبو الحسن بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى ، ت ٦١٤هـ) .
رحلة ابن جبير ، ط بيروت ١٩٦٤م .

- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ، ت ٥٩٧هـ/ ١٠٢١م) .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الأجزاء ٩ ، ١٠ ، ط حيدر أباد ١٣٥٩هـ .

- ابن حيوس (أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد ، ت ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) .
ديوان ابن حيوس ، جزآن ، تحقيق ونشر خليل مردم بك ، ط دمشق ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م) .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الخامس ، ط بيروت ١٩٥٧م- ١٩٥٨م)

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٤م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ أجزاء .
تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

- ابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)
عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت الرقم ١٨٤٠ تاريخ .

- ابن الشحنة (ابوالوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبى ، ت ٨١٥هـ/ ١٤١٤م)
روض المناظر فى علم الاوائل والاواخر ، مخطوط بمكتبة السليمانية فى استامبول تحت الرقم ٨٧٠ .

— ابن شداد (بهاءالدين يوسف بن رافع ،ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،تحقيق جمال الدين الشيال ،
ط القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

— ابن شداد (عزالدين بن أبى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ،
ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) .
الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ ٣ خاص بتاريخ
لبنان والاردن وفلسطين ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ،
١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

— ابن الصيرفى (أبو القاسم على بن منجب بن سليمان ،ت ٥٥٠هـ/ ١١٦٠م) .
الاشارة إلى من نال الوزارة ،
تحقيق عبد الله مخلص ،ط القاهرة ١٩٢٤م.

— ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقا ،ت ٧٠٩هـ) .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ط بيروت
١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

— ابن ظافر الأزدى (جمال الدين على بن ظافر ،ت ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) .
أخبار الدول المنقطعة ، القسم الخاص بالفاطميين ، تحقيق أندريه
فريه ، ط القاهرة ١٩٧٢م.

— ابن ظهيره (أبو السعادات جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين بن
ظهيره المخزومى ،ت ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م) .
الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ،
وكامل المهندس ، ط القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن هرون المعروف بابن العبرى ، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٨٦م) .
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٨٩٠م .

- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)
١- بغية الطلب فى تاريخ حلب ، ٨ أجزاء ، مخطوط فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت الرقم ٢٩٢٥ وهناك التراجم الخاصة بالسلاجقة مطبوع نشر وتحقيق على سويم ، جـ١ ط . انقرة ١٩٦٩م .
٢- زبدة الحلب فى تاريخ حلب جزآن ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م .

- ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى ت ٥٧١هـ) .
تاريخ مدينة دمشق أو التاريخ الكبير ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٥ تهذيب وترتيب عبد القادر بدران ، ط دمشق ، ١٩٧٩م .

- ابن العماد الحنبلى (أبو الفرج عبد الحى بن على بن محمد ، ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الأجزاء ٣ ، ٤ ، ط بيروت بدون تاريخ .

- ابن العمرانى (محمد بن على بن محمد ، ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) .
الانباء فى تاريخ الخلفا ، تحقيق قاسم السمرائى ، ط ليدن ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) .
تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع فى جزئين ، تحقيق حسن محمد الشماع ، ط البصرة ، ١٩٦٧-١٩٦٩م .

- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحى بن فضل الله ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
مسالك الابصار فى الممالك والامصار ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٧٩٧.

x- ابن قاضى شهبة (بدر الدين محمد بن ابى بكر ، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
الكواكب الدرية فى السيرة النورية تحقيق محمود زايد ، ط بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه بن القلانسى ، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ، ١٩٠٨م.

- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ط بيروت ، ١٩٧٧م.

- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف ، ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م).
أخبار مصر ، جـ ٢ ، تصحيح هنرى ماسيه ، طو القاهرة ، ١٩١٩م.

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م).
١ - التاريخ الصالحى ، مخطوط بمكتبة فاتح تحت الرقم ٤٢٢٤ وبالمكتبة السليمانية باستامبول .
٢ - مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب الأجزاء الاول ، الثانى ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧م
وهناك الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ١٩٧٢م.

- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن ابى الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
(تاريخ ابن الوردى) تتمة المختصر فى اخبار البشر ، تحقيق
احمد رفعت البدراوى ، ط. بيروت ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

- ابوشامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى ، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)
الروضتين فى اخبار الدولتين جـ١ فى قسمين ، تحقيق محمد حلمى احمد ،
ط القاهرة ، ١٩٥٦م.

- ابوالفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
١- المختصر فى اخبار البشر ، جـ٢ ، ٣ ط. بيروت ، بدون تاريخ .
٢- تقويم البلدان ، ط. باريس ، ١٨٤٠م.

- الاربلى (عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتو الاربلى ، ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)
خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، تصحيح مكى السيد
جاسم ، ط. بغداد ، ١٩٦٤م.

- أسامة بن منقذ ، (اسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ ، ت ٥٨٤ هـ /
١١٩٢م).
الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط. برنستون ١٩٣٠م.

- الاصطخرى (ابواسحاق محمد بن ابراهيم الفارسى ، ت ٣٤٦ هـ).
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، مراجعة
محمد شفيق غربال ، ط القاهرة ، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.

- الاصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ،
ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م).
١- تاريخ دول آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى ،
ط. بيروت ، ١٩٧٨م.
٢- خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكرى
فيصل ، جزآن ، ط. دمشق ١٣٧٥ هـ/١٣٧٨م.

- الأصفهانى (عماد الدين القاضى محمد بن محمد ، ت بعد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت الرقم ٢٩٥٩ .

- البندارى (قوام الدين الفتح بن على البندارى ، ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
سناء البرق الشامى ، القسم الاول ، تحقيق رمضان ششن ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .

- الحسينى (أبو الحسن بن على بن أبى الفوارس ناصر بن على)
اخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال ، ط لاهور ، ١٩٣٣م

- الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
١ - معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، ط بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
٢ - معجم الأدباء ، تصحيح د . س مرجليوت ، ط القاهرة ، ١٩٢٤م .

- الحنبلى (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمى ، ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م) .
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط بيروت ، ١٩٧٣م .

- الذهبى (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
١ - دول الاسلام ، جـ ٢ ، تحقيق فهيم شلتوت ومصطفى ابراهيم ط القاهرة ، ١٩٧٤م .
٢ - العبر فى خبر من عبر أربعة أجزاء .
الأجزاء الاول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت ١٩٦٠م ، ١٩٦٣م .
والأجزاء الثانى والثالث تحقيق فؤاد السيد ، ط الكويت ، ١٩٦١م
٣- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستانبول تحت الرقم ٢٩١٧ .

- الراوندى (محمد بن على بن سليمان ، ت ٦٠٣هـ/١٢٠٦م)
راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة عبد النعيم حسنين وآخرون ، ط القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

- سبط ابن الجوزى (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ ١٢ ، ١٣ ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستانبول تحت الرقم ٢٩٠٧ ، والجزء الثامن من هذا الكتاب مطبوع ، ط حيدر أباد سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

- السبكى (عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م).
طبقات الشافعية الكبرى الأجزاء السادس والثامن ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، ط القاهرة بدون تاريخ.

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٣هـ/١٤٩٢م)
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، جـ ٢ ، ط القاهرة ، ١٩٣٦م.

- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
١ - تاريخ الخلفا ، تحقيق محمد يحى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
٢ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ، ١٩٦٨م.

- الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م).
الملل والنحل ، تقديم واعداد عبد اللطيف محمد العبد ، ط القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- صالح بن يحى (صالح بن يحى بن الحسن ،ت ٨٤٠هـ/١٤٣٩م).
تاريخ بيروت ،ط بيروت ،١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ،ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)
١ - تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفا والملوك والأمراء والنواب ، مخطوط فى المكتبة التيمورية تحت الرقم ٢١٠٢ تاريخ ، ويوجد نسخة مصوره على ميكروفيلم . بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت الرقم ١٥٢ تاريخ .
٢ - أمراء دمشق فى الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،ط دمشق ،١٩٥٥م.
٣ - الوافى بالوفيات ،ط قبادن بالمانيا ،١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

- الطباخ الحلبى (محمد راغب بن محمود بن هاشم)
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ،جـ ١ ،ط حلب ١٩٢٣م

- العصامى المكى (عبد الملك بن حسين ،ت ١١١١ هـ)
سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ،جـ ٣ ، ط بغداد بدون تاريخ .

- العظيمى (محمد بن على بن محمد ،ت بعد سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م)
تاريخ العظيمى ،نشر كلود كاهن C.Cahen فى :
Journal Asiatique, (1938)p.p.353-448.

- العينى (بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)
١ - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ،تحقيق فهيم شلتوت ط القاهرة ،١٩٦٦م.
٢ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ،جـ ١١، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٢/٣٣٤.

- الفلوقى (أحمد بن يوسف بن على بن الازرق ، ت ٥٩٠هـ/ ١٠٩٤م).
تاريخ الفارقى ، أو الدولة المروانية ، تحقيق بدوى عبد اللطيف
ط بيروت ، ١٩٧٤م.

- القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ، ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)
أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ، ط بغداد ، ١٢٨٢هـ/
١٨٦٥م.

- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)
آثار البلاد وأخبار العباد ، ط بيروت ، ١٩٦٠م.

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
١- صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء ، ط القاهرة ،
١٩١٩ - ١٩٢٢م.
٢- مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، جـ ١ ، تحقيق عبد الستار
احمد فرج ، ط الكويت ، ١٩٦٤م.
٣- نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم
الابيارى ، ط القاهرة ١٩٥٩م.
٤ - قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم
الابيارى ، ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

- المقريزى (تقى الدين احمد بن على بن عبد القادر ، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
١ - اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، ثلاثة
اجزاء ، الجزء الاول تحقيق جمال الدين الشيال ، ط
القاهرة سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
. الاجزاء الثانى والثالث تحقيق محمد حلمى احمد ، ط
القاهرة ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.
٢ - اغاثة الامة بكشف الغمة ، ط القاهرة ، ١٩٥٦م.

٣ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ،تحقيق محمد مصطفى زيادة
جـ ١ ،ق ١ ،ط القاهرة ، ١٩٥٦م.
٤ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جزآن ،ط القاهرة
١٢٧٠هـ.
٥ ـ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق
عبد المجيد عابدين ، ط القاهرة ، ١٩٦١م.

ـ مؤلف مجهول ،
أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ،
ط القاهرة ، ١٩٥٨م.

ـ المؤيد فى الدين (هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى ، ت ٤٧٠هـ/١٠٧٨م)
سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ،تحقيق محمد كامل حسين ،
ط القاهرة ، ١٩٤٩م.

ـ ناصر خسرو (أبو معين الدين القباديانى المروزى ،ت ٤٨١هـ/١٠٨٧م)
سفر نامة ،رحلة ناصر خسرو ،ترجمة الدكتور يحى الخشـــاب ،
ط بيروت ، ١٩٧٠م.

ـ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ،ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).
نهاية الارب فى فنون الأدب ،جـ ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ مخطوط بمكتبة أحمد
الثالث باستانبول تحت الرقم ١٣٦٩

ـ اليافعى (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان ، ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،جـ ٣ ، ط بيروت ، ١٩٧٠م.

ثانيا : المراجـع العربيـة والمترجمـة

- ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودورة فى مقاومة الصليبيين ، مجلـة المؤرخ العربى ، العدد الخامس ، ١٩٧٤م، ص٩٥-١١١.

- أحمد أحمد بدوى :
الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٢م.

- أحمد رمضان محمد :
المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ،ط القاهرة ،١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- أحمد السعيد سليمان :
تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، جزآن ، ط القاهرة ،١٩٧٢م.

- أحمد كمال الدين حلمى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ط الكويت ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م

- أحمد مختار العبادى :
التاريخ العباسى والفاطمى ، ط بيروت ، ١٩٧١م .

- باركر (آرنست) :
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد حياز العرينى ، ط بـيروت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- بدوى محمد فهد :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- حامد غنيم أبو سعيد :
الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ط القاهرة، ١٩٧١م.

- حسن ابراهيم حسن :
تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٤ ، ط القاهرة ، ١٩٦٧م.

- حسن الباشـــا :
الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط القاهـرة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

- حسن حبشى :
١ - الحرب الصليبية الأولى ، ط القاهرة ، ١٩٥٨م.
٢ - نور الدين محمود والصليبيون ، ط بغداد ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

- حسين أمين :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ،١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

- خاشع المعاضيدى:
الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى (٣٥٩ - ٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) ، ط بغداد ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

- رايس (تامارا تالبوت) :
السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ،ترجمة لطفى الخولى ، وابراهيم الداقوقى ، ط بغداد ، ١٩٦٨م.

— رنسيمان (ستيفن) :

تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة السيد حياز العرينى
ط بيروت ، ١٩٦٨م .

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ - الحركة الصليبية جزآن ، ط ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
٢ - مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ط بيروت ، ١٩٧٢م
٣ - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ، ١٩٧٧م .
٤ - [illegible] ، ط بيروت ، [illegible]

— سهيل زكار :

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ط بيروت ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

— السيد حياز العرينى :

١- الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م
٢- مؤرخو الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م

— السيد عبد العزيز سالم :

طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٧م .

— شاكر أحمد ابو زيد :

الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط بيروت بدون تاريخ .

— شاكر مصطفى :

التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، جزءان ، ط بيروت ، ١٩٧٩-١٩٨٠م

— صابر محمد دياب :

سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ط القاهرة ، ١٩٧٣م

- صلاح الدين البحيرى :

الاعداد المعنوى للحروب الصليبية المضادة ، المجلة التاريخية، المصرية ، العدد ٢١ (١٩٧٤م) ص١١٧-١٣٤.

- صلاح الدين المنجد :

ولاة دمشق فى العهد السلجوقى (نصوص مستخرجة من تاريخ مدينة دمشق الكبير لمؤلفه ابن عساكر ، ط بيروت ، ١٩٧٥م.

- عبدالله سعيد الغامدى :

استرداد بيت المقدس زمن صلاح الدين ،رسالة ماجستير لم تطبع جامعة ام القرى بمكة المكرمة ،باشراف الدكتور حسنين محمد ربيع ١٤٠٢/١٩٨٢م.

- عبد المنعم ماجد :

١ - العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ،ط بيروت ١٩٦٦م

٢ - ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٨م

- عبدالنعيم حسنين :

١ - سلاجقة ايران والعراق ،ط القاهرة ،١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٢ - دولة السلاجقة ،ط القاهرة ،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

- عصام الدين عبد الرؤوف :

بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ،ط القاهرة ،١٩٧٥م.

— علي محمد الغامدي :

بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، (٤٦٣-٤٩١هـ/١٠٧٠-١٠٩٨م) رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، باشراف الدكتور حسنين محمد ربيع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

— الغزى كامل حسين محمد مصطفى الحلبي :

نهر الذهب في تاريخ حلب ، جـ٣ ، ط حلب ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

— فاضل مهدي بياري :

السياسة السلجوقية في العراق ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثامن عشر (١٩٨١م) ص٩٧-١٠١.

— فيليب حتى :

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ترجمة كمال اليازجي ، ط بيروت ، ١٩٥٩م.

— كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين ، ط بيروت ، ١٩٧٧م

— كلود كاهن :

تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدرالدين القاسم ، ط بيروت ، ١٩٧٧م.

— لين بول (ستانلي) :

الدول الاسلامية ، ترجمة محمد صبحي ، ط دمشق بدون تاريخ .

— محمد جمال الدين سرور :

١- النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس الهجري ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م.
٢- سياسة الفاطميين الخارجية ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م.
٣- الدولة الفاطمية في مصر ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

- محمد راغب الحلبي :
  اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٢ ، ط حلب ، ١٩٢٤م

- محمد حمدى المناوى :
  الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، ط القاهرة ، ١٩٧٠م

- محمد صالح القزاز :
  الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الاخير ، ط النجف ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

- محمد كرد على :
  خطط الشام ، ج ١ ، ط بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- محمد ماهر حماده :
  الوثائق السياسية والادارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- مونروند (مكسيموس) :
  تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ، الدعوة حرب الصليب ، ترجمة كيريو كيريو مظلوم ، جزآن ، ط القدس ، ١٨٦٥م.

- نظير حسان سعداوى :
  ١- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ط القاهرة ، ١٩٦٢م.
  ٢- جيش مصر زمن صلاح الدين ، ط القاهرة ، ١٩٥٩م.

- يوسف كركوش الحلى :
  تاريخ الحله ، القسم الاول فى الحياة السياسية ، ط النجف ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

ثالثا : قائمة المراجع الاجنبية

- The Cambridge History of Islame, Vol.1A London,1970.
- The Cambridge Medievel History, Vol.4, (The Byzantine Empire) London, 1964.
- Dozy. (R.) Supplement aux Dictionnaires Arabes,2Toms, Paris, 1967.
- The Encyclopaedia of Islam,(New Edtion), London, 1960.
- Gibb, H.A.R. , The Damascus Chtonicle of the Crusades, London, 1967.
- Lavoix, (Henre)
  Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bebliot
  Nationale , Vol.III,(Egypte Et Syrie),Paris 189
- Vasiliev (A.A)
  History of the Byzantine Empire , Vol,2, Madison,
  1929.
- Zakkar, (Suhayl).
  The Emirate of Aleppo (1004 - 1094), Beirut 1971.
- William of Tyre:
  A History of Deed's Done Beyond the Sea, 2vols., Translated and Annotated by Emily Babcock , and A. Krey, New York, 1943.

*****